

القرآن الكريم

# جزء تبارك

تفسير

المرحوم الأستاذ الشيخ عبد القادر المغربي  
نائب رئيس المجتمع العلمي العربي بدمشق وعضو للمجمع القومي بالقاهرة سابقاً

طابع الشعب

١٩٥٧



اهداءات ١٩٩٩

١/ محمود محمد علي العيسوي

الإسكندرية

كتاب الشعب

٦

مؤسسة

القرآن الكريم

جزء تبارك

تفسير

المرحوم الأستاذ الشيخ عبد القادر المغربي

نائب رئيس المجمع العلمي العربي، دمشق وعضو المجمع القومي بالقاهرة سابقاً



دار الكتب والوثائق  
مطابع الشعب

١٩٥٧

رقم التسجيل ١٤٥٢٦/٥  
رقم المجلد ٢٩٧٠١٢٢٦  
رقم الكتاب ١٩٠٧٣

صدرت هذه الطبعة ضمن سلسلة « كتاب الشعب » بأذن خاص من وزارة  
التربية والتعليم . وقد اخلت من طبعة المطبعة الأميرية ( عام ١٣٦٦  
هجريّة - ١٩٤٩ ميلادية ) التي قام بتصحيحها والتعليق عليها ، بتكليف  
من الوزارة ، الأستاذ الشيخ علي محمد حسب الله ، أستاذ العلوم الشرعية  
المساعد بكلية دار العلوم .

## بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

فكنت اعتلر اليه بنقص الكفاية ، وصعوبة الأمر ،  
وفقد الأداة اللازمة لسلك هذا الطريق الوعر ، ولا سيما ان تفسري لجزء « تبارك » لا ينظر اليه الناظرين  
للأته ، ومن حيث نسبته الى صاحبه ، وإنما تعتمد  
فيه الموازنة بينه وبين ما كتبه الأستاذ على جزء « عم »  
فينحط قدره في ميون القراء ، وينسخ غلامه  
بالضياء ، وبضدها تتميل الأشياء .

ثم ضرب الدهر شربته ، فكان من أمره أن ثلثت  
دمشق أول سنن الحرب الأولى نزولا حبيبته لما ،  
فإذا هو قد استتلى شهورا وأعواما . فتجددت لي  
وأنا فيها دواع حزنتي لتحقيق الأمل ، ومباشرة  
ماكلفت من العمل . فوضعت هذا التفسير مستعينا  
بحول الله وقوته ، واكملت على مثال تفسير شيخنا  
وطريقته .

يبداني رأيت أن أوسع قليلا في التعليق والتفسير ،  
والاستشهاد والتنظير - ولا سيما في المباحث اللغوية  
- باكثر مما فعله الأستاذ رحمه الله في تفسير جزء  
« عم » ، مراعي في ذلك حال قراء جزء « تبارك » ،  
ومقلدا في نفس انهم سيكونون أكبر سنا ، وأتم  
استعدادا ، وأشد اهتماما بالحصول من قراء جزء  
« عم » .

وقد قمت في تفسيري هذا بفعل ما أطبق وأملك :  
من تحري الحق والصواب فيما أولت وفسرت ،  
وبسط العبارة وتهذيبها فيما أنشأت وحررت ،  
وتصحيح النية وجعلها خالصة لوجه الكريم فيما  
اخترت ورجحت .

أما قبوله تعالى لعملي ، وعفوه عن قصوري وزلالي ،  
ورواج تفسيري بين القراء كما هو قصدي وأمل -  
فإن هذا لا أملكه ولا أطيقه بقوتي ، ولا يدخل تحت  
مقدوري ومكنتي ، وإنما أكل الأمر فيه إلى الله ، فهو  
المسئول أن يتولاه بعنايته ، ويجعله قرين التوفيق  
بفضله وكفائته .

وقد عنيت وزارة المعارف المصرية بهذا التفسير ،  
واحالته على لجنة من خيرة رجالها المختصين ،  
فراجعته ، وأشارت بطبعه ونشره ، تعميما لآلائه في  
معاهد العلم المختلفة ، وبين جمهور المسلمين في بقاع  
الأرض .

والله المسئول أن يجعله خالصا لوجهه ، وأن ينفع  
به ، فإنه الوفيق إلى الخير ، والهادي إلى سبيل  
الرشاد ، وهو حمسي ونعم الوكيل .

عبد القادر المغربي

نحمدك ربنا منزل القرآن ، بحقائق الإيمان ،  
وجليل العبر . ولملم الأذهان ، نواصع البيان ،  
ودقيق النظر . ونصلى ونسلم على سيدنا محمد  
المبعوث بأكرم الأديان ، وقاطع البرهان ، من ولد مفر .  
صلاة وسلاما يتجددان ما تجدد الزمان ، وتعاقب  
الموان ، ولاح قمر .

أما بعد ، فإن جزأي « عم » و « تبارك » من أكثر  
الجزاء شيوعا بين طلاب المدارس ، وتداولها بين عامة  
المسلمين وأيدي صغارهم . وآياتهما أشد علوقا  
بالنفس ، وترديدا في الأفواه من سائر آيات الكتاب .  
فمن ثم كانا جديرين بأن يفسر كل منهما تفسيرا  
حسن الوضع ، صحيح الأسلوب ، يقرب من أذهان  
الامة ، ولا تنجافي عنه مقول الخاصة . فيقتصر فيه  
من القول على ما يكشف الغموض عن الآيات من جهة  
اللفظ والأصواب ، ثم يشرح فيه المعنى المتبادر شرحا  
وسطا مجردا من التلغظ بالمشافيت ، وإيراد الخلافات  
والخرافات .

وقد وضع مولانا الأستاذ الشيخ محمد عبده رحمه  
الله - تفسيرا لجزء « عم » توخى فيه هذا النمط  
والأسلوب ، فجاء من خير الكفاء وقام بالفرض ،  
وأصابه لواضع الحاجة . فلا غرو إذا تناولته الألسنة  
بالثناء ، وتلقته القلوب بالقبول .

وقد رغب إلى بعض الفضلاء في أثناء إقامتي بعصر  
بين سنتي ١٣٢٣ و ١٣٢٧ هـ ( ١٩٠٥ - ١٩٠٨ م )  
أن أضع تفسيرا لجزء « تبارك » أتوخى فيه طريقة  
أستاذنا الجليل فيما علقه على جزء « عم » من جهتي  
الصحة في التعبير ، والاختصار على المفيد من القول ،  
فقلت له : يلفني أن الأستاذ رحمه الله قد فسر جزء  
« تبارك » وهو مازال في تساويد مبشرة محفوظة عند  
صديقه الرحوم « حسن باشا عاصم » .

وبعد البحث عن تلك التساويد ، علمنا أن الأستاذ  
لم يشرع في تفسير جزء « تبارك » بالفعل ، وإنما كان  
هيا محالفا يفسر رقم في ردوسها آيات ذلك الجزء ،  
وتركها غفلا من الكتابة ، على أمل أن يصطحبها معه في  
بعض أسفاره ، وبمألا تفسيرا وتعليقا ، كما كان من  
أمره في تفسير جزء « عم » الذي ألفه في غضون سفره  
إلى البلاد المغربية ، لكنه اخترعته منيته ، قبل أن  
تتحقق أميته .

ثم كان ذلك الصديق القاضل كلما زارني أو  
صادفتني سألني عن التفسير واللع على بالشروع فيه .

(٧٧) سُورَةُ الْمُلْكِ مَكِّيَّةٌ  
وَأَيَّاهَا ٣٠ نَزَلَتْ بَعْدَ الْبُحُورِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

يَسِّرْكَ إِلَهِى يَسِّرْهُ أَمْلِكُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ①  
إِلَهِى خَلِّقْ أَلْمُوتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَ كَرَامَتَكَ أَحْسَنُ عَمَلًا  
وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ ② إِلَهِى خَلِّقْ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا  
مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَوتٍ فَأَرْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ  
تَرَى مِنْ فُتُورٍ ③ ثُمَّ أَرْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنْقَلِبْ  
إِلَيْكَ الْبَصَرُ حَاسِمًا وَهُوَ حَسِيرٌ ④ وَلَقَدْ رَئَيْنَا الْأَسْمَاءَ  
الَّذِينَ يَصْنَعُونَ وَجَعَلْنَاهُمْ رُجُومًا لِلشَّيَاطِينِ وَأَعْتَدْنَا  
لَهُمْ عَذَابَ السَّعِيرِ ⑤ وَلِلَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ عَذَابُ

جميع سور هذا الجزء أنزلت بمكة أى قبل الهجرة . ومن ثم كان الخطاب الإلهى فيها موجها إلى المشركين . وهو فى الأغلب يدور حول البات وجود الله تعالى والاستدلال عليه بما خلق من الكائنات ، ثم إثبات نبوة محمد صلى الله عليه وسلم وإثبات صدق فى دعوى الرسالة والوحى ، ثم تقرير الكليتين وتخويفهم ما بين أيديهم من هول الخسر والخسار ، وإن هذا الخسر ممكن وسيقع بالفعل ، فيلقى كل فريق من الجاحدين والؤمنين جزاءه اللائق به ، فى داره المصدة له . ووصف هاتين الدارين وصفا يلما فى أسلوبه ، محييا فى نسقه وتركيبه . وتخلل الآيات تسلية التى صلى الله عليه وسلم ، وتقوية قلبه الشريف ، وحثه على الصبر والتجملد والتأسي بأخوانه الأنبياء الذين تقدموه ، ولقوا من أمهم مثل ما لقى أو أشد . وقد انتهت هذه السورة بتمجيد الله تعالى المسالك لكل شئ ، والذى خلق البشر واختبرهم بأحيائهم وأمانتهم ، وخلق السموات على نظام محكم ، وزينها بالنجوم ، كما جعل تلك النجوم من جهة ثانية بجومًا للشياطين الخ .

(تبارك) فى مادة البركة معنى الزيادة والتنام والقيام . فمعنى تبارك الله تامله وجلت صفاته ،

وتعالى عن مشابهة المخلوقين تعالى دائما لا يمتوره نقص ولا انقطاع .

(بيده الملك) أى أن التصرف المطلق فى هذه الكائنات له تعالى لا لغيره . ويراد من ذكر اليد فى مثل هذا الاستعمال إفادة معنى التمكن من الشئ والاستيلاء التام عليه .

(ليبلوكم) أى ليختبركم وبمتحكم . استعمل الكلام بأن له تعالى التصرف فى كل شئ والقدرة على كل شئ . ثم ذكر مثالا من أمثلة تصرفه وقدرته ، فقال : أنه تعالى قدر على البشر موتا وحياة . والمراد بالوت الحالة التى يكون فيها الإنسان عناصر متفرقة ، لا حياة فيها ولا شعور . ثم بعد ذلك سلب الله على تلك العناصر من نواميس قدرته ، المنطبقة على سابق مشيئته . ما يجعلها حية مدركة ذات إرادة واختيار . ولما هذا لأنه تعالى يريد أن يختبر الإنسان : أى يعامله معاملة المختبر الجرب ، فيظهر أمره ، ويعرف مقدار طاعته وميله إلى الفسيلة ، ومبلغ عصيانه وجنوحه إلى الرذيلة . وإنما قلنا فى معنى الابتلاء هذا لأنه تعالى يعلم أمر الإنسان من دون اختيار ، ولكن الإنسان نفسه والناس لا يعلمون ذلك ، حتى إذا علموا حقت الكلمة ، وقامت الحجة ، وانقطعت الماذير .

ويروى أنه صلى الله عليه وسلم تلا هذه السورة فلما بلغ قوله تعالى : (أيكم أحسن عملا) فسر بقوله : «أيكم أحسن عملا» ، وأورد عن جابر الله ، وأسرع فى طاعة الله . «فلما قلنا هذا لأن العمل إنما هو فى أن يكون المؤمن أتم تعقلا وأمر الله ، وتفهما لأسرار مشيئته فيما أوحاه إلى نبيه . فيورثه ذلك التفهم الكف من الحرام ، والمسايق إلى ممارسة الطاعات حتى إذا فرطت فى جنب الله وخالف أمره ، وغادى فى غيه وضلاله . لا يجزه تعالى أن يجازيه على سوء صنيعه ، لأنه تعالى (العزيز) الذى لا يلفظ ولا يسبق ، كما أنه تعالى (الغفور) الذى يغفر عن تاب وأصلح وكف عن المحارم .

ثم أن الموت والحياة كنها يصعب تعقله على كل المخاطبين ، وليس فى طاقة معظمهم سهولة الانتقال منه إلى البات وجود الله تعالى . لذلك عدل الوحى الإنشائي إلى ما فيه يسر وسهولة عليهم ، وهو النظر فى هذه السموات الأرضية ، وعجائب الصنع والتكوين فيها فقال (الذى خلق سبع سموات الخ) ①

(طباقا) مصدر طابق العمل خصفها وجعل كل

(١) هكذا يقول المؤلف فى بيان وجه الانتقال من ذكر الموت والحياة إلى ذكر طبقات السماء . ويزى أن ملائكة لا يصلح وجه ذلك ، لأن الله تعالى حين يطلب الناس بالنظر فى أمر الوت والحياة لا يطلب منهم معرفة حقيقة يجوزون عن إدراكها ، بل يطلب منهم الاستدلال بتواردها على الأجسام ، وهو ما يراه الناس جميعا ، ويعرفون من أمره بالحس ما يقتضى الاستدلال ، وما لا يعرفون مثله من طبقات الساء ، التى لا يعرفها العلماء إلا بعد دراسة شاقة .

فلأمل فى وجه الانتقال أنه بعد أن ذكر آية فى الإنسان انتقل إلى ذكر آية فى الأفاق المحيطة به ، على حد قوله تعالى : «ستريهم آياتنا فى الأفاق ولأنهم فى أنفسهم» اه صححه

لهم على وجود الله وكرام صفاته . وهذا هو جيل  
القصد من ذكر السموات في القرآن . وليس القصد  
من ذكرها تقرير حقائق في علم الهيئة . وسكوت الوحي  
عن ذكر ما زاد على سبع السموات لا ينفي وجود  
الزيادة . والحكمة في هذا السكوت أن المخططين في  
ذلك العهد ما كانوا مقتصرين على النظر والتفكير في غير  
السموات السبع أو السيارات السبع التي عرفها  
الأوائل ، واشتهر أمرها عند عامة الناس يومئذ . أما  
النجوم الثوابت الآخر فلم يكن يتيسر لهم أو ينتظر  
منهم أن يرجعوا البصر فيها ليروا ما فيها من تفاوت  
أو أحكام ، وذلك لبعدها الشاسع عن متناول الحس ،  
وعدم معرفة الأوائل ما عرفه المتأخرون من طابعها  
وأحوالها . وأما فلكا « أورانس » و « نبتون » فلم  
يكونا اكتشافا بعد في ذلك العهد ، فلو أحال الله البشر  
في قرآته على ما لم يمكنهم النظر فيه ، والإحاطة علما  
بأمره من النجوم الثوابت والفلكين المذكورين - لكأنت  
أحوالته عبثا ، وتكلفه محالا . وقد أبى الله سبحانه  
وتعالى لنا ذلك في منزل وحيه ، وحكم شرعه ، تفضلا  
منه ورحمة . وسياي زيادة بيان لهذا البحث في سورة  
نوح فانتظروه .

( الدنيا ) تأتيث الأدنى ، وهي صفة السماء ، أي  
السماء التي هي أقرب الشيا من سائر السموات .  
( مصابيح ) جمع مصباح ، وهو السراج . وقد أراد بها  
النجوم التي تضيء نواحي السماء على طريقة التمثيل ،  
وتكر المصابيح تفخيضا لشأنها ، وتمجيها من أمرها ،  
وأنها قد بلغت من الأضواء والجمال حدا فونه مصابيح  
الناس وسرجه الموهودة .  
ولا يقال أن معظم النجوم التي نراها في السماء الدنيا  
هي نجوم ثوابت مقرها فوق السموات جميعها ، لأننا  
نقول : أن تلك النجوم الثوابت هي من كواكب السماء  
الدنيا وزينتها في بادي النظر ، وأن كان مركزها حيث  
ذكر ، فلا منافاة بين كونها فوق السموات وبين جعلها  
زينة للسماء الدنيا .

( رجوعا للشياطين ) . الرجوع : في الأصل مصغر  
رجعه إذا رماه بنحو حرج ، ثم سمي الشيء الذي يرجع  
به ( رجعا ) تسمية بالمصغر ، وجمع على ( رجوم )  
مثل ما مر في جمع فطر على فطور . و ( الشياطين )  
طائفة من المخلوقات الشريرة . لانعزها بأعيانها . وإنما  
نعرفها بأثارها . ومن جملة تلك الآثار خواطر السوء ،  
ونزوع أنفسنا إلى الشرور . وهذه المخلوقات الغيبية  
هي مايقوم في الألف من إطلاق لفظ الشياطين .  
والأفان الشيطان اسم لكل متمرد عات ، سواء أكان  
إنسانا أم جنا أم دابة . ومن ذلك قوله تعالى : ( وإذا  
خلوا إلى شياطينهم ) أي رؤسائهم من الإنس . وفي  
الحديث « لا تصلوا في مبارك الأبل » فانها من الشياطين  
قال بعض شراحه : أنها من الشياطين حقيقة ، لأن  
الشيطان اسم لكل متمرد عات كما قلنا . وقال آخرون :  
أن الأبل تشبه شياطين الجن في النفور والتهوؤش على  
المصلين .

( واعتدنا لهم عذاب السعير ) أي وإعدنا لأولئك  
الشياطين عذابا تسعير فيه النار ، أي تود أشد إيقاد ،

طبق منها خلدو الطبق الذي يليه ، أو هو جمع طبق  
كجبل وجبال ، أو جمع طبقة مثل رجة بالتحريك وهي  
الساحة إذ يقال في جمعها رجب . ( تفاوت ) اختلاف  
واضطراب وخلل في الخلقة ( فارجع البصر ) أي انظر  
مرة أخرى نظرا متفحضا متأملا . فقد تكون نظرك  
الأولى مجردة عن ذلك ( فطور ) جمع فطر ، وهو الشق  
والصدع في الشيء . والمراد هنا الخلل وعدم التلاؤم بين  
أجزاء السموات ( كرتين ) مرتين . والمراد بالتثنية  
التكثير : كأنه يقول : ثم رد بصرك المرتبة المارة ، بدليل  
السياق ، إذ يقول تعالى : ( ثم ارجع البصر كرتين ينقلب  
اليك البصر خاسئا وهو حسير ) والبصر لا يكمل بمجرد النظر  
مرتين اثنتين ، وإنما يكمل ويتعجب بتبريد النظرات  
الكثيرة . وهذا مثل قولهم : ليسك وبسمدك ، فإن  
التثنية فيها لإفادة التكثير ( خاسئا ) اسم فاعل من  
خسى بمعنى تباعد بدلة ومغفار . ومنه قولهم للكلب :  
خس ، فإذا تكررت النظرات ولم تجد خلا رجعت  
بعيدة عن ثيل شعرها ، وأصابة ملتصبا : كان عليها  
آثار الدلة والصغار ( حسير ) كليل معنى من كثرة  
مابحث عن الفطر والتفاوت فلم يجدها .

هذه الآية مثال لأن من أمثلة سعة ملكه ، وشمول  
قدرته . ذكر في صدر السورة أنه تعالى بث الحياة في  
البشر بعد أن كانوا عناصر ميتة لا شعور فيها . ثم  
ذكر هنا من مظاهر القدرة أنه تعالى خلق سبع سموات  
يعلم بعضها بعضا ، وأتاك لآرى عند التأمل خلا فيها ،  
ولا تشاخص ( ١ ) بين أجزائها . فحقق النظر إليها ،  
وتأمل تأمل متفحص هل تجد فيها خلا ؟ ثم إذا لم  
تطعن النظر الأولى التي ربما كانت حمقاء فاعمد  
نظرك مرارا . فلا جرم أن بكل أن ذلك بصرك وبصيت  
بحسبك ، ولا تظنر بمظورك من وجود الخلل والفطر .  
والمخاطب في قوله ( ما ترى ) ( فارجع ) ( ثم ارجع ) لكل  
أمرى يتأني منه الرب والشك في مبلغ القدرة الإلهية ،  
لا لأواحد بعينه . وقد أبدت تجارب العلماء الباحثين في  
المادة ونواميسها ، والكتائن وسننها - مضمون هذه  
الآية ، فانهم أقروا - بعد النظر الدقيق - أن العالم  
جميعه - من أصغر ذرة في فضائه ، إلى أكبر جرم في  
سائه - خاضع لتأمر واحد ، ومتناسك بنظام عام  
شامل : لا يمكن حصول خلل فيه ، ولا طرؤه شلود  
عليه إلا أن يشاء الله . فتبورك الله أحسن الحاكمين .

والسموات السبع هي طرائق السيارات  
ومداراتها ( ٢ ) . ولا ريب أن هذه المدارات طبقات :  
طبقة أدنى من ذلك فوق تلك ، وإنما أقتص  
الوحي من ذكر السموات على سبع - مع أن العلم  
أثبت أنها أكثر من ذلك - لأنه تعالى إنما يخاطب القوم  
وقت البعثة بما عرفوا من أسر الأفلاك وكواكبها . وقد  
أحاطهم على النظر والتأمل في تكوينها وأوضاعها ، وقد  
ليبتنوها إلى كمال إحكامها ، وليحدث الخطأ في  
نقوسهم عبرة وأدعائا وفضل تأثر ، وليكون ذلك آية

( ١ ) شخص الأمر كمنع وشاخص : اضطرب وتفرق ، لمه شخص

( ٢ ) قال أبو سبيد الأندلسي في مخصصه ( ج ١٦ ص ١٨١ )

ما نصه ( والسماء والسماة مدار النجوم ) المؤلف .

جَهَنَّمَ ۖ وَيَسَّ الْمَصِيرُ ﴿١٠﴾ إِذَا أُلْقُوا فِيهَا سَمِعُوا لَهَا  
شَيْخًا وَهِيَ تَنُورُ ﴿١١﴾ تَكَادُ تَمَيِّزُ مِنَ الْغَيْظِ كُلَّمَا أُلْقِيَ  
فِيهَا فَوْجٌ سَأَلُهَا مَنْ أَتَاهَا رَايَتْهُ تَنْدِرُ ﴿١٢﴾ قَالُوا لِمَنْ  
قَدْ جَاءَنَا تَنْدِرُ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ إِنْ  
أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ كَبِيرٍ ﴿١٣﴾ وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ  
نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴿١٤﴾ فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ  
فَسَحَابًا لَأَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴿١٥﴾ إِنَّ الَّذِينَ يَمْشُونَ رَبَّهُمْ  
بِالْغَيْبِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿١٦﴾ وَأَسْرُوا قَوْلَكُمْ أُو

ذكر في الآية السابقة السموات واحكام صنعها ، وذكر هنا ما فيها من النجوم الثلاثة ، وقال ان تلك النجوم خلقت زينة للسماء ورجوما للشياطين . ولا ينافي هذا ان تكون النجوم خلقت لمصالح آخر ، كونها علامات يهتدي بها المسافرون في ظلمات البر والبحر ، اذ ليس في الآية ما يستلزم الحصر .

ومعنى جعل النجوم رجوما أنها سبب الرجوم ، ومصدر لها . والا فان النجوم اجرام كبيرة ثابتة في مراكزها وتسمى قوابيت ، أو متحركة في أفلاكها وتسمى سيارات . ولا يمكن حصرها عرّف من السنين والنواميس التي قيدها بها خالقها ومبدعها ان تدع مراكزها أو تخرج من مداراتها وهي بحيث وصفتنا من كبر الحجم فتنبعث وراء الشياطين . وانما تكون تلك النجوم منشأ الرجوم ومصدرا لها . فالرجوم ، وهي الشهب ، اجرام صغيرة مضيئة منفصلة عن النجوم وسابحة في الفضاء ، حتى اذا التزبت منها واحد من تلك الأرواح الشريرة المسماة شياطين - انقضت عليه بهيمة شملة لثيرة وأحرقته . ولا يقتصر في التنبؤ به على ذلك ، بل قد حيد له في الآخرة ( عذاب السعير ) جزاء تسديده لاستراق خبير السماء .

ويقول العلماء المتأخرون في سبب انقراض هذه الرجوم المسماة في اصطلاحهم « نيازك » انها بعد انفصالها عن الاجرام السماوية بسبب من الاسباب تبتى سابحة في الفضاء ، حتى اذا اتفق اقترابها من كوكب آخر أو من كوكبنا الأرض ودخلت في مطلقة نفوذها - جذبها اليه بسرعة هائلة ، فتحترق وتتلاشى هباء منتقرا ، أو تبتى منها بقية تسقط على سطح الأرض ، وهي مايسمونه « الحجر النيزكي » .

وما قلناه من ان الرجوم شهب منفصلة عن النجوم لا النجوم نفسها صرح به في الكشف قال : ( ومعنى

كون النجوم مراجع للشياطين ان الشهب التي تنقض لرمي المسترقة من الشياطين منفصلة من نار الكواكب لا أنهم يرجمون بالكواكب نفسها لانها قارة في الفلك على حالها . وما ذاك الا كقبس يؤخذ من نار والشار ثابتة كاملة لا تنقض » اهـ

أو يقال : ليس المراد بالمصاييح التي زين الله بها السماء الدنيا النجوم انفسها ، بل المراد بها كل ما استنار في افق السماء بحيث تراه العين في الليل الدامس متلاثا مضيئا كمصباح ، فيدخل في ذلك النجوم كما تدخل الشهب التي هي الرجوم ، فقوله تعالى (وجعلناها) أي وجعلنا بعض تلك المصاييح أو نوعا منها ، وهو الشهب التي ترى في السماء كمصاييح ، رجوما للشياطين .

وتحسب معشر المسلمين يعتقد بظاهر ما ورد في القرآن الكريم من ان النجوم قد يتفصل منها رجوم تتبع الشياطين . واذ لم يفهم العلم الطبيعي هذه القضية ، فذلك لانه لم تتوفر له اسباب الفهم اليوم . وبكيفية في صحة الايمان بها على ظاهرها ان العقل لا يصحها من المحالات العقلية .

وليعضهم في تأويل جعل النجوم رجوما للشياطين كلام جدير بالقبول وهو : ان الرجوم واحدها الرجم مصدر رجم وهو ان يتكلم المرء بالظن والتخمين . ومنه قوله تعالى (رجموا بالحق) فالرجوم هنا بمعنى القتلون ، اما الشياطين فهم شياطين الانس كائنات المتخمين الذين افسدوا في النظر في نجوم السماء والتكهن من امور المستقبل بما يبدو لهم من طوائفهم وقرائنها - صناعة لجنحتها الرجم ، وسماها الوهم ، فله تعالى يقول : انه خلق النجوم فكانت زينة للسماء ، اما الشياطين من الكهان فقد افسدوها وسائل التخمين واضلال الناس ، فلا بدع اذا اعدت لهم النار يصلون سعيها .

ومعنى كونه تعالى جعلها ظنونا للمنجمين ان ذلك كان من نتائج خلق النجوم ، وقد حصل برأده ، لا انه تعالى شرعه ورشى به كما رشى بان تكون النجوم زينة ومصاييح السماء .

وسنزيد هذا البحث ايضا في سورة الجن عند قوله تعالى : ( وانا نحت السماء فوجدناها ملئت حرسا شديدا وشهبا ) .

ربما اوهم قوله في الآية السابقة ( واعتدنا لهم النج ) ان عذاب السعير ما اعد الا للشياطين خاصة ، فنفى ذلك هنا بقوله ( وللذين كفروا بربهم النج ) أي ان عذاب جهنم للكافرين جميعهم : شياطين كانوا أو غير شياطين ، و ( المصير ) المرجع والمآل : من صار امره الى كذا : آل اليه ورجع ، والمخصوص بالمدح مخلوق كان يقول ويؤمن المصير عذاب جهنم ، و ( الشهب ) الصوت الذي يتردد في صدر المرء وهو يبكى ، ويخرج من الجوف بشدة ، ولذلك يسمى نهيق الجمل شهبيا أيضا ، ( تغرب ) تغلى كما تغلى القدر ( تغيب ) اصله تتميز أي تلتفت اجزائها وتقطع من شدة غيظها وحنقها على اولئك الكافرين الذين القوا فيها ، وهذا كما يقال في وصف الحزين : « يكاد يتغلب قلبه من شدة الحزن » والشهب والغيط جمع في آية واحدة في سورة الفرقان في وصف



جهنم أيضا إذا وأنهم من مكان بعيد سمعوا لها تغيظا وزفيرا ) و ( الزفير ) هو الشهيق أو قرب العنى منه .

ومعنى الآيات أن أولئك الكافرين حينما يلقون في جهنم يسمعون لها صوتا شديدا وهي تقي ، ويكاد الرأي لها من شدة غليظتها وحسبها المنكر بحسبها غضى على الكافرين بحيث يوشك أن تتقطع أوصالها من فرط غليظها عليهم ، وهل هذا الصوت صوت جهنم نفسها بمعنى أن المواد التي تلتهب فيها يسمع لها هذا الصوت ؟ أو هو صوت أهلها الذين أقوا ويلقون فيها ؟ لم يكلفنا الشرع تعيين أحد الأمرين ، كما لم يكلفنا أن نعرف جهنم نفسها والجنة وسائر شئون عالم الغيب معرفة كنه وتحديد ، وإنما كل ما على المؤمن أن يعتقد أنه تعالى أعاد دارا للأشراق تسرع فيها النار وتقوم ويسمع لها صوت على المعنى الذي يريد به سبحانه وتعالى . أما ما وراء ذلك من اعتقاد أن مواد جهنم وعناصرها وطيلانها وجليانها وحسبها من جنس ما نعرفه في الدنيا أو لا - فهذا مما لم تكلفه رحمة بنا ، إذ القصد أن يؤدي علمنا بالنار إلى الغشية والأزدجار ، وهذا يحصل بمجرد ما قصه الله علينا من أمرها وإن العاقل إليها يشعر من الألم باقضى ما يمهده في دار الدنيا .

وأما أن الغيظ والغضب يكاد يقطع أوصال جهنم ، فهو تخيل وتصوير أهول أمرها ، وفظافة غليظها ، قلما يجهل حسنة من أوتي حظا من علم الأدب ، وتلدق بشئ من خصائص لغة العرب .

الكلام متصل بما قبله ، فيعد أن وصف دار العذاب جاء هنا يصف لنا أطوار المؤمنين فيها ، ( فوج ) جماعة من المحادين ، ( خزنتها ) هم أولئك بها ، ويسمون الزبانية ، ( نذير ) رسول من قبل الله ينذركم بطشه ، ويحذركم عقابه ، ( يلي ) حرف تصديق يقع بعد النفي فيفيد البسائط المنفى ، وفي الآية لم يكتف بما تفيد ( يلي ) من الإبيات ضمنا ، بل جرى به صراحة ، إذ قيل ( قد جاءنا نذير ) ولو لم يصرح به لفهم ، و ( الضلال الكبير ) هو أن يعد المرء عن الحق بعدما شاعرا ومفعول ( نسمع أو نعلم ) محذوف أي ما كنا نسمع ولا نعلم كلام الرسل ولا إنذارهم ولا تحذيرهم . والمراد بنفى السماء والعقل نفى الأجابة والتلبية لأن القوم لم يكونوا صما ولا مجانين ، وهذا الاستعمال شائع في كلام العرب . قال شاعرهم :

دموت الله حتى خفت ألا يكون الله يسمع ما أقول  
أي حتى خفت ألا يكون الله يريد أجابة دعائي ، وتلبية نداءي ، و ( السعير ) من أسماء جهنم وهو من سموت التناسل فهي مسعورة وسعير ، مثل مقتولة وقبيل ، أي أوقدتها إيقادا شديدا ، ( سحقا ) بسدا وعلاقا ، وهي من كلمات الدعاء والتقريع مثل تبسا وجعنا ، ويقال في ضدها سقيا ورعيا ، وأصل معنى ( سحقا له ) أسحقه الله سحقا ، أي أبعده من رحمته إبعادا ، ومن السحق بمعنى البعد قولهم «مكان مسحق» أي بعيد و «نحلة مسحوق» أي طويلة ، ومعنى الآيات أنه كلما ألقى في جهنم جماعة من المكذبين سالمهم القافون

عليها سؤال توبيخ وترقيم : ألم يرسل الله اليكم رسولا ؟ يقولون : بلى ، أرسله إلينا فكذبنا وأفرطنا في التكذيب حتى جحدنا الوحي السأوى وقتلنا ما أنزل الله شيئا مما تدعونه إليها الرسل ، ثم ذهبنا في الجحود والعداء والبراءة على الله كل مدبج ، قلنا الرسل ( أن أنتم ) أي ما أنتم معشر الرسل إلا بعيدون عن الحق والصواب أشد بعد . ثم قال المسؤولون لأولئك السائلين مقال النادم الأسف : لو كنا سمعنا كلام الرسل سماع اصفاء وقبول ، وعقلناه عن تفكير وتدبر - لكنا آمنّا بهم وبالحق الذي جاؤوا به ، وما كنا الآن في عداد زوار جهنم نقاسي حرها ونصلي سعيها . ثم قال تعالى فانظر كيف اعترف هؤلاء القوم بدنوبهم في وقت لا نفعهم فيه الاعتراف . ومن كان هذا شأنه في العداء ومقاومة الحق لا ينبغي الوراثة به ، ولا المطف عليه ، وإنما يحسن تقريعه وتوبيخه والدعاء عليه بالسحق والهلاك ، وفي تكرير توبيخهم بأصحاب السعير من النفي عليهم والفرز بهم ما لا يخفى وقعه وحسن إيراد .

وأما سالم زبانية جهنم هذا السؤال وهو قولهم لهم ( ألم ياتكم نذير ) مع أنهم ربما كانوا عالمين بما كان منهم في دار الدنيا - ليكون ذلك أشد نكابة في تعذيبهم ، وأكثر إبلا لنفوسهم ، فإنه لا يرمض قلب المرء شيء مثل أن يقال له في حين ظهور خطيئته ، ومقاساته عاقبة ما جنته يده : أنك أنت الجاني على نفسك ، أنت الذي فرطت بما تيسر لك من أسباب النجاة والسعادة نشيت .

قلما يصف القرآن ما أمده الله للمكذبين في الدار الآخرة من أنواع العذاب إلا أعقبه يذكر ما أصده المؤمنين من منازل الكرامة وصفوف النعيم ، وهذا هو معقد الاتصال بين هذه الآية ( أن الذين يخشون ربهم الخ ) وسابقتها ، على أن لها بها اتصالا آخر أدق وأظف : ذلك أن المكذبين لمسا وردوا جهنم وواو ما حالهم أمره من أحوالها ، ومثلوا من سبب ورودها - أجابوا بأنهم كانوا يكذبون أقوال الرسل ، وينكرون الوحي وما اشتمل عليه من الوعد والعيد . وحجبتهم في ذلك أنهم يستبعدون وجود تلك الدار وهم لم يروها ، ففهموا وضحت لهم صحة الرسالة وقامت القرائن على صدق الرسول في دعواه ، اتخذوا عدم رؤيتهم لما بشر وألنر به من عالم الغيب والتشاكس الثانية ذريعة إلى تكذيبه صلى الله عليه وسلم ، وعدم الاعتماد بقوله ، فكان أمر الغيب أكبر عقبة في طريق إيمانهم . أما أولئك ( الذين يخشون ربهم ) أي يخشون عذابه ( بالغيب ) أي حال كون ذلك العذاب غائبا عنهم ولم يصابئوا منه أثرا - فانهم جذبيرون بأن تكون ( لهم مغفرة ) ومقر من الله عن ذنوبهم ( وأجر كبير ) أي عظيم إذا قيس بالذلل الدنيا الصغيرة الحجرة .

بعد أن أنزل تعالى المكذبين وبشر المصدقين عاد فنبههم جميعا إلى أنه حال بما يكون منهم من إيمان وكفر ، ولا فرق عنده بين السر والجهر . والخطاب في قوله : ( وأسروا قلوبكم ) سر وان كان موجها إلى

أَجْهَرُوا بِهِ ۖ لَا يُخْفِيهِمْ ذَاتُ الصُّدُورِ ﴿١٦﴾ ۖ لَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴿١٧﴾ هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذُلُولًا فَاسْهَوْا فِي مَنَاجِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ ۚ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ ﴿١٨﴾ ؕ أَمِنتُمْ مِّنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمُ الْأَرْضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ ﴿١٩﴾ ؕ أَمِنتُمْ مِّنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ

الفرقيين المصدقين والمكذبين - كان سببه صادرا عن الكذابين وهم المشركون ، فأنهم كانوا يوصي بعضهم بعضا ألا يجهروا بما يدور بينهم من الحديث ، لتلا يطلع عليه النبي صلى الله عليه وسلم . و ( ذات ) بمعنى صاحبة الموثق كما أن ( ذو ) بمعنى صاحب المذكر . وإذا قال العرب ( ذات الخدر ) أرادوا المرأة صاحبة الخدر اللازمة له . وكذلك هم يريدون ( بذات الصدور ) الخواطر التي تلازم الصدور فلا ترحبها وتبقى مخفية فيها . و ( من خلق ) يمكن تطبيقه في الأعراب النحوي على وجهين : أما أن نجعل ( من ) فاعلا يعلم : كأنه يقول : ألا يعلم الخالق ؟ ونصح أن يكون مفعولا به يعلم ويكون فاعله ضميرا راجعا إلى الله : كأنه يقول : ألا يعلم الله تعالى مخلوقاته ؟ و ( اللطيف ) فيه معنى الدقة وصغر الحجم ( لطف الشيء ) صغر ودق حجمه ، فهو لطيف . وإذا وصف به ذو العلم والقدرة كان معناه أنه مطلع على الأمور الدقيقة التي قلما يطلع لها . والله سبحانه وتعالى لطيف أي أنه عالم بدقائق شئون البشر مطلع على غوامض مصالحيهم . وهو يسلك في تمهيد طريقها بين أيديهم يسلك الرفق والرحمة . ولذلك يقولون : ( هو لطيف بمبادءه ، وإن لطفه بعيساده عجيب ) يريدون معانيته تعالى يكشف الضر عنهم ، وإيصال الخير إليهم من حيث يخفى ذلك عليهم ، ولا يقع تحت مشاعرهم . والآية على وجازة لفظها تتضمن قضايا ونتائج أخذ بعضها برقاب بعض ، فهو تعالى يقول للقوم المخاطبين : أنه لا فرق عنده بين أن تسروا حديثكم بينكم أو تجهروا به وتسمعهو للملا ، لأنه تعالى يعلم خواطر قلوبكم ، وما يدب من الأسرار في صدوركم ، ولو لم تتوطأ بها أجراس الألفاظ كيف لا يعلم الألفاظ الهموس بها همسا ؟

ثم انتقل إلى الاحتجاج على من عساه ينكر أن يكون الله تعالى عالما بالضمائر ، وخفي السرائر ، فنهيه إلى أنه تعالى هو الذي خلق البشر وأوجدتهم من العدم ، والخالق يعلم البنية ، كيف لا وعلمه قد نفذ إلى أسرار المعلومات ، ويطن غوامض الأمور ؟ . هذا إذا حملنا ( من خلق ) فاعلا يعلم . فإذا حملناه مفعوله كان المعنى : كيف لا يعلم تعالى الهواجس التي تحيك في نفوس البشر وهو الذي خلق هذه النفوس

ومن كمال العلم بالشيء العلم بما يحتوى عليه ذلك الشيء ؟

بعد أن ذكر تعالى في الآية السابقة أنه لطيف خبير ذكر هنا مثالا من أمثلة ذلك اللطف العجيب ، فهو تعالى خلق البشر ، وعلم دقائق طبائعهم ، وغوامض استعداداتهم ، فأمدهم من صنوف النعم بما يلائم حالهم ، ويسهل عليهم البقاء في هذه الدار الدنيا ، ألا يكون هذا الأمد ، وذات اللطف المشاهدة آثاره بام العين - باعثا على خشية الخالق وتصديق رسله ، والايمان بالقيب الذي أخبر به ؟؟

اصل ( الدلول ) الدابة اللينة السهلة الانتقاد . مشتق من اللل بكسر اللال بمعنى اللين ، وهو ضد الصعوبة . والوصف منه دلول . أما اللل بضم اللال فهو أن يهون أمر الرجل ، ويصغر شأنه بين الناس . وضده العز . والوصف منه ذليل . و ( المناكب ) جمع منكب على وزن مجلس وهو الناحية من كل شيء : فمناكب الأرض أطرافها وجوانبها . ومناكب الرجل جانبيه . والمنكب أيضا في البحر والانسان اسم للموضع الذي يلتقي فيه عظم عضده بكتفه . وهما منكان ، فيحتمل أن يكون المراد بمناكب الأرض جبالها وآكها ، وتكون سميت بذلك لشخصيتها وارتفاعها كارتفاع المناكب في الانسان . وخص الجبال بالذكر في قوله : ( فامشوا في مناكبها ) لإفادة أن الأرض غاية في السهولة والانتقاد للانسان بحيث يستنى له الانتفاع بيوهرها وحزونها ، كيف يكون مقدس انتفاعه بسهرها وارتفاعها التبسطة ؟ يروى أن بشرا ابن كعب المدوني قرأ هذه الآية ( هو الذي جعل لكم الأرض ذلولاً فامشوا في مناكبها ) فقال لجاريته له : ( ان دريت ما مناكبها فانت حرة لوجه الله ) فقالت : « مناكبها جبالها » فكانما سفع في وجهه ، أي كان لاطما لطمه على وجهه ، خشية أن تكون الجارية أصابت في تفسير المناكب ، فتحتق عليه ، وتخرج من ملكه ، وهو ضئيل بها . فمن قائل : فمن قائل متعت ، ومن قائل لم تعتق : ثم سأل أبا الدرداء الصحابي الجليل رضي الله عنه ، فقال له : « ان الخير في طمانينة ، وأن الشر في ريبة » فدع ما يربك إلى ما لا يربك . ومعنى هذا أن خيرا للانسان أن يكون في حالة طمانينة وهودو نفس ، وأن شرا له أن يكون حاله على العكس ، وأن الجارية بحتمل أن تكون أصابت وأن تكون أخطأت ، فبقاؤها في ملك سيدها مدرجة للشيطان بالوسوسة إلى نفسه ، فلاحسن له أن يعتقها ثم تزوجها إن شاء وشبابه هي . و ( النشور ) مصدر نشر الميث ينشر من باب دخل عاش بعد الموت . ومعنى كون النشور إلى الله أن البعث ومرجع الانسان في نشأته الأخرى إليه تعالى ، فليس من تعاسبه على أعماله سواء . قلنا آتينا في هذه الآية تتضمن مثالا من أمثلة لطفه تعالى بالبشر مد جعل الأرض صالحة لسكنائهم فيها ، على أن الآية ربما كانت مسوقة لتهديد المكذبين وتذكيرهم بأن من يسر لهم أسباب البقاء في هذه الأرض قادر على سلبهم إياها ، فهو يقول لهم :

احلروا هذا التعادى والتكليب للرسل ومحاوله اخفاء سر ائكم ، واذكروا انه تعالى جعل لكم الارض سهله لئلا تنقادوا اقتداء بالدابة الاولى ، فقلوا اذن العناد والتكليب جانبيا وحافظوا على هذه النعمة ، وامشوا في الارض منى المستثمر المستفيد ، وانتفعوا بما هياه لكم فيها من انواع الرزق واصناف القوت . ثم لا ترتكوا الى هذا العيشى البئس ، فستسلبوا الى اموالكم ، وسواسوس نفوسكم ، بل تيقنوا انكم سوف ترجعون بعد النشور من قبوركم الى الله ، فيحاسبكم وينتصف منكم .

وانقياد الارض للانسان ظاهر بالكثير في الامم الحية التي عرفت كيف تنتفع بقوى نفوسها ومشارك عقولها الممنوحة لها من قبل المزة الالهية . فهي لم تدع ضربا من ضروب الانتفاع بهذه الارض الا تناولته ، ولا طريقا من طرق الاستفادة من خيراتنا الا سكتته : حطت العناصر وروكتها . صهرت المعادن وطبعنها . عرفت طباع الحيوانات وسخرنها . فطعت خصائص النباتات واستغنتها . اكتشفت نواميس المادة واخضعنها . اكتنبت اسرار الكائنات واستغلتها . غاصت في اعماق الماء ، طارت في اجواز السماء ، اذا اعترضتها شوامخ الجبال نادتها بالخيار من تحتها ، او تولفت بسلال سكاك الحديد من فوقها . وبالجمله فان في بلوغ البشر هذه اللوچه من الرقى مصداقا لامتثال البرارى تعالى عليهم يجعل الارض ذلولا لهم يمشون في منابكها ، وياكلون من رزقها ، حتى ياتيهم اليوم القدر ، ثم الى الله يكون النشور . وقد يقال في تصوير كون الارض ذلولا لنا مشعر البشر اننا نميشى محمولين على ظهرها ، وهي تسير بنا الهونيا في فلها حول الشمس : لا تبطىء ولا تسرع باكثر مما تستدعيه حال سكاتها ، ولا تصادم نجما او ذبا لدوات الاذئاب السابحة في الفضاء . فكانت الارض لنا نعمت الطية المدرية ، والذللول المجربة .

لحاق هذه الآلة بما قبلها يؤيد ان الاولى واردة مورد التحذير والتهديد كما سبقت الاشارة اليه . و ( من في السماء ) هو الله تعالى . ولكن قام البرهان العقلى على ان الاله الازلى خالق الكل ، وشايط الكل ، لا يتصور ان يكون مستقرا في مكان . فوجب اذن صرف الابه من مظهرها ، وجعلها على معنى يلتحم مع ما ابنته العقل ، وقام عليه البرهان . والقرآن يفسر بعضه بعضا : **ثابة ( وهو الله في السموات وفي الارض )** تنفي ان تكون ذات الله في السموات وفي الارض ، اذ كيف يعقل ان تكون الذات الواحدة في مكانين في آن واحد ؟ لاجرم ان يكون المراد بكونه تعالى في السماء وفي الارض ان مشيئته وحكمه نافذ فيها ، وسلطانه وقهره غالب عليهما . والذي يساعد على هذا التأويل ما جرت به عادة البشر حتى الضالين منهم ، فاتهم ينتظرون وصول النعم اليهم ، ويحطرون حلول النعم بهم من جانب السماء ، فهي قبله خوفهم ومحراب رجائهم . وصاروا يفهمون من كون الله في السماء منذ الاطلاق ان السماء مصدر تصرفه ونفوذ مشيئته في العالم .

وذهب ابو مسلم الاصفهانى (١) الى ان الصرب لما كانوا يقررون بوجود الله تعالى ويزعمون انه في السماء : جخطوبوا في الوحى على حسب اعتقادهم ، فقبل لهم : **( انتم من في السماء ان يخسف بكم الارض )** اى المنتم اليها القوم ذاك الاله العظيم الذى تعتقدون انه موجود في السماء ان يهلككم ؟ هذا ما قاله ابو مسلم وهو دقيق جدا . وربما ورد في القرآن امور لم تذكر على جهة التقرير والتشريع واردة حمل المخاطبين على اعتقادها ، وانما تذكر على سبيل القرض ، وارشاد العنان لهم في اعتقادها اعتمادا على نصوص اخر بينت فساد هذا الاعتقاد . وقد قال الامام الشافعى في موافقته : ان القرآن لا يذكر اسرا بخلا ما لم ينبه على بطلانه وفساده .

و ( خسف ) المسكان خسوفاً غاب في الارض ، وخسف الله به الارض خسفاً غيبه فيها . و ( تمور ) تضطرب وتتحرك بشدة حركة اقعية اى عينا وشالا وهي اشد حالات الخسف هولاً وبغوريا . وقوله **( لم امنتكم الخ )** اضرب عن التخويف الاول وهو الخسف بهم ، وانتقل الى تخويف اقرب وقوعه واكثر حصولا ، وهو ارسال العاصب ، و **( العاصب )** ربح شديدة تثير العاصبه وهي الحمى . و ( حصيت الرجل ) ريمته بالحصصه . و ( نذير ) اسئلة لندبرى بيه التكم ، لكنها حدثت ليشابه الوقوف عليها بالسكون خوارج الالات المتقدمة عليها والمتأخرة منها ومعنى ( نذير ) انذارى ، وهو اسم مصدر لائذر ، اما المصدر فهو اللذار .

ذكرهم تعالى بنعمة صلاحية الارض لمعيشتهم فيها ، ليحث هذا التذكير في نفوسهم لفضل خشية ، وزيادة اتعاف . ثم حرهم عاقبة التمدادى في الجحود ، وانه ليس من الاثاق بهم ان يامنوا زوال النعم عنهم ، ويدخلوا من ان الذى اعطاهم هذه النعم وهو الله تعالى قادر على ان يسلبهم اياها . فبعد ان تكون الارض ذلولا صالحة للانتفاع بها ، فصيح كالقرس الجحود ، او البعر الصعب ، فلا يعود يمكنهم القربا عليها ، فتخرجف وتضطرب اغسطراب خسف وزوال وتبطلهم . ولا ينتهى التشكيل بهم عند هذا الحد ، بل تاذ بعد ابتلاهم في الور والاهتزاز الشديد ، فيكون هذا اذى لئراكم الانقراض عليهم ، وصعوبة خلاصهم والخلوص اليهم . وكان للمخاطبين استعمالهم وقوع الخسف بهم لقله حدوثه ولا سيما في جزيرة العرب ، فاضرب تعالى عن تهديدهم بالخسف الى تهديدهم بعباد آخر اقرب حصولا ، واكثر حدوثا في جزيرتهم ، وهو ارسال ربح شديدة عليهم تحمل الحمى وصغار الحجارة وقصصكم بها سكا ، فتهلكهم وتستاصل شافتهم .

ولما كان من المحتمل ان يقولوا هللى عنادهم وامرارهم بحيث لا تنفعل نفوسهم للتخويف بالخسف والربح الحاصب ايضا . سكت من كل ذلك ، ثم احالهم

(١) للتقى سنة ٣٢٢ في تفسيره المسمى ( جامع التاويل لحكم التنزيل ) .

مَرْسِلٌ عَلَيْهِمْ حَاصِبًا ۖ فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرٍ ۚ وَلَقَدْ  
كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذِّفَ كَانَ نَكِيرِ ۝ أَوَلَمْ  
يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَفًى وَيَقْبِضْنَ مَا يَمْسُكُهُنَّ إِلَّا

على المستقبل ، فاته وحده الحكم في هذه المسألة .  
وفيه يتبين أكان انذار الله لهم وتهديده اياهم بالخسف  
والريح صادقا أو غير صادق . وهذا معزى قوله  
تعالى : ( فستعلمون كيف نذير ) أى سوف يتجلى  
لكم أيها الكاذبون الحق وصدق الانذار ان بقيتم في  
عتوكم وبعيد ضلالتكم .

مهما ذكر رجال العلم الطبيعي الخسف والزلازل  
وهبوب الرياح الزعازع عللا وأسبابا ، فان ذلك لا يمنع  
ان يهلك بها أقواما عصوا أمر الله وكذبوا رسله .  
فالذا هلك قوم بزلزال شديد وكانوا طغاة فاجرين  
نقول ان الله اهلكهم بالزلازل لسوء صلتهم ، وقد  
نشأ الزلازل نفسه عن انفجار ابخرة وغارات كانت  
متجمعة في تجاويف الأرض ، أو نشأت عن انخساف إحدى  
طبقات الأرض الكتونة من مخور هشة رخوة ،  
فندامت الطبقات العليا المتراسة فوقها ، فحدث  
الزلازل ، فتهدمت البيوت وهلك الناس .

ويمكن ان يتصور المرء هذه المسألة تصورا جليا  
بما نوردده له من هذا المثال التاريخي ، وهو ان  
المنصور العباسي كان تقم من عم له خرج عليه ، وهو  
ميد الله بن علي ، وأراد ان يقتله فيلة لا كفأها ،  
خشية ففسب من شفع به من سائر صومته ، فبني  
له بيتا جعل اساسه من قطع الملح وسجنه فيه  
إياما ، ثم سلط الماء على الملح فقلب وتدلص البناء  
واقتضت الجدران وخر السقف على الرجل فمات ،  
وأشاموا ان موته كان بانهدام السجن عليه . فالذي  
أهلكه هو المنصور العباسي ، لكنه توصل الى غرضه  
بسقوط الحجارة الثقيلة عليه ، وتوصل الى سقوطها  
بالتحلل الملح من تحتها ، وتوصل الى انحلال الملح  
بتأثير الماء فيه . فالذا قال قائل ان الرجل مات  
لأسباب طبيعية حدثت في أساس البناء يكون  
مصادفا . وإذا قال آخر ان الرجل مات لأنه غافظ  
المنصور ومرتق من طاعته فأهلكه يكون صادقا أيضا  
وهكذا نقول فيما ورد في القرآن من ان الله تعالى  
أهلك الأمم الجاحدة بالريح أو الزلازل أو الطوفان أو  
انبثاق السد أو ذلك . والله المثل الأعلى .

كان الخطاب في الآيات السابقة للمشركين انفسهم  
من عند قوله ( وأسرأقولكم ) الى قوله ( فستعلمون )  
ثم التفت في هذه الآية : ( ولقد كتب الخ ) الى خطاب  
النبي صلى الله عليه وسلم وتحديده عن أولئك  
الشركيين الذين كان يخطبهم وتسلية بأنه سينالهم  
إذا بقوا على تكذيبهم مثال مكليي الأمم الذين كانوا

قبلهم . و ( نكير ) اصله نكرى بياء التكميل لكنها  
حذفت لموافقة رموز الآيات الأخرى كما حذفت  
من ( نذير ) ، و ( النكير ) اسم مصدر لنتكر نتكرا .  
ومعنى نتكر تغير : يقال تنكر الملك لوزيره اذا تغير  
قلبه عليه ، وتنكر الصديقان اذا تغيرا وانتقلا من  
حال تسر الى أخرى تسوء ، وتنكر لى فلان لثقتي  
لقاء بشما . فمعنى التكر قريب من معنى التقيد  
والسخط على شخص بعد الرضى عنه . ومن تسخط  
عليه تنتقم منه ، وتنزل به العقاب . فالتنكر في  
جانب الله لا يصبح ان يراد منه انفعال النفس ، وإنما  
يراد به لازمة ، وهو الأهلاك وانزال العذاب ، ومن  
ثم قال أبو مسلم الأصفهاني : التنكير عقاب المنكر .  
وهكذا يقال في مكر الله بهم ، وغضب عليهم ، ورضى  
عنهم ، وضحك اليهم .

يقول تعالى لا تأس يا محمد مما ترى من حقوق  
قومك وجحودهم وتكذيبهم لك ، فقد كان هذا دأب  
الأمم الذين قبلهم : كذبوا أنبياءهم ، وتجادوا في فيهم  
وعنادهم ، فتفكرت لهم ، وغضبت عليهم ، وانزلت  
بهم العذاب . ولا تزال اخبارهم وهول ما لقوا  
متعللا متداولا بينكم . فكيف كان تنكرى لهم ،  
وتغيرى عليهم ؟ أى فكيف كان غشبي عليهم ،  
واخذى لهم ؟ ألم يكن غشبا شديدا ، وأخذا ربيلا ؟  
والآية لم تصرح باسم هؤلاء الأقوام الذين أخذهم  
الله بدنوبهم وجعلهم مثلا وعبرة لمشركي مكة . لكن  
قوله ( فكيف كان نكير ) يشير بان منازل باؤلكم  
الأقوام كان معروفا للمخاطبين ، اذ كيف يسألهم  
من خير ما حل بهم ، ويطلب منهم المصادقة على  
هول ما أصابهم وهم لا يدرون من أمرهم شيئا ؟  
فالذا لم تقل في تعيين أولئك الأقوام الهالكين انهم عاد  
وثمود انفسهم تقول انهم من أمم تعرفها العصب  
طفوا وبفوا فأخذهم الله بدنوبهم ، وأصبحو عبرة  
للمعتبرين بهم .

كان المشركون يكذبون النبي صلى الله عليه وسلم  
ارتيايا بقوله ، واستخفافا بما كان يوعدهم به ،  
فكانت الآيات تنزل لتتري في الاحتجاج عليهم ،  
وتسفيه آرائهم وحضهم على التصديق ، وتخويفهم  
العذاب ان هم أسروا وكابروا . وكان معظم السبب  
في اصرارهم وتكولهم ظنهم ان لاشيء مما أوعدوا به  
يمكن ان يلحقهم . فاحتج عليهم سبحانه بما صنع  
بالأمم التي كانت قبلهم وقد كذبت فأهلكها . ثم  
أخذ في هذه الآية ( أو لم يروا الى الطير الخ ) والتي  
تليها ينه المشركين الى شمول قدرته ، ويدعوهم الى  
التفكير في أنه تعالى قادر على إلحاق العذاب بهم ، فان  
من عجائب قدرته ما يروونه في كل وقت وأن من  
تحليق الطيور فوق رؤوسهم ، واستغلالها في طبقات  
الهواء ، مع أنها اجسام ضخمة كان من مقتضى التواميس  
الظاهرة المصادة أن تسقط على الأرض . ولكنه تعالى  
بباهر قدرته ، وعجيب صناعته وحكمته - خالف في  
اجسام الطيور تواميس سائر الاجسام ذات النثل ،  
وركب لها تواميس أخرى لا تائق بها ، بحيث يمكنها معها

ان تستعلى في الهواء من دون أن تسقط . من فعل هذا ؟ ومن أمسك هذه الأجرام الثقيلة ومنعها من السقوط ؟ ما أمسكها إلا الرحمن ، الذي رحم هذه الحيوانات فيسرها لها من وسائل الطيران والانتقال بسهولة من مكان إلى مكان - ما حفظ به نوعها ، وانتظمت به معيشتها ، واستمرت عليه حياتها . ولا بدع ، فهو تعالى ( بكل شيء بصير ) ، يعمل كل شيء من خلقه القوى والسفن اللازمة له ، والمتوقف عليها بقاؤه . وقد ذكر علماء هذا العصر أن أكبر طير يعيش اليوم على وجه الأرض يسمى « الكندر » ثقله سبعة عشر رطلا ، والبد بين جناحيه إذا صفها أي بسطهما يبلغ عشر أقدام .

والقصص من هذه الآية تنبيه المشركين المكذبين إلى عجيب قدرته تعالى ، وأن من له هذا التدبير في تكوين خلقه الطير لا يعجزه أمرهم ، ولا يفوته بلوغ ما يريد من أنزال العذاب بهم .

بقي هنا شيء . وهو لماذا قال ( صافات ) **ويقبضن** ( ولم يقل ( صافات قابضات ) أو ( يصغفن ويقبضن ) ، أي لماذا عبر عن الصف بالاسم وعن القبض بالفعل ؟

صف الطائر بسط جناحيه في الجو وهو طير ، وقبضها إذا ضمها وضرب جناحيه ، والأصل الذي يساعد الطير على الطيران أنهما هو الصف وبسط الجناحين ، وإذا ضمها أحيانا عاد بسطهما للحال ، فهو لا يمكنه أن يبقى قابضا لهما وهو طير ، بخلاف البسطة ، فانه يبقى ملازما له ساعات كثيرة ، فما كان الأصل في الطيران وهو الصف جاء به على صيغة الاسم ، فقيل ( صافات ) لفائدة أن الصف هو شأن الطيور الذي ثبت عليه ، وصيغة اسم الفاعل فتفيد الدوام والاستمرار ، ولكنها « أي الطيور » في بعض الأحيان يطرا عليها وهي طائرة ما بدعواها إلى قبض جناحيها من حيث أنه يساعد على البسطة والتحرك . فلما كان القبض أمرا طائرا وعارضا في الطيران جاء به في الآية بلفظ الفعل المضارع الذي يفيد التكرار والتجدد ، فقيل ( يقبضن ) ، ويكون مؤدى المعنى هكذا : أن الطيور صافات ويكون منهن القبض ثارة بعد ثارة ، أو يقال : أن التكة في التصبر من القبض بالفعل المضارع هي تصوير الحالة لأذهان المخاطبين وزيادة تعجبهم منها ، فاتهم حين تقول لهم انظروا إلى الطير صافات يعجبون من أمرها ، ثم ينفذ العجب حينما يقع في نفوسهم أنها عند بسط أجنحتها يكون قد دعمها الهواء من تحتها كما يدعم الأجسام الرقيقة المتبسطة فيه ، فإذا تباهت إلى أن الطير قد يقبض جناحيه في انثناء الطيران ولا يقع تكون قد زدنا في عجبهم ، وجعلنا من دهشتهم . والقيل المضارع بما فيه من معنى التجدد والحديث والزمن يساعد على تصوير الحالة واحضارها في ذهن المخاطب أكثر من الاسم ، يعرف ذلك من تفضل لأساليب العرب ، وتامل في ملاحن كلامهم .

هذا وإن طيران الطيور لم يزل من المشكلات التي لم يحلها العلم الحديث على طول بانه في الاكتشافات ،

والوقوف على أسرار خلقه الكائنات . وقد عدوا من أبعد الأمور من التعقل استمرار الطيور طائرة وأجنحتها مصفوفة موازية للأفق وهي لاتتحرك . وأعلن بعض علماء أوروبا منذ سنين أنه اكتشاف التاموس الذي به يتمكن الطائر من الطيران ، لكنه لم ينشر تفصيل ما عرفه من أمر هذا التاموس ، غير أن العلماء اتفقوا على أن السبب في استمرار الطيور طائرة يرجع إلى تقعر أجنحتها وتحدبها وكونها غير مسطحة ، وعلى أساس هذه النظرية بدأ النجاح في طيران الإنسان ، وأخذ الطيارون يصنعون أجنحة طيراتهم على أوضاع تحكى أجنحة الطيور وأوضاعها .

وبما يخطر في البال بعد طيران الإنسان أن طيران الطيور لم يعد محلا للعجب ، ولا دلالة فيه على القدرة التي أراد الله الاحتجاج بها على المشركين ، ولكني أقول أن طيران الإنسان قد يكون أكثر دلالة على قدرته تعالى من طيران الطير ، ولو كان الإنسان قد اهتدى في عصر النبوة إلى الطيران لعجب الوحي المشركين من تحليق الطائرة في جو السماء ، كما عجبهم من سير الفلك على وجه الماء ، مدعاه نعمة على البشر ، وآية على قدرة الله . والعبري انه لا فرق بين طيران الطير وطيران الإنسان في أن كلا منهما أثر من الأقدرة الله ، وعجب صنعه في خلقه : طار الطائر بقوى ونواميس كمنته في تركيب جسمه وهي من الله ، وطار الإنسان بقوى عقله وميله ودقة ملاحظته ونواميس المادة التي استخدمها في الوصول إلى غرضه ، وكل هذه القوى والنواميس لم يكتسبها بجده ، ولم يأت بها من بيت أبيه وجده ، ولا من عالم آخر غير عالمنا ، مخلوق لآله آخر غير الهنا ، وإما كل تلك النواميس والقوى والواجب نعمة من الله ، وفيض من روح الله ، آمنا بالله وما أنزل إلينا من عند الله .

قوله ( أمن هذا الذي اتخ ) مقابل قوله قبله ( أولم يروا إلى الطير فوههم صافات ) ، كأنه يقول أولم ينظروا إلى عجيب صنع الله في خلق الطير فيعجبوا مبلغ قدرته تعالى على أنزال العذاب بهم ؟ أم أنهم تعاملوا عن ذلك اعتدادا بأن لهم من غير الله قوة تحميهم أن أراد إهلاكهم ، وترزقهم أن أمسك الرزق عنهم . فالقوة الحامية لهم في زعمهم هي جندهم وسلاحهم ، والقوة الرازقة هي أكلهم وأصنامهم ، وهذا هو شأن المشركين في زمن البعثة : كان صلى الله عليه وسلم إذا خوفهم البطشة الكبرى ذكروا له من نعمتهم ، ونصرة جندهم ، وإذا حذرهم الحطط وآتاه تعالى قادر على أن يحبس عنهم المطر ويمنع وسائل الرزق - انظروا التجدد والاستفحال ، وزعموا أن أصنامهم تعلمهم من صنوف الرزق بما شاموا . فبوضه على الأمرين ، وإبطال لهم كلا الزممين : فلا الأنوان الذين لديهم بقادير على أن يحومهم أن أراد هو إهلاكهم ، ولا الأصنام التي يعبدونها بالتي يمكنها أن ترزقهم إذا أراد أمسك الرزق عنهم .

والإشارة إلى الجند والأنوان ، بكلمة ( هذا ) الدالة على القرب مما يفيد في هذا المقام تحفيز المشار إليهم

الرَّحْمَنُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ بَصِيرٌ ﴿١٦﴾ أَمَّنْ هَذَا الَّذِي هُوَ  
جُنْدٌ لَّكَ يَنْصُرُكَ مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ إِنَّ الْكَافِرِينَ لَا  
فِي غُرُوبٍ ﴿١٧﴾ أَمَّنْ هَذَا الَّذِي يَرْفَعُ إِنْ أَمْسَكَ زُفُفُهُ  
بَلْ لَجُوا فِي عُتُوٍّ وَنُفُورٍ ﴿١٨﴾ أَفَمَنْ يَمْشِي مُكِبًا عَلَى وَجْهِهِ  
أَهْدَىٰ أَمَّنْ يَمْشِي سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿١٩﴾ قُلْ هُوَ  
الَّذِي أَنْشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ  
قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٢٠﴾ قُلْ هُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الْأَرْضِ  
وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢١﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ

وانحطاط شأنهم ، كما أن التعبير بذلك الدال على  
البعد يفيد التعظيم ورفع الشأن أحيانا نحو قوله  
تعالى ( ذلك الكتاب لأرباب فيه ) .

والجند العسكر والأموان : معناه جمع ونلفظه  
مفرد . وقوله في صفته ( ينصركم ) مرادى فيه  
جانب اللفظ لا المعنى . وكلمة ( دون ) مقبولة في  
الأصل على ( ذو ) ومعناه القرب . استعملت في  
المكان القريب . ومن كان في مكان قريب منك كان  
بالضرورة مقابرا لك . ومن لم يكثر استعماله دون  
أيضا بمعنى ( غير ) ، فمعنى من ينصركم ( من دون  
الرحمن ) من يقرر أن ينصركم نصرا وأصلا ليسكم  
من غير الرحمن . ويمكن أن تبقى ( دون ) على معناها  
الأصلي وهو المكان القريب ، ويكون حل المعنى هكذا :  
من يمكن أن يعمدك بالنصر من مكان قريب من الله ،  
ولأرباب أن كل الأمانة قريبة منه تعالى : أي أنه تعالى  
عالم بالأمانة ويمكن حل فيها . وليس اقترابه منها  
كافتراق بعض الأصنام من بعض ، فكل أحد إذن  
عاجز عن نصرته المشركون لأن الله لاظر إلى من ينصركم  
عن كتب متعكن من قهره أخذ بناصيته .  
والاستفهام في قوله ( أمن هذا الخ ) ينتهي عند  
توله ( الرحمن ) .

وقوله ( أن الكافرون إلا في غرور ) بمنزلة الجواب  
للك استفهام : أي لا جند لهم في الواقع ونفس الأمر  
قادر على نصرتهم . فليس الكافرون إذن إلا قوما  
مغرورين مخدوعين ، فتكون ( أن ) نافية بمعنى ليس ،  
وكذا يقال في الاستفهام الآخر أعني قوله ( أمن هذا  
الذي يرفعكم ) فانه ينتهي عند قوله ( يرفعه ) .  
وقوله ( بل لجوا في عتو ونفور ) قام مقام الجواب :  
كانه يقول كلا لا أحد غير الله يرفعهم . ولم يفتنوا  
هم لهذا الأمر الجلي بل تهادوا في جردهم وكبرهم ،

وتباعدهم من قبول الحق ، وإتباع النبي عليه السلام  
وما أتى به من القول الصديق .

( كبه ) على وجه صرعه وقلبه . والرجل الذي  
التقل يقال عنه أنه أكب . فالكتب إذن هو السدى  
يعتور مشبهه عثا وسقوط من وقت إلى آخر ، أما  
لفسف في بصره ، أو وعورة في طريقه . وعكسه  
( السوى ) وهو الذي يمشي مستوي القامة ، ثابت  
القدم . و ( أهدي ) أفضل تفضيل أي أشد هداية  
واقرب وصولا إلى حيث يقصد .

والكلام تمثيل لحالة أولئك الذين وصفهم بالعتو  
والنفور في الآية السابقة مع مقارنتهم بالمؤمنين الذين  
أذعنوا للحق : قال من الأولين أنهم تهادوا في تمردهم  
ونفورهم . والتمرد إذا نفع الشيطان في أنفه ضل  
وعنى عن القصد وهمس الطريق اشتغالنا . وهكذا  
كان شأن الكافرين ، فمفسد كالشركي المكب الذي يقع على  
وجهه في كل خطوة يخطوها . أما المؤمنون فكانوا  
كالدلي يمشي منتصب القامة في طريق لأحب : لا يصغور  
فيه ولا عوائق . فأى القبلين أشد هداية ، وأقرب  
وصولا إلى الغاية ؟؟

إذا كان حال المشركين على ما وصف في الآية  
السابقة من ركوب التعاسيف والفسال عن طريق  
الحق كانوا ملومين أشد الملام ، وذلك لانه تعالى  
خلق لهم الحواس والمشاعر ، وامتعم بالمثل والنطق ،  
ويسر لهم وسائل النجاة ، وأسباب الهداية . فلم  
ينتفعوا بشيء من ذلك ، ولم يشكروا الله على هذه  
الوسائل والأسباب ، فيستعملوها فيما خلقت لأجله  
بل ضلوا وحادوا عن طريق الهدى ، إلى طريق  
الردى .

فقلوه ( قل ) أي يا محمد في تكبيت أولئك الذين  
عتوا وتورطوا في الضلال : ألم تعلموا أن الله الذي  
يملوكم الأيمان ( هو الذي أنشأكم ) خلقكم وجوهركم  
بأسباب الرشد والهداية من أسباع وأبصار وأفئدة أي  
قلوب . فلم صممتم من الوافط لا وعيتم من الآيات ؟  
وأمرضتم من النظر والتفكير ؟ لا جرم أنكم تعلمون أن  
الله فاعل جميع ذلك ، لكنكم قوم لاتشكرون ، وينهم  
الله تكفرون .

والقلة كثيرا ما يستعمل في كلام العرب ويراد بها  
عديم الفعل ونفيه من أصله لا أنه يتبع على وجه  
التدوير . ومثل له الجاحظ في كتاب الحيوان ( جرم ٢  
ص ٨٢ ) يقول « فلان قليل الحياء » قال : وأنت  
ليست سريد أن تناله حياء البتة ، فهم يضيئون  
( القليل ) في موضع ( ليس ) أي في موضع النفي ،  
ومنه الحديث الشريف « كان صلى الله عليه وسلم يقل  
القلو » أي أنه لا يلتو أبنا .

وأراد ( بالافئدة ) العقول والمدارك ، لأن العرب كما  
يسمون العضو ذا الشكل الصنوبري قلبا وفؤادا يسمون  
المقل أعني القوة المدركة قلبا وفؤادا أيضا . فسمية  
للجل باسم المحل ، ذهبا منهم إلى أن العضو المذكور  
هو مقر العقل والادراك . والوجه يخاطب العرب بما  
ألغوه واعتادوه من أساليب التخاطب بينهم . وهذا  
كأنزال القرآن بأصل اللسان العربي لأجل أن يفهموا ،

ولو أنزل أمجيا لكان لهم الحجة . وقد اعترف لهم بذلك القرآن نفسه في قوله تعالى : ( ولو جعلناه قرآنا أمجيا تقالوا لولا فصلت آياته : أمجيا وهري ؟ ) أى يكون القرآن بلغة أمجية وعهد الذى أنزل عليه ذلك القرآن مرييا ؟ أمكن هذا ؟ فانظر كيف أن الله تعالى جعل لهم الحجة على فرض كون القرآن أمجيا . وقال صاحب الصحاح في مادة ( ميقر ) : هو موضع تزعم العرب أنه من أرض الجنة نسوا إليه كل شيء أصباغ ونقوش ، وظلم عبقري ورجل مبقري ، ومنه الحديث « فلم أر مبقريا بقرى فربه » ثم خاطبهم الله بما تمارنوا فقال ( وميقرى حسان ) .

وقد أشرنا إلى هذا أيضا في غير ما موضع من هذا التفسير اهتماما به ، وحرصا على فائدته ، ولكونه يحل مشاكل كثيرة في تفسير معاني الوحي الإلهي . قال المفسر المحدث في قوله تعالى واصفا حال الملب المخطئ في جهنم ( لم لا يموت فيها ولا يحيى ) : « قيل ذلك لأن العرب كانوا إذا وصفوا الرجل بوقوعه في شدة شديدة قالوا (لأهو حتى ولا هو ميتا) فخطبهم الله بالذي جرى به ذلك من كلامهم « انتهى قول الطبري ، وقد مرأه إلى طائفة من أهل العلم في تفسير الآية المذكورة . وقال بعض العلماء في قوله تعالى ( ولو بسط الله الرزق لميلاده ليتوا في الأرض ) : إنما نزل هذا في العرب بناء على مادتهم ، وهي أنهم كانوا إذا اخصبوا تحاربوا ، وإلى هذا يشير قائلهم :

قوم إذا نبت الربيع يارضهم نبتت مدلولهم مع البقل  
أم تعالى لئيب في الآية السابقة أن يذكر المشركين بما أنهم عليهم من قوى النفس ، ومشاعر الحس . ثم ارتقى في التذكير إلى ماهو الأصل في كل نعمة ، وأساس كل موهبة : أمني نعمة الخلق والإيجاد والتكاثف وتعميده سبل الاستعمار أمام هؤلاء المخلوقين ، فكانوا كثيرين متفرقين في جنبات الأرض .

و ( اللوة ) الخلق . وهو أيضا الكثير : يقال « ذرا الشيء » إذا كثرة . ومنه ( اللرية ) وقد تركت هزولها ، ومعناها النسل الكثير . على أن اللوة إذا ذكر وأريد به المعنى الأول أمني الخلق كان مرادا به المعنى الثاني وهو الكثير أيضا فليس معنى ( ذراكم ) خلقكم فقط ، بل هو أيضا مشوب بمعنى الكثير ، أى خلقكم وكثركم . ومنادى الامتنان على البشر إنما هو التكاثف في الخلق لا الخلق الجرد ، لانه تعالى لو خلق البشر جماعات قليلة ، ولم يودع نوعهم قوة النمو والتكاثر المفزي إلى الانتشار في جنبات الأرض وإلى احتياها - لمدت عليهم الموائد : من قحط ووباء ولزوال ، أو طاردهم الضواري . من ضبح وغر وباد رئيسال ، فهلكوا وبادوا . لكنه تعالى خلقهم وجمعهم تنكاثرون ويتوزعون قبائل وشعوبا تتسابق في مضار الحياة ، وتتنافس في استعمار الأرض ، واستعداد خيراتها ، واستدفاع آفاتها . وهذا هو السر في قيام مدنات الأمم ، وارتقاء عمران العالم . فلذلك لان اما ختم الآية بقوله ( وإليه تحشرون ) فلذلك لان

السورة كلها إنما أنزلت لآيات الحشر ، وتحقيق يوم الحساب ، وحل أهل مكة المكذبين على التصديق به . فقد أشر تعالى في فاتحة هذه السورة إلى أنه تعالى خلق موت البشر وحياتهم لأجل أن يختبر أمرهم ويصرف المطيع من العاصي منهم . ولا تكون نتيجة ذلك إلا آتية الطبع ومجازاة العاصي في الدار الآخرة ، فأول ماقررت السورة أن أنسا هو تنبيه المشركين إلى الإيمان بترك الدار . ولما كان القوم مصرين على جحودها واستبعاد حصول العذاب فيها - تضمنت السورة ضروبا من التذكير بنعم الله تعالى على المكذبين ، وأنواعا من الحجج والبراهين على قدرته ، وأنه تعالى لا يصر عليه إيجاب دار تعذيب الجحيم ، والتنكيل بالمكذبين . فكان كلما ذكر شيئا من تلك النعم ، وعدد طائفة من هذه الحجج - عاد فقرر أمر الآخرة ، أو به إليها تنبيهها . وهكذا حتى آخر السورة .

وان آيات هذه السورة ، بل آيات سور القرآن بجمعيتها كشذور الذهب ، وقد ألف بينها بلحاح من المناسبات غاية في الدقة واللفظ . وأقرب ما تشهد به على ذلك قوله تعالى هنا ( وإليه تحشرون ) ، فإن هذه الجملة خام دقيق يصل بين الآيات . ويسان ذلك أنه تعالى لما أراد ختم السورة حشن أن يأتي على ذكر الموضوع الذي أشار إليه في أولها ، وهو انكار المشركين البعث والحساب ، وأنه لم يبق لهم ملجأ في النكول والجحود بمد ما من من آيات الاحتجاج عليهم . فذكر بالوضوح أن قال : ( ويقولون متى هذا الوعد ) ، لكنه يبين ينتقل إليه مع أن السلام الذي قبله في صمد كيان قدرة الله على خلق البشر وتخليصهم بقوى الشاهر والحواس ؟ انتقل إليه على هذا الأسلوب : مير من الخلق بالوراء ، والوراء كما قلنا اتفا فيه معنى النمو والتكاثر ، ففعل ( ذراكم ) يشير إلى أن البشر خلقوا متكاثرين ، وانتشروا في جنبات الأرض ، وتفرقوا في أربعة أقطارها . هنا تتسامل النفس : هل في قدرة الله أن يجمع البشر ليوم الحساب وهذا شأنهم من التفرق والانتشار في الأرض ؟ فقال تعالى في جواب هذا السؤال : ( وإليه تحشرون ) فهو قد مهد لذكر الحشر بذكر اللوة ، كما مهد بذكر الحشر لقوله ( ويقولون متى هذا الوعد أن كنتم صادقين ؟ ) أى أن هؤلاء المكذبين كانوا يسألون سؤال تعنت واستهزاء : متى يقع هذا الحشر والصلاب الذي تمدلونا به أيها المهددون - النبي وصحابته - أن كنتم صادقين في تهديدكم ، وتصفون الحقيقة في وعدكم لنا وعيدكم ؟

كان للمشركون يسألون النبي صلى الله عليه وسلم وصحابته الكرام من يوم القيامة الذي كانوا يعدونهم به . وسؤالهم هذا لم يكن الاسخريفة وتهكما . ولكن الله تعالى أمر نبيه في قوله ( قل إنما العلم بالغ ) أن يجيبهم على سؤالهم ، ويرد عليهم تهكمهم ، بما يفيد الجدل في القول ، والأعراض عن القفر . وان الرد عليهم بهذا الأسلوب لأشد تكاية ،وأبلغ في حلهم على الأصحاء والتدبر .

صَدِيقَيْنِ ﴿٢٧﴾ قُلْ إِنَّا الْعِلْمُ عِنْدَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴿٢٨﴾ فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً سَيِّئَتْ وُجُوهُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَقِيلَ هَذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تَدْعُونَ ﴿٢٩﴾ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكْنِي اللَّهُ وَمَنْ مَعِيَ أَوْ رَحِمَنَا فَمَنْ يُجِيرُ الْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابِ إِلَهِهِ ﴿٣٠﴾ قُلْ هُوَ الرَّحْمَنُ عَمَّا يُشْرِكُونَ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا فَسَتَعْمَلُونَ مِنْ هُوٍ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿٣١﴾ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْرًا فَمَنْ يَأْتِيكُمْ بِمَاءٍ مَعِينٍ ﴿٣٢﴾

ومثال المتعدي أن تقول « سألني منك أن تفعل كذا » و « ساء الناس ظلم حاكمهم » . وتقول في جهوله سيئوا . وأصل الكلام في الآية هكذا « ساء قرب يوم القيامة وجوههم » ، أي أن قربه اتقى عليها سواد الحزن وأقفر ألهم والقلق . ومعنى قوله ( سسيئت وجوه الذين كفروا ) حصل لها ذلك . وخمس الوجوه بالذكر لأن آثار الانفعالات النفسية من حزن وكمد وتلق إنما تظهر عليها . والبال في ( تصمون ) مشددة . من الدعاء بمعنى الطلب والتداء . وقرئ أيضا ( تدعون ) بتخفيف الدال : أي تطلبون وتسالون : كما يقال « تدعون وتذكرون وتذكرون » بتخفيف الدال وتشديدها . بقى أن فعل ( دعا ) بمعنى طلب وسأل يتعدى بنفسه لا بالياء : فيقال « دعا حصول يوم العذاب » ولا يقال « دعا بحصوله » ولكن من لاحظ أنه يقال « أهاب به وهتف به » بمعنى دعاه وناداه لا يشك في جواز أن يقال « دعا به » إذا ناداه وطلب حضوره . على أنه لا مانع من جعل ( تصمون ) المشددة في الآية من الإداء الذي أسم مصدره دعوى ، وتمديته بالياء يساعد على ذلك ، كأنه يقول : هذا هو يوم القيامة الذي كنتم أيها المشركون تدعون به ، أي تدعون بطلانه ، وترغمون أنه لا يأتيكم . فما انتز أولاء ترونه زلفة أي قريبا منكم . والأفعال الثلاثة في هذه الآية وهي ( راوه ) و ( سيئت ) و ( قيل ) — قد جاءت بلفظ الماضي مع أن المتبادر فيها أن تكون بلفظ المستقبل ، لأن يوم القيامة الذي ستقع فيه هذه الأفعال مستقل على ماض ، لكنه عدل بها إلى الماضي جريا على أسلوب من أساليب بلاغة اللغة العربية ، وطريق من طرق التأكيد والمبالغة فيها . كأنه تعالى يقول : إن هذه الأمور الآتية محققة الوقوع بحيث يصح اعتبارها ماضيه ، فإنا أخبر عنها بصيغة الماضي إشارة إلى ذلك . ومثل هذا التعبير كثير الوقوع في القرآن وفي كلام العرب . وقال أبو مسلم : معنى ( فلما راوه زلفة ) فمتى راوه زلفة .

أصل معنى ( أوابت ) (١) الاستفهام عما إذا كان المخاطب يرى أو لم ير ؟ ثم سار يستعمل في مقام أخبرني) كان النبي صلى الله عليه وسلم يخوف المشركين من عذاب يوم القيامة ، ويهددهم أحيانا بوقوع العذاب عليهم في دار الدنيا كما وقع بالأمم المكذبة قبلهم . فكانوا هم ثلاثة يحاجونه ويستنزلون به ويشاقبونهم ، وآونة باللفظ والتلفظ يقاطبونه . أما هو فكان لا يئينه شيء من التصح لهم ، وتبلغ أمر ربه إليهم . وكان هذا البتة منه في دعوتهم ببرهم وبحرج صدورهم ، فكانوا لا يجدون تفريحا لكرهتهم سوى الدعاء عليه بالهلاك ، أو أن يقول بعضهم لبعض : أظلموا بالكم عليه فهو لا يئين أن يفد عمره ، وبآيته أجله ، فنستريح منه ومن لجاجته . فلا تعالى في هذه الآية بتشدد عزيته ، ولفظه حجتته ، ويقول له : قل لا أولئك القوم : أخبروني إذا استجاب الله دعوتكم في ولى سبحانه فأتاكم أو لا ؟ فماتوا فآخر موتنا إلى أجل — فلماذا يفيدكم

طلبوا أن يعرفوا الوقت الذي يحاسبون فيه على أعمالهم ، فاجبوا بأنه ليست وظيفة النبي سوى تخويفكم عذابا محقق الوقوع في ذلك اليوم . وإذا كان الأمر محققا كان الواجب عليكم الإذعان والتصديق وترك العناد . أما معرفتكم زمن وقوع العذاب فهذا لا تدخل له في التخويف والإنذار . فملك بأن القصص لابد أن ينالك إذا أنذيت هو الذي يأخذ بحجزك من الوقوع في الدن ، فلذا تحققت القصص ، بل إذا ظننته ظنا لا يق لك أن ترمي وكف . أما تسألك من الوقت الذي يقع فيه القصص فلا يكون لائقا بك ، بل لا يكون من اللازم تعيينه لك ، لأن التعيين لغو ، والسؤال منه غرقة أو مشافهة ، أو خروج من الصدود كما يقولون . وكان رؤساء المشركين بقصدون من وراء هذه المشافيات تضليل أفكار العامة وضعف العقول من أهل مكة ، فيتوهم هؤلاء أن العلم بوقت حلول العذاب شرط للتصديق به ، فلا يعمدون بخافون العذاب ، ولا يؤمنون بيوم الحساب . فجاء الوحي وأذا عليهم ، مبطلا حججهم ، مشسرا إلى أن التصديق بالعذاب لا يتوقف على معرفة الوقت الذي يقع فيه ذلك العذاب .

( اذلولوا ) و ( تزلزلوا ) اقتربوا بعد أن كانوا متباعدين . و ( الزلزل ) على وزن ( حبل ) بمعنى الازدلاف . ومثل الزلزل ( زلقة ) على وزن غرقة . والضمير في ( راوه ) يرجع إلى اليوم المحدث منه . وكان الظاهر أن يضع الوصف موضع المصدر فيقول « فلما راوه مزدلفا » أي مقتربا منهم ، لا ( زلفة ) أي اقترابا . نعم هذا هو الأصل في التعبير ، ولكن المدلول إلى المصدر كثيرا ما أفاد المبالغة والتأكيد ، فان قولك « زيد هلل » أبلغ وأكدم من قولك « زيد عادل » . والتعبير بزلقة في الآية بغيد اشتداد قرب يوم القيامة ، وأنه دان من مواقع إبصارهم .

( وسوء ) جهول ساء . والسوء القبح ، يستعمل لازما ومتعديا . مثال اللذان أن يقال « ساء طبعك » و « ساءت أحوال البلاد » أي صارت سيئة قبيحة .

(١) في مثل قوله صلى ( أوابت أن كذب وتولى ) ومثله في خطاب الجمع هنا ( فإيتهم أهلكتي ) .





## بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

تَوَالِقَمٌ وَمَا يَسْطُرُونَ مَا أَتَى يَنْعَمَ رَبِّكَ

المراد من (ن) احد حروف الهجاء : افتتحتمالي هذه السورة بحرف النون ثم اقسام بالقلم . كما افتتح سورة اخرى بحرف القاف ثم اقسام بالقرآن مد قال تمالي (ن) والقرآن المجيد) والدليل على ان المراد بالنون هنا حرف الهجاء المعروف لا مسمى آخر كالصوت او الدواة - كتابتها بصورة الحرف هكذا «ن» وسكون آخرها ، فلم يقل (نون او نونا او نون) بالثنوين .

ولو كان المراد بها الصوت او الدواة ، لكتبت بالحروف هكذا (نون) ولدخلت عليها علامات الاعراب كما دخلت على (القلم) المجزوء بحرف القسم . وحجة من قال : ان المراد بنون في الآية (الدواة) - ان النون ذكر مع القلم والتسطير به ، فمد اقسام الباري سبحانه بهما اي (بالقلم وبما يسطرون) ناسب ان يقرن بهما ثالثهما الذي هو الدواة . اما النون بمعنى الصوت فيبعد ان يكون مراداً من النون في الآية ، اذ لا نسب بينه وبين القلم والتسطير ، ولا علاقة له بهما . غير ان المفسر التيساري روى من بعض التفاسير ان اصحاب السحر (١) يستخرجون من بعض الحيتان شيئاً اسود كالنفس (اي الحبر) او اسود سواداً منه يتكون به ، فيمكن ان يكون المراد من (نون) في الآية ذلك الحبر (٢) الاسود المستخرج من الصوت المذكور (وقيل هو الاخطبوط) وخصه بالذكر من بين سائر انواع الحبر المعروفة يومئذ لشدة سواده اولا ولواماته ورووس الآي ثانياً .

وقال في تأويل (نون) - مراداً بها حرف الهجاء

(١) اراد بهم رجال الصنعة او علماء الكيمياء كما نسبهم النور ،  
(٢) واذا اريد من (النون) الحبر على تأويل الصوت جاز ان يراد من الحبر الدواة كما ذهب اليه الحسن البصري . وقد جلد في تزيينات السيد الجرجاني ما فصح «النون» هو العلم الاجمالي يريد به الدواة ، فان الحروف التي هي صور العلم موجودة في مدادها اجمالاً على قوله تعالى (ن والقلم) - هو العلم الاجمالي في الحفرة الاحدية ، والقلم حفرة التفصيل ، وهذا ما جعل المستشرق كزيميرسكي مترجم القرآن يفسر في معجمه العربي الفرنسي النون بقوله : (Résumé de toutes les sciences) اي خلاصة جميع العلوم . اهـ - المؤلف .

ذلك ما دعيت مقيمين على كفركم ؟ هل تحسبون موتنا ينجيكم من العذاب ؟ او هل تم من يدخلكم في جوارحه فتخلصوا من الهول ومناقشة الحساب ؟

وهذا طريق ثان من الطرق التي علمها الله نبيه في الرد على المشركين الذين كانوا يدعون عليه بالهلاك تارة ، وينتظرون موته نافذاً الصبر تارة اخرى . فهو يقول له : قل لهم يا محمد ان هذا الاله الذي ادعوكم الي عبادته والايان به رحيم بخلقه ، فهو تعالى لم ينزل عليكم الوحي عبثاً ، ولم يرسلني اليكم سدى ، بل في ذلك كله مصلحة لكم وطريق لخلاصكم ، فكيف يجيب دعوتكم في ، فيهلكني انا ومن معي قبل ان تنفذ مشيئته ، وينتشر دينه ، وتملؤ كلعة . ولا سيما انا قد آمنه به تعالى ، فلم نشركه به احداً ، وتوكلنا عليه وحده ، فلما نطلب من غيره معونة ولامداداً ، فويل اذا كنا كذلك يكون من الرحمة اهلاكنا ، واجابة دعوتكم فينا ، وترك العالم على ما ترون من شيوخ الكفر والفساد فيه ؟

كلا ! لا يتصور ان يهلكنا الله لاجل دعوتكم ، بل هو بالغ امره في خلقه . وستعلمون من منا الذي حاد عن طريق الهداية ، وابعد من مواقع الحق ابتعاداً ظاهراً . وذلك حينما تتم لنا الغلبة عليكم ، وتصلو كلمة الاسلام في ارضكم .

(غوراً) مصدر غار الماء نضب وذهب في الارض . وكان الظاهر ان يقول : ان اصبح ماؤكم غائراً . لكنه وصف بالمصدر للمبالغة كما مر بيانه منذ قوله (زلقه) و (ماء معين) اي جار على وجه الارض منظور بالعين ووزنه (مفعول) من عانه اذا نظره بعينه او (فمفعول) من معن الماء في جريه اذا اطرد وتسلل ، فكان ذلك اعون على ثقافته وطهارته ، وتخليصه من الشوائب . لم يشأ تعالى ان يختم آيات التهديد والانذار التي خاطب بها المشركين المكذبين بغير كلمة تذكر يستعمل بها قلوبهم ، ويستلین مراتكهم ، فهو بمن عليهم بالماء الذي جعله يجري تحت مواقع ابصارهم ، وعلى مقربة من متناول ايديهم . هذا الماء خرج من تحت الارض وسال على ظاهرها بمحض قدرة الله ومحكم تدبيره ، فلو اراد الله تعالى ان يفيض ذلك الماء ويلهب في الارض بحيث لا يمكن ان يتوصلوا اليه - فمن يقدر على ايجاد ماء لهم يسقي زروعهم ويطفيء عطشهم ؟ وقد مهد لذلك هذه النعمة بذكر الرحمة والتوكل في الآية السابقة ، فقد ذكر فيها انه تعالى رحيم ، وان النبي صلى الله عليه وسلم وصاحبه يتوكلون في امورهم وسائر تكاليف حياتهم عليه تعالى ، فمن رحمته تسهيل امر السقيا عليهم بخلق الماء وسلكه بنابيع في الارض ، ثم خروجه وجريانه على وجهها .

وكما ان الماء الذي هو مادة حياة البشر ، مثال من امثلة رحمته تعالى - هو ايضا مثال مما يتوكل النبي والصحابه عليه تعالى في تناوله من مجاريه ، والارتفاع به عن كذب ، فلا جرم ان ينتهي المشركون الى ذلك ، فيتوكلوا على الله تعالى ايضاً في مسائر مراقب حياتهم ، كما يتوكل النبي صلى الله عليه وسلم والمؤمنون ، فان ذلك خير لهم لو كانوا يعلمون .

يَحْتَرُونَ ① وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَحْشُورٍ ② وَإِنَّكَ  
لَعَلَّ خَلْقٍ عَظِيمٍ ③ فَتَنصِرْ وَيَصْرُورَ ④ بِأَيْدِيكَ  
الْمُفَنُّونَ ⑤ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ  
وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْثِدِينَ ⑥ فَلَا طَيْعَ الْمَكِيدِينَ ⑦

المعروف - ما قيل في تأويل سائر حروف الهجاء التي  
افتتحت بها بعض السور ، وأحسن الأقوال فيها أنه  
تعالى ذكرها لتنبية الشريكين إلى أن القرآن إنما ألقت  
كلماته من جنس ما تؤلفونه كلماتهم ، أي من حروف  
الهجاء العربية المعروفة لديهم والتي تتلقونها صبيتهم ،  
فلم ينزل القرآن بكلمات خارقة لعادة في حروفها ،  
سبانية المألوف في مواد تركيبها ، فكيف مع هؤلاء عجزوا  
من الإتيان بمثله ؟ وكلاهما ( ١ ) من تركيب جمل كجمله ؟  
لا جرم أن يكون العديد من حروف الهجاء على هذه  
الصورة في فوائده السور من أبلغ الأساليب في التحدي  
والمنازلة ، واجتنبها في التفرع والمعابة .

والأصل في القسم أن يكون تأكيد الخبر في نفس  
المخاطب ، وإزالة الريب الذي يوشك أن يكون خامره  
في صدق الحالف ، هذا هو الأصل في القسم ، ولكنه  
قد يضمن أحيانا تنبيه المخاطبين إلى شرف القسم  
به ، وما لهم من ضروب النفع فيه ، وأكثر ما يكون  
هذا المعنى في الأنعام الواردة في كلام الله تعالى ، ففي  
سورة العصر حلف بالعصر وهو الوقت تنبيهاً للبشر  
إلى عظم فائدته ، وأنه مما لا يحسن التفريط فيه  
بإضافته في البطالة والأهول . ومثل ذلك حلفه تعالى  
بالقرآن ، والسبأ ، والليلى ، والنهار ، والفرج ،  
والضحى .

قال استاذنا الشيخ محمد عبده في تفسيره قوله  
تعالى ( والنازعات غرقا ) إذا رجعت إلى جميع  
ما أقسم الله به وجدته أما شيئاً أكثر من بعض الناس ،  
أو احتقره لفصلته من فائدته ، أو ذهل عن موضوع  
العمرة فيه ، ومعنى ما فائدته ، أو خلقه ، أو أنقص  
عليه الرأي في أمره فاعتقد فيه غير الحق الذي فرد  
الله شأنه عليه ، فيقسم الله به أما لتقرير وجوده  
في عقل من ينكره ، أو تعطيل شأنه في نفس من يحتقره ،  
أو تنبيه الشعوب إلى ما فيه عند من لا يذكره ، أو  
لقلب الاعتقاد في قلب من أضلله الوهم ، أو خاتمه  
الفهم اهـ .

أما الحلف بالقلم فهو حلف بأعظم نعمة أتم الله  
بها على نوع الإنسان ، بعد نعمة النطق والبيان : نعمة

( ١١ ) أي تفتقدوا وتقصوا .

الناطق مازنه من الصجارات ، ونعمة القلم نشرت بين  
أفراد أنواع الشرائع ، وحقائق المعلومات ، فلو القلم  
لم يمد يد ولا كان عمران ، وإذا أردت أن تقبس حالة  
جملات البشر من حيث الوقف في معارج المدنية فلا  
مقياس أدق من انتشار فن الكتابة فيهم ، فهو الذي  
يحدد درجة كل شعب من الحياة الاجتماعية ، ويضعه  
موضعه اللائق به في مصاف الأمم الحية .

وليس المراد من القلم في الآية الأداة المعروفة من  
حيث ذاتها ، بل من حيث عملها والأثر الذي ينشأ  
منها ، أعني نقل الأفكار والمعاني من نفس شخص إلى  
نفس شخص آخر . يدل على هذا قوله تعالى ( وما  
يسطرون ) بعد قوله ( والقلم ) : كأنه يقول حلف بالقلم  
وبالسطر الذي يفعله الكاتبون . فما في قوله ( وما  
يسطرون ) مصدرية . فهو تعالى يحلف بفن الكتابة  
التي تعددت وسائلها ، فكان منها القلم وآلات الطباعة  
وسائر أدوات الكتابة ، كالنسخة المعروفة باسم  
« تايپ رايتير » ، وكل ما يمكن أن يخترعه البشر  
ويستعملوه في الوصول إلى هذا الغرض . ولا نزاع  
في أن هذه المدنية العبقريّة والعمران العجيب الذي  
توصلت إليه الأمم في عصرنا الحاضر ، إنما هو نتيجة  
من نتائج فن الطباعة واستعمال المطابع المدهشة في  
سرعتها ، وإتقان صنعها .

فانظر إلى قوله تعالى ( وما يسطرون ) ما أحسنه !  
وما اللطف إبراده في هذا المقام ! ! وهو في الحسن  
يشبه قوله تعالى ( ويخلق ما لا تعلمون ) بعد قوله :  
( والخييل واليغال والحيمر لتركبوها وزينة ) . فهو تعالى  
يعلن على البشر أن هداهم إلى وسائل النقل ، فذكر  
الوسائل الحيوانية المعروفة لديهم في عهد التنزيل ،  
ثم أشار إلى أن هناك وسائل أخرى يخلقها ولم يعلمها  
البشر بعد ، فكان من هذه الوسائل السكك الحديدية  
والأوتوموبيلات وسائر ضروب السيارات ، ولا تنس  
أدوات النقل التي تسير على وجه المساء ، كالسفن  
والوايورات ، أو تخترق طبقات الهواء ، كالمنطاطيد  
والطائرات . وما يدركنا أن سيخلق الله وسائل أخرى  
للتنقل غير ما ذكر ، يهدي إليها البشر ، وتكون أعجب  
من تلك وأجمل ، وادق في الصنع وأمثل .

هذه السورة أنزلت في مكة . وآياتها الأول من  
أول ما أنزل عليه صلى الله عليه وسلم بعد سورة  
( اقرأ باسم ربك )

لما نزل جبريل على النبي في غار حراء وقال له :  
اقرأ ، قال : ما أنا بقارئ ، ثم لقته سورة ( اقرأ ) باسم  
ربك الذي خلق ) فحف بها إلى خديجة رضي الله عنها  
فأخذته إلى ابن عمها ورقة بن نوفل فقص عليه ما جرى  
له ، وشاع أمر دعواه في مكة ، وإن ورقة قال له : إن  
هذا الذي كلمك هو الناموس الذي كان ينزل على  
الأنبياء قبلك ، وتعني ورقة لو يطول عمره فيعززه  
وينصره - لا كان كل ذلك ... أخذ كقار يخشى  
يقولون أنه صلى الله عليه وسلم مجنون ، يريدون  
بذلك صرف القلوب عنه ، وتزويد الناس فيه ، فلا  
يسمعون قوله ، ولا يتدبرون ما أتاهم من عند الله به ،

فبعد ذلك أنزل الله عليه هذه الآيات مثبتة له ومذكرا بفضل الله عليه .

وقوله ( **بِئْسَ مَا يَكُونُ لَكَ** ) مثل ( **بِغَضَلٍ** ) فيصا إذا قلت لآخر أنت بغضل الله غير محتاج إلى أحد . والمعنى أن وصف الجنون متف بصفته منك يا محمد بسبب إتمام الله عليك بالأخلاق الحسنة ، ولطفه بك مذ ربك تربية حميدة . وكيف يصح في العقل أن يكون صلى الله عليه وسلم مجنوناً وهو ليوم خروجه من مكة مهاجراً إلى المدينة كانت لديه أماتات وودائع لأولئك الذين كانوا يصفونه بالجنون ، وقد خلف سيدنا علياً كرم الله وجهه في مكة ليؤديها إلى أربابها . فهل يكون مجنوناً ذلك الذي لم يجدوا من ياتمونهم على ذخائرهم سواء ؟ نفى الله من نبهه الجنون وأثبت له أمرين يستحيل أن يكون معهما مجنوناً : أحدهما إتصافه بالخلق العظيم والطيب الكريم ، والجنون لا يكون كذلك . ولأنهما الأجر والثواب الذي أعده الله له يوم القيامة ، وقال أن ذلك الثواب ( **غير مجنون** ) أي غير مقطوع ولا منقوص . كما قال تعالى في محل آخر ( **عطاء غير مجدود** ) أي غير مقطوع . ومن كان له يوم القيامة أجر على مساعيه وأعماله وتحمله المشقات في سبيل الدعوة إلى الله كيف يكون مجنوناً ؟ والثواب إنما يعتمد العقل ، لأن الثواب يكون على العمل ، والعمل المشاب عليه يعتمد الإرادة والاختيار ، والمجنون لا إرادة له ولا اختيار ، وليس هو بمكلف لشيء أو بمعاقب : وبالجمله فان دعوى أهل مكة أنه صلى الله عليه وسلم مجنون دعوى باطلة لا أساس لها ، ولا حجة تعتمد عليها . وهنا أمر جدير بالذكر والتدبر : ذلك أنه صلى الله عليه وسلم كان أمياً ، لا يقرأ ولا يكتب ، وأمره في ذلك متماثل في قومه مشهور فيهم . ثم لما أنزل عليه الوحي كان أول الآيات نزولاً عليه آية ( **اقرأ وربك الأكرم الذي علم بالقلم** ) وآية ( **والقلم وما يسطرون** ) والآيتان وودنا مورد الامتنان على الامم بما وهبهم الله من نعمة الخط وصناعة القلم ، والشأن في من لم يكن له تلك الوهبة أن يكون منتقصاً بين قومه مقضولاً فيهم ، فهل يعقل أن يفتري محمد صلى الله عليه وسلم على الله بأدعاء النبوة ثم يقبضاً قريشاً قبل كل شيء بما ينهيمهم إلى نقص يحسبونه فيه ، ويعيب بدعوى عليه لا لجرم أنه صلى الله عليه وسلم مدعوع إلى إعلان ما أتى به من الدين والوحي بسائق سادى لا يقوى على رده ، ولا طاقة له بكتسابه ثم لا يبرز من فكر الفطن أن جهل الخط والكتابة أن كان نقصاً في غيره صلى الله عليه وسلم فهو فيه حميدة ومزية وآية كبرى على صحة دعواه الرسالة ، كما أشار تعالى إلى ذلك بقوله ( **وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولا تخطه يمينك إذا لارتاب المبطون** ) .

قد يلحق قلب الله صلى الله عليه وسلم شيء من التائر والوجد على أولئك المكذبين الذين يصفونه بالجنون ، كما يخيل إلى هؤلاء المكذبين أنهم بهذا البلاء والتل من الرسول ، قد فارقوا عليه ، وكفوا مؤونة الأذمان له ، والاهتمام بامر دعوه . فقال تعالى مسلماً له صلى الله عليه وسلم ومذكراً ، ومهملداً

المكذبين ومحلداً : مستري هما قريب يا محمد . كما يرى أولئك الذين وصفوك بالجنون . عاقبة أمرك وأمرهم ، وتعلمون جميعاً أي الفريقين منكم هو المصاب بالجنون واختيال العقسل في الواقع ونفس الأمر . والعاقبة المنظرة هي ما يكون للمؤمنين من الفوز والقلبة والفيت ، وما يلحق المشركين من الخلال والاستسلام . وقد صدق الله وعده ، ونصر جنده ، وهزم الأحزاب وحده .

ومعنى قوله ( **يَا أَيُّهَا الْمَثَلُونَ** ) ؟ من منكم هو المجنون ؟ ولكن الوصول إلى هذا المعنى يكون بأحد طريقين : إما بجعل الباء صلة زائدة كما هي في قوله تعالى ( **وهزى إليك بجدع النخلة** ) وقول امرئ القيس « **هصرت بغضن ذي شاربخ ميسال** » وقول الأثني « **شمنت برزق عيالنا أرواحنا** » وتكون كلمة الفتون اسم مفعل من فتى إذا أصيب بفتنة أي محنة وبلاء : من ذهب عقل أو مال أو موت وولد أو حميم . فالعنى هنا سترون أيكم الذي فتى وإبتلى بالجنون وذهاب العقل . وأما بجعل الباء أصلية ومعناها الالتصاق ، والفتون مصدر بمعنى الفتون أي الجنون . وقد ورد المصدر بصيغة اسم الفعول في النفاط قليلة ، كالمفتول واليسور والجود بمعنى العقل واليسر والجلادة . أي سترون بأي الفريقين - منا ومنكم - الجنون ؟

ولما كانت زيادة الباء ورود المصدر بصيغة اسم المفعول أمرين ناديين ، كان القولان المذكوران في تفسير الآية موضعاً للنظر . ومن ثم ذهب آخرون إلى جعل الباء أصلية بمعنى في ، وإبقاء الفتون بمعنى اسم المفعول ، وبكون حل المعنى هكذا : سترون الفتون والمجنن بالجنون في أي الفريقين ؟ في فريق المؤمنين أو في فريق المشركين . وبكون الكلام مبنياً على التعريض بالمشركين بأن الجنون فيهم ، لا بدعهم إلى غيرهم . ووصفه تعالى لهم بالجنون مشاكلة لوصفهم له صلى الله عليه وسلم بذلك ، وألا فهم ليسوا بمجانين حقيقة ، بل وصفوا به من حيث أعراضهم من الحق ، واتباعهم اليوم .

وهذه الآية أيضاً من قبيل التعريض بالمشركين الذين أدوا النبي صلى الله عليه وسلم ووصفوه بما هو موصوف بضده من كمال العقل وسلامة الشعور فلا يمكن لأحد أن يعلم من صفات البشر وأطوار نفوسهم ما يعمله موجدكم الذي خلقهم من تراب ثم من نطفة ثم من علقة ، فهو تعالى يعلم الذين حادوا عن سبيل رضاه ، كما يعلم الذين سلكوا هذا السبيل وجهدوا من صالح أمرهم إلى الصراط المستقيم .

ولا ريب أن المكذبين هم الذين حادوا عن سبيل الهدى ، وواقعوا مهوى الردى ، فما أشبههم أن يكونوا هم الجانين ، لا سيما محمداً صلى الله عليه وسلم الذي هداه ربه إلى حيد الحاصل ، وطيعه على مكارم الأخلاق .

مر آتفاً أن هذه السورة من أوائل ما أنزل عليه صلى الله عليه وسلم من سور القرآن ، وكان صلى الله عليه وسلم إذ ذاك لا يامر له سوى الله ، ولا مؤنس

وَدُّوا أَنْ تُدْعَىٰ فَيُدْعَوْهُنَّ ﴿١٠﴾ وَلَا يُطْعَمُ كُلُّ حَلَّافٍ

مَيْمِينَ ﴿١١﴾ فَمَنْ شَاءَ يَتَّبِعْ ﴿١٢﴾ مَتَّاعٌ لِلْعَمَلِ مَتَدٍ

أَتَمِّمِ ﴿١٣﴾ عَمَلٍ بَعْدَ ذَلِكَ زَنِيمٌ ﴿١٤﴾ أَنْ كَانَتْ

دَا مَالٍ وَبَنِينَ ﴿١٥﴾ إِذَا تَسَلَّىٰ عَلَيْهِ ءَايَتُنَا قَالَ أَسْطِيرُ

سوى الحق، ولا مباح سوى نفسه . وكان المشركون في معظم كثيرهم أواج مزتهم ، وكانوا مع ذلك يمتنون لو يخفض لهم في القول ، ويصاحبه في ترك بعض ما يمدحهم إليه ، وهبادة بعض ما كانوا يعبدون من الطواغيت ، وهم في مقابل ذلك يثبتون على مصانعتهم والأدهان له في بعض ما يكلفهم آباءه ، ويدعوهم إليه . وهكذا يبنون أمرهم معه على مواطاة وطياف ، ويدبلون النفاق من الشقاق .

وقوله ( فيدهنون ) مرفوع على الاستئناف ، أي فهم يدهنون له لمذ الآن ، ويبتظرون منه أن يدهن لهم جزء أدهانهم . ولو نصب فقيل ( فيدهنوا ) كان المعنى : ودوا أن يدهن لهم فيصاكنوه على أدهانه بأدهان مثله . وليس هذا المعنى مراداً في الآية .

وقد كان المتفائلون من المشركين يتوقعون فيه صلى الله عليه وسلم الميل إلى هذا الرأي من أمر المداينة والمصانعة وحل المشكلة بينه وبينهم على هذا الوجه . غير أنه خاب ظنهم ، وكتب قالهم ، فإن الأمر ليس كما يظنون ، وللاقتلابات الدينية الكبرى أسرار لا يعلمها إلا الله والراشخون ، ولكن ما يدرينا أن تكون تسويلات المشركين وتوبيهاتهم قد ألفت في نفسه صلى الله عليه وسلم برذا من الأمل ، وحببت إليه موافقتهم في بعض العمل ، فجايت هذه الآيات تلذذ نار همته ، وتشهد من غرأ مزيمته ، فذكره الله في فاتحة السورة بما كان يصفه به أولئك المتعلقون من الجنون واختلال الشعور ، ثم ذكره ثانية بأن القوم يقولون عنه أنه كاذب ، فكيف مع هذا يصح منه أن يطعمهم فيما اقترحوه ، ويطعمش إلى وقدهم بأنهم يؤمنون ببعض ما جادهم به . فهذا الاقتراح منهم ليس سوى مراوغة وخداع ، لا جرم أن يبقى موقف النبي صلى الله عليه وسلم أزا همهم - وهذه حالهم - موقف التشديد في دعوتهم ، الملح بطلب الإيمان منهم . والا فإن التساهل معهم يغريهم به ، ويزيدهم جرأة في الاقتراح عليه ، وبهذه الصورة يتصلصون من البقرة شيئاً فشيئاً ، وينفض أشباعه من حوله حالا فحالا ، فلا يعود يستوثق للرسالة أمر ، ولا ترسيخ للإسلام قدم .

ومن ثم نهأه الله عن اطاعتهم ، ونهيه إلى أنهم ينظرون منه أن يخون أو يتسامح لهم في تبليغ بعض

مالهم بتبليغه في مقابل خيانتهم هم أيضاً وتسامحهم ، ثم يفسد الأمر عليه أخيراً ، فليكن على حذر من ذلك . وهذا التعليم القرآني من أحسن ما يستفيد منه زعماء الأمم حكمة ويتقلا لما عساه يعترض سيرهم من موانير التملات والأمانى . فالقرآن يرشدكم إلى وجوب التحنى عنها وعدم الانخداع بها .

أما قوله تعالى ( تدهن فيدهنون ) فهو من الأدهان بمعنى المداينة المعروفة ، وهي ضرب من الخيانة : قال المبرد : « أدهن الرجل في دينه وداهن في أمره إذا خان فيه واطهر خلاف ما يفسر » . أما اشتقاقه فمن الدهن . والدهن البيل ، يقال : دهن المطر الأرض إذا بلها بلا يسرا ، فلما كان الدهن وهو البيل يلين الشيء بعد يسره صح أن تشبه المصانعة ولين القول بالدهن والبيل ، فإن الدهن يلين اليأس ، والمصانعة تلين نفس من تريد خدامه ، وتكتف من جماعه ونفوره . وبما كان الأدهان والمداينة من الدهن والدهان بمعنى الصبغ والصباغ ، فإن اللابنة وكلمات المصانعة جميلة أتت في ظاهرها ، ولكن ليس تحتها حب صميم ، ولا إخلاص صحيح ، فهي مثل دهان تصبغ به الشيء وتلون ظاهره بما يجعله موقفاً مجبياً في بادئ النظر ، ثم لا يكون كذلك في الواقع ونفس الأمر .

نهى الله نبيه في الآية السابقة عن اطاعة المسكين فيما اقترحوه عليه من مصانعتهم وملايئنتهم ، وإن يقبل منهم التصديق ببعض ما يدعونه إليه دون البعض الآخر مما لا يوافقهم ، ولا يلائم أذواقهم . وقد ذكر تعالى هؤلاء المكذبين لمة يبنون عام . أما في هذه الآية فقد نهى الله نبيه عن اطاعة واحد منهم بعينه جمعت فيه خمسال عشر غاية في القبح والشفاعة ، معرضاً بذلك الشخص تعريضاً ، مدخلاً له في كل من كان مثله في استجماع الخصال المذكورة . ولما كان من المستبعد أن تجتمع هذه الخصال جميعها في اشخاص كثيرين فإن الله بنى بالضرورة إلى أن المقصود واحد بعينه اتفق أنصافه بتلك الخصال وإن كانت قضيته مسورة بالسور الكلى ، أمضى كلمة ( كل ) في قوله ( كل حلاف ) .

وإن إيراد الكلام على هذا الأسلوب ، وإفراغ التعريض في هذا القالب لبو من الصنن والوصول إلى الغرض يمكن .

وقد أخلقت المسرون في الشخص الذي أريد التعريض به ، والأكثر من آتة الوليد بن المغيرة المخزومي (١) .

كان هذا الرجل من رجالات قريش وسادتهم ، وكان في سعة من المال وكثرة من الولد ، وكان يقول لأولاده وأبناء عشيرته ، كلما أتس منهم ميلاً إلى النبي : « لئن تبع دين محمد منكم أحد لا أتفه بشيء أبداً » فكانوا بسبب ذلك يمتنعون عن الإيمان به صلى الله عليه وسلم .

(١) وسيلاني في سورة الدخان آيات في صفات الوليد هذا ، أدولها : « ذنبي ومن خلقت وحيدا » . فاللاراد بالخلق فيها الوليد بن المغيرة نفسه . اللؤلؤ

كان إشراف قریش وفيهم الوليد بن المغيرة يطلبون من النبي أن يتنازل لهم من بعض ما تكلفهم من أمور الدين ، ليحصلوا الله نبيه الوقوع في أفعالهم عامة ، وأشارك الوليد خاصة ، لأن ما في الوليد من الأخلاق والأطوار مظنة أن يؤثر في نفسه صلى الله عليه وسلم اتخذها أو صمته ، ولذلك أسهب الوحي في التعريف بالوليد ، ووصف أحواله ، وتصور مستشع خصاله بحيث إبرزه للعبان إيماء محسوسا ، وشبطانا بالاعتبات مسوما . تلك الخصال أو السمات العشر :

١ - كثرة الحلف بالله تعالى . وسيأتي من جملة خصاله القبية والتمعية ، فينبغي ألا يكون متصفا بالكذب ، والكذب أخوهما الشتيق . فوصف الله الوليد بأنه ( حلفاء ) قد يكون المراد منه أنه كذاب وأنه من الكذاب في أفعاله ، فهو يكذب ويكذب عليه بالحلف بالله ، ويروج بطله بذكر اسمه تعالى ، وهو استخفاف منه بمقام الألوهة ، وجعل بمظنة الله تعالى وما يجلب اسم الكريم من التوقير والتعظيم ، ولا يكثر الحلف عادة إلا من عرف أن الناس لا يصدقونه فيما يقول ، فهو يحلف لهم ليصدقوه . فكثر الحلف مظنة الكذب . قال الشاعر :

وأكلب ما يكون أبو المثنى إذا آلى يمينا بالطلاق  
وقد كان الصعبة رغبوا الله عليهم يضيرون  
أولادهم إذا سمعهم يحلفون تعويلا لهم وتقويما  
لأخلاقهم .

٢ - ومن صفات الوليد أنه ( مهين ) والمهانة الحقارة ، وليست حقارته في نفسه وانحطاط شأنه في قومه ، وإنما هي حقارة الرأي ، وضعف التمييز ، وقلة التدبير في هواقب الأمور . ولو كان جيد الرأي ، وأمر التدبير ما آل أمره إلى الجحود والكفر ، أو ما كان كاذبا ، ثم يقيم دليلا على كذبه كثرة حلفه ، واستخفافه باسم ربه .

وإنما قلنا أن المراد من المهانة مهانة الرأي لا مهانة الشأن والمكانة ، لأن من جملة خصال الوليد التي ذكرها أنه يكثر الوقية في الناس ويظلمهم ، ويمالهم بالسوء والعنف ، وأنه كثير المال والولد ، ومن كان هذا شأنه كان مهيبا مرضي الجانب موفور الحرمة في قومه ، لا محقرا وضعيف القدر فيه . وقد يقال أن الظالم المالى كثير المال والولد يكون رفيع المنزلة عظيم الخطر في نفوس الجاهل والصامة ، أما متسدد أرواب الفضل والعقل والدين ، فمنزلة متحطة ، وقدره مهين ، فلا جرم أن يكون الوليد مهيبا بهللا المثنى أيضا .

٣ - ومن خصاله العشر أنه ( همال ) ، والهمز في اللغة التثني ، ومنه الهماز للغباء . وهو أيضا الضرب والعنف والسطط . قالوا لأمرأى « أتمز الصارة » يريدون أنطق بها مبهوذة لا تفهم يقولون : أنفصا وتفصطعها لها ! فأجابهم : « إلهي يهزمها » . ثم استعمل الهمز في العطن في الناس والنفس منهم ، وذكرهم بالكره ، وهو الدمر أيضا : يقال هو « همر »

لرة : كما يقال همار . وطرق همز الناس وتحقير أمرهم كثرة متشعبة : يهزمهم الهماز لحين العداوة ونوره الحقد ، أو وقت الهزل والسخرية ، يهزمهم في دينهم وأخلاقهم ، أو في هيتاتهم ويختلف أطوارهم ، يهزمهم في حضورهم ، أو وقت غيابهم ، يهزمهم بلسانه ، أو يشمر اليهم برأيه أو عينه ويثانه ، كل هذا يدخل تحت الهمز ، ويقال لفساده أنه همار . وقد روى أن الوليد المذكور من أكبر الهمازين ، فقد كان يهزم النبي صلى الله عليه وسلم ويذكره بالسوء في غيبته ، ويطن عليه في حضوره ، وكان يلقب الناس بالقاب السود كما يفعل السفهاء والتخوت .

٤ - ومن خصال الوليد أيضا أنه ( مشاء بنميم ) أي يمشي بين الناس بالنميمة ، فيثقل حديث بعضهم إلى بعض بقصد أفساد ذات بينهم ، وإلالة الأحقاد والمداوات في صدورهم .

٥ - ومن خصاله الملونة أنه ( مناع الخير ) ، أي يحول بين الناس وبين فعل ما يريدونه من عمل الخير ، والمراد من الخير كل عمل صالح : إيمان بالله ، أو أسداء صنعة ، أو أنفاق في وجه من وجوه البر . وقد يكون المراد بالخير الذي يمنعه الوليد أيمان بنيه وبني عمه وعشيرته ، فقد ذكرنا آنفا أنه كان يقول لهم : « لن تبع دين محمد متكم أحد لا أنفعه بشيء أبدا » .

٦ - ومن خصاله أنه ( معتد ) ، أي يتصدي حدود العدل والإنصاف في معاملة الناس ، فيظلمهم ويجور عليهم ، ويهضم حقوقهم .

٧ - ومن أوصافه أنه ( أليم ) ، أي كثير الألم ، والألم اللب وأن يعمل المرء ما لا يحل عمله .

٨ - ومن ذميم أوصافه أيضا أنه ( عتل ) ، والعتل بضم العين والتاء وتشديد اللام الأكل والشروب القوى الشديد يوسع في الميزان فلا يزن شعرة ، وقيل هو الأكل المنوع ، وقيل هو الجال الفليظ . أو يقال هو الفسخ في جسمه ، والشرة في أكله ، الفلظ في طبعه ، القبيح في نفسه ، السيء في معاملته ، وبالجملة هو الذي لا يطاق ولا يحتمل ، وعن أبي النرداء رضي الله عنه : « العتل كل رغيب الجوف ، وليق الخلق ، أكل شروب ، جموع للمال ، منوع له » . أه . ورغيب الجوف : واسع .

وربما كانت كلمة ( العتل ) أجمع كلمات اللغة العربية لمسارو الأخلاق ، حتى أن اللوم نفسه أصبح معنى من معانيها ، وأطخه من مجازيها .

٩ - ومن خصال الوليد ( بهت ذلك ) أي وراء كل ما تقدم من خصاله القبيحة أنه ( زئيم ) و ( الزئيم ) هو الذي يندس في القوم ويستلحق بهم في النسب ولا يكون منهم ، فهو ملحق بهم كالزئمة فيحق العتق والزئمة هنة تنبأ في جلد العنز وتتسلسل من عنقها كالقرط ، وهو خلقها ، وإنما هو في الضائقة والناقة فليس خلقا ، وإنما هو فيها أن تقطع من أذنيهما جلدة فتترك معلقة لتكون علامة تميز بها النصح الكريمة أو النافة الكريمة من سائر النعاج والنبات .

الْأَوَّلِينَ ﴿١٥﴾ سَمِعَهُ عَلَىٰ خُرُوطِهِ ﴿١٦﴾ إِنَّا بَلَوْنَهُمْ كَمَا  
بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِفُنَّهَا مُصْبِحِينَ ﴿١٧﴾  
وَلَا يَسْتَنْوُونَ ﴿١٨﴾ فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِّن رَّبِّكَ  
وَهُمْ نَاعِمُونَ ﴿١٩﴾ فَاصْبِرْ كَصَاحِرٍ رَّجُلٍ ﴿٢٠﴾ فَتَنَادَوْا

وقد ذكرنا أن الوليد لم يكن ذا نسب صحيح في قريش ، وإنما استحقه أبوه بعمضي ثلثي عشرة سنة من عمره ، فهو إذن زعيم ذي مصلصق . ومن معاني ( الزيم ) الرجل الذي اشتهر وعرف بين الناس بلؤه وخبثه وكثرة شروره ، فهو متنازل فيهم بصفاته هذه كما تمتاز الأشاة من بقية اخوانها برذلتها المتدلية في أذنها ، فمعنى كون الوليد زعيما صلى هذا أنه مشهور في قومه باللؤم والشر . وربما كان تفسير كلمة زيم في القرآن بهذا المعنى أصح به ، وأتزه له .  
١ - بقي من خصال الوليد الخصلة العاشرة ، وهي استخفافه بآيات الله ، وتسميته لها ( أساطير الأوليين ) ، أي أكاذيب يتداولها الناس بينهم من أخيار الأقدمين ، ليست صحيحة ولا تحدث في النفس الثراء ، وإنما تقال تفكهة وتسلية . وقد كان الوليد بن المغيرة كلما تليت عليه آيات القرآن رجاء النظر فيها والايان بها - مسخر منها وقال : أنها ( أساطير الأوليين ) .

وقوله تعالى : ( أن كان ذا مال وبنين ) علة لما قاله الوليد ، أي أنها قال الوليد هذا القول المنكر في القرآن لقرط غروره بأمواله وأولاده ، فإن التقصوي بماله ورعته يفتني ويغني ، ويتجاوز الحدود في الكفر والجحود ، وهكذا كان شأن الوليد .

ويحتمل أن يكون المعنى على العتاب المشوب بشيء من التوبيخ والتقريع ، كأنه تعالى يقول : أمن أجل أن كان الوليد منكما عليه من قبلنا بالمال والبنين أخذ يفتري على آياتنا كلما تليت عليه ويقول عنها أنها أساطير الأولين ؟ أهذا جزاء الإحسان ؟

وأظلم خلق الله من بات حاسدا  
لن بات في نعمائه يتقلب

وقد جعل بعض المفسرين قوله تعالى : ( أن كان ذا مال وبنين ) متعلقا بما قبله ، وهو قوله تعالى : ( ولا تطع كل حلاف ) الخ وليس متعلقا بما بعده وهو قوله تعالى : ( إذا تلى عليه آياتنا قال ) . وحل الآية على تعلقه بما قبله : لا تطع يا محمد من كان متصفا بهذه الأخلاق الرذلة ، مراعاة لكثرة ماله وتعدد ولده ، فإن انصافه بما ذكر من الأخلاق يستدعي التفرة منه ، والزراية عليه ، مهما أوتي من المال والولد ، لا الرعاة له ، والمجاهلة إلى حد الانطامة .

ويعد أن عدد الوحي مثالب هذا الجاحد المعاند

أراد أن يسجل عليه الخزي الأبدى فقال ( سنسمه على الخروط ) .

( الوسم ) هو أن تضع علامة على الشيء تميزه بها عن غيره ، و ( الخروط ) الهنة المستطيلة في موضع الألف من الفيل ، وتقوم له مقام اليد يتناول بها حاجاته . ويطلق الخروط أيضا على مقدم آنف الخنزير ، وربما كان استعمال الخروط في الإبهمني الألف متوقفا من المعنى الثاني أي خروط الخنزير ، تحقيرا لذلك الجاحد وبهكما به ، كما بهكم هو بآيات الله مد وسمها بأساطير الأولين . ( والوسم ) على الخروط كتابة عن الأذلال والخلل . قال المتلمس وهو من أقدم شعراء الجاهلية :

ولو غير أخوالي أرادوا تقيصتي

جعلت لهم فوق المرائين ميسما

أي أذلتهم وقهرتهم . وإنما خصوا الألف بالذكر دون سائر الأضلاع لكونه موضع ظهور أثر العزة والحمية والشم ، فإذا أرادوا أن يصفوا انسانا بذلك قالوا : « فلان شامخ المرائين » ، « وحمي آنف فلان » أي غضب وعزز . واشتقوا من الألف ( الأنفة ) بمعنى العزة والاستنكاف . وإذا أرادوا أن يصفوا أحدا بالذلة والهانة مكسوا وقالوا : « فعلت ذلك على الرغم من أنفه » أي قهره عنه . و « أرغم فلان آنف فلان » أذله وقهره . وأصل معناه أن يلصقه بالرغام وهو التراب و « جدد آنف فلان » دعاه عليه أو أخبر عنه بالذلة والهانة . والجدد القطع . ويقولون « فلان وسم فلانا ميسم سوء » إذا سبه مسبة فيهيبة بآنية بحيث تلصق به ، وتصبح كالسمة له .

ومعنى الآية أن الوليد بن المغيرة بما كان منه من التكذيب وإبداء النبي صلى الله عليه وسلم ، والتماذي في قبيح الخصال - استحق أن تسمه على خرطومه أي تلحق به ذلا وعارا يلزمه لزوم السمة في خرطوم الخنزير ، ويجعله مذكورا بهذا الوصف القبيح على السنة الأنام ، مدى السنين والأعوام .

وقد تحقق قول الله ، ونفذت مشيئته في الوليد ، فإن اسمه سبقتي مقرونا بالخزي والعار على كر الأيام والسنين ، وما تليت تلك الآيات التي سماها أساطير الأولين .

ومغزى الآية تسلية النبي صلى الله عليه وسلم ، وحمله على اليأس من إيمان هؤلاء المكذبين لا سيما الوليد ، وتنبهه صلى الله عليه وسلم إلى أن من كان كالوليد في قبيح خصاله ، وسببه فعالة - يصح من الملحد انتظار الإيمان منه ، ورجاء الخير فيه . فلا تشغل قلبك أيها الرسول الكريم بمثله ، وانكأ على معونة الله وفضله .

الضمير في ( بلوناهم ) يرجع إلى أهل مكة الذين سماهم الله المكذبين في قوله ( فلا تطع المكذبين ) وذكر من أوصاف أحدهم وهو الوليد ماذكر ، ومن أوصافه المبقوة أنه كان يسبى آيات الله ( أساطير الأولين ) كبرا وعتوا واعتنادا بكثرة ماله وولده . والمال والولد نعم . أنهم الله بها عليه ، وكان من حقها أن تورث نفسه

أخيائنا وخشوعا ، وتقوده الى الاسلام بزمام الشكر ومعرفة الجميل ، لكنها على العكس كانت سبب كفره وجوده ، وتماديه في غيه وضلاله .  
الويلد بن الفترة وامثاله من سادات مكة الذين انعم الله عليهم بالنعم المختلفة تقابلوها بالجحود والكفران ، وبادروا بنبيه بالكذب والاستخفاف والعصيان ، حتى كان هذا منهم سببا لسلخ النعم عنهم ، وانزال النعم بهم - بشبه حالهم حال اصحاب الجنة ، ويصح أن يضر بفروا أصحاب الجنة مثلا لهم . والمراد من الجنة هنا معناها اللغوي ، وهو الأصل فيها ، اعني البستان كثير الزروع والثمار والأغصان المثمرة . والناس في زماننا اذا ارادوا هذا المعنى سموه بستانا أو جنيّة ، ويخصون الجنة بفردايس النعم الأخرى ، وهي أكثر ما تطلق على ذلك في نصوص الدين .

وتعريف الجنة وإضافة الاصحاب اليها يشعر بانها واصحابها معودة للمخاطبين ، وان حكايتها وحكايتهم مستغنية فيهم .

ولما اراد الله أن يذكر أهل مكة بما كان من اسبابه النعم عليهم ، وما كان منهم من التكذيب في مقابل هذه النعم ثم زوالها عنهم - ضرب لهم مثلا قصة اصحاب البستان المتداولة بينهم في ذلك العصر ، ليكون ذكرها اتم في التصوير ، وابلغ في التذكير والتأثير . وسواء اكانت قصة اصحاب الجنة مما حدث في زمن العرب أم في زمن غيرهم من أهل الكتاب ، فذلك ما لا يهم معرفته مادام القصد من سرد القصة مفرها واحداث الوطء والتذكير بها . على أن بعض المفسرين روى أن اصحاب الجنة هؤلاء كانوا أناسا من العبيثية من أهل الكتاب ، وكان ابوهم شيخا صالحا ، وله جنة فيها نخل وزروع ، فكان يمسك قوت سنته ، ويظم منها المساكين ويتصدق بالفصل ، فكان يثوه بنهونه عن ذلك فلا يلتفت اليهم . فلما مات قالوا : والله ان كان ابونا لاحق حين يعطى المساكين ، وان لنا عيالا كثيرين ، والمال قليل ، فلو قلنا ما كان يفعل ابونا ضاق علينا العيش . ثم كان منهم ما قصه الوحي علينا في هذه الآية مد قال ( **انا بلوانهم كسبا بلونا اصحاب الجنة** ) .

والآباء والابناء الاختيار والامتحان ، فاذا نسب الى غير الله تعالى كان المراد أن يعرف البتلى ( يكرس الام ) ما جهل من امر البتلى ( يفتح الام ) ، واذا نسب الى الله تعالى كان المراد كشف الأمر وظهاره للذين يجهلون ويعارون فيه .

وابتلاء الله البشر قد يكون بافاد النعم عليهم ، فيكفرون أو يشكرون . وقد يكون بنزول المصائب بهم ، فيجزعون أو يصيرون . ويسمى هذا الابتلاء أيضا امتحانا وفتنة ، ويسمى في الاسفار المقدسة تجربة وتجارب . وقد ورد في ادعية تلك الاسفار خطابا لله تعالى « لا تدخلنا في تجربة » . ومن استعمال

الفتنة في القرآن قوله تعالى : ( **ا لم احسب الناس ان يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون . ولقد فتنا الذين من قبلهم فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن** )

الكاذبين ) . وابتلاء الله لكفار قرش كائنته لاصحاب البستان ، فانه تعالى افدق على الفريقين صنوف نعمه ، فكفروا بها ، ولم يرموها حق رعايتها .

فلنا ان اصحاب الجنة قوم كانت لهم ارض ذات نخل وزروع وريع ، فلما حان صرامها ( يفتح الصاد وكسرها وقت جنى ثمرها ) ، تواتلوا فيما بينهم ، واقسموا ان يصروا الجنة ولا يجنوا ثمارها ، الا في صباح اليوم التالي . والكلام في أسلوبه هذا يشعر بأن قوما آخرين ينازعون اصحاب البستان ، ويريدون أن يشاركوهم في قطف ثمراته وتناول شيء من خيراته ، وبذلك اضطروا اصحابه الى أن يتواصوا هذا التواصي ، ويعقدوا العزم بينهم على الذهاب الى بستانهم في وقت لا يتيسر لأولئك المنازعين أن يصحبوهم فيه ، وهذا الوقت هو وقت الصباح ، وقت استغراق الناس في نومهم . ويستدل من قول اصحاب الجنة الآتي : ( **لا بدخلنا اليوم عليكم مسكين** ) على أن هؤلاء المنازعين الذين ينفى الصرام عنهم ، هم المساكين .

ويفهم من تقاسم اصحاب البستان ، وتعيينهم وقت الصبح مباشرة مطعم - أن المساكين شأننا خاصا في ذلك البستان ، والا لم يحتج الأمر الى أن يتعاهد اصحابه على صرم الثمار المملوكة لهم خفية ، اذ كيف يسوغ لأحد أن يعارض آخر في ملكه ، ويحول بينه وبين الانتفاع بثمره - لو لم يكن لذلك المعارض حق أو شبه حق في هذا الثمر ؟

اما الحق أو شبه الحق الذي كان للمساكين فهو أن صاحب الجنة ومالكها قبل اصحابها هؤلاء ، كان قد جعل في ثمارها نصيبا مفرضا لأولئك المساكين الذين يعيشون معه في القرية ، فكان بذلك يسكب ثلثهم ، ويستل سخائهم ، ويكف يدهم عن العمدوان بالسرقة على بستانه وبساتين أهل القرية ، ويكون من جهة ثانية قد قام بالشكر الواجب لله تعالى على ما انعم من الرزق الطيب والعيش الهنيء . ولا جرم أن انعم من هذا الصنيع منه مدعاة المزيد ، ووسيلة الى دوام النعم واستمرارها ، وعلم وجود منقص لها . أما خلفاء هذا الحسن الباري على تلك الجنة فانهم لم يبطئوا أن يجعلوا للمساكين حظا في جنتهم ، ولم يفعلوا ما كان يفعل سلفهم من اعلان وقت الصرام ، لقبول المساكين ، ويتناولوا حصتهم ، بل راوا في ذلك مضيقا لزرعهم ، مقللا من اتصائبهم ، وغفلوا عن أن زكاة المال تطهره وتزيدة ثماره ، وتطيل مدة التمتع به . ففهم من أجل ذلك مقدوا النية على حرمان المساكين ، ومنعهم ما كانوا يتلقون به من ذلك البستان ، وراوا أن يتوصلوا الى ذلك بمباشرة صرم ثمرات النخل وقت السحر ، اذ يكون أولئك الثمر من المساكين مستغرقين في نومهم ، مستسلمين الى فلتتهم .

هذا معنى ( **اذ اقسوا ليصر منها مصحين** ) . ومعنى قوله تعالى : ( **ولا يستثنون** ) - أنهم كانوا يطفون على مباشرة الصرم وحرمان المساكين ، واعتقن من موادة الأقدار لهم ، غافلين عن قدرة الله تعالى ، فكانوا لاستثنون في البين ، ولا يقولون الا أن يشاء الله . وهذا منهم دليل التغلة والفرور ، وترك التفكير

مُصْبِحِينَ ﴿١٦﴾ أَنْ أَغْدُوا عَلَى حَرْثِكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَرِمِينَ ﴿١٧﴾ فَأَتَقَطُّوْا وَهُمْ يَتَخَنَتُونَ ﴿١٨﴾ أَنْ لَا يَدْخُلَهَا الْيَوْمَ عَلَيْكُمْ مَسْكِينٌ ﴿١٩﴾ وَغَدَاً عَلَى حَرْدٍ قَنَدِرِينَ ﴿٢٠﴾ فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوا إِنَّا لَصَاوِرُونَ ﴿٢١﴾ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴿٢٢﴾ قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ لَوْ لَا فَسَمِعْتُمْ ﴿٢٣﴾ قَالُوا سُبْحَنَ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا ضَالِّينَ ﴿٢٤﴾ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَلَاوَمُونَ ﴿٢٥﴾ قَالُوا يٰوَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿٢٦﴾ عَسَىٰ رَبَّنَا أَنْ يَبْدِلَ خَيْرًا مِنَّا إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا رَاغِبُونَ ﴿٢٧﴾ كَذَلِكَ الْعَذَابُ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ

في عجائب المقدور ، والاستثناء في اليمين ان تقول : « لا نفعل كذا الا ان يشاء الله » وهو آية من آيات الايمان بالله تعالى ، ودليل الثقة بقدرته وتفويض القولية اليه ( ١ ) .

١- وطن اصحاب البستان نفوسهم على منع المساكين حقوقهم في ذلك البستان ، واكدوا الايمان فيما بينهم على ذلك غير مستثنين ، ولا حاسبين حسابا للاقدار وتصرفها وحكمة الله وتعاجيبها - ذهبوا الى مضاجعهم وهم ينوون التكبر الى الجنة ، واذا ( طائف من ذلك ) أي بلاء عظيم حصل بمحض قدرة الله من دون دخل للبشر فيه ، طاف عليها ليللا ، وتتبع اشجارها ، فأتلفها واحرق علوقها ، وافسد اثمارها ، بحيث يحسها النازل اليها ( كالصريم ) أي كالبستان الذي صرم اصحابه ثمره ، وقطعوا علوقه ، ولم يبقوا على شيء منه . وهذا الطائف الذي اثم بالجنة ليللا فأتى عليها ، هو من قبيل الافات السماوية التي تفجأ الأغراس والمزروعات في بعض السنين فتتلفها وتلحق الضرر بأصحابها . ولا يلزمنا ان نعين جنس ذلك الطائف ، وانما نقول ان استئصاله لثمار الجنة - وافساده فيها كان بالفا حده بحيث يحكم التامل فيه انه حصل بصورة خارقة للعادة من شأنها ان تحدث في النفوس الغافلة الرهبة والأزدجار .

ومعنى ( طاف عليها طائف ) طرقها في الليل من

( ١ ) يصح ان يكون المعنى : « ولا يستثنون حصص المساكين كما كان يفعل ايوم » ونبهه التبادر . الصحيح

امر الله طريق . ولا يكون الطائف في كلام العرب غالبا الا ليللا كالطارق . ومنه الطائف للمسيح . ومعنى ( الصريم ) الصرود ثمرة أي القطر المجلود . وللصريم معان آخر : منها الليل المظلم البهيم ، والأرض السوداء لانبت شيتا ، والقطعة من معظم الرمل ، وكلناصالح في تفسير الآية . ومن شبهها بالليل جعلها بعد ان احترق نباتها ، وتصحوت أوراقها ، وزالت خضرتها - سوداء كالليل البهيم .

٢- افاق اصحاب البستان من نومهم جعل بعضهم ينادى بعضا قائلين : هلموا الآن ، أي في وقت الصبح الذي لا يكر في مثله المساكين عادة ، فاذهبوا الى بستانكم ان كنتم تريدون صرم ثماره من دون ان يشهد صرمكم احد من اولئك المساكين .

( والحرد ) الزرع ، والمراد به موضع الزرع وهو البستان حيث الانماز والأعشاب ، فهو كقوله تعالى : ( نساؤكم حرث لكم ) أي موضع حرث .

( والفنو ) يتمدى بالي من حروف الجر . يقال : « غدا الى موضع شفع » ، أي ذهب اليه . وقت الفداة . لكنه غدا هنا يعلى مضمنا له معنى آتيل ، كانه يقول : « اقبلوا على حركم » .

وقد وصف في قوله تعالى ( فانطلقوا وهم يتخافتون ... ) حالة خروجهم الى الجنة ، كما وصف في سابقها حالة نفوذهم من النوم ، أي اتخذوا طريقهم الى الجنة وهم يتكلمون بكلام خافت مبهوس لسلا بسمهم المساكين فينبوهم ، يقول بعضهم لبعض : ان ندع احدا من اولئك المساكين يدخل جنتنا ، ويشاركنا في رزنا ونعمتنا .

وقوله ( وغدا على حرد قادرين ) أي وغدا بعد ان قالوا ما قالوا جادين في صرهم ، حاسبين في نفوسهم انهم قادرون على حرد ، أي منع اولئك المساكين نصيبهم من ثمرات الجنة . فقلوه ( على حرد - ) معلق بقاديرين مقدم عليه . و ( قاديرين ) حال من فاعل ( غداوا )

لا خير لغداوا : لان ( غدا ) هنا فعل تام بمعنى ذهب وقت الفداة ، لا فعل ناقص بمعنى صار أو أصبح . و ( الحرد ) له معان كثيرة ، أنسبها هنا ما ذكرناه ، وهو المنع . يقال : « حرد زيدا » اذا منعه ، و « حارد فلان » اذا كان يعطى ثم منع . و « حاردت الناقة » منعت لبنها . و « حاردت السنة » منعت مطرها .

ورجع بعضهم ان يكون ( الحرد ) هنا بمعنى القصد . يقال « حردت حردك » ، أي قصدت فصلك . ومنه قول الشاعر :  
أقبل سيل جاء من امر الله يحرد حرد الجنة الفلة  
أي يقصد قصد الجنة ذات الفلة ، وجهتها . ويكون الحرد في الآية بمعنى القصد المزموم عليه في النفس ، فيصير المعنى : ان هؤلاء القوم جاؤوا جنتهم غدوة النهار على امر قصدهم وامتمدروه وبيتوه فيما بينهم ، شاعرين من أنفسهم القدرة على انفاذه .

والحاصل ان القوم يبتوا التنية ليللا على منع المساكين ، وهبوا من نومهم صباحا يتحاضون على الثبات في هذه التنية ، ثم ساروا الى الجنة وهم يتهايمون بلزوم انفاذ ما صمموا عليه ، شساعرين



من أنفسهم بالقدرة على هذا الإنقاذ . وما علموا أن الله الذي لم يشكروا نعمه ، ولم يرتحموا عياله — من ورثهم محيط ، وعلى احباط كيدهم قادر .

ان السوم بقوا مصممين التية على الصدر ، حتى وصلوا الى الجنة التي طاف عليها طائف الالة السماوية فحرقها ، وصوح نبها ( فلما راوها ) على هذه الحالة عرفوا انهم كانوا على ضلال من جهتين : من جهة منهم المساكين حقوقهم ، ومن جهة ففلتهم عن قدرة الله ، وسرعة انتقامه ممن نابذوا امره الالهية وخالف سننه الكونية .

وبعد ان سجلوا على انفسهم الضلال ، وحكموا عليها بالقلعة — ذهبوا في الحكم عليها الى ابد من هذا ، فعلموا ان المساكين الذين ارادوا حرمانهم من الرزق ليسوا في الحقيقة محرومين ما داموا في رحمة الله ، وتحت كرامته ، وانما هم المحرومون على ما يظنون ، لانهم استحقوا مقت الله وغضبه بفروجهم من سننه ، وقسوة قلوبهم على عبادته ، ولذلك اثلث جنتهم ، وأفسد عليهم معيشتهم . ويحتمل ان يكون المراد من حكمهم على انفسهم بالضلال ، ضلال الطريق الى جنتهم مد راوها محترقة لا تبت فيها ولا ثمر ، ولا اثر من آثار الحياة ، مع انهم تركوها بالأسس مشتمة موقرة وادرة الظل ، فحسبوا انها غيرها ، وانهم اخطأوا طريق الوصول اليها ، لم يعد هنية تبين لهم انها هي هي ، فاضربوا عن ظنهم الاول قائلين : ( بل نحن محرومون ) ، أي لم نضل طريق جنتنا ، وانما حرمتنا الله اياها بشؤم طاعتنا ، ونفرت ليتها .

لما ظهر لاصحاب الجنة خطوهم ، وآتهم في ضلال من صميم — انبرى واحد منهم كان وعظهم من اول الامر ، ونصح لهم ان يرجعوا ويكنوا ويراتبوا الله : فلا يجحدوا فضله ، ولا يكفروا نعمته ، ولا يمنوا المساكين حقهم ، ولا يبالوه ولم يكتروا له ، فآخذ الآن يذكرهم بما كان من نصيحته لهم ، ويؤنبهم على ما كان منهم من المخالفة والعناد والكفران . وكان هذا الناصح اوسط رفقاءه ، أي خيرهم واعلمهم رايًا ، وأمنهم طريقة ، وأسرعهم رجعة الى الله . والوسط جنتنا كما هي خيره واعده . ومنه قوله تعالى : ( وكذلك جعلناكم امة وسطا ) .

( قال ) لهم ( اوسطهم : ألم اقل لكم الخ ) أي انذكرون انني كنت حذرتمكم عاقبة الجحود ، وحضتكم على تسبيح الله ، أي تنزيهه من كل سوء . وتنزيهكم لما يكون بالاستثناء ورد المشيئة اليه تعالى ، وانتم لم تستنبوا مد عزمت على صرم جنتكم ، وانما صمتم عليه ، غافلين أو متغافلين من عجيب قدرة الله تعالى . ويكون التنزيه ايضا بالإيمان بالله والخوف من بطشه ، واعتقاد انه تعالى يشار على خلقه الذين هم ميهاله ، فلا يرضى ان يخسوا حقوقهم . قاتنت لما لم تؤمنوا به ، ولم تخافوا بطشه ، ولم تستنوا معاملة خلقه — سكتتم معتقدين فيه تعالى المعجز والصف والخرق ، فلم تكونوا مسجدين ولا منزهين له من صفات نقصان . وكان خطيبهم وهو يامرهم بهذا يلح عليهم في طلب

التسبيح ، لانه استعمل كلمة ( لولا ) وهي مثل ( هلا ) في افادة الحضي والحث .

ويظهر ان هذا الخطيب لما نصح لهم فلم يقبلوا نصحه ، فضل ان يثني في جملتهم ، ويشركا لهم في عملهم ، على حد قول دريد بن الصمة :

وهل انا الا من غربة ان غوت  
غويت وان ترشد غربة لورشد

وكذلك لما ظهر القوم خطوهم في مخالفة خطيبهم عاتبهم بقوله ( ألم اقل لكم لولا تسبحون ) . فكان هذا القول منه على حد ما قاله دريد ايضا في عتاب قومه في القصيدة نفسها :

محضتكمو نصحي بمنرج اللوى  
فلم تستبينوا الامر الا ضحى الغد

وقد يكون للقسالة الناصحين مارب في بقائهم مشاركين لقومهم في عمل ما يوجبهم منه ، مثل اجتناب التفرق والانشقاق الذي يبقبه الفشل وطبع الصدر ، ومثل ان يأخذ اولئك القسالة الناصحون بحجرات قومهم وقت التهور واشتداد الازمات ، ومثل ان ينهيوهم الى سوء صنيعهم ونتيجة مخالفتهم وقت الوقوع في الهلكات ، فيكون تذكيرهم لهم اذ ذاك اشد ثائرا في نفوسهم ، وأقوى على تقويم احوالهم ، ولم شتمهم . اعتبر هذا فيما كان من اصحاب البستان اذ ( قالوا ) في جواب اوسطهم الذي كان نصح لهم : ( سبحان ربنا انا كنا ظالمين ) . فانظر كيف استمر لولاهم فورهم يظلمهم للمساكين ، وتركهم رد المشيئة الى الله ، وجأروا بتسبيحه تعالى وتنزيهه ، ولكن بعد حلول الليرة ، وخراب البصرة .

ثم بعد ان اقر القوم بذنوبهم ، ورجعوا الى الصواب في تنزيه خالقهم — أقبل كل واحد منهم على صاحبه بلومه ، وزعم انه هو الذي أفراه بالصبيان ، وحته على التماذي في مخالفة الناصح أو عدم الامتداد بحقوق المساكين ، وترك اطعامهم من جنتهم . فيقول أحدهم : أتت اشرت علينا بهذا الرأي المعكوس ، ويجيبه الآخر : بل انت خرفتنا الفقر ومقابة الإنفاق على المعوزين ، ويقول الثالث : اتتم الذين لم تسمعوا قولي ولم تصفوا لي نصحي ، وهذا معنى ( يتلاومون ) . ثم اتهم لم يكتفوا باستتياح معلم ، بل الوقوف به عند حد الاقرار بالخطا والتلاوم ، بل جعلوا يبدون على انفسهم بالويل والهلاك ، وصرخوا بانهم جديرون بذلك ، لما أنهم كانوا ( ظالمين ) ، بل متجاوزي الحد في المخالفة والصبيان ، وهذا هو معنى الطغيان .

وهذا السخط على انفسهم ، واعلانهم قضاة معلم ، وتصريحهم بانهم ظلموا وتجاوزوا كل حد — اتما ارادوا به التوصل الى استئصال موق الله والتعرض لنفخاته ، وان يوضحهم خيرا مما قدسوه ، ولذلك نسمهم يقولون في ختام حديثهم ( عسى ربنا ان يبدلنا خيرا منها ) ، أي نرجو الله ان يعوضنا جنة تكون خيرا من تلك الجنة التي بدت وتصحوت ، ثم قالوا انهم لا ملجأ لهم ولا مستغاث الا الله ، وهذا معنى قولهم ( انا اني ربنا والقون ) ، لان فعل ( رغب )

أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿٣٧﴾ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ عِنْدَ رَبِّهِمْ  
جَنَّاتُ النَّعِيمِ ﴿٣٨﴾ أَفَجَبَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ ﴿٣٩﴾  
مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٤٠﴾ أَمْ لَكُمْ كِتَابٌ فِيهِ  
تَدْرُسُونَ ﴿٤١﴾ إِنْ لَكُمْ فِيهِ لَمَّا تَحَرَّوْنَ ﴿٤٢﴾ أَمْ لَكُمْ أَيْمَنٌ  
عَلَيْنَا بَلَاغٌ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ إِنْ لَكُمْ لَمَّا تَحْكُمُونَ ﴿٤٣﴾  
سَلِّمُوا إِلَيْهِمْ يَذَلِكَ رَعِيمٌ ﴿٤٤﴾ أَمْ لَكُمْ شُرَكَاءُ قَالُوا  
يُسْرَ كَأَنَّهُمْ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ ﴿٤٥﴾ يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ

إذا تعدى ( يفي ) كان معناه ارادة الشيء ، والطمع في  
الحصول عليه ، وإذا عدى ( بمن ) كان معناه على  
العكس أى الكراهة للشيء والنفرة منه ، وإذا عدى  
( بالي ) كان معناه الضراعة والابتهال . وهنا قدم  
الجائر والمجرور على الفعل فأفاد الحصر . ويكون  
الغنى أننا ممتهلون ضارمون في قضاء حاجتنا ، وفي  
أن يبدلنا خيرا من جنتنا - الى ربنا لا الى غيره .  
ويكون هذا منهم منتهى التسبيح والابتهال ، بعد ذلك  
الجدود والكفران . وهل يعتبر قولهم هذا توبة  
نصوحا يتالون بها من الله المغفر والصانع والتعويض  
عن جنتهم ؟ لا يعلم كيف كان أمرهم في ذلك . وقد  
سئل قتادة منهم : أمن أهل الجنة هم أم من أهل  
النار ؟ فقال للسائل : « لقد كلفتنى تمبا » يريد أن  
الافضل التوقف في أمرهم . ويمكن أن يقال أن الآية  
التي علم الله بها القصة شعر بالتهديد والوعيد مما  
يدل على أن في توبتهم شائبة وباء ونفاق .

ف قوله : ( كذلك الجعالب ) معناه أن العذاب الذي  
نرسله في دار الدنيا على المنافقين ، والذي من  
شأنه أن يؤذي في النفوس ازدجارا وإعصا - إنما  
يكون مثل ذلك العذاب الذي نزل بأصحاب الجنة  
فأهلك حرهم ، وأباد خضرهم ، ونقص حياتهم .  
على أن عذاب الآخرة المعد لكل من طغى وبغى أشد  
وأعظم من عذاب الدنيا ، فيأبى الطافين - ومن  
جملتهم مشركو مكة - يعلمون ذلك فيزدجروا  
ويتعظوا . وهذا معنى قوله : ( وللعذاب الآخرة أكبر  
لو كانوا يعلمون ) .

ومغزى هذه الآية أو القصة التي تضمنتها أن  
الله تعالى عامل قفار قريش معاملة المبتلى المختبر ،  
ليظهر حالهم ، ويكشف عن عوارهم . فهو تعالى قد  
أمدهم بالنعيم ، وسر لهم أسباب الغنى والنعمة  
وليان العيش ، فلفظوا وبغوا وفعلوا من القيام بأوجب  
الشكر نحو مفيض هذه النعم عليهم ، فكان ذلك

سببا لنزول البلاء والشسائد بهم ، وقد أشبهت  
حالتهم حالة أصحاب الجنة حلو القذة بالقذة .  
وقد ذكروا أن الوليد بن المغيرة الذي نزلت فيه  
هذه الآيات كان في مسعة في العيش والرزق حتى  
كانت له البساتين من مكة الى الطائف ، ومن جملة ما  
بستان لا ينقطع نفعه شتاء ولا صيفا ، ثم ذهب كل  
ذلك كاسس الدابر جزاء كفره .  
أما البلاء الذي نزل بأهل مكة فهو الجوع والقحط  
الذي دام فيهم سبع سنين حتى أكلوا العظام والجيف .  
ومن البلاء أيضا منازل بهم في وقعة بدر من الأذى  
والقتل والأسر والتصفيد ( وكذلك أخذ ربك إذا أخذ  
القرى وهي ظلة أن أخذه اليهم شديد ) .

( المتقون ) هم المسلمون الذين ادعوا لأمر الله  
ونهيه ، وأنفوا عقوبته باجتناب معاصيه ، وأداء  
فرائضه . أما فريق ( الجرمين ) فهم الذين خالفوا  
الفريق الأول ، فلم يعلتوا ، ولم يتقوا ، بل جحدوا  
وكلبوا ، واستكبروا عن اتباع الرسول وأبوا . وهم  
الذين سعادهم الكذابين ، ونهى نبهه عن اطاعتهم  
والخضوع لما دأبوه عليه من أدهانهم ومصانعتهم .

هؤلاء الجرمون الكذوب من صناديد قريش كانوا  
يسلكون في مقاومة البعثة وأفساد الأمر على المسلمين  
كل طريق : طورا بالشد ، وطورا باللين . تارة بالجد  
والتجكم ، وتارة بالهزل والتجكم . من ذلك قولهم  
للمسلمين : إن مسح اننا نبعت في دار ثالثة كما  
تقولون - فلن تكون حالكم وحظكم في تلك الدار  
بأحسن من حالتنا وأوفر من حظنا في هذه الدار . فان  
الذي فضلنا عليكم في هذه الدنيا ، وجعل حظنا  
خيرا من حظوظكم فيها - هو الذي ييسده الأمر في  
الآخرة ، فيعمل كذلك أو يساويها بكم على الأقل ،  
يقولون هذا مد يرون ما هم فيه من البهنية والغنى  
وسعة الرزق ، وما عليه الصحابة رضوان الله عليهم  
من القلة والشظف وضيق العيش . وهذا القول منهم  
بالهزل والمغالطة ، أشبه منه بالجد والمناقضة ( أى  
رد الحجة بالحجة ) ، ألا فان دار الدنيا ليست دار  
نواب وجزاء . وإنما هي دار عمل وإبتلاء . يعرف  
فيها الطيع المتقي من المجرم الشقي . فمن شغله  
اجرامه من طاعة الله وممارسة الفضيلة ، والعمل  
الطيب في هذه الدار - فهو محارف محروم في الدار  
الآخرة مهما كان مجودا موسع الرزق في الدنيا .  
ولا يضر المتقين الطيعين أن يكونوا متفوضى الحظوظ  
من حطام الدنيا ، لأن تحصيل حطامها يكون بأسباب  
وطرائق كثيرا ما تسرت للمكذبين الماصين الذين  
يمارسونها ، وتعرضت على المتقين الطاهمين الذين  
يعرضون عنها ، والفوز برضاء الله وحلول ذكراوته  
في النشأة الآخرة إنما طريقه العمل الصالح وممارسة  
الفضائل والطاعات في هذه الدار ، ولا يكون بسعة  
الرزق وكثرة الطعام وكثرة النصار .

وهذا معنى قوله تعالى ( إن المتقين ) الآية ، أى أن  
المتقين المسلمين لا لغيرهم من المكذبين الجاحدين  
جنت النعيم . تلك الجنات الكاتبة في نعيمها والتي  
أشرف أحوالها ، وأكرم صفاتها ، أنها عند الله ، وأقرب

منه سبحانه . - فمعها كان في هذه الجنات الأخروية من صنوف النعيم التي قد تنبه من بعض الوجوه نعيم دنيائكم أيها المكذبون - فإن قريبا من الله سبحانه وكونها في جواره الأقدس - يجعلها متنازة على غيرها ، وجديرة بأن تكون للذين آمنوه وأطاعوه وأمنوا برسوله . فهل يتصور أو يحصل في نفس عاقل أن يحصل الله جنات قربة ، ومنازل كرامته - للمكذبين الجاحدين ، وبعدهم منها المتقين المسلمين ، أو يجعلهم في حظوظها شرها متساوين ؟ كلا ! ما الله بفعل ذلك . وهذا معنى قوله تعالى : **( افجعل المسلمين كالجرمين )** ، يعني في الحظ والقسمة والكرامة والقرب منه تعالى .

ثم عاد غائر خامد العقل في نفوسهم بأسلوب آخر قائلا : **( مالك كيف تصحكون ؟ )** أي أين ذهب بكم ، وكيف ضل ضلالكم حتى حكمتم هذا الحكم الغريب ، فليعلم الأعداء كالأولياء ، وأحاطتم الفجار ، منازل الأبرار .

يظهر من سياق هذه الآيات وتلويح الخطاب في الرد على الجرمين ، وتخطئهم في زعمهم - من أن لهم حظا من جنات النعيم مثل أو أوفر من حظ المتقين - أن أولئك الجرمين كانوا متشككين في حكمهم ، مصممين في رأيهم ، ولذلك وبخهم الوحي أشد توبيخا ، ورد عليهم أبلغ رد .

**( تدرسون )** من درس الكتاب ، إذا أقبل عليه بقرؤه ويثمنه ماله . وكان حق همة **( أن )** في قوله **( أن لكم )** الفتح لكونها واثمة في مفعول تدرسون ، لكنها كسرت لدخول اللام في خبرها . و **( تحيرون )** أصله تضيرون . من تغير الشيء واختاره بمعنى أخذ خيره وأحسن ماله ، كما يقال تنخله وانتخله ، بمعنى أخذ منخله وصفوه .

وقوله : **( أم لكم إيمان علينا )** ، أي أم عندكم الأنا عهد ومواريث ثابتة علينا ، كنا قمعناها لكم بدخولكم جنات النعيم مع المتقين ؟ يقال : « فلان على يمين بكذا » إذا كنت سمعته له ، وحلفت له على الوفاء به . وقوله **( بالغة )** أي مغلظة مؤكدة متناهية في الشدة ، أو المعنى أن تلك الأيمان تبلغ يوم القيامة كاملة وافية بحيث يقع البر بها من دون أن يحس بشيء منها . وجواب هذا القسم المحكي اعني **( إيمان علينا )** هو قوله **( أن لكم )** **( لا تصحكون )** ومن ثم كسرت همة **( أن )** على أن وقوع اللام في خبرها مما يقتضيه كسرهما أيضا كما قلنا في **( أن )** السابقة .

وقوله **( إلى يوم القيامة )** متعلق بالغة أو بالفرق المستقر ، أعني متعلق علينا ، أي إيمان استقرت وثبتت علينا إلى يوم القيامة .

**( و زعيم )** بمعنى كليل . والزعيم عند العرب هو الضامن للشيء المتكفل به ، ويكثر استعماله في الذي يتكلم من القوم ويحث لهم ، ويحامي عن حقوقهم ومصلحتهم ضامنا لهم النتيج والخلفة . يقول تعالى : **( اعندكم أيها المكذبون الزعمون أن حظوظكم من دار الكرامة يوم القيامة مثل حظوظ المتقين أن لم تكن أوفر - كتاب سماوي أو غير سماوي يطمئن القلب إلى صحته ، فأنتم تفرعون فيه هذه البشارة ، من أن**

لكم أن تختاروا من حظوظ دار الآخرة ما تحبون ، وتطون من بحايها ومنازل كرامتها حيث تشتهون ؟ وهذا كقوله تعالى : **( أم لكم سلطان مبين ؟ فاتوا بكتابكم )** ، وكقوله : **( أم آتيناكم كتابا فهم على بينة منه )** .

بل إذا لم يكن لديكم مثل هذا الكتاب فهل كنّا أقسمنا لكم تسما نحن مطالبون بالوفاء به اليوم ويوم القيامة ، وهو أن يكون لكم حكمكم يومئذ منقطعكم ما تتمونه وتحكمون به لأنفسكم من مساهمة المتقين في اتصائهم ، ومزاحمتهم في دار ثوابهم وجزائهم ؟ **( مسلمهم )** بالمحمد **( أيهم بذلك زعيم )** : من منهم الزعيم والمردة الذي يمكنه أن يحتج علينا بآنا كنّا أقسمنا لهم على تلك المزام التي زعموها ، وأعطيناهاهم اليهود والمواثيق على الوفاء بها .

لم يدع الخطاب الإلهي لهؤلاء المكذبين الجاحدين دليلا لا تقضه ، ولا مكا يستندون عليه في مزاعمهم الا قوضه ، فنفى أولا أن يكون لهم دليل عقلي على صحة ماذهبوا إليه ، فقال لهم : **( افجعل المسلمين كالجرمين ما لكم كيف تصحكون ؟ )** . نفى هذا القول رجوع إلى العقل وتحكيمه في المسألة ، ولا جرم أن العقل لا يحكم بأن المسلم كالجرم ، وأن العاصي لله بمنزلة الطبع له في الثواب والزلفي منه تعالى . ثم نفى الخطاب الإلهي أن يكون لهم دليل تقلي بذلك فقال : **( أم لكم كتاب فيه لدرسون ، أن لكم فيه ما تحيرون )** . والقوم لم يكن أنزل عليهم كتاب يعقودون صحته ، يشرهم بأن لهم من منازل الكرامة ويحاطون السعادة ما اختاروا وأجروا ، فإذا لم يكن هناك دليل عقلي ولا تقلي بقي الظن في آتة تعالى تألي لهم واتسم أن يعطيهم يوم القيامة ما حكمون ويشاؤون . وهذا أيضا لم يقع لأن رب المزة ذاته سبحانه نفى أن يكون وقع ذلك منه ، وإذا كانوا يدعون وقوعه فمن من زعمائهم يجرؤ على إنباهه والاحتجاج له ؟

ولم يبق للقوم من عذر سوى قولهم : **( أن لهم شركاء )** يشهدون لهم ، ولدهيون مذهبي من أن لهم نصيبا مغرورا من جنات النعيم كما للمتقين .

والمراد بهؤلاء الشركاء : أما الأضنام والطواغيت التي يعبدونها من دون الله ، وهذه خشب مسندة لا تنطق ولا تعرف كيف تثبت وجودها ، بل لا تعرف لانتطق موجودة فضلا عن أن تشهد بقربها ، وأما أن يكون المراد بالشركاء عقلاء البشر ممن درس الحكمة وتلقى تعاليم الأديان القديمة فتنتسب آثارها ، واستعصى أسرارها - باتون يشهدون للمشركين من قرش بأنهم ناجون عند الله ، وأن لهم حظا من جنات النعيم .

فأله تعالى يقول لأولئك المشركين : **( أن كان لكم شركاء يشهدون لكم هذه الشهادة فاتوا بهم أن كنتم صادقين في أنهم لديكم . لا جرم أن المشركين لا شهداء لهم من هذا القبيل ، وبذلك تكون قدبطلت حججهم ، واتقطعت معاذيرهم ، وحقت الكلمة عليهم .**

**( يوم )** ظرف متعلق بقوله قبله **( فليأتوا بشركائهم )** أي إذا كان لدى أولئك المشركين المكذبين شركاء يشهدون لهم بأنهم ممن يدخل جنات النعيم مع المتقين فليأتوا

الى ان قال :

كشفت لهم من ساقها وبدا من الشر الصراح  
فالأصل في هذا التفسير - انتهى كشف الساق  
مراداً به الشدة والهول - ان يكشف عن الساق بالفضل  
متداخلاً واستعداد النازلة ، ثم كثر واستفاض حتى  
صار يفهم منه اشتداد الأمر ، واستفحال الخطب ،  
ولو لم يكن ثمة مساعد ولا ساق ، ولا كشف ولا  
تفسير .

وكذلك الشأن في كل ما ذهب مثلاً من الجمل  
والتركيب ، كقولهم : « فلان يده مغולה » كناية من  
كونه ممسكاً شحيحاً ، ومنه قوله تعالى ( ولا تجعل  
يدك مغولة الى عنقك ) ، أي لاتمسكها عن الاتفاق ، كل  
الأمساك ، وأمسله انتقال اليد بالقل وهو القيد ، فلا  
تنطلق في العمل ، ولاتتصرف في بلل المال ، لكن هذا  
التركيب ( انتهى مغول اليد ) يستعمل في وصف  
البخيل ولو كان أقطع لا يد له ، ولا غل يلقها ، ومثل  
ذلك ما حكى الوحي من اليهود من قولهم ( يد الله  
مغولة ) أي مقبوضة من ادرار الرزق عليهم ، وهو  
كناية من وصفه له باليخل تعالى وتقدس .

وهكذا استعمال ( كشف الساق ) في هول يوم  
القيامة ، يراد به الهول وغطاة الأمر ، وان لم يكشف  
عن السوق بالفضل ، فان يوم القيامة - وان تكن فيه  
سوق - لا ثياب لبس ولا دلائل تكشف في ذلك اليوم  
المصيب ، كما ورد الحديث في وصفه : « يمشرون  
حفاة عراة غرا » .

وانما اطلنا الكلام في هذا تنبيهاً الى ان افضل  
ما يحل عليه كلام الله المجز من الأساليب ما عرف  
منذ بلغنا العرب وتداولته استنتهم ، وشاع استعماله  
بينهم . والمعلوم من هذا المعنى الكتاني أي غيره -  
كأقول بان المعنى : يكشف من ساق ( الرحمن ) تعالى  
وتقدس ، اعتماداً على بعض الآثار الواردة في ذلك ،  
او عن ساق ( العرش ) ، او ساق ( ملك مهيب ) من  
اللائكة - كل ذلك لا حاجة اليه بعد الشواهد التي  
ذكرناها من اقوال فصحاء العرب ، ومختلف أساليبهم في  
بليغ تركيبهم ، مما يدل دلالة واضحة على ما قلناه .  
ويكفي شاهداً ثانياً عليه أن ابن عباس كان يقول في  
تفسير ( يوم يكشف عن ساق ) : يكشف عن امر  
مظيم ، ألا تسمعون العرب تقول : « وقامت الحرب  
بنا على ساق » وتقول « كشف هذا الأمر عن ساقه »  
إذا صار الى شدة .

بقي ان يقال : وما ذلك اليوم الذي يكشف فيه  
من ساق وقد خوف الله به المكذبين ؟ أيوم القيامة  
هو ؟ أم يوم من أيام الدنيا ؟ والفتن من الكلام والفهم  
من السياق أنه يوم القيامة ، وأي يوم يوصف بأنه  
يكشف فيه من ساق ، وان ابصار الجاحدين فيه  
خاضعة ، وترهقهم ، فيه ذلة - غير يوم القيامة ؟

وذهب أبو مسلم الأصفهاني مذهبه في تفسير هذه  
الآيات لا أراه بالبيد ، فقد قال : ان ذلك اليوم في  
الدنيا ، لأن الله تعالى قال في وصفه : ( ويصعقون الى  
السجود فلا يستطيعون ) . ويوم القيامة لا يدعى فيه

ساق ويدعون إلى السجود فلا يستطيعون ١١ خَشَعَةً  
أَبْصَرُهُمْ تَرَهَقَهُمْ ذَلَّةٌ وَقَدْ كَانُوا يُدْعَوْنَ إِلَى السَّجْدِ  
وَهُمْ سَابِقُونَ ١٢ فَذَرْنِي وَمَنْ يُكَذِّبْ هَذَا الْحَدِيثُ  
سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ١٣ وَأَمْلِي قَسَمٌ

بهم في ذلك اليوم ، وهو يوم كشف الساق ، أي يوم  
القيامة . وهذا تهكم بالمكذبين وإشارة الى أن معاذيرهم  
وشغفهم غير نافعة في ذلك اليوم شيئاً .

او ان الكلام لمتعلق له بالآيات بالشرع ، وانما هو  
كلام مستأنف يتهدد الله به المكذبين الجرمين الذين  
ذكر لمولجنا منهم الوليد بن المغيرة ، ووصفه بقوله :  
( ولا تطع كل حلاف مهين ) وذكرنا في ان الوليد كان  
يقول لبنيه وعشيرته كلما أنس منهم ميلاً له صلى  
الله عليه وسلم وأرتجياها الى حموه : « لن تبع دين  
محمد منكم أحد لا أنعم بشيء أبداً » مسللاً بشروته  
وسعة رزقه . فهذا وامثاله يذكرهم الله تعالى بذلك  
اليوم ، يوم كشف الساق وأمواله العظيم .

و ( كشف الساق ) في كلام العرب يراد به اشتداد  
الهول وعظم الأمر . والأصل في ذلك ان المرء اذا نزلت  
به نازلة ، أو اهتم لمباشرة امر من الأمور والمضي فيه  
- شمر من سامديه ، أو ادان لذلاله ( اطراف ثوبه  
التدنية ) في وسطه ، ومنه قولهم : « فلان كمش  
الآزار » أي مشمره ، قالوا : وهو مثل في الجِد والمضاء  
وقوة الإرادة . يفعلون مآثر من التشمير من السواعد  
والسوق عند الشروع في العمل الجِد ، ومباشرة ما بهم  
من الأمر ، ولا سيما ما فيه مخاطرة بالنفس ، كمنزلة  
بطل ، أو مصارعة أسد ، أو اطفاء حريق ، أو انتشال  
غريق . وقد يفعله يوم الخوف والدمر والهزيمة .  
قال ابن قيس الرقيات يصف شدة :

تلهل الشيخ من بينه ويدي  
عن خدام القليلة الصلوا  
والخدام يكرس الناء : الخلايل ، واحدها خدمة .  
فالمرء انما يكشف من ساقها في ذلك الوقت ليكون  
مساعداً لها على التخلص والفرار .

اما المعنى الأول فهو الأعم الأغلب في استعمالهم ،  
فيقولون : « قامت الحرب على ساق » أي اشتدت  
وتعاضت ، وقال حاتم :

أخو الحرب ان مضت به الحرب عضها  
وان شحوت من ساقها الحرب شمرها  
أي : وان اشتد هول الحرب شمر لها ، وأصغى  
لأرها . وقال سعد بن مالك جد طرفة بن العبد في  
إبياته المشهورة :

والحرب لايتقى لها حمها الخيل والمراح  
الا فتى الصبار في الد - نجدات والفرس الوقاح

الى عبادة ، ولا يكلف احد سجودا ، فلا جرم ان يكون ذلك اليوم الذى يكشف فيه عن ساق هو ايام المعجز والشيوخه ، او ساعات النزح والحشرجة التى تلم باولئك المكذبين على حد قوله تعالى ( قلوا اذا بلفت المحمل ) . هذا ما قاله ابو مسلم .

وحل معنى الآية صلى قوله ههنا : اذكروا ايها الماندون المكذبون لتحميد صلى الله عليه وسلم يوم الهول العظيم الذى ينزل بكم عند آخر يوم من ايام حياتكم : يوم يعول ذووكم ، وتطلب نساؤكم ، فيمضون فيهابهم ، ويفطعن شهورهم ، اذكروا انكم اذا دعيت في تلك الساعة الى الايمان بالله والسجود له ، وقد ظهرت لكم امارات القيامة وصدف نبيكم الذى كنتم تكذبون به في حال صحتكم . فلا تستطيعون السجود ، لما نزل بكم من الموت ، وحل بحسبكم من الوهن والضعف . في ذلك اليوم تضعف ابصاركم من الحركة فتخسع ، ويفشى وجوهكم الملل فتسفع . في ذلك اليوم تذكرون انكم كنتم تلمسون الى السجود وانتم صغيرون قادرين فتائبون وتستكبرون ، فلوقوا اليوم ما كنتم به تكذبون .

فانت ترى ان حل الآيات على هذه الصورة لا مانع منه ، ولا منافى له ، لا من السباق ، ولا من الحلق . اما جعلها على ان المراد به يوم القيامة ، فالامر فيه ظاهر ايضا . ويكون المعنى ههنا : على هؤلاء المكذبين ان يذكروا ذلك اليوم العظيم الذى يشهد فيه الكرب ، ويفتح الضبط ، يوم يوحى على بافرطوا في جنب الله ، وكذبوا من بعثة محمد صلى الله عليه وسلم ، فيقال لهم : هاكم قد بين لكم صفك الرسول ، وما بجاني اية ، فقوموا لياجسبوا الله بكم ، ان كنتم فاعلين ! ومن اين لهم الاستطاعة يومئذ على السجود وقد حيل بينهم وبينه بما جلبوا ان هذا غير نافع في ذلك اليوم ، ولا الوقت وتعبه ، وان طلب السجود منهم اما هو طلب توبيخ وتعنيف لا طلب شرع وتكليف . فتخسع اذ ذلك ابصارهم فلا تعود تفرج ، ويفشى سواد البكل وجوههم بعد ان كانت بوميض العظمة والكبرياء تهيء وتلجم ، ويذكرون انهم ( كانوا يخشون الى السجود وهم سالكين ) خائفين من مثل هذه الموانع التى اعترضتهم يوم القيامة فيستكبرون ، ويكتاب الله يكذبون ، فباى حديث بعده يؤمنون ؟

كان صلى الله عليه وسلم يضيق صدره احيانا من عند المشركين وتكذيبهم له فصدعهم الناس عن الدخول في الاسلام كما من من الوليد بن المغيرة الذى ذكر التزليل طرقا من قتاده وسد سوء اخلاقه . وكثيرا ما طيف قلبه الشريف بالفكر قبيحهم ، والتبني او ان الله يكفه شرهم ، ويكف عنه مآذيتهم . فكان الله تعالى يحق قبيحة على الصبر واللبثات ، ويذكره بما اتم الله به عليه من صفات النعم وعظيم الآلاء ، ويصف له ما يوفى بلاقيه اولئك المشركون من شديد العذاب على تكذيبهم له واعراضهم عن الاسلام ، ويشرب له مثلا اخوانه من الانبياء والمرسلين وما لا لوا من عتاد اممهم ،

وكيف كانت العاقبة لهم ، مسلما له ، ومقلبا روح الرجاء والامل في قلبه الشريف .

ومن ضروب التسلية قوله في هذه الآية - وكان قد آتس منه شيئا من التلق واضطراب القلب ببيان اولئك المكذبين وفرط مقاومتهم له - ( فلونى ومن يكذب بهذا الحديث ) .

والحديث القرآن والوحى والآيات التى كان يتلوها صلى الله عليه وسلم على المشركين مذكرا ومحللا . ومعنى ( فلونى ومن يكذب ) دمنى واباه ، ونقى بى ، وفوض امر الانتقام منه الى ، فانى كافيك ذلك ، وقادر عليه ، وهالم بطريق الوصول اليه . فارح نفسك من جهته ، ولا تشغل قلبك به . وفي هذا الاسلوب من تهديد المكذبين وتخويفهم ما فيه .

وكان قائلا يقول : وما انت صانع بهم يارب ، وعلى اى طريقة من طرق الاخذ والتكال سير بهم ؟ يقال : ( يستندرجهم من حيث لا يعلمون واملى لهم ) ( الفخ ) ( الاستدراج ) ان تنزل بالمره درجة فدرجة الى حيث تريد به . فقلوه ( يستندرجهم ) سببقتل بهم . من طور الى طور ، ومن حالة الى حالة معجزهم فآجهم ، ثم لا يشعرون بما خسرهم لسم في طيها ، حتى يردوا الملبأ ، ويتورطوا في الشقاء .

وقوله ( واملى لهم ) اى امهممهم ولؤخرهم ، فيكون مشتقا من ( الملاء ) وهى البرهة من الدهر ، ويكون المعنى : انى افسح لهم في امصارهم ، وانبا في آجالهم برهة من الزمن ، ثم انزل بهم انتقامي اخيرا .

ويحصل ان يكون معنى ( املى لهم ) ارخى لهم العنان ، يرحون ويمرحون كما يشاؤون ، ثم لا يشعرون بانفسهم الا وهم في الصلأ والبالأ متورطون ، فيكون ( املى ) على ههنا مشتقا من ( الملاء ) وهو المتسع من الأرض . يقال : املت لممر اذا وسعت له في قيده او زمانه ، ولوحشته له بحيث يسهل عليه الرعى اى شاء .

وكلا التعبيرين ( الاستدراج ) ( الاملاء ) ، تمثيل لتأخير انتقام الله من اولئك المكذبين ، وتمتيعه اياهم بالصحة والنبين والرزق ورغد العيش والزمان الضم ، فيشغلهم كل ذلك من النظر في آيات الله والابصاع الرسول والامان به . وقد قامت لديهم الادلة وكاملت حجج الله على صدقه وصحة نبوته صلى الله عليه وسلم ، ولكنهم تشددوا في فطنتهم هذه حاسبين ان تأخير الملبأ عنهم ، واتساء خلول البلاء بهم ، كزية فيهم اقتضت ذلك ، بل ربما ظفروا - كما اشار الله في الآيات السابقة - ان سيكون لهم يوم القسيمة نصيب من بجاج الجنان كما يكون للسلالم الكهين ، بحجة ان هؤلاء لا يفصلونهم بشيء ، وانهم هم لو لم يكونوا على خير وزلفى من الله لما متعهم بصنوف النعم ، وزغد العيش ، ولكل في العمر . ويقون هكذا في شروهم ، وغفلتهم من سنن الله في خلقه ، ومثلا في الامم قبلهم حتى نزل بهم اشياء كلكايات بقنة وهم لا يشعرون ولا ينتظرون ، وهذا معنى قوله ( من حيث لا يعلمون ) .

إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ ﴿٥٥﴾ أَمْ سَأَلْتَهُمُ آبَاءَهُمْ مِنْ قَبْلِهِمْ  
مُتَقَلِّوْنَ ﴿٥٦﴾ أَمْ عِنْدَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُمُونَ ﴿٥٧﴾  
فَصَصِّرْ لِحُكْمِكُمْ رِبَّكَ وَلَا تَكُنْ كَصَاحِبِ الْحُوتِ إِذْ  
نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ ﴿٥٨﴾ لَوْلَا أَنْ دَارَكَهُ نِعْمَةٌ مِنْ

وهكذا كان شأن مشركي العرب الذين كذبوه صلى الله عليه وسلم ، وجحدوا نبوته ، فانهم ما زالوا في غيهم ، وفروط عنادهم ، حتى نزل بهم البلاد بيسر وبتيبة المواطن ، ثم كان الفتح وظهور الاسلام . وقد سبى الله تعالى تاجر العذاب منهم ، وتجمعه بالصحبة والزرق وطول العمر - وهو في طي ذلك قد قدر عليهم الشقاء ، وانصدم لهم الانتقام - ساء ( كيدا ) لمسايقته الكيد في الظاهر ، والا فلان الكيد من صفات العاجز ، الذي يحتال على عدو له فوى لا يقدر على مباداته بالبطش ، ولا مصارحته بالانتقام ، فيظهر له رفقسا ، ولين جانب ، وهو في خلال ذلك ينصب حيال الشر حتى يقع فيها . هذا هو الكيد ، والله تعالى مثزه عنه ، وانما الكلام تمثيل ، وتسمية للشئ باسم ما يشبهه ، وما هو في صورته .

( المغموم ) و ( الفرامة ) ان يلتزم الانسان اداء ما ليس عليه ، فيعطيه فهو كاره ، ( والقله ) حمله شيئا قتيلا ، والمراد من ( القيب ) ما كبت في القيب ، وقد في علم الله ، وقوله ( يَكْتُمُونَ ) أى يكتبون ذلك المقدر في القيب ، وينسخون منه ، ويقروء بعضهم على بعض احتجاجا به واستنادا اليه ، و ( الم ) للاضراب والانتقال من حديث الى حديث آخر يجلب بالمخاطب ان يفكر فيه ، ويهتم به اشد من اهتمامه بالحديث الأول ، كان المحدث يقول : دع هذا الذى حدثتك به واسمع ما هو أصعب وأغرب وأولى بالاهتمام .

والخطاب الالهى بعد ان هداه المشركين المكذبين ذلك التهديد الخفيف مد قال تعالى : ( فلنرى ومن يكذب ) أصبح من المحتمل أو المنتظر ان يكون قد خاض أولئك المكذبين خوف أو خشية مهدت في نفوسهم طريقا لقبول الحق ، وموضعا للتأثر بالوعظ والارشاد ، فرجع الوحي الى الالة القول لهم بما يشبه العتاب ، لتحريك عاطفة التناصيف في قلوبهم ، فقال تعالى : ( ام تسألهم الخ ) أى بل الأصعب من كل ذلك بما محمد ان القوم يأبون قبول ما ينتهم به من الحق والهداية حتى كانوا تطلب منهم عليها اجرا يبهظهم ، ويتقّل عواطفهم .

ثم صلب من حالهم بأسلوب آخر فقال : ( ام عندهم الغيب لهم يكتبون ) أى اذا كانوا لم يظنوا انك تتناصمهم اجرة باهظة ، فلم يماندون كل هذا

العتاد ؟ عندهم اطلاع على علم الغيب ، وما ألبت في القلوب المحفوظ ، فهم ينسخون منه من شروب الحجج ما يساعدهم على التجاة والتفلت من التبعة ، ويضمن لهم القبول ودخول جنات النعيم مع التفتين !! وإلى هنا يكون قد انتهى الكلام مع أولئك الجاحدين بما يفهمهم ، ويقطع حججهم ، ويصل الحوار معهم ضريا من العبث واللفو ، فلم يسبق الا تثبيت قلب النبي صلى الله عليه وسلم ، وحله على الصبر والاعتصام بالله في انتاج وعده ، وإتمام امر دعوه ، فلا هلا ولا يضجر ولا يكون منه ما كان من سيدنا يونس النبي عليه الصلاة والسلام . وقد قص الوحي علينا في هذه السورة موجزا من خبره فقال : ( فاصبر لحكم ربك ولا تكن كصاحب الحوت ) الآية . ( حكم الله ) الذى طلب تعالى من نبيه ان يصبر عليه هو الاملاء للمكذبين وتأخير الزوال العقوبة بهم حسبما اشار اليه بقوله ( تستدرجهم ) ( وأملئ لهم ) . وقيل ان تقيفا لأذوه صلى الله عليه وسلم ، وسلطوا عليه عبيدهم وأشرارهم ، أراد ان يدعوا عليهم ، فانزل الله عليه ( فاصبر لحكم ربك ) أى لا تعجل في الدعاء على القوم بالعذاب ، وأصبر حتى يعين وقته القدر .

وذهب جمع من المفسرين الى ان ( حكم الله ) الذى كلف تعالى نبيه ( الصبر عليه ) ما كان من رعاة النبل في رقعة احد : من مخالفة امره صلى الله عليه وسلم واكتشاف آخرين عنه ، حتى هم من أجله بالدعاء عليهم ، فنهاه ربه قائلا له : ( فاصبر لحكم ربك ) ، فان ما فعلوه حكم قضاء ربك تعالى ، وفي طي فعلهم حكم وأسرار ، فاصبر ولا تعجل . غير ان قوله تعالى لنبيه : ( ولا تكن كصاحب الحوت ) وهو يونس النبي عليه السلام ربما أيد القول الأول ، من ان المراد بحكم الرب هو التمسك للمشركين ، وتكذيبهم للنبي صلى الله عليه وسلم ، وتأخير نصرته عليهم . وان خبر يونس مع قومه ، ومفاضته بسببهم ، وضيق صدره من عنادهم ، وعدم نزول العذاب بهم - يشبه بعض الشبه امر نبينا صلى الله عليه وسلم مع قومه ، فانهم لجروا في مقاومته ، واكثروا من مكابذته ، والتهمك بما كان يوعدهم به من العذاب - فكان صلى الله عليه وسلم يرى أحيانا ان قد حان الوقت لحلول عليه بهم تفصح الطريق امام الدعوة وانتشار الاسلام ، وأوثة كان يضيق صدره الشريف من تأخر ذلك منهم ، غير ان الحق تعالى قال له أولا : ذرني واباهم ، ولوق باتى قادر على أهلاكهم ، فاتح قلبك من هذا القبيل ، وقال له الثانية : ان لربك مستنا حكيمة لا تتغير في أمثال هؤلاء الأمم الكاذبة ، فاصبر لحكمها يا محمد ولا تعجل ولا تقضب ولا تكن كالنبي يونس . ثم وصف تعالى لنبيه ما وقع ليونس مع قومه قائلا : ( اذ نادى وهو مكظوم ) ، أى لانك مثله في الفجر والمخاضة وقت ان رفع صوته بالدعاء على قومه ، وهو مخفوم مملوء غيظا منهم ، وهذا معنى قوله ( مكظوم ) ، قاله اسم مفعول من كظم غيظه اذا رده وحبسه ، واصله من كظم السقاء اذا ملأه .

يلقوا بعض الركب أيضاً وداؤا من العذل أن يقتنعوا  
بينهم على من يلقونه ، فأصابت القرعة يونس ، فالتقى  
نفسه مكروهاً ومختاراً . ولم يكن وقوع القرعة عليه  
من دون سائر رفاقه ، والنتقام الحوت له - أثراً من آثار  
آثار الاتفاق الحضي ، وإنما هو معبري أثر من آثار  
المشيئة الإلهية : ليكون ذلك جزاء لمفاصيته ، ومنهيا  
له على فعلته . ثم إن يونس لما استقر في بطن  
الحوت ، وتجرّد بالكلية عن عالم الأسباب إلى عالم  
الملوكوت ، وشعر بخطر ما هو فيه ، وخطأ ما كان منه ،  
انتبه إلى وجوب الرجوع إلى ربه بالتوبة والالتابة :  
فرفع صوته في تلك الظلمات قائلاً : ( لا إله إلا أنت  
سبحاك أي كنت من الظالمين ) . وكان المعنى في  
هذه الاستغاثة : أتني يارب قد ظلمت مذ فقلت من  
بعض سنتك الكونية في إيمان الأمم وجودها ،  
وانحطاطها وصمودها ، وانتماضها وخمودها - فسألتك  
لامتي « أهل نبؤى » ما لم تجر عادلته به ، وما هو  
معايير لسنتك الحكيمه ، ومشيئتك القديمه ،  
فسألتني يارب إلى هذه الظلمات ، وجعلتني في هذا  
القبر المتحرك قبل إبان المات ، منهي لي بذلك إلى  
أن تأخير انتقامك من قومي لم يكن ضعفاً منك ، وإنما  
عجزاً من تبديل السنن والنواميس الكونية ، وإنما  
هو أطراد لها ، فلا يخل نظام الكائنات ، وتبنيه  
البشر إلى لزوم مرامها ، فلا يتسبون التماهات ،  
أو يقعون في الضلالات . وأتاك يارب إذا شئت غيرت  
سنتي الكون ونواميسه . كما غيرت نواميس الهوام  
والحياة والنفس ودورة الدم في الجسد ، مذ حفظت  
على حيائي ، ودبرت لي معيشتي وأنا في بطن الحوت .  
فلا غرو أن تكون تلك التبسيحة من مسيلنا  
يونس ، وهذا الاعتراف بأنه كان من الظالمين ، خير  
وسيلة لقبول توبته وغفر الله عنه .

وقد ذكر الله في كتابه في تيمه خبر يونس هذا  
أنه تعالى لبي دعوه ، وقيل توبه ، ولولا ذلك لبقى  
في بطن الحوت إلى يوم القيامة .

وقد ألهم تعالى ذلك الحوت فنيذ يونس إلى أرض  
فضاء لا ستره فيها سوى شجرة من فصيلة الكائنات  
التي لا ساق لها مما يمد على وجه الأرض : كالآشام  
والبطيخ والقرع ، وهو الذي غلب عليه في أيامنا اسم  
القططين ، فلا أعلم أبة ذلك كانت تلك الشجرة  
القطيانية . غير أن قوله تعالى ( وأتينا عليه ) يشعر  
بأن تلك الشجرة قد تعرضت على قوائم شخص  
كجذع شجرة مثلاً بحيث أمكن ليونس أن يأوي  
إليها ، ويستقر تحتها . ويشعر السياق إلى أنه قد  
انتفع بها . ولم يصح كنبذانه بأية الطرائق كان ذلك  
الانتفاع . ولعل قوله ( فنيذناه بالمرء وهو سقيم )  
يشير إلى أن الانتفاع كان علاجاً لسقمه . ثم إن  
يونس رجع بعد ذلك إلى قومه الذين فارقهم مفاضيه  
قامنوا به ، وتلقوا الهداية منه ، حتى أذن الله  
بأقراضهم .

هذا هو خبر سيدنا يونس حسيماً أخذه من  
النصوص الصحيحة ، وليس فيه ما يستبعد وقومه

ثم إن الله أخبر بأن يونس ( تداركه ) في آخر الأمر  
( نعمة من ربه ) ، وهي لطفه به مذ وقفه إلى التوبة  
والإتابة ، مغفراً عنه ، واستخلصه لنفسه ، وقال :  
أنه لو لم تداركه تلك النعمة ( من ربه لنذ بالمرء )  
وهي الأرض الفضة لا سائر فيها ( وهو مذبوم ) ،  
أي ملوم على ما كان منه ، لكنه لما تاب نذ به الحوت  
بالمرء من دون أن يكون مذبوماً . وقد قال تعالى في  
سورة الصافات بشأن يونس أيضاً ( فالتقمه الحوت  
وهو مليم ) ، أي التقمه وهو متلبس بما يلام عليه .  
وقال في سورتنا هذه لولا أنه تاب ( لنذ بالمرء وهو  
مذبوم ) فأفاد أنه حينما نذ به الحوت لم يكن مذبوماً  
وهو بمعنى لم يكن مليماً أي لم يكن مستحقاً للوم .  
فهو صلوات الله عليه دخل بطن الحوت ملوماً ، وخرج  
منه غير ملوم ولا مذبوم ، فالصمدية في جواب قوله  
( لولا أن تداركه نعمة ) ليست هي قوله ( لنذ  
بالمرء ) إذ لو كان النذ بالمرء هو الصمدية لفاد أنه  
لم ينذ مع أنه نذ بالفعل ، وإنما الصمدية في الجواب  
هي الجملة الحالية ، وهي قوله : ( وهو مذبوم ) ،  
فالنذ في المرء حصل ، ومداركة النعمة ليونس  
كانت في توبته مذ كان يبطن الحوت بحيث كان وقت  
أن نذ به الحوت غير مذبوم ولا ملوم .

ولفظ ( النعمة ) تأنيته غير حقيقي ، وقد فصل  
بينه وبين فعله بضمير المفعول ، ولذلك جاز تذكر  
فعله قبل ( تداركه ) . على أن ابن عباس وابن  
مسعود رضى الله عنهما قرأها ( تداركته ) بآلاء .

وقوله : ( فاجتياه ربه فجعله من الصالحين )  
معناه أنه تعالى بعد أن تداركه بنعمته اصطفاه لثوبته  
وجعله من الصالحين أي الأنبياء المرسلين الصالحين  
بما أمرهم ربهم ، والتمتين عما نهاهم عنه .

قلنا إن الوحي قص علينا خبر يونس في هذه  
السورة بموجب من القول ، لكنه في مواضع آخر من  
القرآن ذكره بأكثر أسباب ، وما نحن نوود الخبر  
بأطرافه مقتصرين فيه على ما ثبت وصح في  
النصوص من دون حكاية ما زاده القصص :

اتفصل نبى الله يونس من قومه مفاضياً ظناً أن  
الله غير مؤاخذه ، وظل سائراً كهية الهارب حتى  
بلغ شاطئ البحر ، فركب سفينة مشحونة للسفر .  
وفى أثناء سفر هذه السفينة في البحر جرى من الأمر  
ما أدى إلى الاقتراع والمساهمة بين ركابها ، فوقع  
القرعة على يونس ، فالتقى بنفسه في البحر ، فالتقمه  
أحد حيتانه ، ولم يخبرنا الوحي من سبب خروجه  
من قومه مفاضياً ، وإنما أشار تعالى بقوله : ( فظن  
أن لن نقدر عليه ) إلى أن غضب يونس لم يكن مرضياً  
لل تعالى .

أما الاقتراع بين ركاب السفينة اللى ألهما يونس إلى  
التأله نفسه في البحر ، فسببه - والله أعلم - اكتظاظ  
السفينة بركابها واتقالها ، وغلبة المواصل واحتلاج  
الأمواج عليها ، فرأى أهلها أن يخفوا منها فالتقوا  
اتقالها ، ثم لما لم يَف ذلك بالحاجة ، اضطروا أن

وَبِهِ لَنَسِدُ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ ﴿٤١﴾ فَاجْتَبِهِ وَبِهِ  
فَجَعَلَهُ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٤٢﴾ وَإِنْ يَكْذِبُ الَّذِينَ كَفَرُوا  
لَنَرْفُتَنَّهُ بِأَنْبُشَتِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُ  
لَمَجْنُونٌ ﴿٤٣﴾ وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ ﴿٤٤﴾

اللهم الا انتقام الحوت له ، ومكته في بطنه حينما من  
الزمن حيا يرزق ، لم يبدئه في ذلك القضاء .

على انه ان حق لاهل القرون الماخسية ان  
يستبعدوا خبر صاحب الحوت ، فلا يحق لابن اعصرنا  
ذلك الاستبعاد ، بعد ان راوا باعينهم مسيح الكثيرين  
منهم في بطون القواصات اياما متطاولات ، تحت  
البحار الطاميات ، وطيراتهم مثل ذلك في اجواز  
السموات . فالاله الذي خلق العقل البشري ، ومهد  
له سبيل الوصول الى مثل هذه العجائب ، الا يكون  
قادرا على ان ييسر حصول مثل لعبد يونس ببعض  
الاسباب التي لم تول مجهولة لنا ؟

هذا ما نقوله للمتسائل المتعجب . اما نحن معشر  
المسلمين فنؤمن بما ورد في الكتاب مادام انه غير محال  
في العقل ، ونرى ان الريب فيه لخالفته نواويس  
المادة المعروفة اليوم لا يلبق بمسلم يعتقد بخالق  
هذه المادة ، ومبدع تلك النواويس .

اما ما رواه الاسفار القديمة من خبر يونس الذي  
سميه « يوان » فهو انه من بني اسرائيل من قرية  
« مشهد » على مقربة من الناصرة ، قد ارسله الله  
الى الاشوريين في نينوى نحو سنة ٨٢٥ قبل المسيح ،  
يدعوهم الى عبادة الله وحده ، فتقايس يونس عن  
الذهاب اليهم ، بنضا فيهم ، وذهب الى يافا ، فركب  
سفينة مسافرة الى طرسوس « ترسيوس » ، فالتفت  
الله عليه انزاد البحر قصاصا له . فلما اتى النوبة  
القرعة ليمرقوا من هو السبب في هذه المصيبة وقعت  
القرعة على يونس ، فاعترف بذنبه ، وقال لهم القروني ،  
فالقوه ، فاطلمه حوت ، وصلى وهو في جوفه صلاته  
المعروفة ، وبعد ثلاثة ايام فُذله الحوت الى البر ،  
فذكر الله تعالى على الامم بالدهاب الى نينوى وانذار اهلهاء  
فذهب اليهم ، وانذرهم الهلاك بعد اربعين يوما ،  
فانصتوا وتابوا ، فمحن الله منهم الهلاك الموعود ، فغضب  
يونس لظنه ان ربه جعله كاذبا في نظر الاشوريين ، او  
لانه تعالى عفا عن القوم ولم يعذبهم ، وخرج يونس  
من نينوى ، واتخذ لنفسه مظلة جلس تحتها ريثما  
يرى ماذا يصيب المدينة ، فانبت الله بطنية عرشت

على المظلة ، ووقته حر الشمس ، فسر يونس بها  
لكنها لما يسست ، ولحمه الحار ، تعنى لو مات  
واستراح ، فادعى الله اليه : « يا يونس ! اشفت  
على البطنية ، التي لم تربها ، ولم تعصب عليها ،  
وهي بنت ليلتها ، افلا اشفق انا على نينوى المدينة  
الظلمة التي فيها انتشا عشرة ربوة (١) من اناس  
لا يعرفون يمينهم من شمالهم ، عندما ما فيها من  
البهائم الكثيرة » !!! فخرج يونس من هذا التائب  
ورجع الى بلاده ، فاعتزل مع امه في محل قريب من  
« صور » حتى مات ، وبين بيروت وصيدا اليوم  
مزار يقال له « النبي يونس » وعلى مقربة من نينوى  
تل يسمى « تل النبي يونس » و « تل التوبة » .

قالوا : واما الحوت الذي ابتلعه . فلا يعرف نوعه ،  
وذهب الكثيرون الى انه من النوع المسمى كلب البحر ،  
وقد هتر على واحد من هذا النوع عند رأس بيروت  
طوله عشرة قدما كما هتر على واحد آخر في جزيرة  
القدسية « مرغريت » في فرنسا وفي بطنه فرس  
كامل الاعضاء ، فلا يستغرب اذن ان يبلع الحوت  
المذكور يونان النبي ا ه .

وفيما ذكرته هذه الاسفار من خبر يونس ما لا  
يجوز لنا معشر المسلمين التصديق به مثل امتناعه  
عليه السلام عن تبليغ الرسالة الى الاشوريين بنضا  
فيهم ، ومثل غضبه على ربه لانه عفا عنهم .

( ان ) هذه هي المؤكدة ، كانت مشددة فخفت ،  
وبعد التخفيف بطل عملها وبقي تأكيدها . واللام في  
( ليرقونك ) هي اللام الفارقة الدالة على كون ( ان )  
هذه مؤكدة لا نافية .

ومعنى ( يرقونك ) يجعلونك تراق وتزل : زلقت  
قدمه زلت ، وزلقه خيره وانزله ازله ، والموضع الذي  
ترزق فيه القدم وتزل يسمى « زلقا » و « زلا » .  
و ( ليرقونك ) قرى ثلاثا ورباعيا . وحسنا بمعنى  
واحد كما قلنا . وارلق فلانا يصمره نظر اليه نظر  
متسخط كاره ، كانه من شدة التحديق اليه وفط  
اقاء النظر الشرر عليه بكاد يزلق قدمه ويرميه ،  
فتلك النظرات الضوية أصبحت لشدها وحدها كاهها  
مادة محسوسة ، تصيب الشخص فتدله دفعا ،  
له تصرفه صرعا . ومنه قول الشاعر :

يتقارضون اذا التقوا في موطن

نظرا يزل مواجيه الاقدام .

والضمير في ( سمعوا ) يرجع الى الكافرين المكذبين  
المتحلث عنهم من اول السورة . و ( الذكري ) هنو  
الوحي والقرآن ، وصى ذكرا لتضمنه موعظة وتذكيرا  
وارشادا .

(١) الروية بكسر الراء المعجمة المظلمة من الناس نحو مرة  
الاف . اما الروية بفتح الراء فهي في اصطلاح الحساب اليوم غلر  
ترات . والكرة مندم مائة الف . المؤلف .



(٦٩) سُبْحَانَ الْحَاقَّةِ بِمَكِّيٍّ  
وَأَيُّهَا ٥٢ نَزَلَتْ بِحَدِّ الْمَلِكِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الْحَاقَّةُ ① مَا الْحَاقَّةُ ② وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحَاقَّةُ ③

(الحاقّة) تأتي الحاق، اسم فاعل من حق فلان الأمر بمعنى حققه وأوجبه وأثبتته . وإذا كان معنى (الحاقّة) ما ذكرنا كان لها موصوف ومفعول محذوفان، والتقدير الساعة الحاقّة لأمر الحساب ، ولما يتلو ذلك من الثواب والعقاب . فتلك الساعة - وهي يوم القيامة - تحقق كل ذلك وثبتت بحيث لا يعود يقع فيه ربّ للمرتابين ، ولا تلعنّ للمكذّبين . ويقول الرجل لأصحابه إذا بلغهم خبر فلم يستيقنوه : « أنا أحقّ لكم بهذا الخبر » ، أي أعلمه لكم ، وأقف على حقيقته .

وكما أن (حق) التثاني يكون متعددا بمعنى حقق يكون لازما بمعنى وجب ولبت وتحقق في نفسه . ومنه (حقّت كلمة ربك) و (حقّت عليهم كلمة العذاب) أي وجبت وفُتيت . ويجوز تفسير (الحاقّة) في الآية بذلك ، ويكون معناها الساعة الثابتة المتحققة الوقوع . وقد أصبحت (الحاقّة) اسما من أساء يوم القيامة ، ولم يعد يلاحظ فيها موصوفها ، كما أن (القارعة) و (الواقعة) و (الطامة) و (الصاخة) كذلك ، فكل هذه الأسماء كانت أوصافا ، لم غلب استعمالها أسماء بل أملا ما يوم القيامة .

وقوله (ما الحاقّة ؟) استفهام يقصد به تهويل تلك الساعة التي سميت الحاقّة ، كأنها لغزابة أمرها ، وفظامة هولها أصبحت النفس من دهشتها تتسأل عنها قائلة : « ماهي تلك الحاقّة ؟ » ، وهذا كما إذا فاجأ المرء مصطب قاذح ، فانه يلتفت إلى طيبسه قائلا : ما هذا ؟ مع أن الصواب يكون معلوما لهما ، بل يكون أحيانا تحت مواقع أفعالهم .

وكان الظاهر أن يقول « ماهي ؟ » مكان (ما الحاقّة ؟) لكنه عدل عنه إلى الاسم الظاهر لزيادة التهويل به فوق التهويل بالاستفهام . أما أضرابه : فالحاقّة مبتدأ، وقوله (ما الحاقّة) ما استفهامية خبر مقدم والحاقّة مبتدأ مؤخر ، والخميلة منهما خبر الحاقّة الأولى ، والحاقّة الثانية بمنزلة الضمير والكنانة من الصلابة الأولى ، كأنه يقول « الحاقّة ما هي ؟ » كما يقال « زيد ما زيد ؟ » أي إن أمره محيب ، ومثل الآية في العدول إلى الظاهر قول لم ذرع في حديثنا المشهور : « أبو ذرع وما أبو ذرع ؟ » ، « أم أبي ذرع فعا أم أبي

أمر الله نبيه بالصبر ، وانتظار حكم الله في أمثاله الذين يغيثون به الفتى ، ويتقربون إليه الأفاويل ، ووعظه بالا يكون كصاحب الحوت في الفجر وحسب الانتقام من قومه ، ولما جاء إلى ختم السورة ختمها بما يذكر بفاتحتها ، ويربط نهايتها ببدايتها ، فكانت هذه الخاتمة كغلفة الحساب ، تجعل ما تعلّمها من التفصيل والأسباب .

وبين ذلك أن الله تعالى نفى في أول السورة من لبيه ما يرميه به مشركو مكة من الجنون والفتون ، حينما يسمعون منه تنبيح عبادتهم ، والتحكم بألتهم ، وما كان ينذرهم به من البعث والحساب ، والجنة والنار ، وقرب أوصافهما . فكانوا يثيرون عليه صلى الله عليه وسلم جليلة وضجيجا ، ويصفونه بما هو براء منه ، لتتصرف قلوب الناس منه ، ولا يألون في تكذيبه واتكاف ما اتهم به من الوحي والقرآن . وكانت جميع آيات هذه السورة حورا وجذلا مع أولئك المكذّبين ، وقد تضمنت من أساليب التذكير أبلغها ، ومن الأمثال أفربها وأصحبها ، قصة أصحاب الجنة : فربهم الله مثلا للمكذّبين الذين كفروا نعمة الله عليهم ، وكثير صاحب الحوت : فربه الله مثلا لنبيه صلى الله عليه وسلم ، يحلّره فيه أن يفعل فعله .

ثم عاد فحقق أصل الدعوى ، وأبى بنتيجة ما فسل من القديمات ، فقال : ( وإن يكاد الذين كفروا ليزولنك ) الآية . والمعنى أن المكذّبين إنما يغيثونه صلى الله عليه وسلم ويصدونه على ما اختصه الله به من الوحي ، وآثره من النبوة والكرامة . فهم حينما يسمعون منه الذكر ، وهو القرآن يتلوه عليهم متلوا ومحلدا ، كانوا يوجهون إليه من شدة الفيز والحقق نظرات أصبحت من حدتها وقوتها بحيث تكاد تصرعه صلى الله عليه وسلم ، وتلقيه على الأرض . وهذا من أبلغ ما يقال في وصف نظر الفيز والمحد .

وقوله تعالى (ويقولون انه لجنون) أي يصدون محمدا صلى الله عليه وسلم على ما أوتي من فضيلة الوحي ، وكرامة النبوة ، وهم مع هذا يقولون منه انه مجنون ، وهذا القرآن الذي جافا به من الهديان الذي يهلى به في جنونه ، فكيف يتفق هذا القول مع نظراتهم الدالة على شدة فيظهم ، وفرط حقهم ؟ ! وهل تشغل النفوس بالمحد والجسد ، وتسجر القلوب بنسار الفيز والحرد على الجانبين إلى هذا الحد ؟ . كلا ! ماهو عليه الصلاة والسلام بمجنون ، وما قراته والوحي المنزل عليه بهلديان ولا فتون ، (وما هو إلا ذكر للعالمين) . والمشركون يملون ذلك ، لكنهم من فرط حسدهم وعداوتهم وحيرتهم يريدون أن ينفروا الناس منه صلى الله عليه وسلم ، ويصرفهم عن الاستغناء إلى ما أوى به من الحكمة والهدى والحق ، فلم يجدوا أسهل من أن يقولوا : انه - وحاشاه - مجنون .

كَذَبَتْ مُنُودٌ وَعَاهُ يَأْتِصِرَاعِي ① فَأَمَّا مُنُودٌ فَأَهْلِكُوا  
بِالطَّاعِيَةِ ② وَأَمَّا عَادٌ فَأَهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ③

زرع ① « ابن أبي ذرع فما ابن أبي ذرع ؟ » وهكذا،  
والعنى أن امر ذلك عجيب ، وشأنه مستغرب .

ثم عاد الوحي فاستفهم مصيبا من أمر الحاقفة على  
أسلوب ابلغ فقال : ( وما أدراك ما الحاقفة !! ) كأنه  
يقول : أنه لا أحد يدري أمرها ، أو يقدر أن يحيط  
وهمه بما هي عليه من الضخامة ، وجلالة الشأن . وإذا  
كان الخطيب في ( وما أدراك ) لطلق إنسان ، الشامل  
للمكذبين للقيامه - يكون فيه تعريض بالكلب ، وأنه  
يكلب بما لا يعلسه ، ولا يقبلر على اكتناه أمره .  
والاستفهام في هذا الأسلوب جار على مادة العرب في  
التخاطب ، والا فان العلم الجبر سبحانه وتعالى  
لا يجهل حتى يستفهم .

قبل أن يأتي الوحي على وصف تلك الساعة  
واخبارها ، وما يكون فيها لفرقي الأبرار والنجار -  
ذكر للمخاطبين موجزا من أخبار بعض الأمم الماضية  
الذين كذبوا بها فهلكوا ، ليكون ذلك زاجرا للمكذبين  
بها من مشركي العرب ، فقال : ( كذبت مُنُودٌ وعَادٌ  
بِالْقَارَةِ ④ ) ، وكان الظاهر أن يقول مكان ( بالقارة ) :  
( بها ) ، أي بالحاقفة ، لأن الحديث عنها ، وتكذيب عاد  
ومُود اتما هو بها ، لكنه عدل عن ضميرها إلى اسمها  
الظاهر توصلا إلى نعتها بوصف آخر غير ( الحاقفة )  
وهو أنها ( القارة ) التي تفرق القلوب بهجومها ،  
ومفاجأة أحوالها .

و ( القَرع ) ضرب الشيء الصلب والتقرع عليه بشيء  
مثله ، يقال : قرع الباب والناقوس ، وقرع رأسه  
بالصاع ، وقرع السهم الهدف ، وهكذا . وإذا فجا  
الهول القلب اضطرب ووجب كان قارعا قرعه . على  
أن الساعة كما تفرق القلوب والنفوس بالأفراع ، تفرق  
الأرض والسماوات بالذك والنسف والانصداع ، فهي  
القارة بالمعنى الأعم الأشمل .

و ( مُود ) و ( عاد ) من قبائل العرب البائدة ، وكل  
هذه القبائل عند العرب من نسل آدم ، فهم إرميون  
أي إراميون كما تسميهم اليوم . ويقولون « عاد آدم »  
و « مُود آدم » فميزا لهم بهذا الوصف من غيرهم ،  
أو كشفا لهم ، فتعرف به نسيبتهم .

وفي التوراة أن عادا ومُودا تنسبان إلى آرام بن  
سام بن نوح عليه السلام ، فتعود جد قبيلة مُود  
هو ابن « جاشر بن آرام » ويسميها مؤرخو العرب  
« كاشر بن آدم » ، وعاد جد قبيلة عاد هو ابن « موسى  
ابن آرام » .

وكانت القبيلتان تسكنان اليمن ، ثم أن ملوكها  
الحميريين طردوا مُودا عنها فسكنت الحِمْيَر من بلاد

الحِمْيَر في وادي القرى بطريق الحاج التمامي إلى مكة،  
وتمر بها السكة الحجازية ، وهي مدائن صالح الشهورة  
ذات البيوت المنحوتة في الجبال نحتا في غابة الأحكام  
وحسن الصنعة ، وكان اليهود يسكنونها قبل ظهور  
الاسلام .

وقد لُرسِلَ الله إلى قوم لمود سكان هذه المدائن  
نبيا منهم ، وهو سيدنا صالح عليه السلام ، وكان  
صالح فيما يقال على طريقة سيدنا المسيح ، عيسى  
حافيا ، ولا يتخذ حلاء ، وبعض متعشفا فلا يتبوا  
مسكنا ولا يتبوا ، ثم أن قومه كذبوه ، وعقروا ناقته ،  
وأغرقوا في الكفر والجحود حتى أهلكهم الله . وقد  
قص تعالى علينا أخبارهم في غير موضع من كتابه ،  
وذكر في هذه السورة موجزا من طريقة هلاكهم .

أما أبناء صهم ( عاد ) فكانوا يسكنون الأحقاف من  
بلاد اليمن ، والحقف في اللغة الزلزل المستحيل الموج،  
وهذه الأحقاف كانت ممتدة في بلاد حضرموت بين  
عمان شرقا ، وبلاد اليمن غربا ، وساحل بحر العرب  
جنوبا . ويوجد في تلك البلاد على كثرة رمالها جبال  
وأودية من أخصب بلاد الله ، ذات مياه وأنهار  
وإردوع ، لا سيما في نواحي حضرموت والشحر من  
بلاد اليمن ، وكانت « عاد آدم » تسكن في تلك الجبال،  
وكانوا فيما يقال نحو ثلاث عشرة قبيلة تطنوا وبنوا ،  
فلُرسِلَ الله إليهم هودا عليه السلام ، فحطروهم  
واتلذذهم ، فكذبوه وتردوا عليه ، ثم كان من أمر  
هلاكهم أخيرا ما قصه الله علينا في هذه السورة .

ويقول علماء الآثار اليوم (١) أن مؤرخي اليونان  
ذكروا في جملة قبائل اليمن حوالي ميلاد المسيح  
قبيلة يكتيونها بفصل هكذا ( Adramites ) أي  
العامراميون ، ولا فرو أن يكون العامراميون هؤلاء  
هم الذين سبهم العرب « عاد آدم » أو « عاد آرام » .

قالوا : وأما قبيلة مُود فذكرت في جملة البلاد  
التي عليها « سرجون » ملك آشور سنة ٧١٥ قبل  
المسيح ، وكانت بجوار مكة في الجهة الجنوبية من  
مدائن صالح ، وذكر مؤرخو اليونان مُود حوالى زمن  
المسيح وبصده ، وجعلوا منازلها الملائن المذكورة ،  
ويسمونها لموديني ( Thamudini ) .

ودخلت « مدائن صالح » في حوزة ملوك بطرا « أو  
البتراء وهي وادي موسى » قبل المسيح ، وقد وجد  
على أطلال المدائن كتابات ونقوش تدل على هذا  
العنى ، ودونك هذا المثال من تلك الكتابات بالحرش  
النبطي وتاريخه حوالى عهد المسيح :

« هذا القبر الذي بنته كمكم بنت وائلة بنت  
حرم وكلية ابنتها لافسهن ولديتهن ، في شهر طيبة  
من السنة التاسعة للحرش ملك النبطيين ، عجب  
شعبه ، فقصي ذو الشرى وعمرشه ( ٤ ) والسات  
وعمند ومنوت وقيسن لنن من يبيع هذا القبر أو  
يشتره أو يرهنه أو يخرج منه جثة أو مضوا أويدين  
فيه أحدا غير كمكم وابنتها ولديتها ، ومن يخالف

(١) ملخص من كتاب ( العرب قبل الاسلام )

ما كتب عليه فليقلعه ذو الشرى وهبل وموت خمس لعتات ويغرم الساحر ( ١ ) غرامة مقدارها ألف درهم جارئي ، إلا من كان يده أذن من يد كعك أو كليبسة ابتها بشأن هذا القبر ، والأذن المذكور يجب أن يكون صحيحا ، صنع ذلك وهب اللات بن عبد عبادة ( ٢ ) .  
واللغة النقوشة على الطلال مدائن صالح آرامية مثل لغة « بطرا » النبطية ، وكان نمود سكان هذه المدائن كانوا يستعملون لغة ساداتهم النبطيين وكتابتهم أحيانا ، والأما لغة نمود الأصلية هي لغة بلادهم « البين » التي هاجروا منها ، اعني اللغة الحميرية ، وكتابتهم بالحرف المسند الحميري لا النبطي .  
وقد مشروا على فروع من القلم المسند في عدة أماكن من بلاد الحجاز ، أهمها ماوجد في « المساء » جنوبي مدائن صالح ، أوائل الميلاد ، من ذلك :

١ - كتابة سموها « ختانية » مد رواها فيها أسماء ملوك حيان الذين يظن أنهم يقايا قبيلة نمود .  
٢ - كتابة سموها « نمودية » وهي تختلف من « الحبيانية » بعض الاختلاف .

٣ - كتابة سموها « صفوية » وهي التي وجدوها في جبل الصفا بحوران .

( الطائفية ) من الطغيان : الانراط ومجازرة الحد وهي صفة لحذوف . كانه يقول : اخذوا بأخذه من اخذات العذاب جاوزت كل حد في عتفها وشدها .  
وقد كانت تلك الأخذة صبيحة من الساء : امتلحت ( ١ ) قلوبهم ، وأهملت نقوسهم ، بدليل ما جاء في سورة هود : وأخذ الذين ظلموا الصبيحة فأصبحوا في ديارهم جالمين ، ويعني بالذين ظلموا قوم صالح عليه السلام . والكتاب لم يبين هذه الصبيحة ، ولم يفصل أمرها بأكثر من وصفها بالطغيان ومجازرة الحد ، كما قال في آيتنا التي نفسرها . وقد قال في سورة الشعراء : فأخذهم العذاب ) ، وفي سورة الفجر : فصب عليهم ربك سوط عذاب ) ، وفي سورة الشمس : فندم عليهم ربهم يلبسهم فسواها ) ، ومعنى ( ندمم عليهم ) أهلكهم ، ومعنى ( فسواها ) سوى قبيلة نمود بالأرض ودمرها ، أو سوى بين أحداها في لحاق العذاب بهم ، فلم يفلت منهم أحد .  
أما السبب الذي أخذ به قوم صالح هذه الأخذة فهو تكذيبهم لنبيهم ، ومخالفتهم أمر الله فيما أمحنهم به ، من أمر التآفة . فقد أمرهم أن لا يسموها بسوء ، ثم يكون لهم شرب ، أي يوم يشربون فيه من المورد كتابتهم ، ولها هي يوم تشرب فيه وحدها ، على أن يكثر في يومها كل علم وأداء لهم من لبثها .

ثم ان جهلة القوم يرموا بالناقة وشرها ، وحرمانهم المساء في يومها ، فالتبعت أشقاها فقرها ، ولم يأخذ قومه على يده ونعمه من جرمة ، فنسب العقر إليهم كليم ، لرؤاها به وسكوهم عليه ، فعمهم العذاب ، وأخذوا بهذه الأخذة الطائفية التي جاوزت الحد المعتاد في القوة والاشتداد ، كما جاوزوا هم الحد في المخالفة والعناد .

( ١ ) اتملحت ( انومت )

هذا ذنب نمود وعذابه . ( وأما ) ابتها معهم (عاد) - وهم الذين يسمون أيضا « عاد لرم » و « أرم ذات العماد » ، والعماد البنية الرفيعة ، وسباني وصف ابتيتهم ، أو هو كتابتهم قوتهم ومنعتهم وعلو جانبهم ، وقتنا أن مساكنهم الأحقاف من بلاد حضرموت - فقد وصف الله في غير ما موضع من كتابه مبلغ طغيانهم وفجورهم وتكذيبهم لنبيهم هود عليه السلام ، واستخفافهم به ، وبالأوامر الإلهية التي كان يبلغهم إياها ، وهم الذين كانوا يقولون له : ( وما نحن بشاكر ) ألهتنا من قولك ) مد كان يقول لهم : ( يا قوم اصبدوا الله ما لكم من الله غير ) .

وقد انضم إلى كفرهم هذا بالله مآثم ومناكر فاثبة في الشاعة : من ذلك أنهم كانوا يبنون قصورهم على قارعة الطريق وفوهات الماير ، وكانوا يتناسون في بناء تلك القصور وتشييدها حتى يصبح الصخرة علامة على عظمة صاحبه ومبلغه من الضنى والشر ، ولنفوقه على ابتها عشيرته . فكانت تلك القصور وسيلة للمباهة والتفاخر وتأثير الفتن والعداوات ، ولم يكن لهم في تلك القصور عمل سوى العبث والعبث والافساد في الأرض . فكان بعضهم يتخذ في أملاها أبراجا للحصام ويضع الوقت سدى في أطرافه ، وإلهاء الجيران به . وكان آخرون يطلون من قصورهم على الفلادين والرائحين ، من تجار وأكرين ، فيميتون بهم ، وينبون بالاذى إليهم . وكان بعضهم يرصد الذين يفتون على تبينهم هود الأيمان به ، وتلقى الهداية من قبله ، فيقتولونهم بأنواع السباب والشتم ، ويحبسون بينهم وبين ما يريدون من الأيمان بهود عليه السلام . وكل ما ذكرنا هو منبههم الذي كان يوجههم عليه سيدنا هود مد يقول لهم : ( أيتبون كل ربع آية تمثون ؟ ) أي لم يقول : ( وتتخذون مصانع لعلمكم تغفلون ) ، أي تبينون المباني المتينة من دور وقصور وحصون وصهاريج للماء ، حاسبين أكم تعيشون إلى الأبد ولا بدركم الموت وأنتم في تلك القصور المشيدة ، وتجنون من عذاب الله على فظالمكم وأتاكم ؟ وأشد مكانا يوجههم عليه نبيهم أنهم كانوا إذا غضبوا على أحد من الناس ياندروا إلى تعذيبه ، والأبواق به ، قتلا بالسيف أو جلدا بالسيل ، من غير تفكير ولا تدبر في العواقب ، وقد لا يكون للمسكين ذنب يستحق عليه كل هذا العذاب ، فكان نبيهم هود يقول لهم معلدا فظالمهم ( وإذا بطشتم بطشتم جبارين ) .

هذا ما قصه الله علينا من خبر هذه الأمة العاتية . فلا بدع إذا أنزل بها شديد عقابه ، وألم عذابه ، مد قل تعالى وأصفا ذلك في كتابه ( وأما عاد فاهلكوا ) الآية . و ( الصرصر ) وصف الرعب يجمع بين شدة صوت هبوبها في الأذان ، وشدة لدغ بردها على الأبدان ، قان من معاني هذه المادة ( الصر ) الصوت الشديد . يقال : ( صر صرنا وصريرا ) ، والبردا الشديد يقال ( ربح صر ) إذا كانت شديدة باردة . وقوله ( عاتية ) المتو في الرجال : مجازاة الحد في الكبير والبطش وقسوة القلب . والتو في الرياح : مجازاة

حَضَرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَفِئْتِيَّةٌ أَيَّامٌ حُسُومًا فَرَى الْقَوْمُ فِيهَا صَرْعَيْنَ كَأَنَّهُمْ أَجْنَاظٌ تَحُلُّ خَاوِيَةً ① فَهَلْ تَرَى لَهُمْ مِنْ بَاقِيَةٍ ② وَجَاءَ فِرْعَوْنُ وَمِنْ قَبْلِهِ وَالْمُرْغَبَتُونَ بِإِغْلَاطِيَةٍ ③ فَمَضَا رَسُولُ رَبِّهِمْ فَأَخَذَهُمْ أَخَذَةً رَابِيَةً ④ إِنَّ لَنَا طَعَامًا حَمَلْنَاكَ فِي الْجُلُودِ ⑤ لَنَجْجِلْهَا لَكَ تَدْرِكَةً وَتَيْمِيًا أَذْنُ وَعِيَةً ⑥ فَإِذَا نُفِخَ

وقيل إن اسمها ( أيام العجز ) أي أيام آخر الشتاء ، فإن عجز الشيء مؤخره . ثم حرقوها وقالوا ( أيام المجوز ) قال صاحب التاج : والصحيح أنها ( عجوز ) بالواو كما في دواوين اللغة قاطبة .

و ( صرعى ) مطروحين على الأرض . و ( اجنأز النخل ) اصولها وجدومها . و ( خاوية ) نخرة فارغة تاكل جوفها وبلى وتفتت ، فمما أسرع أن سقطت على الأرض .

هذه الجذوع النخرة الممدة هنا وهناك هي مثال طبق لقوم عاد ، مذ صرعتهم الرياح الصرصر في أفنية دورهم ، وهراس مسكناتهم ، مبعثرين مبددين . وذاك لو طفت معابدهم ، وجست خلخال دورهم ، بعد أن فعلت الزبص بهم مافعلت = ( فهل ) كنت ترى لهم من باقية ، أي بقية أقلت من الهلاك ؟ أو الممتلئ هل كنت ترى لهم نفسا باقية لم يشملها الهلاك ؟

قوله : ( وجاء فرعون ) معطوف على قوله تعالى : ( كذبتم نمود وعاد بالقردة ) . بعد أن وصف الوحي موجزا من هلاك عاد ونمود ذكر طوائف من أمم قديمة أخرى كان من خرها وتكذيبها مثل ما كان من خبر عاد ونمود ، فعند منها ( فرعون ) ويعني فرعون وقومه ، وقد اجترأ من ذكرهم بذكره ، إذ كان رئيسهم ، وبلى امرهم ، كما اقتصر عليه أيضا في قوله : ( هل أتاكم حديث الجنود ) فرعون ونمود . ولو قال قائل : إن الراء بفرعون الفرعونيون أي المصريون القدماء المنسوبين إليه . ما كان مباحدا ، كتميم مثلا فإنه في الأصل اسم لجد قبيلة ، ثم غلب عليها كلها .

وقوله : ( ومن قبله ) قبل بفتح القاف وسكون الباء ، أي وجاء أيضا من الأمم من كان قبل فرعون وسبقه في الزمن . ولم يعين الكتاب لنا هذه الأمم السابقة ، وما علينا إلا تعلمهم ونعني بتعيينهم . وقد مثل لهم بعض المفسرين بقوم نوح وقوم نمرود .

وقرأ بعض القراء ( ومن قبله ) بكسر القاف وفتح الباء بمعنى جاء فرعون وأيامهم حين عنده وجهته ، يعني جنوده وأتباعه المقيمين حيث أقام ، والراجلين حيث رحل . يقال ( أتاني من قبل فلان رسالة ) أي من عنده أو من جهته . و ( لي قبل فلان دين ) أي عنده . ويشهد لهذه القراءة قراءة عبد الله بن مسعود وأبي بن كعب ( وجاء فرعون وممن معه ) . ولا يكون معه إلا جنوده وأتباعه ، وهو معنى ( ومن قبله ) . ويشهد لها أيضا قراءة أبي موسى الأشعري ( وجاء فرعون ومن تلقاه ) . و ( تلقاه ) بمعنى ( لقاء ) في الأصل ثم توسع فيها فصارت بمعنى ( عند ) و ( جهة ) .

( والمُرْغَبَتُونَ ) جمع المُرْغَبَةِ أي المنقلبة ، وموصونها محذوف ، أي القرى المنقلبات أو الأراضي المنقلبات ، يقال تنقلت البلدة بأهلها إذا انقلبت ، ومنه الأذنك ، بمعنى الكلب لأن الكلاب يقلب الحقيقة ، ويظهرها في غير صورتها الصحيحة . والراء بالمُرْغَبَتَاتِ مدن قوم لوط التي انقلبت عليهم ، وصار أهلها ساقطها ، بما

الحد في المصنف والهروب وقهر من أراد التوقي منها بحيلة ما : فهي تلمس عليه مكنمه ، أو تنتزعه منه بلا رحمة ، وقوق ذلك هي عقيم ، لا تلقيح شجرا ، ولا تبقى لمرأ .

هذه الرياح التي أرسلها الله على عاد ( سقرها عليهم ) أي ساعطها وجعلها مسخرة لأمره في إبادتهم ، والانتقام منهم مدة ( سبع ليال وفئتيئة أيام حسوما ) . و ( الحسوم ) في اللغة يدور حول ثلاثة معان :

- ١ - القطع باستئصال . يقال ( احسم العرق ) أي انزعه من أصله ، ثم أتوه ثلاثا يسيل دمه .
- ٢ - الشؤم الذي لا يكون معه خير . ومنه ( أيام حسوم ) أي تحسم الخير والبركة من أهلها ، وهو يرجع إلى المعنى الأول .
- ٣ - التذوُّب في العمل والأخذ فيه من دون فتور ، وهو يرجع إلى المعنى الأول أيضا ، لأن الذي يريد حسم العرق مثلا يتابع العمل ويبيد الكى على العرق المرة بعد المرة حتى ينحسم .

وقد وصفت تلك الرياح بكونها ( حسوما ) وقسروها بكل هذه المعاني ، فهي قد استأصلت القوم وأبادت خضرهم ، وكانت شؤما عليهم منذ استأصلتهم ، وكانت في الحاحها في عملها وإبادتها دائبة متتابعة لم يعثرها فتور ولا وني .

ولفظ ( حسوم ) أما مصدر كجولس ، وهو راجع إلى الريح أو إلى الأيام والليالي ، ويكون التقدير : يربح ذات حسوم ، أو أيام وليال ذوات حسوم . وأهو جمع حاسم كجولس وشهود جمع جالس وشاهد ، فيكون حينئذ من صفة الليالي والأيام .

ويقال : إن هذه الأيام هي المعروفة إلى اليوم بإيام العجوز ، تأتي في أواخر فصل الشتاء ويشهد فيها البرد أربعة من آخر شباط ( فبراير ) ، وثلاثة من أول آذار ( مارس ) . سميت بذلك - فيما زعموا - لأن عجوزا من قوم عاد المذكورين توارث من خوف الهلكة في سرب فانزعتها الرياح الصرصر في اليوم الثامن فأماتتها .

كانوا يرتكبون من الفجور والنكر. والذي جاء بالخلافة أهل المُنْتَكَاتِ لاهي، لكن تجوز بها منهم اعتمادا على فهم السامع على حد قوله تعالى (وَأَسْأَلُ الْقِرْيَةَ) أي أهلها.

ويقال إن البحيرة التي تسمى اليوم بحيرة لوط والبحر الميت - تغمر الأماكن التي كانت قائمة فيها قري قوم لوط، وهي خمس: سدوم، وعمورة، وأدعة، وصوبيم، وبالع وتسمى سوغر - ولما أراد الله اهلاك هذه القرى أمطرت بحمم النار والكبريت، وتفتشتها سحب من الأبرق للنعمة من جوف الأرض، ثم تحطت تلك الأبرقة إلى ماء كربة الطم، استنقع في ذلك القور، وتكونت منه تلك البحيرة.

و (المخالطة) صفة لمحدوف، أي بالنعلة المخالطة، أو الأفعال المخالطة، أي ذات أخطئة والآثم والذناب. يقال: خطيء، إذا أثم وأذنب فهو خاطيء، وقال بعض أهل اللغة: لا يكون ذلك إلا من عمد وتصميم، بخلاف أخطأ فهو مخطيء، فإنه الذي يفعل الشر غير متعمد له. والخطأ من أخطأ، والمخطئة من خطيء.

وقوله (أخطفه رابية) أي شديدة زائدة في شدته من ربا إذا زاد ونما وتضاعف عده أو حجمه، فهذه الإخدة التي نزلت يقوم فرعون مذ اغرقوا في اليم، ويقوم لوط مذ قلبت بهم قراهم، وترأمت عليها الحمم وجحارة الكبريت وسحب الأبرقة - كانت ولا ريب أخذة زاد فيها العذاب ونما، واشتد بها الكرب على الفرقيين وطما.

ولا حاجة إلى ذكر ما جاء به قوم فرعون وقوم لوط من الخطايا والآثام، وصحبا موسى ولوط إليهما السلام، ووصفا ما كان من أمرهم، والعذاب الذي نزل بهم، فهو على الإجمال معروف، وقد ذكر في التنزيل أكثر من مرة. فشرأنا نذكر موجزا من تاريخ حياة (لوط) حسبما ورد في الأسفار القديمة: قالوا: هو ابن حازان أخى إبراهيم الخليل عليه السلام، وقد هاجر مع عمه إبراهيم من بلاد ما بين النهرين إلى أرض الميعاد (فلسطين)، وبعد رجوع إبراهيم من مصر كانت مواشيه وموافي لوط قد ازدادت جدا، وكثر الخصام بين رعاياه، فافتتح إبراهيم على لوط أن يفرقا نمنا للنزاع والخصام، وخير إبراهيم لوطا في الأرض التي يريد بها، فاختار دائرة نهر الأردن بقرب سدوم وعمورة. ثم غزا (كنز لاومر) ملك عيلام هذه المدن، وأذل ملوكها، وأسر طلائع سكانها، كان فيهم لوط عليه السلام، وأفلت من القوم من أخصب سيدان إبراهيم بهذه النازلة، فأسرع بثلاثمائة وثلاثين عشرة من أهله وحشمه مع حلفائه الأوربيين وجد شملهم في أثر الفزاة حتى أدرتهم بالقرب من باتياس في قضاء القنيطرة من ملحقات دمشق، فنتازلهم وشقت على مقربة، ثم تبعهم إلى (صوبا) في محط قرية (الزرة) على مقربة من دمشق كما حققه بعضهم كونهما استردا الأسلاب، وأنقل الأسرى ولوطا ابن أخيه، ثم كان ما كان من أمر القرى الخمس وتدمير لها، فانتقل

لوط إلى جبال (مواب) فتوطنها، ثم كانت من بعده لنسله الموابيين والعموينيين.

قصص الوحي علينا أخبار الأمم المسكدة المذكورة، وحلول العقوبة الإلهية بها، ليكون ذلك زاجرا للذين من قريش، وقد قدم هذه الأخبار بين يدى ذكر يوم القيامة، وما يحدث فيه من الأحوال، بعد أن افتتح السورة بوصف بدل على طول ذلك اليوم، وعظم أمره. وكانت تلك الأخبار تذكر على نسق واحد، لكنه لما انتهى الحديث إلى خبر أمة نوح عليه السلام وهلاكها بالطوفان خالف في الأسلوب، ولزج الخطاب بلون آخر، وبذل أن يقول مثلا: أن قوم نوح كذبوا فأغرقوا بالطوفان - وجه الخطاب إلى مكلى قريش، الذين هم من سلالة الناجين من الفسوق مع نوح، مذكرا لهم بمنعته على آياتهم، ويكون في إيراد الكلام على هذا الأسلوب قد جمع بين خبر النجاة للفرقيين، وخبر الأبرار الناجين، كما قرن بين تحذير مكلى قريش أن يصيبهم ما أصاب أولئك الفرقيين، وبين الامتنان عليهم بحمل آياتهم في السفينة، فكان ذلك سببا لتجانيهم، وانتشارهم في الأرض، ونشأ ذريتهم في جنباها، وكان مكلى قريش المخاطبون - من هذه الذريات، أمما كان الواجب عليهم أن يدعوا الصاد والتكذيب، ويشكروا الله الذي مهد لهم سبيل الوجود بهذا التدبير الصحيح؟ وقد خالف في أسلوب الكلام على هذه الصورة لينتقل بذلك إلى البعث وأحواله، ووصف يوم القيامة وأحواله.

ومعنى (طفي الله): طما وارتفع وتجاوز خده المعروف، وطاف على الأرض اليابسة فغمرها، وكان منه الطوفان الذي أباد الله به أهل ذلك الزمان.

وقوله (هملناكم) أي أنتم بامسح قريش المخاطبين اليوم، وإنما جعل حمل أجدادهم حملا لهم، لأن أولئك الآباء كانوا جرؤمة لؤلاء الإبناء، ففى حفظ الجرؤمة حفظ لقوتها النامية بل حفظ لما في طيها من الزراري الكامنة، وهذه للزاري العاقلة يجب عليها أن تشكر للذى حفظ أصلا، وصان جرؤمتها من الضياع والفناء، فكان ذلك سببا لوجودها وتمتعها بالحياة والنماء، و (الجارية) السفينة.

وقوله (لنجعلها) أي لنجعل السفينة، وقصتها المحيية، أو لنجعل تلك القلعة، وهي نجاة الأبرار، وهلاك الفجار، (تدفقة) مرة وعظيمة تحملكم أبها المكلمين على التوبة والانابة وترك التكذيب. (ونعها) (أذن وأعية)، أي لأجل أن تحفظ تلك الصدرة وما تتضمنه من الوعظة والتمرية - إذن حافظة لها والمراد بحفظها لتعلقا وتدبرها والانتفاع بها في اجتناب الفسوق والعصيان، وأتباع سبيل أهل التقى والأيمان. وقد أراد بالأذن صاحبها لا الجارحة نفسها، وتركها وجعلها واحدة للأشارة إلى أن الأذن التي تسمى الحكم والمواظف وهي تدبر وانتفاع - قليلة النسبة إلى التي لا تسمى ولا تدبر. على أن في تكبرها المفيد لتقليلها أيدنا بتعظيم شأن تلك الأذن القليلة وتفضيهم أمرها،

والثنية في قوله ( دكتا ) باعتبار أن ( الأرض ) و ( الجبال ) مجموعتان متمايزتان : مجموعة الأراضي المنبسطة التي هي السهول ، ومجموعة الأراضي المرتفعة التي هي الجبال والحزون . فقوله ( دكتا ) أى هاتان المجموعتان ، سهولا وحزوناً ، ههنا وسويتا على تسطح واحد .

( والدك ) والدق متقاربان ، غير أن الدك أبلغ ، وهو أن تأتي إلى حائط أو كومة مرتفعة مختلطة بحجر ومطر وتراب مثلاً فتضربها بعضها ببعض ، وترصها رصاً متكرراً بحيث يتكون منها بقعة مهددة السطح لا تضاريس فيها ولا أمواج ، ولا ارتفاع وانخفاض . واحسب أن الباعة والتجار كانوا يفعلون ذلك من التسوية والرص والدك في البقعة التي يفرشون عليها بضائعهم في جنبات الطريق ، يرضونها تحت أنظار المارة والمشتريين ، وكانوا يسمونها دكتاً ، ثم سادت هذه الكلمة حتى صارت تطلق على المكان الذي يبيع فيه التاجر أشيائه ولو لم يكن للدك فيه إل .

وقوله ( دكة واحدة ) أى أصبحت الأرض والجبال بعد دكها كتلة واحدة لا ميزة فيها لأرض على جبل ، ولا لجبل على أرض . أما هذان : الرفع والدك اللذان وصفناهما فبأية قوة كانا ؟ لم يذكر الله في كتابه إلا أنهما حصلا ، وبديهي أن ذلك يكون بقدره الله مباشرة من غير سبب ظاهر ، أو بواسطة سبب أو ناموس . الله أعلم بما يكون من ذلك .

وقوله : ( فييومئذ وقعت الواقعة ) ، أى ويوم أن يقع ما ذكر من النفع والحمل والدك - تكون قد وقعت الواقعة وحقت الحاقة ، وقامت القيامة التي كنتم تكذبون بها إياها المكذبون .

ثم ذكر الوحي بقية ما يقع في ذلك اليوم من تخريب العالم العلوي بعد أن ذكر تخريب العالم السفلي فقال : ( وانشقت السماء فهي ييومئذ واهية ) . وانشقاقها كناية من انصداعها ، وتبدل أوضاعها ، وذلك بأن يسلب الله منها ذلك الناموس الأعظم الذي كان يمسكها ، ويربط بين أجزائها ، فلا يبقى جزء منها مستقراً في مكانه ، ولا كوكب من كواكبها على المهود من حركته ودورانه ، وهذا معنى ( واهية ) : بالية متدامية لاتماسك فيها .

وإذا كانت أرضنا على صفرها وحقارة أمرها بالنسبة إلى العالم العلوي - قد خلق الله فيها أنوماً من المخلوقات ، وصنفاً من الأحياء التي أرقاها الإنسان - أفبعد سحابتها تلك السموات العلوية مجردة من خلائق يلزمهم فيها ، يصلون له ، ويمجدون اسمه ؟ كلا ، وقد ورد الشرع بتسمية هذه الخلائق السماوية ( ملائكة ) .

كيف تكون حال هذه الملائكة في ذلك اليوم : يوم القيامة ، وقد انشقت السماء التي تغلسم ، وتغطيت أوصال الأجرام التي تضمهم ؟ قال تعالى : ( والملك على أرجائها ) .

في الصور نعمة واحدة ﴿١٦﴾ وحملت الأرض والجبال فدكتا دكة واحدة ﴿١٧﴾ فييومئذ وقعت الواقعة ﴿١٨﴾ وانشقت السماء فهي ييومئذ واهية ﴿١٩﴾ وأرجائها ويحمل عرش ربك فوقهم يومئذ ثمانية ﴿٢٠﴾ يومئذ تعرضون لا تخفى منكم خافية ﴿٢١﴾ فأما من أوتي

وأنها على قلتها هي الكثيرة الطائلة والقوة العاملة ، على حد قول القائل :

يا خالداً يا خالداً ألفاً وتدعى واحداً

هذا هو وصف يوم القيامة الموعود به ، والمرموز إليه من أول السورة بقوله تعالى ( الحاقة ما الحاقة ) والذي كليت به لك الأمم ، فأهلكه الله جزاء تكذيبه ، وحلر قريشاً أن تسلك مسلكها في التكذيب ، فيصيبها ما أصابها .

و ( النفع في الصدود ) في لسان الشرع : قد يكون تمثيلاً وتصويراً لبعث الأموات وأتباعهم من لرماسهم بسمرة تحكي سرعة المجتمعين وقد هدف بهم من بوق عظيم ، وهذه ( النفخة الواحدة ) هي النفخة الثانية أو الندوة الثانية التي يكون من أرها صفق الخلائق وخمود حياتها ، وخراب الكائنات ووقوف حركتها (١) ، وألا فأنه يسبقها نفخة أولى أو صدوة أولى يكون من أرها خسر الخلائق واضطرابهم ، واختلاط حابلهم بنابلهم . ونحن نؤمن بذلك كله حسبما ورد في الشرع . أما التعمق والتطلع لمسرفة ما وراه فهل ما لم تكلف رحمة بنا ، وأن البعث فيه مضلة ، والسؤال من كنهه مسرفة .

( وحملت الأرض والجبال ) أى رفعتا ومسيرا ، كما قال تعالى في سورة التكوين : ( وإذا الجبال سيرت ) .

(١) روى من ابن عباس أن المراد بهذه النفخة ، النفخة الأولى التي يكون منها خراب العالم ، ومن ابن السبب ومقاتل : أنها النفخة الأخيرة . وقد انصر ابن جرير على الأول ، ورجسه الفخر الرازي والآلوسي : قال الآلوسي : « والأول أولى ، لأنه للناسب لها بعد ، وإذ كانت الأولى لا تدل على الترتيب ، لكن مخالفة الظاهر غير داع ما لا حاجة إليه » . وقال الفخر الرازي : « فإن قيل : لم يقل بعد ذلك : يومئذ يرضون - والعرض إنما يكون عند النفخة الثانية - لنا : جعل اليوم اسماً للحين الواسع الذي يقع فيه النفختان والصعقة والشور والوقوف والصاب ، ولذلك قيل : يومئذ يرضون ، كما تقول : جنته هام كذا ، وإنما كان محبباً في وقت واحد من أولاته » . وقد جرى المثل في كلامه على امتياز النفختين لئلا ، ويسكن الكلام فيه . المسبح .

وقوله : ( والملك ) أى جماعة الملائكة ، قال فيه للاستغراق . وضمر ( أوجابها ) يرجع إلى السماء التى قد تصلعت وتشققت . والمعنى أنه إذا لم تعد السماء بعد وهبها وانتشاقها صالحة لأن تكون مثابة وأمانا لأولئك الملائكة - انتشروا هنا وهناك ، وانضوا إلى أرجاء السماء أى أقطارها وجوانبها . وخراب المكان وتزعزع أركانه لا يستلزم الإبقاء له أرجاء ، فإن ( الرجا ) الناحية والجانب ، وهو لازم المكان من حيث هو مكان .

لا تكتاد نفس السامع تصل إلى هذه النقطة من وصف خراب العالم ، وانتكث قتلته ، وتعاطف حوله - حتى يتمثل لعينيه مبلغ السلطان الإلهي ، وعظمة ذي الجبروت الأزلي ، فيشهد أن ذلك أنه الأول والآخر ، والباطن والظاهر ، وأن جميع ما تنبأ على مسرح الوجود من هذه الخلائق لم تكن سوى خيال ، أو ظلال تقلصت إلى ظلال . وإلى هذا يشير تعالى في قوله : ( ويجعل عرش ربك فوقهم يومئذ ثمانية ) .

وضمر ( فوقهم ) يرجع إلى الملك الذى قلنا أنه ان كان مفردا في لفظه فهو جمع في معناه .

وهل المراد من كلمة ( فوق ) العلو والارتفاع ، أى أن ثمانية يحملون عرش الرب تعالى في مكان فوق مكان الملائكة الذين على أرجاء السماء الواحية ؟ أم معنى ( فوقهم ) زيادة عليهم ؟ كما تقول لآخر وقد أعطيتهم مئة درهم : ( لك عندي فوقها مئة أخرى ) ، وقد تقول ( لك عندي وراها مئة أخرى ) ، وكلاهما بمعنى غيرها وزيادة عليها ، وعلى هذا يكون معنى الآية : يجعل عرش الرب يومئذ ثمانية هم غير الملائكة الذين على الأرجاء وزيادة عليهم ( ١ ) .

أو ضمير ( فوقهم ) يرجع إلى الثمانية الذين يحملون العرش ، وهو متأخر في اللفظ لكنه متقدم في الترتيب ، ويكون المعنى حينئذ : ويجعل عرش ربك يومئذ ثمانية فوقهم ، فهم يحملونه فوق رموسهم أو على ظهورهم ، وليس معلقا في أيديهم مثلا .

والمراد من الثمانية مسكوت عنه ، فهم ثمانية ملائكة ، أو ثمانية صفوف منهم ، أو ثمانية قوات الهبة أخرى تحمل عرش الرب فوق رموس ملائكة الأرجاء ، أو تحمله زيادة عليهم ، بحيث يكون الجميع مشتركين في الحمل - كل ذلك يحتمله لفظ الآية . فلا يحسن القطع بشيء منه .

أما ( العرش ) في اللغة العربية فله معان غير السريز الذى تطس عليه الملوك : منها العر والملك والسلطان ومنه قولهم « فلان لى عرشه » يريدون زال ملكه ، وذهب سلطانه . وقال الشاعر : « تداركتما ميسنا وقد لى عرشها » ، أى ذهب مرها ، وضغف أمرها ، كما يقولون في مكس ذلك : « فلان توطد عرشه » ، أى استقر ملكه في البلاد ، ورسخ سلطانه على العباد .

( ١ ) لا وجه لهذا القول فيما نرى ، فإن إضافة عدد معلوم إلى عدد مجهول يبنى مع المجمع مجهولا ، وحينئذ يخلو ذكر عدد الثمانية من الفائدة . الصحيح .

وحل عرش الرب في الآية قد يكون تمثيلا لسمائل مزته سبحانه ، وانقراؤه بالجلالة والعمة والملك في ذلك اليوم ، وأن تأثير هيئته سبحانه وتعالى في القلوب في ذلك اليوم يحكى تأثير ملوك الدنيا - وهم على عروشهم التى تحف بها جلة وزرائهم وكبار قوادهم - في قلوب رعيئتهم المستعبدين لهم . وأين هذا من ذلك ، والله الخلل الأعلى ، وأتينا هو تنزل لأفهام المخاطبين ، وإفراغ المعانى القبيصة في قوالب ما افقه من تركيب لفتهم العربية ، وأصطلحوا عليه من أساليب التخاطب بينهم فيها . والأفان خالق الكون تقلصت أساقفه ليسر حسا يحمل على المروش ، ولا مخلوقا تزدهيه الخراف والتقوش .

وكل ملاك في هذه الآية من أمر تخريب الكائنات يوم القيامة ، ووصف أهواله ، وأحوال الملائكة فيه ، وما ينسب إلى الذات المقدسة الإلهية في ذلك اليوم من الأوصاف والأطوار - تؤمن بما ورد منه في القرآن ، وعلى لسان نبينا عليه الصلاة والسلام ، بعد التحقق من صحته ، من دون زيادة عليه ، ولا تفنن في إبراده ، حسبما دل ظاهره ، وتكل أمر كنهه وحقيقته إلى قتله ومثوله سبحانه ، ونجسته في أن نربى أنفسنا التربية الدينية التى يرعى إليها الوحي السابى والوهد الإلهي ، فنشعر قلوبنا بالإيمان والتقوى ، ونتمسك في حب الخير والفصيلة ونجنب الشر والزيلة بالسبب الأقوى ، مراقبين في جميع أحوالنا جلالة الله وعظمته ، محاذرين مقوتيه وسطوته ، في يوم تعرض فيه الخلائق ذلك العرض العظيم ، ( يوم لا ينفع مال ولا بنون ، إلا من أتى الله بقلب سليم ) .

( يومئذ ) ، أى في ذلك اليوم الذى سبق وصفه . وأتينا أعاد ذكر كلمة ( يومئذ ) المرة بعد المرة خلال سرد أحوال ذلك اليوم - زيادة أحضار له في أذهان المخاطبين ، وتصويرا لهول في نفوسهم حتى كأنه مائل أمام أعينهم .

( تعرضون ) ، أى على ربكم أيها البشر للحساب ، وتوفية كل عامل جزاءه من خير وشر . ومن جملة البشر المخاطبين بهذا الخطاب أولئك المعاندون من مشركى مكة الذين يتكبرون الرسالة ، ويكذبون يوم الدين .

وهذه الآية كما قلنا لبیان الحساب والشروع في أعماله بعد أن استوفت الآيات السابقة ذكر قيام الساعة ، وخراب الصالم . وظاهر السياق أن كلا الأمرين - خراب الكون وعرش الخلائق للحساب - يقان في يوم واحد ، لكن هناك ما يدل على أن العرش للحساب ومباشرة أعماله يكون وقته بعد الوقت الذى يحصل فيه خراب الكون بالنقطة الثانية ، فهما وقان أو يومان ، فالتفتخت ثلاث :

١ - نفخة الفزع الأكبر ، وقد أخصي إليها في آية التعلل وهى ( ويوم ينفخ في الصور ففرغ من فى السموات ومن فى الأرض ) .

٢ - نفخة الصعق ، وهى التى يكون بها موت الخلائق وخراب الكون ، والوقت خلال هاتين النفختين

كَتَبَهُ وَيُحْيِيهِ فَيَقُولُ هَؤُلَاءِ أَقْرَبُوا كِتَابَهُ ① إِلَى  
ظَنَنْتُ أَنِّي مَلَكٌ حَيَّيْتُهُ ② فَهُوَ فِي عَيْشَةٍ رَاضِيَةٍ ③  
فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ④ فَعُقُوقُهَا دَانِيَةٌ ⑤ كَلَّوْا وَأَشْرَبُوا  
هَيِّئَتْهَا إِنَّمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ ⑥ وَأَمَّا مَنْ أَوْرَءَ

من يوم القيامة ، وقد تكفلت الآيات السابقة  
ببيان ما يحصل في هذا الوقت بشرب من الإيجاز  
اعتمادا على آيات أخرى أتت على وصفه بأوفى  
بيان .

٢ - نغمة البعث والنشور ، وقوله تعالى هنا ( يومئذ  
نمرضون لا تخفى منكم خافية ) هو بيان لذلك  
وشروع في وصف ما يقع بعد تلك النغمة الثالثة  
من العرض والحساب (١) .

ولم تذكر هذه النغمة صراحة لطم المؤمنين بها من  
آيات وأحاديث أخرى . على أن الوقت منذ النفخة  
الأولى إلى دخول أهل الجنة الجنة ، وأهل النار النار -  
يعتبر أحيانا كيوم واحد ، من حيث اتساق أحواله ،  
وتسلسل أحواله .

و ( العرض ) هنا معلوم المعنى ، وهو من عرش  
الجند على الأمير إذا مروا أمامه فتصعد أفراسهم وتنفذ  
أحوالهم .

وقوله ( خافية ) ، أي حالة خافية كنتم تسترونها  
من الناس أيها البشر ، فهو سبحانه وتعالى لا تخفى  
عليه ، وإنما هو عالم بأحوالكم ، محص لجميع أعمالكم ،

(١) ملابح إليه المؤلف : من عند النفثات لثلاثا - هو اختيار  
ابن العربي ، ونقل الأوس من القاضى حياض أنها أربع ، واختار  
بعضهم أنها اثنتان ، لم يختلف هؤلاء في لغة النزع : الأولى هي  
أم الثالثة ؟

ونقول : أنه لم ينشر لعدد النفثات في الكتاب الكريم إلا قوله  
تعالى ( لا : الراس ) : ( ولفظ في الصور فمضى من في السموات  
ومن في الأرض إلا من شاء الله ) لم تفتح فيه أخرى فلذا هم قدام  
ينظرون ) وهو قاطع في وقوع الثلث مرتين : مرة واحدة للمصق ،  
ومرة واحدة أخرى للبثا . وأما الأخرى مما لا يثبت به دليل  
قاطع . فلا وجه للتوكل بنغمة ثالثة هي نغمة النزع - وقوله  
تعالى ( لا : التلألؤ ) ( يوم يفتح في الصور فخرج من في السموات  
ومن في الأرض إلا من شاء الله ) - ليس المراد به نفخة ثالثة ولا حتى  
النفثتين السابقتين ، بل المراد به كلفتهما ، لأن النفخة الأولى تفرغ  
الناس وأعمالهم ، والنفخة الثانية يترجم الناس بها من قهروهم  
مملوون بالخروج واقع في النفثتين ، ولذا للضرب في آية النزع والظهور  
الذي يدل على تكرار النزع ، فهو يقول : ( حين يفتح في الصور  
يخرج الناس ) . وإنما كل فرع مهيئة الناس للخلافة التي ينتق  
الفرع كالمسجل تفتح في الصور والله أعلم . أنه : المصحح .

فيجازى كلا منكم بحسب عمله : أن خيرا فخير ، وأن  
شرا فشر . وقد فصل ذلك بقوله : فلما من أوتي ...  
الآيات .

قوله : ( فاما الخ ) تفصيل لنتيجة العرض والحساب  
الذين أرسلناهم في الآية السابقة ، وقوله : ( من أوتي )  
كتاية عن المؤمن الناجي ، و ( كتابه ) صحيفة عمله  
التي أبت فيها ما قدم في حياته الأولى من خير وعمل  
صالح ، وإمطاؤه كتابه يمينه كناية من فوزه في  
الحساب ونجاته يوم العرض .

و ( اليمين ) هي اليد اليمنى ، لكن العرب تكتني بها  
عن اليمين والشر والبركة والنجاح في الأمور . وأصل  
ذلك أنهم كانوا يستخرون بزجر الطير والثرثا من  
وكتاتها ومواقفها ، فإذا طار الطائر وأخذ ذات اليمين  
تفالوا وتيمنوا وعضوا في أصابعهم التي كانوا يجرها  
مترددتين ، وسموا ذلك الطائر سائحا ، وإذا طار إلى  
جهة الشمال نشاموا وتطروا وأحجموا عن العمل ،  
وسموا ذلك الطائر بارحا . ولقد توسموا في هذا  
الاستعمال حتى سمو العمل نفسه باسم الطائر ومنه  
قوله تعالى : ( وكل إنسان الإثم طائر في منقعه ) أي  
عمله ، فهو مطوق به يوم القيامة ، ولا طائر كمة ، ولا  
طيران .

وكما كانوا يمينون باليد اليمنى والجهة اليمنى كانوا  
يتشامون باليد اليسرى وجهة اليسار والشمال ، بل  
سموا اليسد اليسرى والرجل اليسرى - شؤمي ،  
فيقولون : « مضى فلان على شؤمي يديه » أي من  
جهة الشمال ، و « اعتمد على رجله الشؤمي » أي  
وقف عليها .

وكل هذا من مسألة السالغ والبرح في زجر الطير  
والتكهن من المستقل بواسطته . ومن هذا الاستعمال  
قوله تعالى : ( فأصحاب المينة ما أصحاب المينة  
وأصحاب المشامة ما أصحاب المشامة ) : فالمشامة  
والتشاؤم مأخوذ من اليد الشؤمي ، أي اليسرى ، كما  
أن المينة والتيمان من اليد اليمنى . والمراد من أصحاب  
المينة وأصحاب المشامة : فريقا السعداء اليمينين على  
أنفسهم ، والأشقياء المشامين عليها .

وعلى هذا فقله تعالى هنا ( فلما من أوتي كتابه  
ييمينه ) معناه أما من كان من فريق أهل السعادة ،  
وقوله في الآية الآتية ( وأما من أوتي كتابه شماله )  
معناه أما من كان من فريق أهل الشقاوة .

ومن قبيل إعطاء الكتاب بالشمال الدلال على الشقاوة  
والخسران - أعطاه الكتاب من وراء الظهر في آية ( وأما  
من أوتي كتابه وراء ظهره ) . والظاهر استعمالات مجازية  
جرى عليها التخاطب بين أهل اللسان كما قلنا في  
اليمين والشمال : من ذلك قولهم ( لا تجعل حاجتي منك  
بظهر ) أي لا تشبهها . وقوله تعالى : ( شفيوه وراء  
ظهروهم ) ، أي أهملوا الشياق ، ولم يقوا به .

ولا يخفى أن الوحي إنما هو خطاب الله للرب  
مباشرة . ولا يصح أن يسمى خطابا لهم إلا إذا كان  
أردا على أسلوبهم ، ومنأى كلامهم ، وألا فهم أن



يقولوا له صلى الله عليه وسلم : ما فهمنا ما تقول ، ولا ما ندعوا اليه ، ثم وجدوا من ذلك سبيلا الى الطعن فيه وفي رسالته . ولم ينقل اليها انهم طعنوا في القرآن من جهة عدم فهمه ، وغموض أساليبه ، فدل هذا على ما قلنا . ونقل الأصمعي عن العرب انهم يقولون : « فلان مندنا باليمن » أي بالمنزلة الحسنة ، و « فلان مندنا بالشمال » إذا خست منزلته . وقال الشاعر :

أبينى : ألى يمتى بديك جعلتى  
فأفرح أم صبرتى بشائك ؟

وسئل نطفويه من قول جرير :  
وانى لعف النقر مشتركة الفتى  
سريع - اذا لم أرض دارى - احتماليا  
وباسيط خير فيكمو يمينه  
وقابض خسر تنكمو بشماليا  
فقال : ان العرب تنسب كل خير لليمين وكل شر الى الشمال ، ثم استشهد على ذلك بهذه الآية ( فاما من أوتى الخ ) .

وقول جرير ( احتماليا ) يريد به سفره ونقله الى دار أخرى يرضاه ، وهو فعل لقوله ( سريع ) .  
اما أن الانسان يأتى يوم القيمة وأعماله محصاة عليه في كتاب لا يشارك منها صفيرة ولا كبيرة بحيث يضطر الى الاعتراف بها - فهذا ما لا ريب فيه . وهو من عقائد الاسلام ، لكننا لا نكلف معرفة ما اذا كان الكتاب على مثال اللوح أو الورق أو الرق أو غير ذلك ، وما اذا كانت الكتابة بماء أو قلم أو بأداة أخرى ، وما اذا كان الخط بنقوش وحروف ، أو بتجلي الأمصال للعالمين ، وظهورها لهم ظهورا يبين أكلها مثبتة في ضالهم ، ومنقوشة على الواح نفوسهم : بحيث لا يقدرون على انكارها ، والتخلص من تبعثها ، وهو المعنى الذى فهمه بعض المفسرين من قوله تعالى : ( اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيبا ) - كل ذلك لا يكلفه السلم ، وإنما يكلف اعتقاد صدق الخبر أجمالا ، ثم تفويض أمر تفصيله الى الله تعالى .

وقوله ( هازم ) اسم فعل أمر بمعنى خلدوا خطابا للجميع ، وتقول لفرد المذكر ( هاد ) بفتح الهجمة ، وللمؤنثة ( هاد ) بكسرها ، والمعنى ( هاضما ) ، والنسوة ( هالون ) والهال في ( كتابيه ) و ( حسيبيه ) و ( ماليه ) و ( سلفقيه ) هاء السكت ، فترجح القارىء انقطاع نفسه عنها . ولا كذلك اذا وقف على ياء التكلم مفتوحة ، لاسيما والآيات مرأى فيها الازدواج مع كلمات ( راضيه ) و ( غاليه ) و ( خاليه ) التى هالها هالات ثابتة لا هالات سكت .

وكان حق هاء السكت ان تحذف من الآيات حين الوصل ، لكنهم يثرون النطق بها فيه أيضا ، كونها باينة كتابة في الصحف الإمام .

ومعنى ( ظننت ) هنا علمت وتيقنت ، اذا لا يكتفى من المؤمن بالله أن يظن ملاقاته للحساب فلنا ، وإنما يجب عليه أن يعتقد اعتقادا ، ولعل النكتة في الصدول

من التعمير بالعلم الى التعمير بالظن ، هي افادة أن مجرد الظن بيد الحجاب كاف في حمل البند على الأيمان والطاعة ، فمأ بالك اذا كان يعلم علما . ومن الظن بمعنى العلم قوله تعالى ( وظنوا أن لا ملجأ من الله الا اليه ) .

وقد يقال : كيف تكون ( العيشة راضية ) ؟ وكيف يصحح أن يتصور وقوع الرضا منها ؟ وأوجب بأن ( راضية ) بمعنى مرضية ، وأنه اسم مفعول بصيغة اسم الفاعل . وقالوا أن أكثر من يستعمل ذلك من احياء العرب سكان الحجاز فيقولون « ماء دافق وسر كاتم » أي مدفوق ومكتم ، وقيل هو من باب قولهم « لاين وتلمر » ، يعنى أن صيفته هذه صيغة نسبة من دون الحاق بأنفسها ، فمعنى « لاين » ذو لين و « تلمر » ذو تمر ، و « دارع » ذو درع ، و « نابل » ذو نبل . وهذا يدل أن تقول لبني وجرى ودرى وثلى . و ( راضية ) بمعنى ذات رضا ، أي أن الرضا واقع عليها لا منها .

والحقون على أن ( الراضية ) هي العيشة نفسها ، وأن نسبة الرضا اليها مجاز مبهود مثله في كلام العرب من حيث يقصد به المبالغة في رضا صاحبها ، وأن الرضا تمكن من نفسه حتى التقل أروه الى عيشته نفسها فاصبحت راضية أيضا .

و ( جنة عالية ) أي مرتفعة ارتفاعا حسيا ، فيكون ذلك اطيب لها وأكرم ، أو المراد بعلمها علو شأنها ، وارتفاع قدرها ، وتنزهها عن النقص والسوء ، أو من المشابه والظفر .

وقوله ( طوفوها ذاتية ) أي لا حائل يحول بين تمار تلك الجنة وبنى جانبها كارتفاع وشوكة مثلاً ، وأما هي مهذلة قريبة من متناول الأيدي . و ( التلطف ) جمع قطف بكسر القاف : الثمر الذى نضج وحن زمن قطعه ، وقيل هو الثمر ساعة قطف . واقتاربه يفهم من سياق قوله ( كلوا واشربوا الخ ) ان قتالا يقول لهم ذلك يمتن به عليهم ، ويذكرهم بحسن صنيع الله بهم ، أو أنهم أنفسهم يقول بعضهم لبعض ذلك فلذا وتبأها . ولا يخفى أن (من) في قوله ( فاما من أوتى ) لفظة واحدة لكن المراد به جماعة الناجين ذوى العيشة الراضية .

على أنه ليس المراد ب ( كلوا واشربوا ) أمر اهل الجنة بالأكل والشرب فقط ، وإنما هو أسلوب بليغ يقصد به الإباحة للمسامر أن يرح في التمتع ويتمتع بما فيه ، ويتناول كل ما تشتهيهم أنفسهم من دون معاراض . إلا ترى أنك تعطى ابنك المطيس لك مالا وقصورا ودورا وحدائق ثم تقول له « اذهب يا بنى فكل واشرب وكل قورير الصين بما أعطيتك جيزاء برك يى ، وطاعتك لى » . وأنت لا تريد بأمره بالأكل والشرب الا إطلاق بده ، وتذكيره بالتمتع ، وطلب دوام شكره طاهيا . ويؤيد ذلك قوله بعده : ( بما أسلفتم في أيام الخالية ) أي تمتعوا بما أعطيتكم بسبب ما كان منكم في أيام حياتكم الماضية في الدنيا . قباء ( بما ) متعلقة ( بكلوا واشربوا ) ، والمعنى تمتعوا

كَيْتَبُهُ بِإِثْلِهِ قَيِّقُولُ يَلِيَّتِي لَأَوْتُ كَيْتَبِي ١٥

وَلَرَأْدُ مَا حَيَاتِي ١٦ يَلِيَّتِي كَانَتْ الْقَاضِيَةَ ١٧

مَا أَغْنَى عَنِّي مَالِي ١٨ هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِي ١٩

خَذَرُهُ قَوْلُهُ ٢٠ ثُمَّ أَجْجِمُ صَوْلَهُ ٢١ ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ

ذُرْعَهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ ٢٢ إِنْ عَرِكَ كَانَ لَا يُؤْمَنُ

أن يرجع الضمير إلى الحالة السيئة التي أصبح فيها بعد البعث والحساب ، فهو يتمنى لو أن ما هو فيه من الشقاء والالام يقضى عليه فيرتاح . بمعنى أنه يتمنى الموت في ذلك الوقت مع أن الموت كان أكره شيء عليه في الحياة الدنيا .

ثم يتذكر ذلك المذهب من أمر دنياه ويرغده فيها ما يزيد حيرة وكآبة فيقول ( ما أغنى عني ماليه ) ، فهو يتمنى أن يكون ماله قد أغنى عنه شيئا ، أو يستفهم استغفهما . والقصد منهما كليهما اظهار التأسف والالوعة ، وأن كنوزه التي جمعها في دار الدنيا ، ولم يتم بحق الله فيها - لم تدفع عنه من أمر الله شيئا .

( هلك عني سلطانيه ) السلطان مصدر بمعنى السلطة ونفوذ الأمر ، كالغفران والرجحان . ومعنى ( هلك عني ) غاب عني وزال عني . يقول إن ملكه وتسلطه الذي كان في دار الدنيا ضل عنه وذهب فهو يتحسر ويتحزن ، لأنه ضل بكله وسعة سلطانه من طاعة ربه ، والعمل لآخره .

وكان قتادة ينكر أن يكون تفسير الآية ما ذكر ويقول : « أما والله ما كل من دخل النار كان أمير قربه يجيبها » ، يريد أن قوله تعالى ( هلك عني سلطانيه ) هو من قول الكلابين سواء أكانوا سلاطين أم غير سلاطين . وغير السلاطين من سائر الناس لا يمكن أن يقولوا ( هلك عني سلطانيه ) بمعنى الملك والتسلط على الرعية ، وإنما السلطان هنا القدرة والطلاقة أو الحجة والبينة ، ولا جرم أن كل واحد من فريق أهل الشقاء يقول هذا القول ويتحسر لبطان حجتته التي كان يحتج بها في الدنيا وعدم نفعها في ذره العذاب عنه في ذلك اليوم .

وقد يقال : قلما يوجد في الدنيا من لم يكن له شيء من السلطة على غيره ولو على زوجته وولده كما قال صلى الله عليه وسلم « كلكم راع وكلهم مسئول عن رعيته » ، فالعذب في الآخرة يتذكر أنه كان ذا سلطة يمكنه أن يستعملها في الخير والطاعة ورفاء الله عز وجل ، لكنه بالعكس استعملها في الشر والفساد ، فهو يحزن ويتحسر لذلك .

يحكى أن عضد الدولة بن بويه نظم شعرا جاء فيه قوله في صفة نفسه :

عضد الدولة وابن ركنها ملك الأملاك غلاب القدر  
ثم أصيب بعد بؤس في الخبل والوسواس ففساد  
الزواج ، فكان لا ينطق لسانه الا بقوله : « ما أغنى عني ماليه . هلك عني سلطانيه » وجعل يرددها إلى أن مات سنة ٣٧٢ هـ .

وكما يقال لفريق السعداء أصحاب العيشة الراخية من الكلام ما لطيف به أنفسهم ، وهنأ معه معيشتهم مثل ( كلوا واشربوا هنيئا بما أسلفتم في الأيام الخالية ) - يقال لفريق أهل الشقاء من كلم التحسر والتعير ما يزيد به شقاؤهم ، ويعظم معه بلاؤهم : من ذلك أن يقول قائل على مسامح من أحدهم : ( خلوه فقلوه ) أي أضروا في يديه ورجليه

وتلدوا بالثمن الإلهية التي من أجلها وأعظمها القرب منه تعالى ، ورؤية وجهه الكريم . والا فان مجسود الأكل والشرب لا يرضى بهما الكرم لوأبا لمن قام بما أمره به ، واجتنب ما نهاه عنه . ولعمري أن الأكل والشرب في الجنة من أقل ما يحتفل به في مكافأة أهلها ، والتأنيب على إيمانهم وطاعتهم وحسن أعمالهم ، وإذا لم ينتظر العاملون من دخول الجنة إلا أن يأكلوا ويشربوا فما أحسن جنتهم ! وما أخصر صفتهم ! افعلى المؤمن الحمدي أن ينتبه لما قلنا ، وينشج على منواله في فهم ماوردت به النصوص من هذا القبيل ، وتفسره تفسيرا يلتم مع مانقرض في الشرع وأبديته علوم الخفية ، وصرح به كبر علماء الاسلام كالغزالي : من أن المؤمن في الجنة تغلب فيه الرواحية على الحسية ، والثورانية على الظلمانية ، ويكون أكبر حظوظه وتفتل المجتمع بمعاني الأحدية ، والتلذذ بجماليها ، والاستغراق في سحبات اللذات ، والتخضع لجلالها ، والا فكيف يتمكن من الطيران ، ويدنو له العبد ، ويختصر له الزمان ، ويفعل مايريد ، أمنا بالله ، وتقدسدت أساء الله . وسببنا لهلما البحث زيادة تفصيل في الكلام على الآيات التي تصف نعيم الجنة وأسباب اللذوى فيها من سورة « هل أتى » .

ثم انتقل إلى بيان ما يكون من نصيب الجاحد المكذب بعد حسابهِ وعرضه على ربه . وفسانه على العكس من شأن المؤمن . فهو ممن يؤتى كتابه يشاله أي يكون من أهل الشقاء والخسران . وما قلناه في تفسير ( أوتى كتابه يمينه ) يقال في تفسير ( أوتى كتابه يشاله ) . وهذا المكذب لا يلبث اذا علم أنه من فريق الاستقياء ولم يحزن ويتحسر ويقول ( يا ليتني لم أوت كتابي ، ولم أدر ما حسابي ) كأنه يتمنى ألا يكون من فريق الاستقياء ، أو يتمنى ألا يكون خلق ولاحوسب ، ولا أوتى كتابا ، ولا أدرك حسابا . على حد قوله في آية أخرى ( يا ليتني كنت ترابا ) .

والضمير في ( يا ليتها ) يرجع إلى الموتى التي ماتها في الدنيا ، فهو يحسب عليها كونها لم تكن قاضية عليه إلى الأبد ، فلا يحيا بعدها في جهنم هذه الحياة المرة ، التي يموت فيها كل يوم ألف مرة . ويحتمل

القل ، والفعل ما يتكبل به الاسر من القيود والسلاسل .  
**و ( الجحيم )** اشهد امكان النار تاججا . و **( صلوه )**  
 بفتح الصاد من التصليية ، وهي حرق الشيء على النار :  
 أى ايجلوه في الجحيم بصلها : أى يحترق بها ،  
 ويقاسى حرها . و **( السلسلة )** هنا هي القل ، والمراد  
 من كونها سبعين ذراعا انها طويلة جدا . وعلمد  
 ( السبعين ) يستعمل في كلام العرب عند لزادة الكثرة  
 وعلمه قوله تعالى لثيبه صلى الله عليه وسلم : ( ان  
 لتستغفر لهم سبعين مرة فلن يغفر الله لهم ) وقوله  
**( فاسلكوه )** أى فادخلوه بين ثنابها واطواها . وانما  
 قال ذلك لان السلسلة لطولها والتواء بعض اطرافها  
 على بعض تكون كأنها وعاء يدخل فيه ذلك الملعب .  
 وسلك الشيء في الشيء : ادخله فيه كما تدخل اليد  
 في الجيب ، والخطيط في خرم الابرة .

وقدم ( الجحيم ) على ( صلوه ) و ( في سلسلة  
 الخ ) على ( فاسلكوه ) لبراعة القواصل ، او لزيادة  
 الحصر : كان المعنى انكم ايها المأمورون بصلاب ذلك  
 الواحد لا تسمع لكم ان توردوه من طبقات النار الا  
 اشدها حرا ، وأقواها اشتعالا ، ولا ان تملؤوه من  
 آلات العذاب الا بأعظمها حولا ، وأبينها طولا .

قالوا : و ا ل م ، في الآية ليست لافادة الترتيب في  
 الزمان ، وانما هي لافادة التفاوت في الرتبة فيستفاد  
 منها ان التأخر في الذكر اهم واكمل في نوعه مما قبله .

ولنا ان نقول ان سلكه في السلسلة هو نفس  
 تظليله في القل ، فما قصد من التكرير ؟ وقد يجاب  
 بأنهم امروا أولا بسوقه الى الجحيم مغلولا وهنالك  
 يعاد تكبيك بكل أطول وأعظم ، وعلى هذا لا يبعد ان  
 يكون قد لوحظ في ( ثم ) افادة التراخي الزماني : فهو  
 نفل أولا ويقاد الى الجحيم فتمر عليه وهو يقاد  
 أيها مدة يظنها لطولها سنين ، ثم اذا ورد الجحيم  
 تمر عليه مدة طويلة أيضا قبيل ان يكبل بالسلسلة  
 فيحسب ان ما هو فيه من العذاب آخر الواته . حتى  
 اذا سلكوه في تلك السلسلة عرف ان هناك اتوالا منه  
 اشد هولا ، فيشتد حزنه ويعظم كربه .

ويعد فان ما اتى على ذكره كتاب الله من وصف  
 دار النعيم والمنعمين ودار العذاب والمعذبين - انما هو  
 تنزل في الخطاب الى الاعتداله من الاساليب ، وتقريب  
 لحقائق القيب في مألوف التراكيب ، والا فان أفهلنا  
 ذلك بالكنه والحقيقة متملر مادام السامع الاخرى  
 مياينا لعالنا في سننه وتوابعه وطبيعته التي ركبها  
 الله فيه ، وكما يستحيل على الكاتب - مهما تفنن في  
 الوصف - ان يفهم غلاما فاقنا إحدى الملاحظات  
 الجسدية حقيقة تلك اللذة قبل بلوغه زمنها ، كذلك  
 يستحيل علينا ان نفهم حقيقة تعيم الدار الاخرة  
 وعذابها قبل بلوغنا زمنها .

ثم ان مجزنا من تعقل الجنة والنار بكنههما  
 وحقيقتهما لا يستلزم اتفاه وجودهما مادام الوارد  
 بشأنهما غير محال عقلا ، اذ كم من امر ثابت الوجود في  
 دنيانا هذه ، بل يكون علمنا به بديهيا أحيانا - لا نقدر

ان نتعقله بكنهه ، وانما نتعقله بآثره الصادر عنه والدال  
 عليه . لا نمثل لك بالكمربانية والآثر والمادة وأجزائها  
 القدرة التي تتركب منها مما لا يزال مجهول الحقيقة  
 في العلم الطبيعي ، وانما نحيكك على نفسك التي بين  
 يديك ، فانك بالطبع تعترف بأنها موجودة ، لكنك  
 تعجز وتفهم اذا قلنا لك صفها لنا وصفا يوصلنا الى  
 كنه امرها ، وحقيقة سرها . وكل ما تقدر عليه من  
 التعرف بها ، هو قولك اني أريد وأفعل ، واهم وأعمل ،  
 وأتسى وألذكر ، وأفكر وأتصور ، وكل ذلك لا يكون الا  
 بقوة موجودة بالفعل في يدى - تصدر عنها تلك  
 الآثار الموجودة ، اذ لا يصدر موجود من معدوم ، ولا  
 سيما ان تلك القوة اذا زابت بدنى لم تعد تلك الآثار  
 تصدر عنها ، مع ان البدن سالم لم ينقص منه شيء .  
 تأمل يا اخي هذا ! ثم اعترف ممي بأن للدين مجهولات  
 كما ان للعلم مجهولات ، وأنه حيلات من الانصاف ان  
 نطلبه دعوسنا بين يدى الثانية ، ثم نشمخ بانولنا  
 امام الاولى .

قوله **( انه كان لا يؤمن بالله )** الخ استئناف واقع في  
 جواب سؤال مقدر - كان قائلا يقول : ولم استحق كل  
 هذا العذاب يارب ؟ قال : **( انه كان لا يؤمن ... ولا  
 يحض ... )** الخ ..

والإيمان بالله اصل في سلامة العقائد ، كما ان  
 الصلف على المساكين ومواسنهم بغض المال اصل في  
 سلامة الاخلاق . ومن لم قرن الله بين الأمرين في هذه  
 الآية ، وقال ان السبب في تعذيب ذلك الصلص هو  
 كفره وشحه : خلو نفسه من التصديق والإيمان ،  
 وخلو قلبه من الرحمة والعنان ، وهذا كما قرن  
 الكتاب مرارا بين الصلاة والزكاة ، فان الصلاة من  
 اكبر آيات الإيمان ، كما ان الزكاة من اكبر آيات  
 الرحمة وحب الاحسان .

ولم يعذب الله هذا الملعب بتركه اطعام المساكين ،  
 بل بتركه حض الآخرين على اطعامهم . فانظر كيف  
 ان الاسلام لم يكتف من المؤمنين بان يحبوا المساكين ،  
 ويعطوا عليهم ، ويحسنوا اليهم فقط ، بل هو يأمرهم  
 بان يأمروا غيرهم أيضا ، ويحضوا المتقاعلين من ذلك  
 حضاً .

ومن مظاهر الحض وصورة ان يدعو المسلم اخوانه  
 المؤمنين اليه ، ويكلفهم مساهمته فيما ينبغي : من  
 العناية بالفقراء ، وأزاحة ظلمهم ، وتيسير أسباب  
 العيشة عليهم ، وتعميد طرق الحياة الطبية بين ايديهم .  
 فان الكتاب ان كان اقصر من ضروب العناية بالفقراء  
 على ذكر الطعام وحده ، فانما ذكره كنموذج ومثال ،  
 والا فالاسلام يأمر بآيوائهم والباسهم ، وقاية لهم من  
 اذى البرد ، ويأمر بتعليمهم وارشادهم الى ما به صلاح  
 دينهم ودنياهم من علم وصناعة . بذلك على هذا ما قاله  
 المفسرون في قوله تعالى : **( وما اسألكم فلا تنهر )** : ان  
 المسائل يشمل مسائل العلم المحتاج الى المعرفة كما  
 يشمل مسائل الصدقة ، بل خصه بعضهم بطلب العلم

بِإِلَهِ الْعَظِيمِ ﴿٦٧﴾ وَلَا يَحْضُ عَلَى طَعَامِ الْمَسْكِينِ ﴿٦٨﴾  
فَلَيْسَ لَهُ الْيَوْمَ هُنَا حِسْمٌ ﴿٦٩﴾ وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ  
غَيْبٍ ﴿٧٠﴾ لَا يَأْكُلُهُ إِلَّا الْخَاطِئُونَ ﴿٧١﴾ فَلَا أَمْسُ  
بِمَا تَبِعُرُونَهُ وَمَا لَا تَبْعُرُونَ ﴿٧٢﴾ إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ  
كَرِيمٍ ﴿٧٣﴾ وَمَا هُوَ يَقُولُ شَاعِرٌ قَلِيلًا مَا تُؤْمِنُونَ ﴿٧٤﴾  
وَلَا يَقُولُ كَاهِنٌ قَلِيلًا مَا تَدَّكُرُونَ ﴿٧٥﴾ نَزِيلٌ مِنْ رَبِّ  
الْعَالَمِينَ ﴿٧٦﴾ وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضُ الْأَقَاوِيلِ ﴿٧٧﴾

وقال : أما انه ليس بالسائل المستجدي ، ولكن طالب العلم اذا جاحك فلا تنهره ) .

واذا دعا المؤمن اخوانه المؤمنين الى ما قلنا من الصائون في شان الفقراء والمساكين الى الوجه الذي يكون فيه سداد من موز ابدانهم ونفوسهم - كانت دعوته هذه هي الحظ الذي أوعد الكتاب على تركه هذا الوعيد الشديد .

ثم اذا دعا واجابه اخوانه وصلوا باشارته من التزام العتبة بالفقراء آنا قاتا - كانت عنايتهم هذه واجتماعهم عليها هي ما يسميه اهل هذا العصر ( الجمعيات الخيرية ) و ( جمعيات البر والاحسان ) و ( جمعيات التعاون ) . فاذا قلنا لاخواننا المسلمين : ان كتابنا السماوي يرصد لنا الوعيد على تركنا تأليف ( جمعيات زكاة ) يمكننا بواسطتها انتشار اخوتنا الفقراء من مهاوى التماسات - لم نرد ان القرآن وضع لذلك قانونا سرد فيه الاعمال مادة مادة ، وانما أردنا انه رمز وشار ، وامر بالقياس والاعتبار ، وان نراعي في امالنا وسامعنا اختلاف الأعصار والامصار .

ولقد لعنت لكم لكيما تفهموا  
والحن يفهمه ذو الالساب

وان الناقص الايمان ، الذي كان من آيات نقص ايمانه قسوته على المساكين ، واهمال امرهم ، وتركه الحظ على مواساتهم وسد خلتهم - لجدير بمقت الله وفضله ، وان تسوء والعياذ بالله عاقبته ، فلا يكون له في النشأة الاخرى ( جهنم ) اى قريب او صديق يهتم بامرهم ، او يدفع عنه ، او يفيثه مما هو فيه من البلاد والشقاء ، ليكون ذلك جزاء له من مثل عمله : تخلى عن اخوانه الفقراء في دنياه ، فتخلى اخوانه عنه في آخرته . فصار من سماع شكوى أولئك الفقراء في هذا اليوم ، فتمصا أخلاؤه من شكاوه يوم

القيامة . منهم ثائرة خزائنه ، وفتلت موالده في دنياه ، فحرمه الله شهي الطعام في آخرته - فلم يكن له ( طعام ) يوشك ( الا من قسطين ) . قال قتادة : « هو شر الطعام وأخشه وإنشعه » . ولله انما سمى بذلك من القسل ، لأن شر الطعام وأقلره هو البقية التي تعلق في صحاف الموائد بعد الفراغ من اكل ما كان فيها ، فستلت تلك الفضلة ، وتفصل منها الصحاف . فهذه الفضلات الخبيثة التي تستعمل منها النفوس الكريمة ، هي التي يستحق ان يعطها ذلك الباخل على الفقراء بالطعام ، حتى اضطرهم الجوع الى ارتكاب الشرور والآثام . وطعامه هذا ( لا يأكله الا الخاطئون ) الملتبون قساة القلوب أمثاله . و ( الخاطيء ) متمتع الخطيئة وهي الالم والدنب ، بخلاف ( الخطيء ) فانه من الخطا . وليس الخطا بالثم و ذنب ، وانما هو ماصفا الله عنه ، وقد مرت الإشارة الى الفرق بينهما .

و ( طعام ) في قوله ( ولا يحض على طعام المسكين ) اسم مصدر من فوك اعطى طعاما وطعاما ، كما يقال اعطاه اعطاء وعطاء . اما ( طعام ) في قوله ( ولا طعام الا من قسطين ) فهو نفس ما يؤكل ، وانما قلنا ان ( طعام المسكين ) بمعنى طعام ، لأن الحظ انما يكون على القمل لا على الاسم ، فتقول ( احضك باهلا على اطعام المسكين ) ولا تقول ( احضك على رفيف المسكين ) الا على تقدير مضاف ، والاصل عدم التقدير .

ومن لطيف آداب العرب انهم كانوا يستشيمسون الحدة والترك وشكاسة الاخلاق الا في الحظ على الاستعداد للضيوف وتهيئة الطعام للعبة والمساكين ، فان الحدة وحراسة الاخلاق تكون اذ ذاك محمودة ، ومن ذلك قول شاعرهم :

اذا نزل الاضياف كان عزورا

على الهى حتى تستقل مرأجله

يقول : ان ذلك السيد يكون وقت نزول الاضياف به فضوبا خرسا سببه الاخلاق على رجال الهى : يحضهم على تهيئة ما يلزم لهؤلاء الضيفان ومداورة اسباب راحتهم ، وتعجيل الطعام اليهم ، ثلا يكونوا جيما قيمتهم الحياه من طلبه . ولا يزال ذلك السيد في فضبه وحده حتى تستقل قدوره ، اى تصلو ، وتقوم على موافد التيران ، وهناك يهدأ باله ، ويسكن غضبه .

ومما يروى عن السلف من الرقائق والتأدب باداب القرآن ، ان ابا الرداء السعياي الجليل رضي الله عنه كان يحض امرأته على الاستكثر من مرق الطعام ليوسع به على المساكين ، ويقول لها : ( آمنة بالله فخلعتنا نصف السلسلة الطويلة التي قال الله انها معدة للذين لا يؤمنون بالله العظيم ، افلا نخلع نصفها الآخر بالحق على طعام هؤلاء المساكين ، فنخرج من هلال الذين لا يحضون على طعام المسكين ٢٢ ) .

ثم خرج في تفرع مشركي العرب على تكذيبهم به صلى الله عليه وسلم ، كانه يقول : اخبرناكم اول خبر

الأمم القديمة التي كليت بالحاقة ويوم العرض والصلب، فأهلكناها واذناتها وبال أمرها، ثم قفينا على ذلك يخبر يوم الحساب نفسه، ووصف هولاء وما يكون فيه أفرقي الأبرار والفساد من النعم والمذابح، القيم، ويوشك أن يكون كل ما قلناه غير بالغ مملنه في فلوبكم، ولا مؤثر أثره في نفوسكم، عناداً منكم لنبيكم، ولجأنا في مقاومته وتكذيبه، فالتين عنه تارة أنه شاعر، وطورا أن قوله قول كاهن. ( فلا أقسم بما تبصرون وما لا تبصرون أنه لقول رسول كريم الخ ) .

وقد مر في ( ن . والقلم ) بيان الحكمة في أن الله تعالى يقسم ببعض مخلوقاته، ونسمعه هنا يقول جل ومز : ( فلا أقسم ) كيف ذلك ؟ يقول بعضهم : أن المنفى ( بلا ) ليس القسم، وإنما المنفى محذوف مفهوم مما سبق : تقديره ( فلا ) معنى لتكليمكم بالقرآن، ولا الأمر ما تقولونه من محمد صلى الله عليه وسلم أنه شاعر أو كاهن، ثم استأنف فقال : ( أقسم بما تبصرون وما لا تبصرون ) . وعلى هذا يكون أفضل للشارح أن يقف على ( فلا ) وقفة خفيفة ليشرح السامع بما ذكرنا من المعنى . وذهب المحققون إلى أن ( لا ) نافية للقسم، وأنه تعالى يخبرنا بأنه لا يلفظ بما ذكر : كأنه يقول : أن القضية المتنازع فيها - وهي صدق محمد صلى الله عليه وسلم فيما ادعى من النبوة والوحى - هي من الظهور والثبوت بحيث لا يحتاج إلى الحلف عليها . وهذا الأسلوب مألوف حتى في مخاطبة أهل زماننا، فيقول أحدهم للأخر في أمر مهم يريد أن يشته له : لا حاجة للحلف أو لا لزوم للحلف، ثم يستأنف فيقول : أن الأمر كيت وكيت .

أما قوله ( ما تبصرون وما لا تبصرون ) فالأرباب يكون المراد به مترون ويقع تحت إبصاركم من عالم الشهادة، وما لا ترون ولا يقع تحت إبصاركم من عالم الغيب، فهو تحقيق لعالم الغيب، وتعظيم لشأنه . وفي القسم بالأميرين معاً إشارة إلى أن كل ما خلق الله وما لم يخلق، مما نرى وما لا نرى، هو عظيم الخطر جليل الشأن، حقيق بالتأمل فيه، وإذا كان المتكلم يدخل في عموم كلامه كما ذهب إليه بعض الأصوليين، تكون الالآت الأحدية داخلية في عموم ما لا تبصرون من عالم الغيب، ويكون تعالى قد أقسم لنا بذاته العلية على رسالة نبيه صلى الله عليه وسلم، وصدق دعوام .

( أنه ) أي القرآن ( لقول رسول ) أي قول محمد صلى الله عليه وسلم. ومعنى أنه قوله، أنه قاله بلسانه لكم مبلفاً . بعد أن ألقى في روعه وحياً، وألا فإن القرآن كلام الله . وفي إضافة القول إليه صلى الله عليه وسلم بعنوان أنه رسول لا باسمه الملقى وهو محمد - ما يدغم الشبهة المذكورة، وذلك لأن قول الرسول هو في الواقع ونفس الأمر قول صادر عن مرسله، وأما الرسول مبلغ له .

وقد نفى الكتاب أن يكون القرآن ( قول شاعر ) أو ( قول كاهن ) .  
( والشاعر ) معروف . أما ( الكاهن ) فهو الذي

يخبر عن الكواكب في مستقبل الزمان، ويبدعي معرفة الأسرار، ومطالعة الغيب، ورجل مثل هذا اعتاد أن يظلل الفكر والاستفراق، ويكثر التطلع إلى ما وراء عالم الحي - قد يسرق له براءة خيال من ذلك العالم، فيقرن بها أمثاله ويقيس عليها أشباهها، ثم يخبر بها، فيرى أحياناً في أخباره وميض من الحق ومسحة من الصدق، هؤلاء الكهان وجودوا في بلاد العرب قبل الإسلام، ولكن كانت أخلانهم وأطوارهم وهوم أنفسهم ليست على شيء من الطهارة والتزاهة، وحسب الخير وممارسة الفضيلة ومحاض العبادة، وتبليغ الشلق وحياً قامت التجربة على نفعه في تحسين حال الجماليات البشرية، وتأثيره في نقلهم من طور الهمجية إلى أعلى أطوار المدنية، وإنما كل ما يصدر من أحد أولئك الكهان مسجات ظاهرة الرككة والتصف، تتضمن معاني بادية التصنع والتكلف، فما أين بطلان ما كان يقوله المشركون من أنه صلى الله عليه وسلم كاهن أ وما أوهن الاحتياج به !

أما قولهم عنه أنه شاعر فبطالته أظهر، وبهتاتهم فيه أكبر، لأن أخلاق الشعراء وأساليبهم في كلامهم، ومراميمهم في حياتهم - تنم منها أشعارهم وقصائدهم ومعتقداتهم، فلا غرو أن يوبخ الكتاب أولئك الكاهنين هذه الزمائم فيه صلى الله عليه وسلم، ويقول لهم : ( قليلاً ما تؤمنون ... قليلاً ما تدركون ) أي أنتم قوم أصحاب مناد وباطل، ماتت حافظة الفكر والذكر من قلوبكم، فلا تؤمنون بالله، ولا تعدلون في أنفسكم ذكرى تؤدي بكم إلى الإعتسار والاصطاف . قوله ( قليلاً ) و ( قليلاً ) لإفادة نفى أصل الإيمان، ونفى أصل التدرك، وكثيراً ما تكون ( القلة ) في كلام العرب بمعنى العلم المحض . وفي الحديث « أنه كان يقال » الفو » أي لا يلقو صلى الله عليه وسلم أصلاً. وشاهد ذلك قولهم « قل رجل يقول ذلك إلا زيلاً » أي ما رجل يقوله إلا هو، فلو لم تكن ( قل ) بمعنى الشيء المحض ما صح الاستثناء منها، فإن الاستثناء معيار العموم كما تقرر في علم الأصول .

وألا لم يكن القرآن قول شاعر ولا قول كاهن، فهو ( تنزيل من رب العالمين ) أي وحى منه تعالى أنزل على قلب محمد صلى الله عليه وسلم ليفلهم إياه بقوله ولسانه . وأشار بقوله ( رب العالمين ) إلى أن الإله الذي ربي البشر، وأدغم بشروب مناشته، وغلظهم بصنوف نعمته - حقيق بأن يتعدهم بوجهه على لسان رسله « أي يلقفوا بهم غاية كمالهم » وبصابع مساعدتهم .

( ولو تقول علينا ) . التقول : تكلف القول، أو إيراد به التكلف والافتراء، لأن القول الذي يكذب به قاله يتكلف له، ويتصنع في إيراده .

( والأقوال ) جمع أقوال، وأقوال جمع قول، فهي جمع الجميع، وغلب استعمالها في الأقوال الكاذبة التي لا أصل لها . وجعلها بعضهم جمع ( أقواله )

لَا خَدْنًا مِنْهُ وَالْيَمِينَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ قَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ ﴿١٧﴾

فَمَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ ﴿١٨﴾ وَإِنَّهُ لَنَذْكُرَكُمُ

لِلْمَعْتَنِينَ ﴿١٩﴾ وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنْكُمْ مُكَذِّبِينَ ﴿٢٠﴾ وَإِنَّهُ

لَحَسْرَةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿٢١﴾ وَإِنَّهُ لَحَقُّ الْيَقِينِ ﴿٢٢﴾

فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ ﴿٢٣﴾

وإن كانت (اقولة) لم تستعمل. وهذه الصيغة أمضى (الفعلة) يراد بها صغر مسابها وحقارته غالبا، مثل أشجورة وأكودية وأسطورة وأعجوبة وأنشودة، جمعها أضاحيك وأكاذيب وأساطير وأعاجيب وأنشيد ومنها (الاقويل) ٢٣

(وَالْيَمِينَ) : أي اليمين . ويكون الأخذ يمينه صلى الله عليه وسلم كتابة من التمكن منه ، والقدرة عليه : فإن من يضبط أنسانا من يده اليمنى التي هي آلة بطشه يكون قادرا على منعه من الحركة والصيل . أو المراد باليمين القوة مرادا بها قوة الله وقدرته تعالى ، ويكون معنى (لَا خَدْنًا مِنْهُ بِالْيَمِينِ) لانتقضا منه بقوته وقدرته . و (الْوَتِينَ) قال ابن سيده : « هو مرقق لاسق بالقلب من باطنه أجمع ، يسقى المروق كلها الدم ، ويسقى اللحم ، وهو نهر الجسد » . وقال غيره : « هو نياط القلب وهو حبل الوريد ، إذا قطع مات صاحبه » فمعنى (لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ) لاجلنا بالمعقوبة ولم نضع حيا . وخص الوتين بالذكر من بين سائر أعضاء الجسد وعروقه لأن طريقة الإماتة بقطعه أسرع الطرق وأشدها إجهادا على الحياة .

وقوله (حَاجِزِينَ) ، أي مانعين وحائلين بيننا وبين ما نريد منه . وكان الظاهر أن يقول : فما منكم من أحد أبها الناس عنه حاجزا ومانعا ، لانه صفة لأحد وهو مفرد . لكن لما كانت (من أحد) تكرة مستغرقة في العموم صارت بمعنى الجميع فوصفت بصفة .

ومعنى الآية أنه تعالى يقول في تبرئته نبيه صلى الله عليه وسلم مما رماه به المشركون ، وفي دعواه أنه - وحاشاه - كذاب مفتر على الله : لو تعدد محمد كذبا علينا لكنا قادرين على أن نتمكن منه فضلًا نحن ، ولكنا اهلكناه وقضينا عليه من وقته ، وما وجد أحد في البشر يقدر على أن يحول بيننا وبين انفاذ مشيئتنا فيه .

لا يقال : أنه قام في أزمنة التاريخ المختلفة متنبئون لم يهلكهم الله ، بل بقيت أكاذيبهم ، وانتشرت

أضاليهم - لانا نقول : أنه قلما ظهر متنبئ كذاب الا لسلط الله عليه من قتله وأخذه انتفاسه ، كما فعل في مسيلة الكذاب وأضرابه . وإن بقيت لأحدهم دعوة في الأرض قلنا تبقى محصورة في جهة منها وبين أقوام قليلين تموزهم الأدلة والبراهين على صحة ما أتى به متنبئهم لتكون مقبولة في نفوس ذوي العقول السليمة . أما « يؤده » و « كنوشوس » و « فزادشت » الذين انتشرت تصاليمهم في معظم آسيا ، وأبهم نيف وسبعائة مليون من أهلها ، أي نحو نصف العالم الانساني - لقد يكونون أنبياء صادقين ، ولم يرد في الشرع نص صريح ينفي نبوتهم . وإذا كان في أدبائهم المنسوبة اليهم اليوم ما هو ظاهر الوضوح والبطان فيكون مما دس عليهم ، واختارته تحيلات آبائهم ، ولم تسلم من مثله الأديان السابوية المشهورة .

ويمكن أن يقال : ليس معنى (أخذنا منه باليمين) وقطعنا منه الوتين) تمجيد المعقوبة له صلى الله عليه وسلم والقضاء على حياته ، وإنما المراد أنه لو كان كاذبا لكنا مجتهدا له عقوبة أمثاله من المتنبئين الكذابين ، فنميت ذكره ، ونطقه دعوه ، ونلاشى ما أتى به ، ولا ريب أن معالجه بالمعقوبة على هذه الصورة هو قضاء عليه ، وإهلاك له . لكنه صلى الله عليه وسلم لم يكن كاذبا ولا مفتانا على ربه ، فمن أجل ذلك لم يضع ذكره بل رفعه ، ولم يخرج صدره بل شرحه ، ولم يمت دعوه بل أحياله ، ولم يلاش أمته بل غاها ، حتى كان لها من حظ الانتشار والعزة ما لم يكن لسواها .

إن دعوة رجل واحد يهتف بها في منقطع العرمان فيليبيا ملايين وملايين من البشر ، ويكون من أثرها قيام دين كريم ، ونهوض ملك عظيم ، ونشوء حضارة لم تول معالها ناطقة بمجدها إلى اليوم - دعوة هذا شأنها لا تنصور في العقل أن تكون كاذبة مفترقة على الله . ولو كانت كاذبة كما يقولون ما أستتب الدعوة سابوية غيرها أن تثبت وجودها ، وبرهن على صدقها . إذ لم نر الدعوة أخرى سواها من الآثار في تربية الأمم ، ونشر العلم والحض على العمل الصالح ، والتزام العدل المطلق - ما رأيناه لدعوة محمد عليه الصلاة والسلام . فهل يتعوض الباطل من نتائج خير من نتاج الحق ؟ ويثمر الكذب من النمو الطيب ما لا يثمره الصدق ؟

أما إذا قيل أنه قد قامت في العصور المتأخرة مدنيتان عظيمة في قوتها ، عظيمة في أعمالها ، عظيمة في آثارها ، لم تقم بمعايير إسلامي ، ولا هي مما أسس على الدعوة المحمدية ، وقد قضت هذه المدنيتان الحديثة على الجماعات الإسلامية ومدنيتها المتوارثة حتى غشاها من أمرها مفاشي - فإني أقول : لو قام اليوم ما تحت الأرض قائم كريم ، لم طاف مصالمة المدنيتان الإسلامية ، ومسكن الأمم المنسوبة إلى الإسلام - لا تكرها كلها ، اللهم الا كلمة الشهادة ، ومراسم العبادة ، ولو طاف هو نفسه المدنيتان الحديثة ،

ومساكن أهلها — لا تعترف بها كلها ، اللهم إلا ما ظهر بطله ، واستبان فحشه ، ويقر أهله أنفسهم في التزوع عنه ، والتخلص منه .

ولو هبط هابط من فوق السماء ، ثم طاف مدنيات الأمم المنسوبة إليه ، وتاملت أصول حياتها المادية الجديدة المؤسسة على الجرص وإدخال المال والتجمع بلذائذ العيش — لا تترك كل شيء ينسب إليه إلا الاسم ، وما عرف من تعاليمه وشرائعه التي كان أتى بها إلا الرسم .

جصل ختام السورة كنتيجة للكلام السابق ، مربطة به أشد ارتباط ، فهو يقول : إذا ثبت أن القرآن وحى من الله ، لم يتقوله محمد صلى الله عليه وسلم على ربه — كان هذا القرآن تذكيرة وعظة ينتفع بها المتقون ، ففسر ( وآله ) يرجع إلى القرآن الذي أن لم يتقدم له ذكر صريح فقد تقدم مايعنه ، ويؤممه إليه ، فإن قوله تعالى : ( ولو تقول علينا بعض الأقاويل ) لم يرد به إلا القرآن الذي كان يزعم المشركون أنه أقاويل واساطير ، وآله نفى ذلك واحتج على كذبهم ، وصديق القرآن .

وقوله ( للمتكئين ) يريد بهم أولئك الذين صفت نفوسهم من كثورات الأوهام ، وخلصت من شوائب الجسود والتقليد ، ومالت بفطرتها إلى قبول الحق والإذعان له ، تتقى بذلك سفط خالفها وتجلو عقابها . أمثال هؤلاء هم الذين استعدت نفوسهم لقبول القرآن والاستعداد به ، أما أولئك المكذبون الجامدون على ماوردوه من آياتهم ، فإن الله توعدهم بقوله : ( وإنا لنعلم أن كنتم مكذبين ) . وليس الراد به إفادة أنه تعالى يعلم بالمكذبين فقط ، بل المراد أنه تعالى محيط بهم ، راصد لهم ، غير تارك مقابله . فاستعمال العلم بهذا المعنى كاستعمال المعرفة : يقال « أنا أعرف المحسن منك والمسيء » أى لا يخفى على ذلك منكم ، ولا أغفل من مقابلة كل بما يستحقه ، ومنه قول ابن الفارض « روحى فداك عرفت أم لم تعرف » أى كافيتنى بالحق ، أم لم تكافئنى .

فهؤلاء المكذبون الذين يعلمهم الله وهو من ورأهم ، كيف يكون حالهم في مستقبل الأيام : في الدنيا إذا أظهر الله نبيه ، ونصر حربه ، وقى الآخرة إذا أزيح الستار ، وبطلت الأعداء ، لا جرم أن تكذبهم سيكون عليهم حسرة . وهذا معنى قوله تعالى ( وآله لحسرة على الكافرين ) . ففسر ( أنه ) يرجع إلى التكذيب المفهوم من قوله : ( المكذبين ) ، ومراده ( بالكافرين ) نفس المكذبين المذكورين قبله ، وكان الظاهر الإضمار أى أن يقول ( وآله لحسرة عليهم ) ، لكنه أتى بالاسم الظاهر ليتناول به وصفا جديدا لهذه الأمة المكذبين وهو كونهم كافرين . ويحتمل أن يرجع

ضمير ( وآله ) إلى القرآن ، أى أن القرآن سيكون حسرة على المكذبين : في الدنيا إذا ظهرت تعاليمه ، وانتشر في الحافقين نوره ، أو في الآخرة إذا رأوا نجات المصدقين به ، التمسكين بحبله . وعود ضمير ( وآله لحسرة ) على القرآن أنسب ، ولذلك ينظم شمله مع ضمير ( وآله لتذكيرة ) الذي قبله ، وضمير ( وآله لحق اليقين ) الذي بعده ، فانها القرآن .

ومعنى ( وآله لحق اليقين ) أن القرآن هو اليقين ، أى الحق الثابت الذي لا شبهة فيه ولا ريب . والجملة من مقوله تعالى ، ثبتت بمضمونها قلب نبيه صلى الله عليه وسلم ، فلا يلين في الدعوة ، ولا يصفى مزمه لتكذيب أولئك المكذبين ، ورميمه له بمختلف ألهم وخلق السواوى .

ومعنى ( فسبح باسم ربك العظيم ) إذا كان من عاقبة المكذبين ما يسلم يا محمد وسيعلمونه هم ، وكان القرآن وحيا من الله يقينا — لم يبق إلا إثبات في أمرك ، ومضيق في ماذهب له من تبليغ رسالتك ، واستعن على مهمتك هذه بتسبيح ربك ، والشكر له على أن اختصك بكرامة النبوة ، وظلو الرتبة . فهو ربك الذى حاطك بعنايته ، والعظيم الذى يصغر كل شيء أمامه ، وهو تعالى وحده الذى يجب أن تسبحه وتشكر له ، وتوحيده وتغافه ، ودع منك أولئك المكذبين جانباً .

و ( الاسم ) هو مايسرف به المسمى ويتميز من نظائره ، واسم الله واسأؤه صفاته التى عرفناها معشر البشر بها ، والأ فالان المذكر تعجز دون الوصول إلى كنه ذاته ( فالتسبيح باسم الرب ) الذى أمر الله نبيه به هو عبارة من تنزيه صفاته تعالى أن تكون مشابهة لصفات المخلوقين .

أو نقول : أن المراد ( باسم الرب ) هو الكلمات الدالة على ذاته كالله ، وصفاته كالرحمن والرحيم ، فإذا أمر الله تعالى بتنزيه هذه الكلمات ، وتمجيد شأنها — كان ذلك مستلزما لتنزيه الذات المدلول بها عليها ، أو المراد بتنزيه أسماء الله تنزيها من أن تطلق أو تستعمل في مسميات آخر كما يفعل المشركون من تسمية ( الآلات ) فانها مؤنث ( الله ) سموها بها الإهة من آلهتهم ، وسموا الآهة أخرى ( المزى ) تائيت الأعر ، والأعر والعزير من صفاته أو أسمائه تعالى ، فمعنى قوله ( سبح باسم ربك ) نزهه فلا تسم به إلا إياه سبحانه وتقدس .

وقيل ( سبح ) يتعدى بنفسه فيقال ( سبح اسم ربك ) ، وبإياه كما في آتنا هله ، ومثله « أتى الكتاب من يده » و « أتى به من يده » ، و « أخذ الشوء وأخذ بالشر » ، قال تعالى ( ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة ) وقال أيضا ( وآلى الألواح وأخذ برأس أخيه يجره إليه ) .

(٧٠) سُورَةُ الْمَعَارِجِ مَكِّيَّةٌ  
وَبَآئِلُهَا ٤٤ نَزَلَتْ بَعْدَ الْحَاقَّةِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ ۝ لِّلْكَافِرِينَ لَيْسَ لَهُ  
دَافِعٌ ۝ مِّنَ اللَّهِ ذِي الْمَعَارِجِ ۝ تَعْرَجُ الْمَلَائِكَةُ  
وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ۝

كان المشركون يستهزلون بالنبي صلى الله عليه وسلم ، ويستخفون بما يوعدهم من العذاب وأنه اليهم لا محالة ، فكانوا يقولون : وأين هذا العذاب ؟ أما آن وقت مجيئه ؟ بل قال أخبثهم طريقة في تكذيب الوحي ، وهو « النضر بين الحرب » ما قصه الله علينا في آية أخرى من كتابه : ( أن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم ) . وكان صلى الله عليه وسلم يلقى لتكذيبهم هذا ، ويود أحيانا لو يجعل اليهم بشىء من العذاب ، فيردوا أو يؤمنوا ، فافتتح الله تعالى هذه السورة حاكيا ما يقوله النضر أو غيره ممن يسأل سؤاله ، وحاشا نبيه على الصبر وحسن الانتظار .

و ( السؤال ) إذا كان بمعنى طلب الشيء واستئمانه بعدى بالياء ، يقال « سأل بالعذاب أن ينزل به » ، كما يقال : سأل العذاب . والنضر بين الحرب دعاء بالعذاب طالبا له بل قال ( التنا بعذاب أليم ) ، فيكون المراد ( بالسائل ) في الآية هو النضر ، ونكره تحقيرا له ، ونهاونا به .

أما إذا كان ( السؤال ) بمعنى الاستخبار من الشيء اهتماما به ، وتفحصا من حاله ، فيتعدي بمع ثارة ، وبالباء ثارة أخرى ، يقال « سألت منه ومن حاله » ، كما يقال « سألت به وبحالته » ومنه قوله تعالى : ( فاسأل به خبيرا ) ، أى اسأل من هذا الأمر الذى همتم له خبيرا به ، ومنه قول عائكة بنت عبد المطلب :

سألت بنسأ في قومنا وليكيف من شر سملعه  
أى سألت عنا وعما كان منا في تلك الحرب ، حسرت الفجار ، من النجدة والبسالة .

ويحتمل أن تكون ( سأل ) في الآية بهذا المعنى وهو الاستخبار والتفحص ، ويكون المراد ( بالسائل ) النضر أو غيره ممن كان يسأل سؤاله ، ويكون المعنى : سألت يا محمد سائل من خير عذاب طالبا حدثهم به ، وحققت

أهم أنه واقع بهم . وقد انتهى السؤال عند قوله ( واقع ) فأجاب تعالى على سؤال هذا السائل ، أو على دعائه على نفسه بقوله ( للكافرين ليس له دافع من الله ) فهو استئناف واقع في جواب سؤال السائل ، ولأم ( للكافرين ) متعلقة بمحذوف ، والتقدير : هو ، أى ذلك العذاب المسئول عنه ، مهيا ومرصدا للكافرين ، فلا يستعملوا هم ، ولا تفجير أنت يا محمد .

وجملة ( ليس له دافع ) خبر بعد خبر ، أى هو مخبوء لهم ، وليس له دافع يدفعه عنهم .

وقوله ( من الله ) متعلق ( بدافع ) على تضمينه معنى المنع والوقاية : أى أن العذاب مهيا لهم ، وليس له دافع ومانع وواق من الله ، بل ستكون مشيئته تعالى في تعذيبهم نافذة البتة .

ويحتمل أن يكون المراد بالسائل الذى سأل هو النبي صلى الله عليه وسلم نفسه ، فقد قلنا أنه أحيانا كان يمتحن لو ينزل هؤلاء المكذبين عذاب يرحزهم من طريق الدعوة الإسلامية ، فتنشتر وتلقى بالقبول ، ويكون تنكيره صلى الله عليه وسلم لتعظيمه أو لتعنيه ، فأجابه ربه على سؤاله قائلا : ما تطلبه وتستعمله مرصدا ومهيا للكافرين ، ثم ختم الآية بقوله مخاطبا له صلى الله عليه وسلم : ( فاصبر صبرا جميلا ) أى صبرا لا قلق معه ولا جزع ، وهكذا يكون الصبر الجميل .

وقد وصف الله نفسه بقوله : ( ذى المعارج ) ، وهو من العروج أى الصعود والارتفاع . واسم الآلة منه « معرج » و « معراج » وجهما « معارج » و « معارج » فالمعارج في معناها كالمصاعد والمرافى والسلالم والدرج والدرجات . فنقوله تعالى : ( ذى المعارج ) مرادف لقوله في سورة المؤمن ، واصفا لنفسه . « رفيع الدرجات » .

و « المعارج » و « الدرجات » إذا نسبت إلى ذاته تعالى كان المراد بها الرفعة والعلو اللاتيين به تعالى . فذو المعارج وذو الدرجات تمت له سبحانه بعلو الذات وتنزهها عن التخصيص . وليس لنا له بعلو الذات وارتفاعها في المكان .

أبعته فكرتى حتى إذا بلغت  
فأبانتها بين تصويب وتصديد  
رايت موضع برهان بلوح وما  
رايت موضع تكييف وتحديد  
و ( الملائكة ) من عالم الغيب الذى تؤمن به ، ولا تكلف أنفسنا منه ما لم يكلفنا إياه الشرع من البحث عنه ، والتفكير في حقائقه ، فإن هذا غير مستطاع لنا ما دمتنا في هذه الدار الدنيا .

أما ( الروح ) ففراد به جبريل نفسه ، وهو أحد هذه الملائكة ، ويكون في ذكره معهم باسم له خاص زيادة تعظيم له .

ويقول بعضهم : أن ( الروح ) طبقة من الملائكة كطبقة الخاصة في البشر بالنسبة إلى عامتهم ، فالروح على هذا جمع لا مفرد ، كما يقال أحيانا « الملك » ويراد به الملائكة .



اما معنى ( تعرج للملائكة والروح اليه ) اى الى الله ، فهو مروجها وصعودها الى حيث يفاض عليها من انوار قسسه ، وتجليات امره ونهيه - ما يتعلق بتجسير العالم ، وتدبير الكائنات ، واعمالها في الاطوار المختلفة لما خلقت له .

فضمير ( اليه ) يرجع الى الله تعالى باعتبار مكان تجليه ، ومصادره امره ونهيه ، لا باعتبار ذاته ، ويمكن وجوده ، فانه تعالى ليس له مكان ، كما مرّت الاشارة اليه آنفا .

وقوله : ( في يوم كان مقداره خمسين الف سنة ) . هذا اليوم هو مدة عمر الدنيا وليس التحديد مراداً كما يأتى بيانه . قال ابو مسلم الاصفهانى : ولا يلزم منه ان يصير وقت القيامة معلوماً ، لانا لاندرى كم مضى وكه بقى . والمراد باليوم في هذه الآية مطلق الوقت ، وهو استعمال كثير الشيوع في كلام العرب ، قال في الصباح : « والعرب قد تطلق اليوم وتريد الوقت والحين نهرا كان او ليلا ، فتقول ذخرتك لهذا اليوم ، اى لهذا الوقت الذى افتقرت فيه اليك » ١ . فاللائكة تعرج في مدة الدنيا منذ اول نشأتها الى حين اندثارها ، ومعنى انها تعرج في ذلك اليوم انها تتردد بين الرب وبين هذه الاكوان بما يريد منها ، ويقضي فيها .

ولا تقتصر ان تفهم من هذا الا ان الله الذى خلق هذا الكون ، اراد ان يدبره ويبلغه كماله بوسائل خلقها ومسامها ملائكة (١) ، كما شاء لئلا نحن في حياتنا الذنوبية ان نتخذ وسائل في تفعل اعمالنا ، وتوفّر مصالحنا . اما انه لما اخذ سبحانه هذه الوسائل ؟ ولما لا يفصل ويدبر مباشرة ؟ فهذا ذلول من السائل من نفسه ، واستغراق في طينة حسه ، كلفهموس (٢) في حماة يتناول الى درس ارقى منيات العالم ، والى فقه اسرارها ، ودقائق اختراعاتها .

اما وجه ارتباط خبر عروج الملائكة في الدنيا بما قبله من سؤال السائل عن المذاب وانتهى للكافرين - فيفهم من افعال المقارنة بين هذه الآلة وبين آيتين اخريين وردتا بهذا المعنى ، وهما قوله تعالى : ( ويستعملونك بالمذاب ولن يخلف الله وعده وان يوما عند ربك كالف سنة مما تعدون ) ، وقوله : ( يدبر الامر من السماء الى الارض ثم يرجع اليه في يوم كان مقداره الف سنة مما تعدون ) .

فالايات الثلاث بعضها يفسر بعضا ، وهى متواردة على افادة معنى او معنيين تقريبا . ومحصل ذلك ان الله تعالى اجاب الكلدانيين بان ذلك المذاب الذى يستعملونه واقع بهم لا محالة ، وانه لا احد يقدر على دفعهم ، ومنع ما يريد تعالى بهم . ثم نههم بقوله ( تعرج الملائكة اليه ) الى ان ذلك المذاب انما يروونه بعيدا لطول مدة الدنيا ، فهى في نظرهم ، ويعتبر

(١) كما سماها ( المذبرات ) في سورة النجم . مد قال تعالى : لا للمذبرات امرا .

(٢) الهموس : ذنوبية او دودة سوداء ، تكون في المياه الراكدة وتلدس في حلقها .

مقاييس ازماتهم طويلة جدا كالف سنة او خمسين الف سنة ، مع انها ليست عنده تعالى وبالنسبة الى الاحباب التى تربط الابد بالازل سوى يوم ، اى زمن قصير . تعرج فيه الملائكة مترودة بين الخالق وبين الخلائق ، تدبر امهم ، وتعلمهم ، والعناية الالهية بما فيهم صلاحهم . فما هؤلاء الكلدانيين يستعملون المذاب ؟ ويستنبطون المذاب ؟ وهو منهم على قاف ؟ ولما اراد ان يصف سنى عمر الدنيا بالكثرة عبر عنها في آية بالف سنة ، وفي اخرى خمسين الف سنة . ولم يرد سبحانه التحديد والتعيين ، وانما اراد الباقية في وصف المدة بالطول بالنسبة الى البشر . وقد جرى في ذلك على ما اعتادوه في اساليب كلامهم في مثل هذا المقام : فهم اذا ارادوا تكثير مرات فعل من الانفال قالوا : جئت او فطت سبعين مرة ، اما اذا ارادوا الاقل من زمن انه طويل جدا ، فمرة يقولون : لو عاش فلان الف سنة ، ومرة يقولون : لو عاش خمسين الف سنة . وفي كلا التعبيرين لا يريدون الا الباقية بطول المدة . وقد ذكر القرآن في حادثة واحدة - وهى وقعة بدر - ان الله امد المؤمنين بالف (١) من الملائكة وبثلاثة آلاف وبخمسة آلاف ، ولا مفهوم فيه لعدد كما قلنا . وذكر بعض علماء الحديث بمناسبة قوله صلى الله عليه وسلم « ان القرآن انزل على سبعة احرف » - ان العرب يذكرون السبعة في الاحاد ، والسبعين في العشرات ، والسبعمئة في المئات ، ولا يريدون بها تعيين العدد ، وانما يريدون افادة الكثرة . وحمل بعضهم ( اليوم ) في آيتنا التى نفسرها - على يوم اقامة ، وقال ان المراد بالآية تحويل سر ذلك اليوم ، وتعميم المذاب نفوس المشركين الكلدانيين الذين يستعملون المذاب فهو تعالى يقول : ان ذلك المذاب يقع في يوم بطول عليكم ايها الكلدانيون الى حد ان تحسبوه خمسين الف سنة ، وما هو بالنسبة الى الانهائية الا كيوم واحد .

وسواء اردنا باليوم يوم الدنيا ، او يوم الاخرة ، فليس المراد بالخمسين الفا تعيين عدد السنين ، وانما المراد وصف ذلك اليوم بالطول .

وكان السلف الصالح يكرهون التقصي في البحث ، والاعراف في السؤال من مثل هذا ، وكيف يكون اليوم ثلثة الف سنة ؟ وثلاثة خمسين الف سنة ؟ فقد سأل رجل ابن عباس رضى الله عنه عن معنى قوله تعالى : ( في يوم كان مقداره الف سنة ) ، فلم يجبه ابن عباس عن سؤاله ، وانما وجه اليه سؤال بمعنى سؤاله قائلا : « ما يوم كان مقداره خمسين الف سنة ؟ » فقال له الرجل : « انما سالتك لتخبرني » ، فاجابه ابن عباس : « هي ايام سماها الله ، وهو اسلم بها كيف تكون ، واكره ان اقول فيها ما لا علم لى به » .

هذا ، وفي الآلة وجه اخرى تتعلق بمعناها وامرارها اقتصرنا منها على ما مرنا به احبب بالقبول ، واحتضى لدى العقول .

(١) ففي الانفال : لا تستغيثون ويكم فاستجاب لكم الى مدينك يائف : « ولى آل عمران : لن يكفيناكم ان يدركم دينكم بثلاثة آلاف » . وفيها ايضا : يدركم ويكم بخمسة آلاف » .

فَأَصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا ⑤ إِنَّهُمْ يَرُوءُكَ بَعِيدًا ⑥ وَرَبُّهُ قَرِيبًا ⑦ يَوْمَ تَكُونُ السَّمَاءُ كَالْهَمَلِ ⑧ وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِزَّةِ ⑨ وَلَا يَسْأَلُ حِمِيمٌ حِمِيمًا ⑩ يَصْرُوهَهُمْ يَوْمَ الْمُجْرِمِ لَوْ يَفْتَدِي مِنْ عَذَابِ يَوْمِهِمْ بِمَنْبِيهِ ⑪ وَصَحْبِهِ وَآخِيهِ ⑫ وَلَصَبِيئِهِ أَلَّتِي تُقْوِيهِ ⑬ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ يُنْجِيهِ ⑭ كَلَّا إِنَّمَا لَطَفُ ⑮ تَزَاةَ اللَّشْرَى ⑯ تَدْعُو مَنْ أَدْرَكَتْهُ ⑰ وَجَمْعٌ فَأَوْعَى ⑱ \* إِنَّ الْإِنْسَانَ خَلْقٌ هَلُوعٌ ⑲

قوله (إنهم يرونك البعيد) أي أن المشركين المستبطين يوم الدين يرون العذاب الذي أوعدوا به فيه بعيدا ، لأنهم كانوا لا يصدقون به . ويقول سبحانه أنه هو لجهنم عظمت يرى ذلك العذاب الواقع في يوم القيامة الذي يكون فيه السماء كالهمل - قريبا ، أي واقعا محقق الحصول . وهر عنه بالتقرب مشكلة ومقابلة لقوله (بعيدا) .

وقوله تعالى (ونراه قريبا يوم تكون النج) انتقل وخلوص من الرد على الكلدانيين يوم العذاب أي وصف ذلك اليوم الذي فيه (تكون السماء كالهمل) .

(والهمل) مائع الزيت ، ومائع الفلز المذاب كالنحاس والحديد والقضة ، مع ملاحظة أن يكون للمؤمنين المذكورين اللون الخاص الذي يعده فيها كل من رأى معدنا يصهر ويلد ، أو رأى دردى الزيت وعسكره يصب ويكال . هذا اللون الأكثر الضارب إلى الحمرة أو الزرقة أو الخضرة هو لون السماء يوم تقوم القيامة وبإذن الله يخرب هذا العالم .

(وتكون الجبال كالعز) (الهن) : الصوف المصبوغ ألوانا من أصفر وأحمر وأخضر ، وقد وصف بهذا الصوف في سورة القلمة بأنه «منقوش» . والجبال إذا يست يوم القيامة ، وتفتت أجزاؤها - وهي بالطبع مركبة من آتربة ومعادن مختلفة اللون - كانت ذراتها المنسقة في الفضاء منقوشة غير متلبدة ، وذات ألوان مختلفة : كالوان الصوف المصبوغ تهاويل ، ذات لون واحد .

هذه هي حال السماء والأرض في ذلك اليوم . أما حال الخلاق فهي كما قال تعالى : (ولا يسأل حميم حميما) حميم الرد : قريب وصديقه الذي يتسم بأمرة ، فمن شدة ما ينزل بهم جميعا من الهول والفرع يتناكرون ويتنافعون بعينا وشعلا ، مستغلا كل منهم

عن حميمه نفسه ، وتلمس طريق الخلاص لها ، وينحصر همه في ذلك بحيث لا يعود يسأل حميمه : ما شأنك ؟ وكيف حالك ؟ وهل تطلب منى معونة ؟ وهذا كما قال تعالى في سورة عبس : ( يوم يغفر الرد من أخيه ، وأمه وأبيه ، وصاحبه وبنيه ، لكل امرئ منهم يومئذ شأن يغنيه ) .

يقول قائل : إن الحميم قد لا يكون أبصر حميمه في ذلك الوقت لیساله ، فقال تعالى ( يصرهونهم ) وهو مضارع مجهول من التصير ، وضميره المرفوع - وهو نائب الفاعل - يرجع إلى ( حميم ) المرفوع ، وضميره المنصوب يرجع إلى ( حميما ) المنصوب . وإنما أتى بالضميرين بلفظ الجمع لما في المرجعين من العموم وأن كانا مفردين .

يقول : إن الأقارب والأصدقاء لا يسأل بعضهم بعضا من حاله في ذلك اليوم مع كونهم قد نجح الله بعضهم ليصر بعضا ، ويعرفه أنه هو ، ولم تكن ثمة حواجل تحول دون رؤية أحدهم الآخر ، وإنما يمنهم من المسألة تناسل كل بخوصة نفسه .

قوله (يود المجرم النج) هذا ترق في وصف هول ذلك اليوم ، يقول : لا يقتصر الأمر في ذلك اليوم على وقوع التناكر والتدابير بين الأحماء والأهل والأصدقاء بل الأمر أظلم من ذلك ، إذ (يود المجرم) - وهو مركب جريمة الجود والتكذيب - (لو يفتدي منى عذاب يومئذ ببنيه النج) ، أي يتنى أو تقبل منه فدية ، فيقدم فداء من نفسه أقرب الناس إليه ، والصقهم به ، وأمرهم عليه : من ابن وزوج وأخ وابن عسيرة كان يأوى إليها ، ويتكل في ثوابه عليها ، بل يتمنى لو تقبل منه فدية فيفتدي به (من في الأرض جميعا) من البشر وغير البشر ، (ثم ينجيهم) ذلك الفداء وينقده من الكرب ، وفادح الخطب . و (صاحبة) الرجل امرأته ، وقد تقول المرأة من زوجها أنه صاحبها ، لكنه قليل ، قالت ليلى الأخيلية :

لنا صاحب لا يفتني أن نخونه

وأنت لأخرى صاحب خليل

و (فصيلة) الرجل : عشيرته ورهطه الأذنون ، الذين انفصل عنهم بألاد ، وبقي بأوى إليهم بالنسب والنصرة في الأيام الشداد .

ولما كان قبول الفداء منه يومئذ بعيد الحصول ، ونجاة من العذاب بهذا الطريق غير مأمول - عطف فعل (ينجيهم) على (يفتدي) (ثم) التي تستعمل في التراخي والتبعد الزماني أو الاعتباري كما هنا ، كأنه يقول : يود أن يغدق نفسه هؤلاء المذكورين وهيئات أن ينجيهم ذلك .

(كلا) كلمة زجر وتعنيف ، يصدر بها المخاطب صرفا له من اعتقاد أو رأى أو عمل فلا في التمسك به ، والتعصب له ، فيكون معناه ليس الأمر كما زعمت أو عملت بأهلا ، وإنما هو كيت وكيت . والكلابون : يوم الدين المستجودون لوقوع العذاب فيه فلوا في عنادهم وتكذيبهم بعد أن وضح الأمر لهم ، وقامت الحجة

عليهم ، حتى كأنهم من فرط العناد ، وقيام الحجة ، يعلون أنفسهم بالأمانى ، ويتمسكون بأوهى الأسباب من مثل استنقاذ أنفسهم بقدرة ما - فكذبهم الروحاني ظنهم هذا ، ثم زجرهم عنه ، وردمهم عن التصادى فيه قائلا : ( كلا أنها لظني الخ ) ، أى دعوا أيها الجرمون المكذبون هذه التصادات ، والأمانى الكاذبات ، فإن الأمر ليس كما تزعمون من أنه تعالى يخلق ذلرا يصلب فيها الفجار ، أو أنه إذا خلقها فقد يتلمسون فيها طريقا للخلاص بقدرة ونحوه . ( أنها لظني ) ، أن تلك النار ، أو أن تلك القصة الهائلة التي تعلمون فيها ، هي لظني كما أخبركم بها نبيكم صلى الله عليه وسلم ، لا ريب فيها ، ولا منجى منها .

( والظني ) اسم للنار ذات الكليب ، و ( الشوى ) كل مالم يكن مثلاً من الأعضاء : كالسدين والرجلين والأطراف ، يقال : « رمى فلان فلانا فاشواء » ، أى أصاب أطرافه ، ولم يصب منه مقتلاً ، ويقال في ضده « رماه فإصاء » إذا أصاب مقتلاً لم يقداره . والمعنى أن تلك النار من فرط تلظيها تنزع أطراف المصلب وجوارحه نزعا شديداً مبالغا فيه ، أو نزعا متسكراً يحصل مرقعة مرة ، وكأنه يخصص الأطراف باللكر دون الأعضاء الرئيسية التي إذا نزلت مات صاحبها - للإشارة إلى أن تعذيبهم بتلك النار المتلظية لا يسلبهم حياتهم ، فهم في النار دائماً أحياء يعذبون ، ويكون حفظ الحياة ودوامها إذ ذاك بمحض قدرة الله تعالى .

وقال بعضهم أن ( الشوى ) هنا جمع شواة وهي جلدة الرأس ، وتسمى « فروة الرأس » أيضاً ، وأن النار يوم القيامة تنزع من الكلابيين الجاحدين جلادات رموسهم المرة بعد المرة ، كلما نزلت أضيفت زيادة في التنكيل والتعذيب .

وقوله ( تلمو من أدير وتولي ) أى تنادى وتهتف بالذي أدير وأعرض عن الإيمان . وقال ( تلمو ) لأن نهو جهنم ، وتبرجها المعرضين من الإيمان ، وتفتح أبوابها لدخولهم - فإنه في لئلى هتاف بهم ، ودعاء لهم ، وهو مايسمونه « لسان الحال » كما أن الدعاء بالقول « لسان القال » . وهذا الضرب من التعبير كثير الشيوخ في كلام العرب وأشعارهم ، لاسيما إذا أرادوا الحكاية من شيء لا يعقل ووصف أحواله ، ومنه قوله :

شكا إلى جملى طول السرى  
يا جملى ليس إلى المشتكى  
صبوا جميلاً فكلنا ميتلى

والجمل لا يمكن أن يشكو بلسان مقالته ، وإنما يشكو بلسان حاله ، فإن آثار الآين والكلال والحفاء البادية عليه ، كأنها السنة تنطق بالشكوى إلى صاحبه .

وقال أبو النجم الرجاز المشهور يصف روضة :

« تقول للرائد أمشيت أنزل »

أى أنها لاستجماعها مايلزم للقوم المسافرين من رمزي وماء وظل إذا وصل إليها رائداهم يبتئى لهم

مكنا النزول استوقفته تلك الروضة بحيث لا يمكنه تجاوزها دون النزول فيها يقومه ، فهي كأنها تقول له : « أمشيت » أى أصبت عشياً ، « فأنزل » على الرحب والسعة .

ومثله قول الرابض الآخر :

امتلا الحوض وقال قطنى

مهلاً رويدا قد ملأت بطنى

فهذا مايسمونه لسان الحال . وله شواهد كثيرة جداً في القرآن والحديث ، وقد غفل عنه الكثيرون فحملوه على الحقيقة ، وجملوه من الخطاب بلسان القال ، ولا حجة لهم إلا أن الله تعالى قادر على كل شيء . ومن ذا الذى ينكر قدرته تعالى ، ولكننا نرى أن حمل هذه الآية ونظائرها على التمثيل كما ذكرنا من أصل اللسان في الحكاية مما لا يعقل - أمثل بل أبشع من حملها على الحقيقة ، ولا داعى عقل أو فرضي العمل عليها . على أن مفسراً لقوا (١) جعل ( تلمو ) هنا على حد قولهم « دعنا الله فلاناً بما يكبره أى أنزل به ما يكبره ، فمعنى دعوة جهنم إياهم أنها تغفل بهم الأنفيل .

قلنا أن جهنم في ذلك اليوم تهتف بإبنتها أن يسروا إليها ، ومن هم أبناؤها ؟ ( من أدير وتولي ) أى أرض من الإيمان بالله ، ويقول ما إلى به محمد عليه الصلاة والسلام من الهدى ودين الحق ، وكذلك هي تلمو إليها أيضاً من تكالب على الدنيا ، ( وجمع ) من طغاهم ( فلوغى ) ، أى خباه وكتره في الغرائز والصناديق والأودية ، يقال « أوهى الشيء » إذا غفلته ، وأوهى الزاد والتأاع إذا جعله في الوهام . وأوهى أيضاً جسع وشح ، ومنه الحديث « لا تؤمى فيوهى الله عليك (٢) »

وفى الآية وعيد شديد لمن يضل بالمال ، ويسرع على جمعه ، فلا ينفقه في سبيل الخير ، ولا يخرج حق الله فيه . وقد جعل الكتاب كاتر المال ، الشحيح به ، الذى ينمته مستحقه - بمنزلة المعرض عن الحق ، المكذب للدعوة ، الجاحد الرسالة ، كما جعلها في قرن واحد أيضاً مدقار تعالى : ( أنه كان لا يؤمن بالله العظيم ولا يحض على طعام المسكين ) . وقد مر الكلام على هذه الآية مستوفى في سورة الواقعة .

وإن الباحث المتفكر ليقتف موقف العبرة في معرفة أمة الخصلتين أشد محققاً للأهم ، وأجهزاً على حياتها ؟ أكثر باله ؟ أم بالبحر ؟ أمنى ترك بذل المال فيما يجب فيه البذل ، ويظهر من آيات الكتاب المتكررة - ولا سيما في الآيات القريبة - أن الخصلتين سواء في ذلك . أمنا الله من الهالك .

وما وصفه الله من هول السامة ، ولون السامة ، وحالة الجبال ، وتقاطع الأحماء الحشوريين في عرصات القيامة ، ثم ما يكون للمكذبين في جهنم من السداب والتكال ، بالسلاسل والأغلال ، وما يكون للمؤمنين في

(١) من ١٢٢ ج ٢ : الخسيس

(٢) أى لا يجهى وتضمي بالنقله ليجيئة الله تصديق بذلك . المسجع

إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا ۖ وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا ۝  
إِلَّا الْمُصَلِّينَ ۝ الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ دَأِئُونَ ۝  
وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ ۝ لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ ۝

الجنة من الجزاء والثواب ، بالطعام والشراب ، وصنوف  
البوس والنياب ، كل ذلك تمتعه دون زيادة أو  
نقص ، وتكل أمر حقيقته وكنهه إلى الله تعالى ، كما  
كان يفعل سلفنا الصالح في فهم ذلك ، وفي تربية  
أولادهم عليه .

روي الإمام أحمد في مسنده أن سعد بن أبي وقاص  
رضي الله عنه سمع أبنا له يدعو ويقول : « اللهم اني  
أسألك الجنة وتعيمها واستبرقها ونحو ذلك ، وأعوذ  
بك من النار وسلاسلها وأغلالها » فقال له أبوه :  
« لقد سألت الله خيرا كثيرا يا بني ، وتموّدت به من شر  
كثير ، لكنك تملّيت الحد الذي نهى الله عن تعديده في  
قوله تعالى : ( ادعوا ربكم تضرعا وخفية . أنه لا يحب  
المعتدين ) أي المتجاوزين في الدعاء . ثم علمه الأذنب  
ذلك فقال له : حسبك أن تقول : « اللهم اني أسألك  
الجنة وما قرب إليها من قول وعمل . وأعوذ بك من  
النار وما قرب إليها من قول وعمل » .

وروي أبو داود في سننه عن عبد الله بن مغفل أنه  
سمع ابنه يقول : « اللهم اني أسألك القصر الأبيض من  
يمين الجنة إذا دخلتها » ، فقال له : يا بني ، سل  
الله الجنة ، وتموّد به من النار ، فاني سمعت رسول  
الله صلى الله عليه وسلم يقول : سيكون في هذه الأمة  
قوم يشتدون في الطهور والأداء . والاعتداف في الطهور  
المبالغة في الوضوء والفسل والنظافة بما يؤدي إلى  
الوسوسة .

فإذا كان السلف وضوان الله عليهم لم يرضوا أن  
يعين الناس ويخصم ويغلو في دعائه . وليس السلف  
سوى طلب وتعم من الله . فكيف يرضون أن يضع  
الرواة في أوصاف الجنة والنار وأطوارهما وأحوال  
المنعمين والمُعذّبين فيها . يزعم الترغيب والترهيب -  
ما لا أصل له في الدين ، بل ربما مهد الطريق أمام  
تشكيك المشككين ، وزعزعة عقائد المؤمنين .

ولما ختم الآيات السابقة بوصف لظى التي يستبطئها  
المكذبون ، وذكر أنها تدعو إليها من كان منهم مريضا  
من الحق ، مكبا على جمع المال وكثرة . تطرق من ذلك  
إلى ذكر خلق فطر البشر عليه ، وكان سببا في معظم  
الشقاق الذي يصيبهم ، ثم استثنى منهم أولئك الذين  
قدروا على تطهير نفوسهم من ذلك الخلق بممارسة  
الفضائل الدينية .

أما الخلق الذي فطر عليه الإنسان فهو ما عبر عنه  
بقوله تعالى : ( إن الإنسان خلق هلوعا ) ، وإرادة الإنسان  
كل أفراد لا واحدا منه بدليل استثناء ( المصلين )  
منه ، والاستثناء معيار العموم .

أما ( الهلوع ) فقد فسره الكتاب نفسه بقوله :  
( إذا مسه الشر الفزع ) ، والمعنى أن الله خلق الإنسان  
وغرس في نفسه منذ أول نشأته هذا الخلق الذي هو  
( الهلع ) ، فهو ( إذا مسه الشر ) ، ونزل به المكروه من  
فقر أو مرض أو خوف - كان ( جزوعا ) ، فيستولي  
عليه اليأس والقنوط ، ويحسب أن منازل به غير مقلع  
منه : فالفقر لا يعقبه غنى ، والمرض لا تخلقه صحة ،  
والخوف لا ينسخه أمن . وكثيرا ما قتله يأسه هذا  
إلى ارتكاب معصية أو منكر وقتل نفسه أحيانا ، ( وإذا  
مسه الخير ) ، وبشرت له أسباب الرغد وفصاحة  
العيش ، فأصبح غنيا موسعا عليه في الرزق ، صحيح  
الجسم معافي ، موفور الجانب ، نافذ الكلمة ، إذا جاء  
ومنصب - كان إذا ذلك ( منوعا ) يمنع الناس رفته  
ومعرفته والانتفاع بجاهه . فهو من غلبة هذا الخلق  
عليه يحسب أن ما أوتيته من الخير والرزق والنعمة لم  
يؤتّه ألا لكونه مستحقا له بذاته لا بفضل الله ، فيطعن  
على الناس ، ويكفر النعمة ، فلا يشكر الله ، فيطعن  
بوضعها في مواضعها ، بل قد يستخف بها أحيانا  
فيحسب أنه مستحق لأكثر منها . وربما تدرج من  
هنا إلى إبداء خطئه والبيس عليهم ، وغضب حقوقهم .  
وهذا هو البطر ، وصاحبه هو ( المنوع ) الذي حكى  
الله عنه في هذه الآية .

خلق الله الإنسان منذ أول نشأته مفطورا على  
( الهلع ) ، لكنه تعالى لطف به ، فخلق في نفسه في جانب  
هذا الهلع مواهب سامية : كالعقل ، وغريزة التدبّر ،  
وآيات الوحي التي كان يتلقاها الأنبياء فيما لجون بها  
ضعف الإنسان ، ويلطفون من سورة هلمه ، ومن ذلك  
الصلاة التي هي عماد التدبّر ، وأكبر مظهر من مظاهر  
عاطفته . وهذا معنى قوله ( إلا المصلين ) ، استثناءهم  
من أفراد الإنسان المولدين بالهلع . فالمصلون بماؤظوا  
على صلواتهم ، وتمرضوا لنفحات ربهم وهم يتناجون  
فيها - استأدوا فرط تقية به ، ورضى بقضائهم ،  
وعرف أن كل خير وشر بتقديره ، فلا يجزعون إذا  
مسهم الشر ، ولا يمتعون إذا مسهم الخير . ومثلهم  
في ذلك الزكّون ( الذين في أموالهم حق معلوم ، للسائل  
والمحروم ) .

و ( السائل ) الفقير الذي يتكفف فيعطى ،  
و ( المحروم ) الذي يتمكف فيحرم ، أو هو الذي أصيب  
بآفة سماوية اجتاحت ماله ، فوجم لذلك وافترق ،  
وأتف أن يسأل الناس ، أو هو الذي كلما طلب الدنيا  
أدبرت عنه ، ويسمى المحروم « بالخاصة الممثلة » وهو  
والمحارف أيضا . وضد المحجود « بالجميع » وهو  
المبارك الميمون التقيية . والأسم من المحارف  
« الحرفة » بضم الحاء . ومنه قول الشاعر :

ما فيه له ولا ليت تنقصه  
وانما أدركته حرفة الأدب  
أي حرمان الأدب وشؤمه .

فالمرسور الذين يجعلون في أموالهم قدرا معينا من المال ، ويربون ذلك حقاً واجب الأداء للفقراء ، سواء أطلب الفقراء منهم ذلك أم تغفروا لهم يطلبوا ... هؤلاء المذكورون جديرون - بما مارسوا من الصلاة ، وما اتفقوا من الزكاة - ألا يعدوا من أفراد الإنسان الهالوع الذي وصفه الوحي ، وشهر به ، ومقت فعله .

قوله ( والذين يصدقون الخ ) يعني بهم الذين آمنوا بالغيب ويؤمرون بالصواب ، وصدقوا بجميع ما أتى به الوحي على لسان الرسل من أمر الثواب والعقاب ، فاصبحوا - وقد مارسوا هذا التصديق قلوبهم - حائفين أن يعاصبوا ، مشفقين أن يعذبوا ، ولا سيما أنهم يعلمون أن العذاب غير مأمون ، والعقاب غير مضمون ، فيريدون ذلك اقتبالاً على الله وعلى ممارسة الأعمال الصالحة ، كما أن لقتهم بوعده الله بالثواب تلج صدورهم ، وتشجذ عزائمهم ، وبذلك يبقون مترجحين بين الرجاء والخوف ، لأغلبة رجاء تحملهم على الكسل وتسويق العمل ، ولا شدة يأسي تسلمهم إلى الخطل ووسوسة الخبل .

إن مثل هؤلاء المصدقين المشفقين ، قلما ترددهم الدنيا ، أو يطرأهم نعيمها ، أو يجزؤون لما فاتهم من حظائها : فسواء عليهم أصحروا في الدنيا أم سقموا ، خسروا في حظوظها أم غنموا . إذ إن لديهم من الفكر في جلال بهم ، وذكر معادهم - ما يشغلهم من الجزع إذا سئم الشر ، ويربأ بهم من المنع إذا سئم الخير . فشر الدنيا وخيرها إلى فناء وانصرام ، ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام .

ثم ذكر الفريق الخامس من الواقفين الذين قلبوا أن يحفظوا نفوسهم من وصمة ( الهالك ) المقصوت ، ويحفظوا موازينها ، ويضبطوا ميولها ، فلا تستسلم للجزع والوسوسة ، ولا تسترسل في المنع والفسوسة ، وأولئك هم ( الحافظون ) ( ١ ) : فلا يرتكبون المحرم ، ولا

( ١ ) جعل المؤلف « الحافظين للفروج » فريقاً خاصاً ، وهذا يدل على أنه يحد الحافظين على الصلاة فريقتاً ، والمؤذنين للزكاة فريقتاً آخر ... وهكذا ، ويسمى هذا فريقاً . ولعل الذي سألته إليه تكرار اسم الوصوف ( الذين ) وليس يسديده إلى المراد بالصالحين المؤمنين ، كمن منهم الصلاة التي هي معاد الدين ، لم ذكر أوصافهم المختلفة التي لا تأتي بعضها من بعض في تحريش الأيمان ، بل تتأكد كلها على إصلاح المؤمن في نواحيه المختلفة ، وكل وصف منها له أثر كبير في مقاومة الهلاك - ولذا تكرر الوصوف لبيان مزيد اختصاص المؤمنين بما تضمنته الصفات من صفات ، كما تقول حينما تريد أن تصف السالماً بمدة صفات ، وتدل على مزيد ارتباطه بها - : سعيد هو الذي يقوم بشارته دينه ، والذي يكرم شيوخه ، والذي يخلص في خدمة وطنه ... وهكذا ، كذلك فريد أن هذه الصفات لا تكون إلا له : اه : الصحيح .

يتلونون بالآثم ، يعرفون غير أزواجهم ، أو مملوكات أبياتهم ، يعني إلى الرقيات . فالذين يقتصرون على ما أحله الله لهم مواتاة لتأموس القطرة الإلهية ، وتكثر ألسود الأمة بوفرة النسل والبرية - يكونون ( غير موفين ) ، بل غير مبخوسين حقهم من الأجر في هذه النية . أما الذين يتغنون من الشهوات ، والفواحش والمنكرات - ( وراء ذلك ) ، أي وراء ما أحله الله ( فاولئك هم العادون ) ، أي الذين تعدوا حدود الله ، وخالفوا التأموس الأمر بالاعتدال في مطامع النفس ، وتكاليف الحياة .

والرق كان فاسياً قبل البعثة المحمدية في العرب واليونان والرومان على أشبع صورة وانكراها . ثم جاء الإسلام فضيق دائرته ، وحصره في أسرى الحرب ، وأمر أتباعه أن يعتيروا الرقيق كواحد من أسرهم ، فقال : « أخواكم خولكم ، جعلهم الله تحت أيديكم ، فاطعموهم مما تأكلون ، والوسوم مما تلبسون » ، فكان الرقيق في الإسلام رقيقاً ظاهراً ، أخاً بائناً ، والاسترقاق على هذه الصورة وسيلة من وسائل نشر الإسلام ، ونعيم تعاليمه ، وتكثر سواد أهله ، فهو يشبه مايسومونه اليوم بلسان السياسة : التجنيس بالجنسية والالتحاق بالتابعة .

ومع هذا فإن الدين الإسلامي كان يعتبر الرق والحرب الموصلة إليه كليهما ضرورة ينبغي تجنبها ما وجدنا إلى ذلك سبيلاً . ومن لم كان ينهى من أمنى لقاء المصطفى عين التأم من الحبر ، وذلك بأن تفض مشاكل الخلاف بين الأمم من دولتها ، كما بعض على عنق الرقيق وهو أسير الحرب ، ويرغب في إعطائه حريته ويتوسل إلى متق العبد بمختلف الوسائل ، ومتعمد الوسائط : كما إذا حلف سيده وحث ، فإن من كفارات يمينه أن يعتق رقبته .

أما اليوم ، وقد اخلت أصول الحرب بين أمم العالم شكلاً جديداً ، وكان من تلك الأصول إبطال أسر الاسترقاق - فلم يكن الدين الإسلامي ليأبى ذلك لموافقته أصل الأصول عنده : أعني الرحمة والرفق بالإنسان ، والبادرة إلى متق الرقيق على أن الاسترقاق اليوم أصبح من المتصلب إبقائه حسب الشروط التي اشتراطها الإسلام ، والأحوال التي قررها الشارع ، فكان على البشر أهماله وترك العمل بشريته .

تنقسم أصول الشرائع التي يكلفها الرب في دينه ثلاثة أقسام كبرى :

( القسم الأول ) ما كان بين العبد وربيه من عقائد وعبادات محضة .

( القسم الثاني ) ما كان بين العبد وأخواته مما التزموه بينهم من العهود والمعاملات المحضة .

( القسم الثالث ) ما كان متوسطاً بين القسمين المذكورين وله شبه بهما كليهما .

وقد انطوى تحت القسم الأول أربع طوائف من

دائمون : يأتون بها في أوقاتها ، فلا تفوتهم منها فائتة .

لكن هؤلاء قد لا يحسنون أداء الصلاة ، فلا تقع بحيث تؤثر في قلوبهم الأثر النافع ، ولا تنهى عن العشاء والمنكر ، فخص من المصلين الموابطين على الصلاة في أوقاتها ، الحافظين على سننها وأدائها وشرائطها ووجوبهم قسما رابعا ، لكنه ذكره في آخر الأقسام الثمانية اهتماما بالصلاة ، وإعادة تذكير بها ، لكونها عرضة للتفريط فيها والتكاسل عنها فقال :

٤ - ( والذين هم على صلاتهم يحافظون ) ، أى يلتزمون شرائطها وأدائها ، ولا سيما الخضوع والتدبير ومراقبة الله فيها ، وإلا كانت حركات صلاة ، لأحاجة الله فيها ، ولا فائدة العبد منها .

أما القسم الثانى وهو العاملات فلذكر الوحي اللذين يرأونها ، ويؤدون ما التزموه منها من الموفقين ، وهم فريقان فقال :

٥ - ( والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون ) . فـ ( الأمانات ) هى الحقوق المتبادلة بين الناس ، و ( العهد ) يريد به جملة العقود التى تتولى بينهم ، وتكون أساسا للحقوق والأمانات . وينشطوى تحت الأمانات والعقود كل أنواع العاملات ومن جملة ( الشهادة ) لدى الحاكم ، بل أن الشهادة أكبر ضمانات لسلامة تلك الأمانات وحفظها ، فلذا وقع التساهل والتفريط فيها بكتمتها أو نسيانها ضاعت الحقوق ، وعقدت العقود ، وخزيت الأمانات (١) ونسدت العاملات . ومن ثم خص الكتاب الشهادة من بين الأمانات والعهد بالذكر ، وجعلها قسما يرأسها فقال :

٦ - ( والذين هم بشهادتهم قائمون ) ، أى مؤدون لها على وجهها بحيث تصان بها حقوق الناس ومصالحهم .

أما القسم الثالث من الأعمال الشرعية المتوسطة بين العبادات والمعاملات ، فهى الزكاة والصدقة وكل صلة مالية أخذ المرء على عاتقه مواساة أخوانه الفقراء بها ، سواء أكانت مما أوجبه الله عليه ، أم مما التزمه هو التزاما . وهذا الفريق ذكره الكتاب بقوله :

٧ - ( والذين في أموالهم حق معلوم للسائل والمحروم ) وقد مر بيانه .

ومن جملة هذا القسم أمر النكاح والاقتصاف فيه على ما حله الشرع ، ففي هذا الاقتصاف والتعفف طاعة لله ، وصيانة للأعراض ، وحفظ للأنسب ، وبهذا الاعتبار أشبهت عقود النكاح

(١) من خرى الرجل كرمى خريا إذا حان أو حلك .

وَالَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ ۚ وَالَّذِينَ هُمْ مِنْ عَذَابٍ رِيسٍ مَشْفِقُونَ ۝٦٧ إِنَّ عَذَابَ رِيسٍ غَيْرَ مُأْمَرٍ ۝٦٨ وَالَّذِينَ هُمْ لِرُؤُوسِهِمْ حَفِظُونَ ۝٦٩ إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَلَهُمْ مِنْهُم مَّوَدِعٌ ۝٧٠ قَدْ اجْتَنَى وَوَاءَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ ۝٧١ وَالَّذِينَ هُمْ لَا يُخَالِفُونَ عَنْهُمْ رِغْوَنَ ۝٧٢ وَالَّذِينَ هُمْ يَشْهَدُونَ قَائِمُونَ ۝٧٣ وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ۝٧٤ أُولَٰئِكَ فِي جَنَّاتٍ مُّكْرَمُونَ ۝٧٥ قَالِ الْيَوْمَ الْيَوْمَ عَزِيزٌ ۝٧٦ أَيْطَعُ كُلُّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ أَنْ يَدْخُلَ جَنَّةً نَّعِيمَ ۝٧٧ كَلَّا ۚ إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِّمَّا يَعْلَمُونَ ۝٧٨ فَلَا أُقْسِمُ بِرَبِّ الْمَشَارِقِ وَالْمَغْرِبِ إِنَّا لَنَقْدِرُونَ ۝٧٩ عَلَى أَنْ نُبَدِّلَ خَيْرَ مِثْلِهِمْ وَمَا

الذين وفقهم الله الى تطهير نفوسهم من خلق (الهلج) اللوم (١) وهم :

١ - ( الذين يصدقون بיום الدين ) ( أى يوم الحساب ، لكن هؤلاء قد لا يحلمهم تصديقهم على الاشفاق والخوف من العذاب ، فيترسلون في المعاصى والشورى ، فخص المشفقين من المصدقين وجعلهم فريقا ثانيا فقال :

٢ - ( والذين هم من عذاب ربهم مشفقون ) . ثم ذكر أن أعظم مظهر من مظاهر الاشفاق ، وأكبر معوان على جعل ذلك الاشفاق جالبا لرضاء الله ، وأتيا من مسخه وعذابه - هو الصلاة والاتجاه الى الله ، فخص المصلين من المشفقين ، وجعلهم فريقا ثالثا فقال :

٣ - ( إلا المصلين الذين على صلاتهم دائمون ) . ومعنى

(١) وهكذا يترسل الزلف في عد الصفات طوائف من الناس ، والصواب - بناء على ما قلنا - أن يقول هنا : وقد انظرى حصتا هذا القسم أربع من صفات الإيمان المطهرة للنفس . . . الخ .



حَنِّ يَسْبِقِينَ ﴿١١﴾ فَذَرَهُمْ يَبْغُضُوا وَيُبْغَضُوا حَتَّى يَلْقُوا  
يَوْمَهُمُ الَّذِي يَوْمَعُونَ ﴿١٢﴾ يَوْمَ يُخْرَجُونَ مِنَ الْأَجْنَاثِ  
سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصَبٍ يُوَفُّونَ ﴿١٣﴾ نَشِيعَةً ابْتَصَرَهُمْ  
تَرَهُهُمْ ذَلَّةَ ذَلِكَ الْيَوْمِ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ ﴿١٤﴾

( حَتَّى يَلْقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يَوْمَعُونَ ) ، أى حتى يصلوا  
ويبلغوا يومهم الذى أوعدهم الله بالملاب فيه ، واذ  
ذلك يعلمون أنهم كانوا على باطل ، ورأى فأبلى ، وأنهم  
أضاعوا وقتهم ، وخسروا دنياهم وآخرتهم .

( يوم ) بدل من يومهم فى آخر الآية السابقة .  
يصف من هول ذلك اليوم ، وحالة المكذبين فيه .  
( الأجناد ) القبور . و ( نصب ) وزان عتق مفرد  
جمعه أنصب . وقبل أنه جمع وأحده نصبا ككتب  
فى جمع كتاب . ومعناه على الوجهين كل ما نصب  
وأقيم لأجل أن يعبد من دون الله ، من صنم أو غيره .  
و ( يوفون ) يسرعون ويستبقون . و ( الخسوع )  
فى البصر القفض والكسر ، وفى الصوت الخفض  
والاخفات ، أما الخسوع فى البدن فهو اللل والتطامن ،  
و ( ترهقهم ) تقشاهم وتملوهم وتستولى عليهم .

والمنى أن أولئك المكذبين المستهزئين الذين امر  
الله نبيه أن يخليهم وشأنهم سيلاقون يومهم للوعد  
عما قليل ، وفى ذلك اليوم يخرجون من قبورهم  
مجيئين داعمين ، مسرعين إلى موقف العرش والحساب ،  
وان حالتهم فى إسرعهم إلى ذلك المكان كحالتهم فى  
الدنيا مذ كانوا يتفرون من مساكنتهم فى أيام أهادهم  
ومواسمهم متساقطين إلى حيث نصبوا أصنامهم  
وألهتهم ، أيهم يأتوها أولا ، فيبعدها ويتقرب إليها من  
دون الله ، وتكون إبصارهم فى ذلك اليوم مضطربة  
منكسرة إلى الأرض ، وعلى وجوههم آثار اللل  
والهانة .

وقوله : ( ذلك اليوم الذى كانوا يوعدون ) ، أى  
هذا اليوم هو اليوم الذى كانوا يوعدون به فى دار  
الدنيا فيمارون فيه ويكذبون ، قد تحقق وأراه  
بأعينهم .

وفى تشبيه حالة إسرعهم إلى موقف الحساب  
بحالة إسرعهم وسباقهم فى دنياهم إلى الهتهم  
وطواغيثهم — لهم بهم ، وتعرض بسخافة عقولهم ،  
وتسجيل عليهم بالجهل فى هذا الإسراع إلى عبادة غير  
من يستحق العبادة ، والتفاعد عن الإيمان بمحمد صلى  
الله عليه وسلم الذى يدعوهم إلى الإيمان بالله وحده .

وقرىء ( كأنهم إلى نصب يوفون ) يفتح النون  
وسكون الصاد مفردا ، وهو العلم المنسوب . والغاية  
يستيق إليها المتراحمون يوم السباق ، بقول : أن  
المكذبين يخرجون يوم القيامة مجيئين الداعي كأنهم  
يسرعون إلى راية رقت لهم ، فهم يستبدون لها  
ويستيقون إليها . وليس فى هذا المعنى من التوبيخ  
والنقريع ما فى المعنى الأول ، فيكون الأول هو الأمثل .

الشمس ومفرها . أما قراءة الجمع فياستلزام أن  
الشمس مشارق متعددة تختلف باختلاف أيام السنة  
وفصولها ، كما أن لها مغارب متعددة كذلك . أو المراد  
مشارق الكواكب ومغاربها ، وفى جعلها الشمس .  
( وب المشارق ) هو الله سبحانه وتعالى . وضمير  
( منهم ) يرجع إلى أولئك الذين كانوا يهطمون إلى  
مجلس النبي صلى الله عليه وسلم حتى إذا بلغوه  
تفرقوا حواشيهم مصائب عصاب من اليمين ومن الشمال ،  
ثم يأخذون فى التهمك به وبإبائهم المؤمنين .

وقوله : ( وما نحن بمسبوقين ) أى أنا إذا أردنا  
الانتقام من هؤلاء المكذبين ، والأخذ بنواصيهم ، فلا  
يتمكن أن يفلتوا منا فيسبقونا هربا ، ويفوتونا طلبا .  
فمعنى : ( وما نحن بمسبوقين ) هنا كمعنى قوله تعالى  
خطابا لهم فى غير ما موضع ( وما أنتم بمحجرين ) ، أى :  
ما أنتم بالقادرين على أن تفلتوا منا فتمحرون الوصول  
إليكم ، وأنزل العذاب بكم .

يقول تعالى : لا حاجة فلتقسم فالأمر واضح ، أنا  
لفى إمكاناتنا نستبدل بكم بامعشر المكذبين المستهزئين  
قوما يكونون خيرا منكم استعدادا للإيمان ، وقبلوا  
الحق ، ومسارعة إلى تصديق محمد عليه الصلاة  
والسلام . ثم لا تحسبوا أنكم قادرون على الهرب  
والإفلات ، فتسبقونا وتنجون بأنفسكم منا بحيث  
لا نفوذ قادرين على أنزال العقوبة بكم . كلا ! فكل  
ما توهمتموه باطل .

ثم انتفت إلى النبي صلى الله عليه وسلم حاضرا له  
على الثبات والصبر ، ومتومدا أولئك المكذبين على  
ما كان منهم من الجود والكفر . فقال :

( فذرهم ) أى دعهم ياصعد ( يبعوضوا ) فيما  
يعجبهم من لهو الحديث ولغو الكلام ، جعل الاستكثار  
من الحديث الباطل ، والدهاب فيه كل مذهب خوسا  
على التمثيل . ( ويلعبوا ) يأتوا من الأعمال ، ويركبوا  
ثم لا يزالون كذلك فى خوضهم ولعبهم وباطلهم وفقتلهم  
من الأمور ، ماهو لعب وهزل لا فائدة لهم فيه ولا نفع .



(٧١) سُورَةُ نوحٍ مَكِّيَّةٌ  
وَأَيَّامُهَا ٢٨ نَزَلَتْ بَعْدَ الْفَلَاحِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ أَنْ أَنْذِرْ قَوْمَكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١﴾ قَالَ يَقَوْمِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴿٢﴾ إِنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَانْقَرُوا وَأَطِيعُوا ۖ يَغْفِرَ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُؤْتِكُمْ مِنْ أَجْلِ مَسْئَةٍ إِنِ أَجَلٌ

( أن ) في قوله ( أن اتلذ ) وفي قوله ( أن اعبدوا ) معنى أن التفسيرية ، وشرطها أن يتقدمها فعل فيه معنى القول دون حروفه ، وقد تقدم ( أن ) الأولى الإرسال ؛ وإرسال الله النبي إنما هو تحميلة قولاً إليها يبلغه قومه ، ويؤيد ذلك قراءة ابن مسعود رضي الله عنه : ( إنا أرسلنا نوحاً إلى قومه اتلذ قومك ) من دون ( أن ) على تضمين ( أرسلنا ) معنى القول ، فكانه قال « قلنا اتلذ » وقد تقدم ( أن ) الثانية قوله ( تلذير ) ، وهو من الالتذ الذي معناه التحذير والتخويف بالتسول ، ويصح أن تجسّل ( أن ) في الموضوعين مصغرته لا تفسيرية ، وتكون مجرورة بـ «إلى» والتقدير أرسلنا بأن اتلذ ، أى يقولنا اتلذ ، وإلى تلذير بأن اعبدوا ، أى يقولى لكم اعبدوا .

وقوله ( مبين ) صفة التلذير من ( إبان ) اللزوم إذا انضح والكشف ، فمعنى ( تلذير مبين ) تلذير بين واضح البرهان لا ليس في صدق اتلذه ، أو من إبان التلذير أى تلذير مظهر لامره ، وكاشف عن سره ، ومعرب من نفسه أنه تلذير صادق مخلص ، وهكذا يقال في أخوالها الواردة في القرآن : ( هدو مبين ) ، ( ساحر مبين ) ، ( نصيان مبين ) ، ( خصيم مبين ) ، ( عريى مبين ) ، ( افك مبين ) ، ( غوى مبين ) .

وقوله تعالى : ( يغفر لكم من ذنوبكم ) أول ما يتبادر للنفوس أن ( من ) هنا لإفادة التبعيض أى يغفر لكم بعض ذنوبكم ، وقد حمل جمع من للفسرين الآية على هذا المعنى ، لكن يرد عليه أن نوم نوح إذا آمنوا به يغفر الله لهم جميع ذنوبهم لا بعضها ، لأن الإسلام بجسمائهم . وأجيب عن هذا بأن في التبعيض إنداء وتنبيهاً لقوم نوح إلى أن ما يغفر لهم من الذنوب

إنما هي الذنوب التي كانت وقعت منهم قبل أن آمنوا ، لما مايقع بعده فهو لاصق بهم ، وتلزمهم التوبة منه . فالذنوب التي تغفر لهم بالإيمان إنما هي بعض من جملة ذنوبهم الصادرة منهم في أيام حياتهم ، أو يقال أن الله يغفر لهم بعض ذنوبهم وهي التي تتصلق به تعالى أما ذنوبهم الأخرى المتعلقة بسقوط العباد فعليهم الاستحلال من أربابها .

وأرى أن ( من ) متعلقة يغفر على تضمينه معنى « التحليل » يقال « حلل فلان فلاناً » إذا جعله في حل مما ارتكب وأذنب ، والمعنى هنا أن الله يغفر لقوم نوح إذا أطاعوه جاعلاً لهم في حل من ذنوبهم التي كانوا ارتكبوها .

وليس هذا فقط بل أنه تعالى يدرأ عنهم عذاب الاستئصال كالطوفان ونحوه إذا هم آمنوا بتسوح ، ويؤخرهم إلى حين حلول آجالهم فيموتون الموت الطبيعية التي كتبها الله على بني آدم ، وهذا هو معنى قوله تعالى : ( ويؤخرهم إلى أجل مسمى ) و ( المسمى ) القدر والمقرر في علم الله تعالى .

و ( نوح ) عليه السلام أقدم نبي رسول ذكره الوحي ووصف وجود قومه وتكذيبهم له وما كابد منهم من العناء والإحسان حتى أقر قومه الله بالطوفان ، ولم يذكر من نبي قبله ما ذكر عنه من هذا التقبل ، وما ذكر من أبيه وإبى البشر آدم عليه السلام إنما هو شرح كيفية خلقه وعرض أمره على الملائكة وما جرى له ولزوجته في دار الجنان ، ثم هبوطهما . ولم يذكر لنا الكتاب من أطوار ذريته وأحوالهم من حيث الإيمان والجود والطاعة والمعصية سوى ماكان من منازعة إبنيه قابيل وهابيل ، ثم قتل الأول للشاني بغيًا وحسدًا . وقته له أول مثال من أمثلة الظلم وقع في البشر وقصه علينا الوحي .

وجاء في كتب الأوائل أن في زمن « أتوش » بن شيث بن آدم « ابتدأت عبادة الأوثان ، وجعل الناس يسمون المخلوقات آلهة ، فكان « أتوش » يجمع أهل بيته وذويه للصلاة والتسبيح وعبادة الله وحده . وفي زمن ادريس عليه السلام - وهو أخنوخ بن يارد ابن مهلائيل بن قينان بن أتوش - كثرت النفاق وانغمس الناس في الآثام ، فأتول الله عليه وحيا في سفر ، هو صحف ادريس المشهورة ، ولم يبق من ذلك السفر سوى بقرة يقولون أنها وجدت في الطواء بمصر لكتب المقدسة ، وهي : « وقد تنبأ اخنوخ على هؤلاء الأئمة فقال : هو ذا الرب يأتي في ربوات قدسية لينفذ القضاء عليهم ويكتب جميع المناقير على أعمال نفاقهم » .

أما في زمن سيلنا نوح - وهو ابن لامك بن متوشال بن ادريس - فقد شاع الكفر ، واشتد المصيان في البشر ، وأكثروا من الظلم والظلمة والفساد ، فكان من خيرهم مع نبيهم نوح ما قصه الله علينا في فاتحة هذه السورة وفي غيرها من مسود القرآن .

اللَّهُ إِذَا جَاءَ لَا يُؤْخِرُ لَوْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٠﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي  
دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا ﴿١١﴾ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَاؤِي إِلَّا  
فِرَارًا ﴿١٢﴾ وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَبَلُوا أَصْغِيهِمْ  
فِي أَفْئِسِهِمْ وَأَسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصْرُوا وَاسْتَكْبَرُوا  
اِسْتِكْبَارًا ﴿١٣﴾ ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جَهَارًا ﴿١٤﴾ ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنْتُ

وذكر في الأسفار القديمة أن نوحا ولد لسنة  
١٨٢ من عمر أبيه «لامك» لسنة ١٠٥٦ لحده  
الأكبر آدم عليه السلام . ومعنى نوح : الراحة  
والنورية . وكان عمر نوح ٥٠٠ سنة لما أخذ يلد  
أولاده ساما وحاما وياثا . وكان عمره ٦٠ سنة  
لما حصل الطوفان (١) . وجميع أجداد نوح ولدوا في  
زمن جدهم الأكبر «آدم» . أما هو فلم يولد في  
زمنه ، فأجداده المذكورون أمكنهم أن يعاشروا جدهم  
آدم ، ويتلقوا الأخبار الصحيحة منه من إبداع العالم  
وما عليه الله أباه . كثيرون منهم واسمها متوشالم  
و «لامك» عاشروا أبينهم «نوحا» سنين متطاولة ،  
فلقنوه ما تلقنوا هم من جدهم آدم . ولما كان نوح قد  
عاش بعد الطوفان ٣٥٠ سنة أمكن حفيده إبراهيم  
الخليل أن يعيش معه نصف قرن ونيفا ، ويتلقى عنه  
الأخبار الصادقة ، أو أن إبراهيم تلقى ذلك من جده سام  
أن لم يكن لقاءه من نوح . وبقته إبراهيم لأولاده  
اسحق ويعقوب ثم موسى بسلسلة متصلة متقاربة  
الحلقات . وبعد أن نجا نوح من الطوفان جعل يحث  
الأرض ويرفسها كروما كما كان يفعل آبآؤه . أمه .

هذا متخول ما جاء في الكتب القديمة من خبر  
نوح عليه السلام . ونحن — معشر المسلمين —  
لاصديقها ولا تكذيبها (١) بل نكل امرأ إلى العلم الحديث ،  
فهو الذي يمحسها ويميز خثها من سميتها .

ويظهر من هذه الآيات التي افتتحت بها سورة  
نوح ، ومما تضمنته من خبره ، ومحاوريته لقومه ،  
وشكايتهم إلى الله من بغيهم وسوء صنيعهم — أن  
دعوته كانت مؤسسية على ثلاثة أركان :

(الركن الأول) ترك عبادة الأصنام (ود) (سواع)  
(يفوث) و (يعوق) و (نسر) التي كان يعبدونها  
أهل ذلك الزمان من دون الله ، فكان نوح يأمرهم

(١) (هـ) قوله تعالى في سورة النكروت ١٤ : (ولقد أرسلنا نوحا  
إلى قومه فليتب عليه ألف سنة إلا خمسين عاما فأخذهم الطوفان)  
يؤيد أن الطوفان حدث بعد أن أسفى نوح بين قومه ٩٥٠ سنة  
فانقرن بخلاف في ذلك ما نقله المؤلف من الأسفار القديمة .  
(مراقبة الثالثة بالقرم )

بخلها وعبادة الله وحده ، وهذا معنى قوله : ( أن  
اعبدوا الله ) .

و (الركن الثاني) تقوى الله واجتناب المعاصي  
والذنوب والفواحش التي تفسد عليهم صحتهم  
وأخلاقهم وأديابهم ، وتفكك روابط الألفة وعرا  
النظام بينهم ، وهذا معنى قوله ( واتقوه ) .

و (الركن الثالث) اطاعة ولي الأمر فيهم ، وهو  
نوح عليه السلام نفسه ، وهذا معنى قوله (واطيعون) .  
فالدعوة السماوية التي هي أول ما أنزل على  
البشر ، وبلغ اليهم ، هي مطوية في ثلاث كلمات  
فقط : إيمان ، تقوى ، طاعة : بالإيمان ينتظم أمر  
عقائد الأمة فتسلم من الخرافات والأوهام ، وبالتقوى  
ينتظم أمر أخلاقها وأديابها فتسلم من السقوط  
والفساد ، وبالطاعة ينتظم أمر اتحاد كلمتها وصول  
شأنها فتسلم من الانحلال والضياع .

وما زالت الأمم على سلم هذه الأركان السبوية  
تعلو في الحياة الاجتماعية وتسطع ، وترقى في  
المسرة والغلبة وتهبط ، وآية ذلك التاريخ : فهو  
الشاهد المدلل ، واليه في هذه المسألة القول الفصل ،

ومحصل معنى الآيات : أن الله أرسل نوحا إلى  
قومه ، وكلفه أن يلغفهم أمره السماوي ، وأن يلغفوا  
له ، وأن لم يفعلوا فإن عذابا ليما يوشك أن ينزل  
بهم . فناء نوح قومه ويلغفهم أمر الله بأن يعبدوه  
وحده ، ويتقوه ، فيصدقوا المعاصي ، ويطيعوا رسوله  
فيما يأمرهم وينهاهم ، وأتمم أن فعلوا ذلك ففر لهم  
ذنوبهم ، وأخر عنهم العذاب الذي أوصدوا به —  
فيعيشوا أعمارهم ، ويتمتعوا بالحياة إلى آجالهم .

وكان نوحا يعهد من قومه الرب والشك في أن  
لهم أمعرا محتومة ، وأجالا معلومة بيوثون عندها  
ومن ثم أتبع قوله : ( ويؤخركم إلى أجل مسمى )  
بقوله : ( أن أجل الله ) المسمى والمقدر لكل حي من بني  
البشر (إذا جاء) وقته وحينه (لا يؤخر) منه بل ينفذ  
طبقا للمشيئة الإلهية .

ثم أظهر نوح أسفه من أن قومه غلوا في الجهل  
والمناد حتى أنكروا هذه القضية البديية : وهي أن  
لكل أجل كتابا فقال : ( لو كنتم تعلمون ) ، أي ليكنتم  
استملمتم هؤلاءكم ، وتبرتم الأمر بها فاهتديتم إلى  
ما قلت لكم . وفي هذا التعبير من التوبيخ والتعجيب  
ما فيه .

ويصح ألا يكون المراد بالأجل في قوله تعالى : ( أن أجل  
الله إذا جاء لا يؤخر ) أجل العمر المسمى المذكور  
قبله ، بل يكون المراد به أجل العذاب الهلما لهم فيما إذا لم  
يؤمنوا بنوح ، فإن هذا العذاب له أجل ووقت معين  
لا يتأخر منه ولا يتقدم ، وهو الذي يجله قوم نوح  
ويعلمون فيه . أما أجل الموت الطبيعي الذي يدور  
كأسه على كل واحد من بني آدم ، فمن المستبعد أن  
يجاهله إلى حد أن يعاروا فيه وفي أنه إذا نزل بهم  
لا يؤخر . فيكون معنى قول نوح ( لو كنتم تعلمون )  
لو كنتم تعلمون ما له من نفوذ المشيئة والحول والقدرة  
في أنزال العذاب بمنكرى وحيه ومكذبي إتياله .

ذكر في الآيات السابقة كيف كان نوح يدعو قومه الى عبادة الله وتوحيده ، ويعظم ويخوفهم باسمه وعلايه ان يصل بهم ان هم لم يؤمنوا . وحكى هنا شكايته الى ربه عنادهم ولما بهم في تكذيبهم وجودهم وقال انه كان يدعوهم ( كيلسا ونهارا ) اي مستغرقا جميع الاوقات فكان كلما زاهد دعوة وحقا على الايمان ، زادوه ( فراراً ) وهربا وتفلت منه ميئاً وخلاً فلا يصفون اليه ، ولا يجتمعون عليه .

ثم وصف نوح نقورههم ، وصور حالة اعراضهم ابلغ تصوير فقال : انهم كانوا اذا دعاهم الى الاقرار بوحديته الله والعمل بطاعته ( جعلوا اصابعهم في اذانهم ) لئلا يسمعوا قوله . وهذا شأن المكابر الماند الذي يعلم ان الحق سلوة على الوجدان ، فهو يخشى ان يتفقد منه نور الى قلبه ، فيتزعج منه نفسه ، ويتفحص له عيشه ، ولذلك تراه يجتهد في ان يعتمد من الناس الى الحق ، وما كان قوم نوح يكتفون بالقرار منه تارة ، ويسد مسامعهم تارة اخرى ، بل هم احياناً كانوا اذا راوه ( استغشوا ثيابهم ) ، اي غطوا بها ، وغشوا اوردانهم وفصلوا اكلامهم على وجوههم وروعوسهم كيلا يراهم هو فينبئهم لسم بالدعوة والنصح ، او كيلا يروه هم فينادوا برؤيته ، وسماع دعوتهم .

وسين ( استغشوا ) اما للطلب ، اي طلبوا من ثيابهم ان تقيهم وتغطيهم ، واما للجل والصبرورة ، اي جعلوا ثيابهم اقشية واقطية لهم . ثم ان نوحاً اخبر ان قومه يظنون ملائكة على وجه الدوام والتبث بحيث لم يعد يرجى منهم اوبة او توبة ، وهذا معنى قوله : ( واصروا ) . يقال « امر على الامر » اذا لزمه ولبت عليه ، واكثر ما يستعمل في الاكباب على الشرور وسبائات الاعمال .

اما ابناء القوم ، ونفرهم من نوح وسماع دعوتهم فسيب كبرهم وعزتهم ولعاضهم في نفوسهم . فهم يرون نوحاً دونهم منزلة ومقاماً ، فكيف يطيعونه ، ويخضعون له ، ويصحبون في عداد اتباعه ؟ وقد اشار نوح بتوكيد الفعل بمصدره مد قال : ( استكبروا استكباراً ) اي فرط كبرهم ، وغلوهم في عتوهم .

ومن لطيف تعريفه بحالهم قوله : ( واتى كلما دعوتهم لتغفر لهم ) . وهو صلوات الله عليه ما كان يدعوهم لاجل المغفرة ، وانما كان يدعوهم لاجل الايمان بالله ، فلذا امتوا به غفر لهم ذنوبهم . . . لكنه طوى ذكر الايمان ، وجعل دعوتهم لحض مغفرة ذنوبهم ، وفي مغفرة ذنوبهم فوزهم وسعادتهم . فكم تكون الحالة مستحكمة في نفوسهم اذا كانوا يسدون مسامعهم ، ويظنون على حيونهم ، كيلا يصلوا الى السعادة ، وهي بين ايديهم وتحت اشعة ابصارهم . قال نوح في الآية السابقة : ( رب اني دعوت قومي ليلا ونهاراً ) وقال هنا : ( ثم اني دعوتهم جهاراً ) علقاً بهم ، فافاد ان هذه الدعوة الجهرية كانت غير الاولى ، وان بينها وبينها بعداً وتفاوتاً ، فلذا تقرر ان الثانية

كانت جهاراً ، دل ذلك بالطبع على ان الاولى كانت سرية ، فهو يقول : انه في اول الامر كان يتكتم في عرض الدعوة على قومه ، فكان يدلي اليهم بالناسحة سرا ، مستغرقاً في ذلك جميع وقته ، ليلا ونهاره ، كما هو شأن الداعي الحرص على بث دعوته ، الحاذق في ادائها الصالح بطرق تبليغها : يتحين لها الفرص ، ويختار لها الاوقات فالأوقت من الرجال ، ولا يتسرع في انشائها خشية ان يكاد لها ، ويقام العوائير دونها . ومع كل ذلك لم تنجح دعوة نوح في القوم لفرط عتوهم ، وتحجر العناد في نفوسهم ، وهذا ما حمل نوح على سلوك طريق آخر في الدعوة وهو مصارحتهم بها ، وتبليغهم اياها جهاراً من دون تكتم ولا خوف ولا تقية ، وهو معنى قوله : ( ثم اني دعوتهم جهاراً ) ، اذ ربما كان فرط تكتمه في امره ، واستغفقه بدعوته ، يجعلهم يظنونها باطلاً ، والا فما الذي يعمته من الجهر بها ؟ او يظنون انه عاجز جبان من تبليغها ، فهو يكتنمها خشية انقامهم به ، وهذا مما يزيدهم نفورا وعناداً . ومن ثم قام نوح عليه السلام بصلبهم بدعوتهم صمداً ، شأن الواقف من صدقها ، العتمد على ربه في حياضته وحياضتها ، كانه يقول : هاكم دعوتي ابليكموها على دعوس الشهاد ، فان كان لكم سلطان بين علي بطلانها فهاوته ، او كنتم تريدون قتلي وصدي بالثرة فانعلوه .

اذا لم يكن لدى الداعي جرأة وشجاعة ادبية في عرض دعوته فان دعوتهم حقاً فيما كان واقفاً من صدقها ، بل مهما كانت هي نفسها . وكم دعوة حق ماتت في مهدها ، وكلمة صدق خمدت بمسد وقدها (١) - بسبب تهيب الناس القامومين له ، وما ينقصهم الشجاعة الادبية في تحمل التكرار والشكائد التي تعترض سيره . ومن لم جعل زعماء المدينة الحديثة الحرية الفكرية ركناً من اركان مدنيتهم ، وعناداً قوياً لحضارتهم . ولو قال قائل : ان مدينة القرييين ، وظهور النوايغ فيهم ، ومردجهم في السلم والفن والصناعة والاختراع ، ثم في العزة والصلوة والفنية الى الراج الذي وصلوا اليه اليوم - انما هو اثر من آثار الحرية الفكرية . . . ما كان غالياً ولا مبالفاً .

ولا صدع نوح قومه بدعوتهم هذا الصدع ، وبأداهم بالنصيحة هذه المباداة - اضطربوا وحاصوا ، وعلموا ان الامر جد ، وان تبليغهم غير عاجز ولا وكل ، وأنه على بيته من امره ، وقوة في عزيمته ، وانهم اذا تهاوتوا في شأنه ، واستخفوا بدعوتهم - ربما حلفت كلماته بنفوس بعض ابتلائهم فيؤمنون بها ويشبون عليها ، ويحيث يعظم أمرها ، ويستغل خطبها - قصاروا ينادون نوحاً عليه السلام ، ويبادلون اسكاته وصرفه عن الجهر الى المذاكرة معه في السر . فلم ياب نوح ذلك طليعاً ، وجعل يصف لهم دعوتهم ، وتبليغهم أمر الله في مجالس خاصة ، يعقدونها بينهم ، لكنه مع هذا بقي مصرّاً على الجهر بالدعوة والإعلان بها

(١) وقدها - مصدر وقتت النار اشتعلت . وكل فيه يتلا فور يند ، حتى الحان اذا تلا يسميه .

بل تطلق ( السماء ) أحيانا على الكلا الذي ينبت بهطول المطر عليه. وكل هذا تجوز وتوسع في كلمة ( السماء ) التي معناها في الأصل ما اظل الإنسان من جهة الملو . وقد جاء المعينان في قول الشاعر :

إذا نزل السماء بارض قوم  
رعيناه وإن كانوا غضايا

فقوله « نزل السماء » أي المطر ، وقوله « رعيناه » أي رعيانا السماء بمعنى الكلا والعشب الناتج من المطر . وإعادة ضمير « رعيناه » على السماء بغير معناها الأول نوع بدعي يسمى الاستخدا . و ( المراد ) الكثير الضرر ، الغزير الانسكاب . و ( الامداد ) الامانة بالشئ ، والتمتع به على وجه الافادة والارتفاع . و ( الجنات ) البساتين ذات الأشجار المظلة ، المثمرة . المظلة .

وفهم مما قاله نوح لقومه ان قومه كانوا مجذبيين معطلين محارفين مشغومين ، وان فساد أمرهم ، وسوء اخلاقهم ، وفلبة الذنوب عليهم ، واخلاصهم الى البطالة والكسل ، وجهلهم بشئون الزمانة والصناعة وأفانين العمل - كل ذلك أدى الى حرمانهم مما كان في طاقتهم ان يحصلوا عليه لو آمنوا واطاعوا ، واتباعوا الشرائع التي أناهم بها بينهم نوح من عند الله ، والتي يصلح بها شأنهم ، وينتظم أمرهم ، ولكثر ذريتهم ، ويستبصر عمرانهم .

فبالإيمان بالله ، وبالعامل بشراهم ، وبطاعة نبيه يتدبرون على العمل ، وإنشاء البساتين ، وغرس الأشجار ، وحفر الترع والأنهار . . . . . وبذلك تفرز محاصيلهم ، وكثير أرباحهم ، وتوفر مكاسبهم . ويفدودق الرزق والمال بينهم . ويترك المعاصي والفواحش والفجور - ينتظم أمر البيوت ، وتتوثق روابط اللفة والمحبة بين أفراد الأسرة ، ولا سيما بين الزوجين ، فيطيب اذ ذلك العيش ، وتتوفر دواهي الهناء ، ويبارك الرب سبحانه في الحرية والبنين .

كانت هذه الأمة التي هي من اقدم اسم التنارخ محرومة من كل هذه البركات ، لكنها كانت شديدة التشوق اليها ، والحرس عليها - فجاءها نبيها نوح يرشدنها ويعلمها ، ويبلغها من خالقها ما به صلاحها ونجاح طلبتها ، ويؤكد لها انها ان اطاعته انتفعت باذن خالقها الى طور في الاجتماع اكمل ، ودخلت في دور من ادوار الحياة افضل وأمثل .

بعد ان اطمع نوح قومه في الآيات السابقة بالحصول على بركات السماء وخرائ الأرض ان هم آمنوا بالله الذي بيده مفاتيح هذه الخرائن ، ومنه وحده تستمد تلك البركات - ماد فهو نفوسهم وعطفها نحو الإيمان بأسلوب آخر من اساليب البيان ، فقال : ( **ما لكم لا ترجون لله وقارا ، وقد خلقكم أطوارا ؟** ) .

والعمدة في هذا الأسلوب استعمال العقل ، والاستدلال على وحدانية الله تعالى من طريق النظر والتفكير في خلق انفسهم ، ثم في خلق هذه الكائنات

لهم وأسروا لهم أسرا ( ١ ) قللت استغفروا ربكم إنهم كان غفارا ( ٢ ) يرسل السماء عليكم مدرارا ( ٣ ) ويغديكم بأموال ويبنين وتجعل لكم جنات وتجعل لكم أنهارا ( ٤ ) ما لكم لا ترجون لله وقارا ( ٥ ) وقد خلقكم أطوارا ( ٦ ) أذروا كيف خلق الله سبع سموات طباقا ( ٧ ) وجعل القمر فيهن نورا وجعل

في المجامع ، وحيث يكون الدهماء والجمهور . وهذا هو الطور الثالث من أطوار نوح في دعوة قومه ، وتبليغه رسالة ربهم اليهم . وقد أشار الى ذلك بقوله ( : ثم اني اعلمت لهم وأسروا لهم أسرا ) .

والعطف يتم يشتمل بان الاعلان والاسرار الاخيرين كانت طريقة فائقة سلكها نوح في الدعوة ، غير طريقة السر المحفة ، وغير طريقة الجهر المحفة . فكان في الطريقة الثالثة يعلن لهم الدعوة صراحة حيث يصلح الاعلان ، ويسرها لهم أخرى حيث يتوقع نفع الاسرار .

ثم بين ما عظمهم به سرا وعلانية فقال : ( **قللت استغفروا ربكم أنه كان غفارا ( ١ ) ، اناهم من طريق القلب ، وتحريك العواطف ، والتذكير بان ما هم فيه من انحباس الأمطار ، وما حرموه من الرزق والحرية وجلب الأرض وقحوها - انما سببه كفرهم بالله الذي بيده وحده ارسال المطر ، ولفداق الرزق ، والامداد بالأموال والبنين ، وأنه لا ينبغي لهم أن يكفروا بهذا الإله الذي يقدر ان يمنحهم أمثال هذه النعم ، ويعيدوا آلهة أخرى ، اخترعوها ، لانصر ولا تنفع .** فقوله : ( استغفروا ربكم ) ، أي آمنوا به ، واطلبوا منه ان يصنع حما فطر منكم . فالامر بالاستغفار يقتضي اسرا بالآيات ، لانه لا معنى لان يطلب الجاحد من آله غفران معاصيه وهو مقيم على كفره ، وتكذيب نبيه . وقد يقال في معنى ( استغفروا ربكم ) اطلبوا منه تعالى ان يغفر لكم الذنب الأكبر وهو الشرك به وعيادته غيره . وليس معنى هذا سوى الإيمان بالله وترك الشرك . وبلازم هذا المعنى قوله بعده : ( انه كان غفارا ) ، أي ان ربكم من صفاته الرحمة فهو يرحمكم ، ويغفر لكم ما مضى من شرككم به وعيادته الآلهة غيره ، وانكم ان تؤمنوا به وتستغفروا ( يرسل السماء عليكم مدرارا ) ، و ( يرسل ) مجزوم جوابا لاستغفروا .

و ( السماء ) في قوله ( يرسل السماء عليكم ) المطر . وهذا الاستعمال معهود متداول لدى أهل اللسان ،

الملوية والسفلية ، كما كان العدة في أسلوب الآيات الماضية ، هز القلب وتحريك عواطفه نحو شكر المنعم الذي في الشكر له والإيمان به استزادة من تلك النعم ، وتعجيل في الوصول إليها .

و (الوجه) الأمل . وقد طفط عليه قول كعب :  
« أرجو وأمل أن تدنو مودتها » . وقد نغمه العرب في موضع الخوف إذا صاحبه جده كما قال أبو ذؤيب :  
« إذا لسمته النحل لم يرج لسمها » . يصف مشاعر العسل : يقول أنه لا يخاف لسع النحل إذا هي لسمته لاعتياده ذلك منها .

والرجاء في لغة هذيل وخزاعة ومضر المبالاة يقولون لم أوج يمتنون لم أبل .

و (الوفاة) في الإنسان الرزاة والحلم . يقال : « وقر للأن » إذا برز . أما الوافر في جانب الله فيسمى العظمة . والتوقير التعظيم . يقول نوح قومه : ما لكم أيها التوم لا تخافون الله عظيمة ، أو لا تباينون عظيمة الله فتؤمنوا به ، ولا تبهون له جانباً فتدعوا عبادة غيره ، وأنتم إذا نظرت في أنفسكم وفي الآفاق رايتهم من غريب صنعهم ، وعجيب ابتدعهم ، ما يستدعي منكم تلك الخافة والرهبة .

والمراد (بالأطوار) ما عليه البشر في انفرادهم وجماعاتهم من حالات الصلاح والفساد ، والسعادة والشقاوة ، والخير والشر ، والفضيلة والذيلة : تصنيف الناس إلى هذه الأنصاف ، وتخصيص كل فريق منهم بحالة دون حالة ، و«شان دون شان» دليل على وجود الله حكيم ملهم مرشد يرضى من شاء بما يشاء .

والذي عليه الأكثر أن المراد (بالأطوار) حالات التخليق فيه المستقرة ، التي يتدرج فيها الإنسان من حالة إلى حالة ، وينتقل من طور إلى طور : طورا نطفة ، وطورا علقة ، وطورا مضغة ، ثم عظاما قسيما ، قد كسى لحما طريا ، ثم بشرا سويا ، وروحاً عبقرية . فسبحك الله أحسن المخلقين .

ليه نوح قومه إلى النظر في أنفسهم أولا ، لأنها أقرب إليهم ، والاستدلال بها بأسر عليهم ، ثم أمثال أمتائهم إلى الآفاق ، قائلا : « ألم تروا كيف خلق الله سبع سموات طباقا » ، كانه في هذا الاستفهام يعجبهم من أمرهم في تأخر صدور الإيمان منهم ، مع أنهم سبق لهم أن رأوا السموات ، ووقفوا على شوق من عجيب صنعها ، وتسوية طباقها ، أو أنه نزلهم منزلة المعيان للذين لم يروا لفظة الجبل والجهول عليهم .

ولهم من (السموات) ما كان يفهم منها المخاطبون الذين نزل القرآن بلسانتهم (١) ، وهو ما ارتفع فوقهم من الفضاء الأزرق الذي تسبح فيه الكواكب والنجوم في طرائقها وملازماتها ، هذه الكواكب والنجوم المشاهد بعضها بالعين المجردة وبعضها بواسطة الرصد

(١) قال ابن سيده في التخصيص « جزء ١٦ صفحة ١٨١ » ما نصه : « وأسماء والسعادة صنف النجوم » وقد مر مثله .

وأدوات المراتبة - لم تكن كلها في ربيع واحد من الفضاء ، بل عرف منذ عهد نوح عليه السلام أنها متفاوتة في العلو والارتفاع : بعضها أعلى من بعض ، كما أن بعضها أكبر جرما من بعض . وبهذا الاعتبار كان الفضاء الذي تسبح فيه تلك الأجرام الهائلة طبقات طبقة فوق طبقة . فالذي يرى السموات يشهد بعينه وعقله أنها ذات طبقات متعددة . وقد عرفت الأم من ذلك العهد أن تلك الطبقات سبع ، وأن في كل طبقة كوكبا مترا يدور فيها ، فأصبحت مدادا له ، وفلكا يتجلى فيه نوره . وقد عرف نوح من قومه يومئذ أنهم بلغوا من العلم إلى معرفة تلك الكواكب السبعة ، كما عرفوا منازلها وطبقاتها ، وطرائقها وملازماتها .

والرؤية المستفهم عنها في قوله ( ألم تروا ) إنما هي الرؤية العلمية التي تكون بالاستدلال والانتساب ، وأعمال القياس والحساب ، وليست هي الرؤية البصرية التي تكون بمجرد العين ، فإن العين وحدها لا يمكن أن ترى سموات سبعة ، واحدة فوق أخرى ، وأنما ترى جللا واحدا فيه نجوم متعقدة .

ومحصل القول أن البشر في زمن نوح - وهو الزمن الذي عاش فيه الكلدانيون المشهورون بعلم الهيئة ورصد الكواكب وعبدادة النجوم ، ويسمون الصائفة أيضا - كانوا يوصلوا إلى معرفة الكواكب السبعة السائرة ، وقد فسقوا الفضاء باعتيادها إلى طبقات سبع ، وبقيت هذه المعرفة متوارثة إلى الأمم جيلا بعد جيل حتى زمن العرب الذين نزل القرآن بلسانهم ، ولا يلزم منه أن تكون الكواكب أن يخاطبوا به ليعلم بينهم ، وهو أن السنوات سبع ، وأن طباقها طبقة فوق طبقة . . إلى هذا القدر بلغ علم الأمم في الزمن القديم ، ولا يلزم منه أن تكون الكواكب والأجرام السائرة الكبرى في الواقع ونفس الأمر سبعة فقط ، ولا أن يكون الفضاء كذلك سبع طبقات فقط ، بل أن الله مثله من علم السماء وهند أجزائها وتأليف طباقها ما لم يصل إليه علم البشر ، اللهم إلا ما علموه في العهد القديم من أمر السموات السبع كما وصفنا ، والا ما علموه في العصر الحديث من وجود بعض الكواكب السائرة القديمة ، وبعض الطبقات والمداير الأخرى . ولا مانع أن يطلع الله البشر في المستقبل على غير ذلك من الأجرام والطبقات . ولكن خطاب الله للأمم ووجهه إليها إنما يكون بما تدركه عقولها ، وتلمسه حواسها ، ويبلغ إليه تصورهما في عهد أنوال الوحى ، ويكفى في الدلالة على المطلوب .

وقوله تعالى : ( وجعل القمر فيهن نورا ) فيهن أى في السموات السبع ، ولا يفرض أن يكون القمر في الواقع ونفس الأمر في أدنى تلك السموات وأقرب طبقاتها الواقع لافيهما كلها ، لأنه أسلوب عرف التخاطب به بين أهل اللسان ، فهم يقولون : نحن غلاتنا يسكن المدينة الفلانية ، يريدون أنه ساكن في حق من أحيائها وجهة من جهاتها لا في كل حق وجهة منها . وكذلك هنا ما قال : أن القمر في السموات أى في مجموعها ، الصادق باستقراره

الشمس سراجاً ﴿١٦﴾ وَاللَّهُ أَنْتَبَهُمْ مِنَ الْأَرْضِ

نَاتِئاً ﴿١٧﴾ ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجاً ﴿١٨﴾ وَاللَّهُ

جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ بِسَاطًا ﴿١٩﴾ تَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلًا

فِجَالاً ﴿٢٠﴾ قَالَ نُوحٌ رَبِّ إِنِّمْ عَصَوْتُ وَأَتَّبِعُوا مَن

لَمْ يَزِدْهُ مَالَهُ وَوَلَدَهُ إِلَّا خَسَارًا ﴿٢١﴾ وَمَكُرُوا مَكْرًا

في واحدة منها ، ومثله قوله تعالى : ( شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن ) مع أنه إنما أنزل في ليلة واحدة من ليالي رمضان ، وهي ليلة القدر ، لا في رمضان كله . ومن مواضع العجب أن الكتاب لم يقل من الشمس أنها جعلت فيهن ، أي في السموات ، كما قال عن القمر أنه جعل فيهن . وقدر فآخرها أن الشمس هي مركز النظام الشمسي ، وأن الميادات السابحة في سمواتها ومداراتها تتعطف بالشمس ، وتدور حولها من كل جانب ، فلم تعد الشمس بهذا الاعتبار معدودة في الميادات السابحة في السموات ، المرتبة طبقات طبقات . أما القمر فمعدود فيها ، وله مركز وموقع من تلك السموات .

و ( السراج ) آلة الاستصباح المعروفة ، وتسمى الشمس نفسها سراجاً لأنها سراج النهار يستصبح بها الناس فيه كما يستصبحون بالسراج والمصباح في ليهم ، ولم يسم القمر بهذا الاسم ( أي باسم سراج ) لأن الاتفاق بتورده في الليل أقل بكثير من الاتفاق بتور الشمس في النهار ، وإنما هو نور يستضاء به في الجملة ، كما يعلم به عدد السنين والصباب . وكما أن التعبير عن الشمس بالسراج أفاد أن نورها أشد وأتم وأكمل في الانعقاد من نور القمر كذلك قوله تعالى في الآية الأخرى : ( هو الذي جعل الشمس ضياء والقمر نورا ) - أفاد ذلك أيضاً ، وذلك لأن الضياء أقوى من النور في الأعم الأغلب من إطلاق الكلفين . وهذا قد يؤيد ما تقرر في علم الفلك من أن نور الشمس ذاتي فيها ونور القمر عرضي مكتسب من نورها .

ثم رجع نوح فأمال أمتاق قومه من السماء إلى الأرض ، وحضهم على التفكير في صحاب ما فيها من الشئون والأطوار . فمن ذلك خلق المخاطبين أنفسهم ، وكيف سلوا من تراب الأرض كما سسل النبات . والأصل في معنى النبات إخراج الله النبات من الأرض . أما بنو آدم فيخرجهم خالقهم من بطون أمهاتهم أطفالاً ، لم ينشئهم بما يتقدم من الحورم والنباتات أنشاء يلقون به أضلعهم . لكن لما كان إخراجهم وأنشأهم بشراً سوياً إنما يتم بتناول آبائهم وأمهاتهم ثم بتناولهم هم بعد الولادة - عناصر الغذاء الحيوانية والنباتية المستعملة من الأرض . كانوا من هذا الجهة مشابهيين

النباتات التي تنمو بامتصاص غذائها من الأرض مباشرة ، فلما سعى خالقهم وأنشأهم أنبأ . وهذا يشير إلى وحدة عالمي الحيوان والنبات وأشتراكهما في كثير من النواحي التي تتعلق بالحياة العامة ، كالانطلاق والتوالد والابتداء والنمو والتنفس ، وتطورات أخرى من هذا القبيل . ومن ثم قال بعض الحكماء : أن الإنسان شجر أقتلع يجلده من الأرض فمشى ودلف ، وأن الشجر أنسان غاص بقلمه في الأرض فثبت مكانه ووقف .

فيعني قوله ( والله أنبتكم من الأرض نباتاً ) انكم (١) وإن كنتم يشرا في حقيقتكم فأنتم نبات باعتبار الكلكم في حياتكم الحيوانية على عناصر الأرض كالكال النبات في حياته النباتية عليها . فالله الذي أنبتكم هذا النبات ، ويسر لكم من عناصر الأرض الأزراق والأقوات ، ثم خصكم بفضله وكرما بالحياة الحيوانية ، ثم زادكم كمالاً بإفاضة الحياة الإنسانية ، ثم أكرمكم بمواهب النفس والفعل وسائر الحواس الظاهرة والباطنة . . . الإله الذي هذا مبلغ عنايته بكم ، وذلك قدر انصافه إليكم - يجدر بكم أن تعبدوه وحده ، وترهبوا وعبده ووعده (٢) .

و ( نباتاً ) مصدر ( نبت ) الثلاثي ، لكنه القيم مقام مصدر ( أنبت ) الرباعي ، وجاء تأكيد له ، فقبل أنبتكم نباتاً مكان أنبتكم أنبأ . وقال بعض المدققين هو مصدر الثلاثي ، وجعله من نوع الاحتياك البدئي ، وقال أن أصل الكلام هكذا « والله أنبتكم من الأرض أنبأً فأنتم نباتاً » فهما فعلان لكل مصدر . لكنه حذف المصدر الأول لدلالة فعله عليه ، وحذف الفعل الثاني لدلالة مصدره عليه ، وبذلك جاء الكلام موجزاً في معناه ، وموزناً وإيقافاً معناه .

أما وقد ذكر نوح لقومه عجب صنع الله في إخراجهم من الأرض إخراج النبات ، فقد تمهد له السبيل إلى تلذذهم بامر البعث الذي كان القوم ينكرون فقال :

( ثم يعيدكم فيها ) ، أي مقبورين في الأرض بالمات ، كما أخرجكم منها منشئين بالإنبات (ويخرجكم إخراجاً) أي من الأرض ثانية بالبعث بعد البعث الطويل فيها . وأصل النزاع مع المخاطبين في قضية الإيمان بالله التي لا يسلمون بها ، لكن نوحاً لما استدل على وجوب الإيمان بما كان من غريب صنع الله في إيجادهم مستلاً لهم من الأرض استلال النبات - ناسب أن يستدل لهم بهذا الدليل مينة على قضية البعث وأحيائهم الحياة الثانية - فقال لهم : أنه تعالى كما أنبتكم من تراب الأرض يعيدكم بالوالت إلى تربائهم ، وسيخرجكم

(١) لم أجد أكلف لدى من تصحح أمثاله هذا الترتيب ( أنه وإن كان كذا فهو كذا ) بعد أن سمعت الجاحظ في الحيوان ( من ١٤ ص ٤٦ ج ١ ) يقول ( لأنه وإن كان كتاباً واحداً فإنه كتب كثيرة ) . على أن النحوي الغل لا يصعب عليه توجيهه وطريقته - على الترامد .

(٢) ( وجهه ) منصوب بمل محلول على حد ( ملغتها بينا ومله بلداً ) ، أي وإلما وعله .

بعد منها احياء للعرض والصلاب، والثواب والعقاب، وإذا تأملتم في انباتكم واخراجكم من الأرض المرة الأولى، سهل عليكم تعقل اخراجكم من الأرض بعد الملت وانباتكم منها بحسب التلوس الذي يضعه الله اذا شاء لهذا الانبات الثاني .

اشرنا اتفا الى ان الانسان اذا كان يشترك مع النبات في بعض الخصائص والأحوال، قاله يفرقه بالواهب السامية التي مازاه بها . ومن تلك الواهب حررته في الانتقال والمشي على سطح الأرض من جهة الى جهة، ومن رجا الى رجا، ولم يخلق سادكا (١) يمكنه كالنبات لايرحه الى أن يموت . وتشبيهه بالنبات هو الذي وصل السبيل بين يدى ذكر النعمة الجلى : وهي جعل الله الأرض بساطا للبشر يتقلون عليها كيفما شاؤوا، ماداموا خلقوا على غير خلقه النبات، فهم يضيرون فيها ذات اليمين وذات الشمال للسباحة والنزعة وطلب العلم وكسب المال .

و (البساط) ضرب من الطنافس معروف، سمي بساطا لكونه يسط ويغرض على الأرض فيجلس عليه الجالس كما يطبق له . وهكذا الأرض : بساطا لله للبشر، ومهدا تحت مواطئ اقدامهم، لأجل ان يسلكوا منها سبلا فجاجا توصلهم الى اغراضهم وقضاء مصالحهم .

و (السبل) جمع سبيل، وهو الطريق، و(الفجاج) جمع فج، وهو الطريق الواسع . والفتح في أصل معناه ان جباة الناقة بين رحليها للطلب، ويساعد الرجل بين رحليه عند اتراد المشى أو لأمر آخر . فالطريق الفج كانه لاسراع ما بين جانبيه قد تلاج كما تتفاج الناقة عندما تلعب، وبهذا الاعتبار صح أن تكون الفجاج صفة للسبل، كانه قبل سبلا متصلة متبادلة الأطراف، وجعل في كلامهم : « قطعوا اليك سبلا لنجاة حتى أولك حجاجا » . وأكثر ما يستعمل الفج في الطريق الواسع بين جبلين، لظهور التفاج والتباد بين سفحيهما، لكنه يستعمل أحيانا في مطلق الطريق الواسع كما ذكرنا، وعليه ظاهر الآية (٢) .

وصف نوح في الآيات السابقة كيف كان يدعو قومه الى الايمان بالله، وبأى الأساليب كان يحلهم وينلهم ويحتج عليهم، وكيف كانت احوالهم ازاء دعوته من الاصرار وسد الأذان واستفشاء التياب، مفرقا كلامه في قالب عرض الأمر والشكر الى الله الذي ارسله بهذه الرسالة اليهم . وقد انتقل في هذه الآيات الى ذكر نتيجة الدعوة وإتاه لم تنجح في القوم، وبينان السبب في عدم نجاحها، موددا ذلك كله أيضا في ضمن الشكر الى الله العالم بما كان منه وميثم، وجميع اسبابه وعلة ومصايره . لكن المخاطبين وهم قريش

(١) سلك به كتحرك : لزمه ولم يفرقه، ومنه قول الحريري : « سلكك يمتكني، وجعلت شمسك ليد يمتلي » .

(٢) في المخصص (جزء ١٠ - صفحة ١٢٦) : الفج والجمع الفجاج ربما كان طريقا بين رحلي مبرلين، وربما كان طريقا مريضا، وربما كان فجا، وإذا لم يكن طريقا كان أرضا كثيرة المشب والكلأ . وحرف الجبل لعله اللحد .

كانوا ليعلمون، قالهم من خبر هؤلاء القوم وما حل بهم من العقوبة الالهية أكبر واعظ لو كانوا يعلمون .

يقول نوح ان قومه عصوه وانصرفوا عن سماع دعوته الى سماع كلام رؤسائهم فابعوهم واطاعوهم، وعمل من ذكر هؤلاء الرؤساء التبعين بآسائهم الى الكتابة منهم باسم الموصول وهو (من) ليتوصل بصلته الى بيان سبب مقاومة الرؤساء له، وتمكنهم من استتباع القوم واضلالهم . ذلك ان أولئك القوم كانوا على جانب عظم من المال والولد، فلمس من سعة مالهم، وعصبيتهم قوة يقاومون بها نوحا . وهم يعلمون ان ايمانهم به يجعلهم تابعين له فيأمرهم وينهاهم بما يريد في أموالهم وأولادهم . فلايمان بنوح في زعمهم مضية للمال، محقة للصعوبة، ومسد يرجعون خولا وإتباعا في قومهم بعد ان كانوا سادة متبعين . وشأنهم في هذا شأن عظماة كل أمة داعي الحق الى طغيته، والعمل بنصيحته . هذا هو الخسر الذي قال نوح عليه السلام انه أصعب عظمة قومه . ومشؤء مالهم وولدهم، وهم بالمال والولد تمكنوا من صرف قوم نوح عن استماع دعوته، والإيمان بما جاء به . كانوا يتهددون أولئك الضعفاء بمصيبتهم، وأبناء عشيرتهم، وكانوا يبدون من المال والثراء مايساند لهم على فرضهم، بل ربما كانوا ينفقون من أموالهم في شراء ذمم أولئك المساكين، وامتلاك قلوبهم، فيرشوهم، ويدلون اليهم بالصلوات والهدايا، ويقومون لهم الولائم والمآدب . فانظر قومه توسلوا بما أوتوا من المال والولاء الى اغلال قوهم والتلمب بمقولهم . لا جرم أنهم ازدادوا بذلك خسارا على خسار، وأحوا قومهم وانقسم دار البوار .

هذه الطريقة التي احتسلاها أولئك الرؤساء في مقاومة نوح واضلال قومهم - كانت مكرا وخدعا : مكرا بنوح من جهة أنهم ماكانوا يظلمونه على كل مايعملون في السر لمقاومة دعوته، وأحاط سمعه، ومكرا بقومهم من جهة أنهم كانوا يخفون منهم الحقيقة، ويعولون بينهم وبين الأيمان بنوح والتصديق بما أتاهم به من الوحي، مظهرين لهم أن الخير كله فيما يشيرون به عليهم، من ترك عبادة الله والبقاء على عبادة الأصنام التي هي دين آبائهم . وهذا معنى قول نوح ليه السلام : ( ومكروا مكرا كبيرا )، وأى مكرا أكبر مما فعلوا . وهو مغرور على سلة من، أي اليهم من لم يزد . . . . . واليهم من مكروا . . . . . و (كبارا) بمعنى كبير قدرت بتشديد الباء وتخفيفها . وكلمسا زادت حروف الكلمت زادا معناها عظما أو شدة، فيقال : مكرا كبير وكبرا وكبرا، كما يقال : رجل طويل وطوال وطوال، وأمر عجيب وعجيب، وصعاب .

ومن طرق الكفر التي كان يسلكها أولئك الرؤساء في اضلال القوم حضمهم لهم على التيبات في عبادة معبوداتهم، فكانوا يقولون لهم بعبئة المتنص المخلص : ( لا تفلن أهلكم ولا تفلن ودا ولا سواها ولا يقصوت ويعوق ونسرا ) .

كِبَارًا ﴿١٠﴾ وَقَالُوا لَا تَدْرُونَ الْهِتَكَ وَلَا تَدْرُونَ وَدَا وَلَا  
سَوَاءً وَلَا يَفُوتُ وَيَقُوتُ وَنَسْرًا ﴿١١﴾ وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيرًا  
وَلَا تَرِدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا صِلَافًا ﴿١٢﴾ تَمَّا حُطِّعْتِهِمْ  
أَغْرَقُوا فَأَدَاخُلُوا نَارًا فَلَمْ يَجِدُوا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ

( لا تدرن ) لا تدعن ولا تتركن . وكانت للقوم آلهة كثيرة لا تحصى ، أكبرها شاما ، وأعلاها منزلة — هذه الخمسة : ود وسواع وإخوانهما . فكان الرؤساء يعمون في النهي من ترك الآلهة ، ثم يخصصون منها هذه الخمسة بالذکر ، وهذا من شدة كسبرهم ، وفرفط تمتعتهم في مكرهم . والخمسة المذكورة أسماء آلهة وأسماء أسلاف صالحين للقوم كانوا يعبدونهم من دون الله . ولعبادة الأوثان في الأمم القديمة طريقتان : ( الطريقة الأولى ) مذهب الصابئة ، وأساس هذا المذهب الاعتقاد بأن في الأجرام السماوية أرواحا متمثلة بعمالها الذين يواصل اتصال غداية وتديب ، وتبدل وتغير . ولما كانت الأجرام السماوية مختلفة في أحوالها وأشكالها متباينة في أطوارها وأقارنها ، وهي غالبة عنهم ، بعيدة عن مواقع أنظارهم ، وهم في كل وقت في حاجة إلى التبريد بها ، واستمداد المعونة من روحانياتها — وأوا أن يصطنعوا لكل منها جبا يشله ويدينه من متناول الفكر والتصور ... فأنفذوا الأصنام ، ونحتوا الأوثان ، وعبدوها من دون الله . ويقال أن هذا الدين — دين الصابئة — هو أقدم الأديان البشرية الباطلة على الإطلاق . وبقي حتى زمن إبراهيم الخليل عليه السلام ، نفقضي عليه شر قضاه ، وعلم بدين أبياته : آدم وادريس ونوح ، وهو عبادة الله وحده . ثم انتقل دين التوحيد من نوح إلى أولاده ، ورواسطنهم انتشريين الأمم ، من عرب وعجم . ولعل ودًا وسواعًا وبقيّة الخمسة التي عبدوها قوم نوح كانت أصناما منحوتة على اسم بعض الكواكب ، فإن منها ( نسر ) وهو اسم لكوكبين سماويين : يقال لأحدهما « النسر الواقع » والآخر « النسر الطائر » . وللأشوريين خلفاء قوم نوح اله يسمنونه « نسروخ » أي النسر العظيم ، وكان له هيكل في ماصمتهم « نينوى » ، وألك ترى في آثارهم اليوم صورة أنسان برأس نسر وجناحيه ، فله رمز إلى ذلك الإله .

( والطريقة الثانية ) لعبادة الأوثان هي قيام افراد من البشر ينسبون في نبوة أو كهانة أو حكمة أو بطولة أو خلق من الأخلاق العالية بصورة غير معهودة في الناس الآخرين ، فيفتتن بهم أقوامهم ، ويرون أن هذا التفوق والنبوغ لم يكن إلا لحلول روح الهى فيهم ، فيعبدونهم في حياتهم ، وفي الأعم الأغلب يد ماتهم ،

ثم يتخلون على مثالهم صوراً أو أصناماً أو موائل أخرى يذكرونهم بها ، ويتقربون بالندسور والبشور والصلوات وضروب العبادات إليها على نحو مايفعل الصابئة في عبادة الكواكب . وقد ضربت عبادة التوائب بجرانها في جنبات الأرض ، فلم يعد يقوى إلا بمعونة العلم ، وانفكك العقل من قيود الزهم . ولعل وثنية قوم نوح وعبادتهم لود وسواع كانت من هذا القبيل . وقديقى لعبادة هذه الأصنام أثر في جزيرة العرب أو في بلاد اليمن خاصة حتى زمن البعثة المحمدية ، فكان ( ود ) لبني كلب بدومة الجندل ، وهو على صورة رجل . و ( وسواع ) لهمدان أو هذيل ، وكان على صورة امرأة . و ( يفيوث ) للمحج أو غطيف من مراد في سبأ ، وكان على صورة امرأة . و ( يعوق ) لمراء أو لهمدان ، وهو على صورة فرس . و ( نسر ) لحجر أو لذي كلاع من حمير ، وهو على صورة نسر . وكان العرب يسمون أولادهم بعيد ود ، وبعد يفيوث .

ومن تأمل ماقلناه في مناشيء ظهور الوثنية في البشر فهم السر في كون الذين الإسلامى يحرم إقامة الصور ونصب التماثيل وتشديد القبور وتخصيصها على رمم العظماء . وفي حديث على رضي الله عنه : « أرسلنى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال لى : « لا تدع صنما إلا طمسته ، ولا قبرا إلا سويته » ا هـ ، فإن الوثنيين كانوا يتخلون من موائل القبور والأصنام بذكرى لرجائهم الصالحين ، وليستذكركم لهم ذكرى عظة واعتبار ، وأما هي ذكرى استمداد أسرار ، واقتباس أنوار ، واستغراق واستحضار ، واستزراق واستطراق ، والتعاسر منافع واستكناه أضرار . فسد دين الإسلام الدربة بتعريم هذه الموائل خسية أن تسترهب ضعفاء العقول وتستهرجهم ، ومن مزاق الوثنية تعريمهم وتدينهم . فله الإسلام ما أعدله فيما شرع وحكم ! وما أوضح نهجه فيما خط لنا من الهداية ورسم !!

وقوله : ( وقد أضلوا كثيرا ) من تمة كلام نوح عليه السلام وشكواه إلى ربه ما لاقى من أوثك الرؤساء الذين مكروا بقومهم ، ولزيتوا لهم عبادة الأوثان . فهو يقول : أن هؤلاء الرؤساء كانوا من قبل ( قد أضلوا ) خلقا ( كثيرا ) غير هؤلاء القوم المساكين الذين أمدوهم إلى الإيمان اليوم ، أو أنه يريد أن أوثك الرؤساء بما توفر لديهم من قوة المال والولد والمكر والتسويل — أضلوا وما زالوا يضلون خلقا كثيرا . وفي جملة من أضلوا قومي هؤلاء .

وكان نوحا عليه السلام انتبه إلى أن صدور هذه الشكوى منه إلى ربه ربما أوهم فقلته أو ذوهه من سنن الله ومشيئته في خلقه ، فحتم شكواه بقوله : ( ولا ترد الظالمين إلا ضلالا ) .

وظاهر قوله : ( لا ترد ) النصاء إلى الله أن يزيد الظالمين ضلالا . وهذا مستبعد من نوح أبى الأنبياء الذين هم مثال الرفق بالشر والرحمة لهم والمطف عليهم ، وأما هو في الظاهر دعاء وطلب ، وفي المعنى



اخبر عن استمرار مشيئته تعالى في خلقه عاملة ، وبقاء سنته مطردة شاملة ، لا تشذ ولا تتخلف ، كانه يقول : انك يارب في عدم هدايتك قومي الى الايمان بك انما تتم مشيئتك القديمة ، وتنفذ سنتك الحكيمة . فان قومي الذين ظلموا بمدولهم من محجة الحق يسبقون في ضلال منها ما داموا في ظلمهم وتسمفهم ، بل انهم كلما ازدادوا ايقالا في هذا الطريق الذي اخذوا فيه ازدادوا ضلالا وبعدا عن محجة الحق شان الذي ينصرف من رأس الجادة ، فانه كلما أوغل في الناحطة (١) التي سلكها ، ابتعد من الطريق الأعظم حتى يتورد حنقه . فهذا كما ترى سنة الهية ركب الله عليها هذا الكون ، فلا تخالف امة من الامم امر الله ، ولا تدابر سنته ولا تستخف بنواميسه - حتى تضل من طريق السعادة ثم تهلك . وعلى العكس الامة التي تعمل بامر الله ، وتراعي سنته ونواميسه . فتوح عليه السلام بأسف لكون امته من الفريق الاول ، فهو يمد ان وصف حالها ، وتذنب مالها - ماد فقال : تسلم مشيئتك يارب ، وتنفذ اراذك ، وتستمر سنتك . قول نوح في ختام الآيات السابقة : واستثناسه الظالمين الاضلالا ) يشعري بأسفهم وإيمانهم ، واستثناسه منهم التعادي في الكفر والضلالات ، والاصرار على ارتكاب الخطيئات التي ما شاء الله . ولما هذا شأنها تستحق العقاب الابدي ان يحل بها ، والمذابح السماوي ان يندم عليها . وهذا معنى قوله تعالى : ( مصا خطيئتهم افروقا ) . وهو اعتراض بين قولي نوح للمضي والاتي . و ( من ) لافادة التعليل والسببية ، كانه يقول افروقا بخطيئتهم وبسببها . و ( ما ) المتصلة ( بمن ) هي التي يسمونها الصلة . وزيادتها انما هي باعتبار اللفظ بحيث اذا اسقط بقى شمل الكلام منتظما . اما باعتبار المعنى فالمقام في حاجة اليها ، اذ هي تفيد المباعدة والتاكيد ، كما افاد ذلك تقديم التعلق على الفعل ، فهذا التقديم مع وجود ( ما ) افاد ان كفر القوم وخطاياهم كانت العامل القوي في افراقهم ، وانهم لو لم يرتكبوا هذه الخطايا لكانوا نجوا من الهلاك بارادة الله التي يتجلى لنا اثرها في هذا الكون ونواميسه .

وكان اكبر خطيئات القوم الكفر بالله ، لكن انضم الى هذا الكفر ذنوب وآلام زائدة غلظا وشدة ، من ابتسمها ابتاعهم نبيهم نوحا عليه السلام مدة مفرطة في طولها ، مير منها القرآن بقوله ( آلف مسنة الا خمسين عاما ) .

اما الطوفان الذي افروقا به فنؤمن به اجمالا تبعا لاجمال ما جاء في القرآن وهذا هو : ( حتى اذا جاء امرنا وفار التنور قلنا احمل فيها من كل زوجين اثنين واهلك الا من سبق عليه القول ومن آمن وما آمن معه الا قليل ... وهي تجسري بهم في موج كالجبال ... وقيل يا ارض ابلمي ماءك ويا سماء اقلعي وغيضي الماء وقضي الامر واستوت على الجودي ) .

(١) هي الطريق يتشبه من الطريق الاظم سنة او يسرة »

هذه الآية أكثر تفصيلا لحادثة الطوفان من سائر آيات الكتاب التي أنزلت في وصفها ، ولا يكلف المسلم ان يعتقد بما وراء ما تضمنته من الحقائق بشأن هذا الطوفان ، وتلك الحقائق هي :

- ١ - انه قد تقدم الطوفان قوران تنور .
- ٢ - ان نوحا عليه السلام حمل معه في السفينة اهله والمؤمنين به القليلين وزوجا من المخلوقات .
- ٣ - ان السفينة جرت بهم في موج كالجبال .
- ٤ - انها استقرت على الجودي (١) بعد ان اقلعت السماء ، وغاض الماء .

٥ - ان نوحا واهله والمؤمنين به نجسوا ، وهلك الباقون المكذبون - بالفرق لاجمعين . اما الروايات والاساطير الأخرى المتعلقة بهذا الطوفان ، فمما لايجب علينا الايمان به ايمانا جازما ، وانما تكل امره الى الله تعالى والى التحقيق العلمي ، حتى ان مسألة شمول الطوفان لجميع اقسام الأرض وعدم شموله - لم يرد عنها في الكتاب نص قطعي . وكلمة ( ارض ) في قوله تعالى : ( وقيل يا ارض ابلمي ماءك ) ليست نفا في الدلالة على جميع اجزاء سطح الأرض ، وانما هي تستعمل أحيانا كثيرة استعمالا فصيحا في الجهة الواحدة من جهات الأرض ، ففي سورة يوسف : ( قال اجعلني على خزائن الأرض اتي حفيظا عليم ) . وكذلك مكانا ليوسف في الأرض ينبت منها حيث يشاء . والمراد بالأرض في الوصفين ارض مصر لا الكرة الأرضية كلها . وليس هذا مصادرا منا في صلاحية قننة الله ان يعم سطح الأرض كلها بالطوفان ، وانما نجب ان نقف في العقائد خاصة على ما جاء في صحيح النقل ، وارتاح اليه صريح العقل .

هذا ولم تنفرد الكتب السماوية بذكر حادثة الطوفان ، فقد ورد ذكرها ايضا في كتب الصين واليونان وهي معروفة عند اميركا الشمالية والجنوبية . وقال بعضهم : انه وجد اثر كارثة الطوفان في جميع الاقطار وفي جميع تقاليد الامم ، ماعدا السودان فانه ليس في بلادهم ولا في تقاليدهم ما يدل على حدوثه . وذكرنا الحادثة في آثار الاشوريين ، فقد عثر على صحيفة اشورية تصف تلك الحادثة ، وكان الكلام فيها واردا على لسان نوح عليه السلام مد استقرت السفينة على الجودي ، فأرسل الغراب فلم يعد ، ثم أرسل الحمامة فمادت مبشرة بانكشاف اليابسة ، كما جاء مفصلا في التوراة ، وهالك ترجمة ما قالته الصحيفة الاشورية : « في اليوم السابع اورسلت الحمامة ، فقائت ثم تجد مقرا فرجعت ، ثم اورسلت صنووة فقائت فلم تجد مقرا فرجعت ، ثم اورسلت قرابا فقائت ورأى اتخافض الماء فأكل وسبح وتاه ولم يعد ، ثم اورسلت الحيوانات الى جهات الرياح الأربع ، وسكنت سكينة ، ثم بنيت ملجأ على قنة الجبل ، وقطعت سبمة

(١) قالوا هذا جبل مغل على جزيرة ابن عمر في الجانب الغربي من مكة . وهو السلي ( ليراهنا ) . وقد ذكر ( ليراهنا ) في التوراة لانه موضع استراحة نوح بعد الطوفان ( تة ٨ : ٤ ) .

أَصَارًا ﴿١٧﴾ وَقَالَ نُوحٌ رَبِّ لَا تَذَرْنِي أَرْضَ مِنْ  
الْكَافِرِينَ دَيَارًا ﴿١٨﴾ إِنَّكَ إِن تَذَرْنَهُمْ يَهْلِكُوا عِبَادَكَ  
وَلَا يَبْقَاوُ إِلَّا فَاغِرًا كَفَرًا ﴿١٩﴾ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِرَبِّئِي  
وَلِمَنْ دَخَلَ بَيْتِي مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَلَا  
تَرِدْ الظَّالِمِينَ إِلَّا تَبَارًا ﴿٢٠﴾

امشاب ، ولحقها وضعت صومرا (١) وصنوبر وصمقر ،  
فاجتمع الآلهة عند فوجان الرابحة : اجتمعت كالدباب  
عند الليمة (٢) .

ولا يخفى ما في الكلام الأخير من المنافسة لأدب  
الوحي الصحيح .

و ( النار ) إذا أطلقت معرفة بالآلاف والالام أريد بها  
دار العذاب الممدة للإشراق بعد البعث والصلاب .  
فايراد كلمة ( نار ) في قوله ( فادخلوا نارا ) منكرة مع  
صطف الفعل بالغاء التي تفيد التعقيب من دون مهلة  
ولا تراخ - قد يشعر بأن المراد بهذه النار التي أدخلها  
الله قوم نوح عقب الطوفان - ليست هي نار دار  
العذاب وإنما هي نار أخرى قيل هي عذاب القبر - وروى  
عن الضحاك : أنهم كانوا ينفرون من جانب ويحرقون  
من جانب . أو لعل المراد بالنار التي أدخلوها ،  
واسلمهم الفرق إليها - نار الخزي والخذلان ، نار  
اللل والهوان ، نار آثم النفس وعذاب الوجدان ، نار  
تتملص بها كل أمة خالفت أمر ربها ، وتلاعبت بشرائع  
دينها ، واستمرت في عنادها وغشمرتها حتى تغلص  
قلها ، وتشتت شملها ، وأصبحت طلعة الطامعين ،  
ونفعا (٣) بقرقرة ، يدوسه السيد والقطيع . على أنه  
لا مانع من أن يراد بذلك النار نار العذاب الأخرى ،  
ويكون تنكيرها لتحويل أمرها ، كما يكون التعقيب  
بالغاء لإفادة قرب الإدخال وتحقيقه ، وكل آت مهما  
بعد قريب . وهؤلاء المكثرون الذين أغرقوا فاحرقوا  
لم يجدوا لهم أنصارا ينصرونهم مما أراده الله بهم من  
الافتراق والافتراق ، وهذا معنى قوله تعالى : ( فلم  
يجنوا لهم الخ ) .

ثم إن نوحا عليه السلام لما رأى قومه فرقى وقد  
خلت منهم الدار وصفت الإبل قال : ( رب لا تذر على  
الأرض من الكافرين ديارا ) .

( ديار ) كلمة تقولها العرب في سياق النفي لإفادة

(١) صجر له امر كالبوط .

(٢) اللغز غرب رديع من الكمية يكون في القرقرة ( وهي الأرض  
المتخلقة ) لا يؤبه به ، ولا يبيح أحد ، وإنما نفوس الانعام ،  
فغرب مثلا للمستقل المنهين من الناس .

تأكيد نفي وجود أحد من الناس . ومثلها قولهم « ما  
في الدار صافر ، ولا فيها نافع ضربة » . وأصل ديار  
ديوار ففعال : من دار في النار إذا ذهب وجاء فيها .  
يقول ما فيها متجول ، وقيل إن ديارا مشتقة من  
الدار نفسها ، فمعنى ديار صاحب دار ملازم لها مقيم  
فيها ، كما يقال مثلا « جمال » لصاحب الجمال  
و « كرام » لصاحب الكرم .

وقول نوح ( رب لا تذر على الأرض من الكافرين  
ديارا ) يريد ( من الكافرين ) الذين ساروا على سيرة  
قومي . فليس المراد الدعاء عليهم بالاستئصال  
والاجتياح ، كيف وقد أصبحوا صرعى  
تحت مواقع بصره ؟ وقد أراد بالدعاء هنا ما أراد في  
قوله السابق ( ولا تزد الظالمين إلا ضلالا ) . فتكون  
آية ( رب لا تذر الخ ) شاهدا مؤيدا للمعنى الذي قلناه  
في آية ( ولا تزد الخ ) من أن نوحا عليه السلام أورد  
الخبر عما أودعه الله التور من السنن التي لا تختلف  
في الأمم السائرة عن امره - في صورة الدعاء . فقوله  
( لا تزد ) و ( لا تذر ) معناهما لا تفعل بآرب الاممست  
عليه سنتك ، وسبقت به مثيبتك ، وهو بذلك يعلن  
التسليم إليه تعالى ، والاعتراف بأن ما قضاه في خلقه  
عدل ، وأن ما شاءه فيهم ماض نافذ لا معقب له .

ثم اتبع ذلك ببيان حكمة الله في اهلاك الكافرين  
فقال : ( إِنَّكَ إِن تَفْرِهِمْ ) أي إن تدع الأشرار يتمتعون  
بسلبتهم ومسلطتهم ، ويصرفون تصرف السئود  
الطلق في ارتكاب الفاسد والتأكي ، ومخالفة شريعة  
العدل ، ونواميس الحق - ( يضلوا عبادك ) تستشر  
وعنتهم ، ويعظم فسادهم ، ويسر إلى بقية العباد  
المطيعين بهم ، المخاطبين لهم ، فيفسدوا ويضلوا عن  
أمرك ومتابعة وحيك ، ولا سيما إذا تأمل الشر  
والفساد في أولئك الأشرار ، وأصبح ملكة راسخة في  
نفوسهم ، فإن خبثهم وفساد أخلاقهم ينتقل بالوراثة  
إلى أولادهم وفرارهم ، فصار من مقتضى حكمتك  
بآرب محقق واستئصالهم جملة ، فإنك إن تركتهم  
يلدون وينسلون نوا وكثروا ( ولا يلبوا ) إذا ولدوا  
وامتبقوا ( لا فاجرا كفارا ) مثلهم .

و ( الفجور ) بمعنى الفسوق والعُدوان ، وهو تجاوز  
الشرائع والحدود التي أمر الله بالوقوف عندها .  
وهنا مسألة ، وهي إن خدأى قوم نوح الذين فرقوا :  
هل هلكوا جميعا ؟ وكيف هلكوا وهم لم يجنوا ذنبا ولم  
يقترفوا خطيئة من خطيئآت آباءهم ؟

الظاهر أنهم هلكوا معهم ، لأن الكتاب قال فيهم  
( أنهم كانوا قوم سوء فأفرقناهم إجمعين ) ، وقال نوح :  
( رب لا تذر على الأرض من الكافرين ديارا ) الآية .

ولو قال قائل : إن هذا التعميم إنما هو بالنسبة  
إلى الكبار المكثبين مركبي الخطايا ، أما صغارهم  
فألكتاب سكنت منهم ، فسيكت معه ، ولا نخوض في  
أمرهم - ما كان في ذلك شاذا ولا نائبا .

وما يدبرنا أن يكون تعالى قد أمد أولئك الأطفال  
بلطفه وتيسيره ، ويسر لهم بعض أسباب النجاة ، وكـ

له من أمثاله ، على أنه تعالى أن كان أهلك الأطفال المصومين ، مع الكبار المجرمين - فانه فاعل مختار لا يسأل مما يفعل . نعم قد تخفى علينا نحن الحكمة في ذلك ، وخفاؤها لا ينبغي وجودها . وإن في الأوبئة والطواعين التي تلم بالبشر فقتلهم مع لؤادهم استمصالاً ، وفي الرأزل التي تصف الأرواح وتحددها فتبطلهم جميعاً ابتلاء ، وفي البراكين التي تتورطع فتقتل الأرواح ويبحث تطير البلاد التي حولها وقدفن تحتها سكانها كلهم كما روي لنا التاريخ عن المدينيتين الرومانيتين « بومبي » و « هركليوم » - أن في كل ذلك مشابهة ومحاكاة ، بل نسخة مطابقة لما وقع يقوم نوح كبارهم وصغارهم من الهلاك ، ويقال في تحليل هلاك هؤلاء ما قيل في تحليل هلاك أولئك . على أن النفس قد تستأهل هذا السؤال نفسه في الصغار الذين يورثون بأفعالهم قبل أن يبلغوا سن كمالهم . وقد رأيت يوماً امرأة تتحسر على موت صغير لها ، أمضاه قفده ، واستقما بعده ، فسئمتها تقول وقد شخصت بعينها إلى السماء مغرورتين بالسحوق : « يارب مادمت تريد أن تسلبني قبل أن تمتلني فيه فلماذا أمطيتني ؟ »

هذا وأسأله من العقد التي تتعلق بهتسدا هذه الكائنات ومثناها ، والحكمة في معوها بعد أن خلقها وسواها . بل هو لعمرى من القدر الذي أدبنا نبيينا صلى الله عليه وسلم بتروك الغوص فيه . أخرج الترمذي في سننه من أبي هريرة رضي الله عنه قال : « خرج علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم ونحن نتشرف في القدر ، فغضب حتى احمر وجهه فشرى كأنما فقيه في وجنيه الرمان ، ثم قال : أبهذا أمرم ؟ أم بهذا أرسلت إليكم ؟ أنا هلك من كان بكم حين تنازعوا في هذا الأمر ، عزمت عليكم ألا تنازعوا فيه » . وكتب القنطط ( صفحة ١٩٨ ) مجلد ٦١ بعنوان « الحكمة الفائقة » جواباً على سؤال جاءه من البرازيل وهو « جاء في الإنجيل أنه حينما ولد المسيح طلب الملك هيرودس أن يحضره إليه ، ولما لم يجده أمر أن يقتل كل الأطفال الذين عمرهم نحو سنة فكان كذلك ، فلماذا لم ينقلهم المسيح ؟ » . فاجاب القنطط بقوله : « لا تعلم ، وفي الكون أمر كثير يظهر في بادي الأمر أنها منافضة لقوانين العدل والاقتصاد حتى كان الكون متروكاً لا مدبر له ، فالسكة بيض مليون بيضة وقد تنفق كلها ، ولكن لا يعيش من أولادها إلا العدد القليل ، وأشجار البرية تبذر الشجرة منها ألوفاً من البذور لحفظ نوعها ، وقد لا تزرع واحدة من بذورها ، ولكن إذا أمعن النظر في تركيب جسم السمكة وأوراق الشجرة وإزهارها - رأينا في الحكمة الفائقة ما يدعش العقول ، ونفسر أن نعلم بوجود حكمة فائقة في أكثر بيض السمكة وبذر الشجرة وألوفها يعيش منها شيء ، وأه كان نوحاً عليه السلام يقول : أما وقد أهلكتم بآبائكم الظالمين بما كسبوا من الخطيئات ، وكنيتكم بهم حقاً البينات ، وكان أهلككم لهم عدلاً ، وتكنيتكم بهم حقاً - فمن ذلك المنتظر ، وكرمك المؤمل : أن تضفر لفرق

المؤمنين الذين أقروا بتوحيدك ، واستمسكوا بعرا دينك .

و ( التفري ) البستر والصنع من الذهب ، فالؤمنون همما تحروا الحق والعمل الصالح قد يفرط منهم ما يؤخذون عليه ، فهم يتهلون إلى الله - كما وقفتهم للإيمان والتوحيد - أن يغير لهم ما ربما يبدل منهم مما لا يرضيه تعالى . فببدا نوح بنفسه ، ثم لنى بوالديه لعظيم حقهما عليه ، وقد مر أن اسم أبيه « لامك بين متوسلح » ، أما اسم أمه فهو « شمعفا بنت اتوش » ، ثم ثلث بين دخل بيته مؤمناً ، وعنى بهم أولاده وأزواج أولاده الذين كانوا يدخلون بيته مشركين له في معيشته وعبادة ربه . وفي التوراة أنه لم يكن معه في السفينة سوى زوجته وأولاده الثلاثة وأزواجهم الثلاث . ثم ختم دعاه بالدعاء للمؤمنين والمؤمنات جملة واحدة ، وبومى هذا من طرف أخى إلى أن هناك مؤمنين ومؤمنات غير جماعة نوح الذين نجوا معه في السفينة . وعلى هذا فالظرفان لم يعم الأرض كلها ، ويكون في بعض جهاتها البعيدة مؤمنون ومؤمنات لم يرقوا ، وقد دعا لهم نوح مع أهل بيته المذكورين . أو يقال أن المراد بالمؤمنين والمؤمنات في دعاه نوحهم وجداً في الماضي أوسيجدون في المستقبل متى تناسل أولاده وكناتروا وانتشروا على وجه الأرض .

ونوح عليه السلام لم ينس أن المؤمنين والمؤمنات عرضة لأن يظلموا ويتبدوا ، ويتجاوزوا حدود الشريعة ، ويعملوا بغير طاعة الله . فهو بعد أن طعن الله المفرة لفرق المؤمنين - عاد فقال : أما إذا أخذ منكم معشر المؤمنين ظلم واحد من محبة الصواب ، وترك العمل الصالح وهما في الأرض فساداً - فلا تتركه بآرب من معاملتك بالعدل كما عاملت أولئك المكذبين الفريين ، فغيره وأهلكه ، بل زده تباراً وهلاكاً كما أهلكتم .

وهذا من نوح عليه السلام إيقاظ وتنبه لأهله وولده وذويه وسائر من آمن بالله من الناس يحلزمهم بطش الله وسخطه ، وانتقامه ممن خالف أوامر الله ونهى العمل بشرائعه العادلة .

ولا ريب أن أطفال الإيمان من التمهيد بالعمل الصالح وممارسة الفضائل - يبعثه من الصدور وبشئ الرين على القلب بالتدريج كما ورد في الحديث ، فنحن الكلمة على من هذا شأنه ، فباخذه الله بالذاب كما أخذ أولئك الفريين من قوم نوح . فنوح يقول لقومه : لا تظنوا أن الله نجاكم لذلك ، وإنما نجاكم لإيمانكم وعلكم الصالح ، فأمر صوا طبعهما ، وأجتهدوا في تقويتهما وتمتيعهما ، وإلا حل بكم من الهلاك والتبار ، ما حل بأولئك الفريين الفجار .

و ( التبار ) من تبر كفتح إذا هلك ، وبتره غيره كضربه ، وبتره أهلكه . فتبار اسم مصدر يقال : تبره تبريراً وتباراً ، كما يقال كلمة تكليم وكلاماً ، وودعه توديعاً ووداعاً .

(٧٢) مِيقَاتُ الْحَجِّ مَكَّةَ  
وَابَاقَهَا ٧٨ نَزَلَتْ بَعْدَ الْأَنْجَافِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قُلْ أَوْحَى إِلَيَّ أَنَّهُ اسْمَعُ نَفَرَيْنِ الْغَنِي قَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا  
قُرْءَانًا عَجَبًا ١ هَدَىٰ إِلَى الْرُشْدِ فَعَامَنَّا بِهِ وَلَنْ نُشْرَكَ  
بِرَبِّنَا أَحَدًا ٢ وَأَنَّهُ تَعَالَىٰ جَدُّ رَبِّنَا مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً  
وَلَا وَلَدًا ٣ وَأَنَّهُ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى اللَّهِ شَطَطًا ٤  
وَأَنَّا ظَنَنَّا أَن لَّنْ نَقُولَ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ٥

(أوحى) الإيحاء في اللغة أن تلقى إلى غيره  
ما تريد أن تعلمه إياه بواسطة الإيحاء أو الإشارة أو  
الرسالة أو الكتابة ، ثم غلب استعماله فيما يلقى إلى  
الأنبياء من عند الله . وفي الوحي معنى الإخفاء  
والسرعة ، فما يلقى وحيا يكون خفيا سرسيا .  
( استمع ) تكلم أن يسمع ، وأصغى إليه ليمسح .  
( نفر من الجن ) : رجع منهم ما بين الثلاثة إلى  
العشرة .

وبينا صلى الله عليه وسلم لما أصفى إليه هؤلاء  
النفر ، واستمعوا تلاوته للقرآن - لم يكن مالا بهم ،  
ولا لاشرا بمكانهم ، ومن ثم قال له ربه : ( قل أوحى  
إلي ) أي قل يا محمد قومك أن الله أوحى إليك  
( أنه استمع نفر من الجن ) وأصغوا إلى قراءتك .

وكان من خبر ذلك ، كما في الترمذي وغيره ، أنه  
صلى الله عليه وسلم انطلق في نفر من أصحابه علمدين  
إلى سوق مكاف ، حتى إذا كانوا يوادى نخلة ( موضع  
على ليلتين من مكة وعلى ليلسة من مكاف ) - نزل  
رسول الله فعلى بأصحابه الصبح ، فمر بهم أولئك  
النفر من الجنة ، وسمعوا رسول الله يقرأ القرآن ،  
فاستمعوا إليه مصفيين متدبرين ، فقاموا به ، ورجعوا  
إلى قومهم مندلين . وكان أولئك نفر ، فيملأون عن  
ابن عباس رضي الله عنه ، من جن نصيبين ، وهي مدينة  
عامة من بلاد الجزيرة على جادة القوافل من الموصل  
إلى بلاد الشام . وقال ابن عباس أيضا : أنه صلى الله  
عليه وسلم ماقرا على أولئك نفر من الجن ، ولا

وأهم يؤمد ، ولا علم بمكانهم ، حتى أوحى الله إليه  
بأمرهم في هذه السورة ما أوحى .

وقد قص الله علينا خبرهم أيضا في سورة  
الاحقاف مد قال تعالى : ( وأذ صرفنا إليك نفرا من  
الجن يستمعون القرآن فلما حضروه قالوا انصتوا  
فلما قضى ولوا إلى قومهم مندلين . قالوا يا قومنا إنا  
سمعنا كتابا أنزل من بعد موسى مصدقا لما بين يديه .  
يهدى إلى الحق وإلى طريق مستقيم ) إلى آخر  
آيات . وفيها حض قومهم على الإيمان بالقرآن كما  
آمنوا بالتوراة التي أنزلت على موسى من قبل ، وأنهم  
إن لم يجيبوا داعي الله ، لا يعجز ربه عن أخذهم  
بالتكال والعذاب .

وقوله في سورتنا هذه : ( فقلوا إنا سمعنا قرآنا  
عجبا بالغ ) معناه أنهم بعد أن استمعوا القرآن وتدبروه  
رجعوا إلى قومهم فقصوا لهم : ( إنا سمعنا قرآنا  
عجبا ) أي موضعا للغربة والدهشة من جهة مباينته  
لأمناله ونظائره من الكتب ، في حسن نظمه ، وبلغته  
أسلوبه ، وما حواه من بدیع الحكم ، وبالغ العظمت  
والعبر .

فخبر هؤلاء نفر من الجن في السورين متوافق  
متوارد على شيء واحد ، وهو استماعهم للقرآن ،  
فأعجابهم به ، فأيمانهم بالنبي صلى الله عليه وسلم ،  
فرجوعهم إلى قومهم بدعوتهم إلى الإيمان والتصديق .

ويغف من قول هؤلاء نفر : ( تعالى جد ربنا  
ما اتخذ صاحبة ولا ولدا ) أنهم كانوا إلى دين  
النصرانية ، لأن الإسلام وهو يحاج النصرانية كثيرا  
ما يستند في محاجتها على نفى الصحابة والولد .

وقد كبر على عقول بعض أبناء هذا العصر ،  
الضميغي الثقة بأمر الفب وهالم الروحانيات ، أن  
يفهموا خبر هؤلاء نفر - من الجن الذين استمعوا  
إليه صلى الله عليه وسلم فآمنوا به - إلا على شرب  
من التناول - فقالوا : أن أولئك نفر طائفة من  
نصارى نصيبين ، وفدوا عليه صلى الله عليه وسلم  
كما وفد عليه نصارى نجران ، وأنهم جلوه مجتئين  
مستخفين متكرين لبعض الأسباب ، فلم يحبوا أن  
يعلم أمرهم أو يراهم أحد من الناس ، وبذلك أمكنهم  
أن يسمعوا قرآنه ويعقلوا دعوه . أو هم نفر من  
التجار والأفانين : قصدوا أسواق مكاف وشهود  
موسمه ، فمروا به صلى الله عليه وسلم وهو يصلى ،  
فأصغوا إليه بتلو القرآن من حيث لا يشعر بهم ، فلما  
رجعوا إلى بلعم أخبروا قومهم بخبره ، وهجيب  
أمره ، ومعجز قرآنه ، فسماع الوحي الساموي  
جنا لهذا السبب ، كما سميت الأبل في الحديث  
جنا . أخرج الإمام الشافعي في مسنده « إذا أدرتكم  
الصلوة في أعطان الأبل فأخرجوا منها فصولا ، فأنها  
جن خلقت من جن ، إلا ترونها إذا نقرت كيف تشمخ  
بأنفها » . وفي رواية أحمد في حنبل « ألا ترون إلى  
عيونها وهيها إذا نقرت » انتهى .

هنا ما قاله أولئك المعاصرون ، وهو شيق عطن

منهم ... والا فان وجود قوى روحانية ، وعوالم غيبية ، استترت من حواسنا بأعيانها ، وتجلت لنفوسنا بأكارها ، وما تواتر من أخبارها - أمر محقق لا ريب فيه . ولنضرب لها مثلا القوات الطبيعية التي كانت مجهولة للبشر منذ أقدم أزمنة التاريخ ، كالكهربية التي لو فُص قاص ما سيكون من أمرها وغريب أعمالها ، أي البشر وهم في طور سلاجتهم - لعدوه كلبا حبريتا (١) . وما نعرفه اليوم من خواص الكهربائية قليل بالنسبة إلى ما ينتظر أن يعرف منها في المستقبل ، وما يدرنا أن يخلف الكهربية قوة أو قوات أخرى أغرب منها ، وأصعب . وهذا (الراديو) (٢) على الأبواب ، بل قال « أسحق نيوتن » أكبر فلاسفة الانجليز : ان البشر اليوم بالنسبة إلى ما اكتشفوه من أسرار الكائنات كأطفال على ساحل الأوقيانوس ظفروا بوجدات براءة ، وشغابا أسفاد ملونة للغة ، فشفخوا بها وحسبوا كل ما عند ذلك الأوقيانوس العظيم ، وما في أعماقه من الطرف الموثقة ، والأعلاق النفيسة ، والكنوز الثمينة !

وإذا كنا لانسلك إلى ما نشره به بحواسنا فهذه ارواحنا التي في أبداننا لأزهارها ولا نسمعها ولا نشمها ولا نلذوقها ولا نلمسها ، ولكننا بلا وجودها ، ونعترف بعالمها ، فما عدا ما بدا ؟

وبعد فان عالم الجن ، كعالم اللائكة ، من الغيبات التي أمرنا بالإيمان بها ، ولم تكلف رحمة بنا أن نرى من أخبارها وأطوارها أكثر مما ذكره الوحي لنا . فلنعقل منه ما يعقل ، ولنكلم أمر ما لا نعلم إلى الله ، فهو سبحانه وتعالى القادر على أن يعرفنا في مستقبل الزمان من أمره ، ونكشفنا من مكتون سره ، ما يكون عقدة اتصال بين العلم الصحيح ، والوحي الصريح .

ومعنى كون القرآن ( بهدي إلى الرشيد ) - أنه يدل على الحق والصواب ، ويوصل اليهما . وقوله ( ولأن نشرنا برئنا أحدا ) معناه أنهم قالوا قومهم أننا آمنّا بالقرآن ، وعملنا بأمره وتعليمه ، فلم نجعل من بعد اليوم شركا له من خلقه .

وهيزات ( انه ) في قوله ( والله تعالى جد ربنا ) وإنه كان يقول ( والله ظننا ) إلى آخرها - وهي بضع عشرة هيزة - كلها مكسورة مطلقا على ( أنا سمعنا قرأنا عجا ) ، وهيزة ( أنا ) هذه مكسورة لوقوعها بعد القول : فالعني أن أولئك نفر من الجن رجعوا إلى مشربهم وبلغوهم جميع هذه الأخبار مطعونا بعضها على بعض ، وقد أكلت كلها بكلمة ( أن ) التي هي أم اللؤكذات . ومن القراء من فتح هذه الهيزات كلها مطلقا على ضمير ( به ) فيصيح المعنى : أنا آمنّا بالقرآن ، وآمنّا بأنه تعالى جد ربنا ما اتخذ صاحبة

(١) كلب حبريت ، غلاس مجرد لا يستر فيه .. ويتسل أيضا : كلب بحريت .

(٢) الراديو عنصر مكتشف حديثا ذخرت فيه قوة اسمعية هائلة تفوق قوة الكهرباء أصلا مضطعة بحيث يتوقع من ولاء اكتشافها والانتفاع بها أعظم اثر في مصالح البشر وتأمين حياتهم .

ولا ولدا ، وآمنّا بكذا وبكذا إلى آخر الآيات ، غير أن بعضها لا يصلح معه تقدير فعل - آمنّا - فيقتل له فعل آخر يناسبه من نحو - صدقنا - و - علمنا - و - عرفنا - و - اترفنا - و - العلمك - وشهدناك على حد ما قاله في قول الشاعر : « ورجعنا الحواجل والعيون » أي وكلمن العيون ، وقوله « غلفتها تبنا وماء باردا » أي وسقيتها ماء باردا .

ومعنى ( جد ربنا ) عظمته وسلطانه ، أي ان العظمة والجلال الإلهي باقٍ ويتنزه عن أن يتخسل لنفسه صاحبة ولدا ، إذ أن مقام الألوهية ينافي هذا الانتخاذ الذي هو أثر من آثار العجز أو الانقسام والتجزؤ .

يقول العرب : فلان جد في عين الناس ، يعنون عظم أمره في صدورهم ، ومنه حديث انس رضي الله عنه : « كان الرجل منا إذا حفظ سورتي البقرة وآل عمران جد في أصبنا » ، أي عظم وأصبح له مقام ، لا وفق إليه من حفظ هاتين السورتين الطويلتين .

أخذ هؤلاء النفر من الجن يصفون لقومهم ما كان من تأثير الكلام الإلهي في نفوسهم ، وكيف صحح من عقائدهم ، وغير من أولاهم ، وسردوا على مسامع إخوانهم حقائق استفادوها من جديد ، وقد كانوا منها معين ، فذكروا أولا أنهم أقرروا بتوحيد الله ، ثم قالوا : ان السفيه منهم - أي سفيه كان ، أو المراد بسفيهم الكبير الذي هو زعيمهم وولي أمرهم - كان يقول على الله قولا شططا ، تغلبي فيه حد العسل والحق . والشطط : عدم الوقوف في الأمور عند حد الاعتدال . والسفه : خفة وطيش في المرء تنشأ من خرق وجهل . فهم يقولون : ان ذوي الرياسة الدينية فيهم كانوا ينسبون إلى الله ما لا يليق بجانب قدسيته ، ويصفونه بصفات ينكرها العقل ، ولا يعلمهم على ذلك إلا جهلهم وخفة حلوهم . وكان أولئك النفر من الجن وسائر العامة يصدقون أولئك الرؤساء ، ويعتقدون في الآله سبحانه ما يلقنونهم آياه من الأضاليل ، مسوقين إلى التصديق بسائق التقليد والاستهواء ، أو بسائق الخوف من أولئك الرؤساء . أما وقد سمعوا القرآن واستناروا بنور هدايته ، فما عادوا يصفون إلى ما يقول رؤسائهم ، ولا ينخدعون به .

ثم أنهم اعترفوا أيضا بشيء من غرارهم وسلاجتهم هم أنفسهم مذ كانوا يظنون أنه لا يوجد أحد في البشر ، أنسا كان أو جنا ، يكذب على الله ، ويأثر منه من القول ما لم يقله سبحانه . ف هؤلاء النفر اعترفوا بأنهم كانوا يصدقون وينخدعون بما يقوله الكلابون على الله من ألحى الملقق ، والحديث الأزوق ، ظانين صدق القائل ، ومستعدين صدور الكذب منه . وهذا معنى قولهم : ( والله ظننا أن لن نقول الإنس والجن على الله كذبا ) . أما الآن - وقد سمعوا القرآن ، وأشرقت قلوبهم حلالة الإيمان - فقد عرفوا أنه يوجد في الإنس والجن كذبة ملبسون ، يجب تحميمهم ، وتبذل دعائهم ، والاستعاذة بالله من مخازيهم .

مرسعة بين ارسافه به عسم (١) يبتنى اربيا  
ليجعل في رجله كعبها حمار المنية أن يعطبا

يقول : لانتكى احمق مزال شعر راسه محمرا  
من اقلر المتيقة الباقية فيه - والعقيقة : اسم للشعر  
الذي يولد به الولود - وان في رصغ ذلك الاحمق  
فسادا واهوجا ، فهو قد شد عليه سيرا للاستشفاء  
مما عراه ، وهو فوق ذلك يتجول في البرية ليصطاد  
اربيا فيجعل كعبها في رجله فلا يموت بتعرض  
الجن له .

وقوله ( من الجن ) متعلق بمحذوف صفة لرجال ،  
أي ان رجال الانس يستجرون برجال صفتهم انهم من  
الجن ، كما قلنا آنفا أن أهل الجاهلية كانوا يستجرون  
برجال الذين لهم سيادة فيهم .

وقال بعض الفسرين : ان قوله تعالى ( من الجن )  
ليس صفة لرجال ، وإنما هو متعلق بفعل ( يعوذون )  
فالتمى ان رجال الانس يستجرون من اذى الجن  
برجال . وهؤلاء الرجال المستجار بهم هم من الانس  
كالكهان والمنجمين والعرافين وسائر مستطلي الغيب ،  
فخطباء الجن يقولون قومهم : ان رجالا من الانس  
ضماف العقول يعوذون عند حلول المصائب والشدائد  
يوحلا من بني جنسهم الانس ، مستجبرين بهم ان  
يدفعوا عنهم اذى الجن وفائلة الشياطين بما اوتوا من  
تجليات الآتوار ، وما استنبطوا من مستودعات  
الأسرار . وان هؤلاء الرجال من الانس الذين استعبر  
بهم يرونها فرصة سائلة لاستغلال اولئك الحقنى  
المستجبرين بهم ، واستغافس ما في جيوبهم . فلا  
ينهونهم ولا يبيئون لهم جهلهم ، بل يزيدون في ايهامهم  
وتحذيرهم وادخال الرعب في قلوبهم منا مشعر الجن  
والشياطين ، ثم يأخذون في مداواتهم ودفع اذنانهم  
بالطلاسم والاكاذيب ، وتختلف الأساليب ، وان هؤلاء  
الرجال المخترقين ، لهم الجن المؤذون ، لو كان  
المخدوعون بهم يطمون .

فهذه كانت حال العرب قبل الاسلام، وهذا ماتبهم  
اليه القرآن ، وحذرهم منه على لسان اخوانهم من  
مؤمني الجنة .

وجد الاسلام العرب على عقيدة في الجن واوهام  
من أمرهم نزلت بهم الى حضيض البهيمية ، فاهل  
امر الجن بلسان الجن ، وقدر ان استجارة الانس من  
اذاهم وهم وغى وضلال ، ثم نبه الى ان رجال الانس  
للمتعاذ بهم ، كالكةة والعرافين والمنجمين ، يزيدون  
اولئك المستعيلين الساكنين ( وهما ) وغتا ، ويدخلون  
على قلوبهم من الرعب والخوف منهم ما لا يطيقونه -

(١) روع الصبي كنع : شد في يده او رجله خروا للبح  
الين ، وروع كرف فوف لوع ، وروع ترسيما فهو مرسع  
ومرسعة ايضا : قست اجفائه . والسهم : يس في لميل الربع  
عوج منه اليد او القدم . القلقوس :

» به عسم « جملة اسمية و بين لوسلفه « حال مقعدة .  
المصحح

وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِنَ الْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِنَ الْجِنِّ  
فَرَادَوْهُمُ هَٰؤُلَاءِ ۖ وَأَنَّهُمْ ظَنُّوا كَمَا ظَنَنْتُمْ أَنَّ لَّنَ يَبْعَثُ  
اللَّهُ أَحَدًا ۖ وَأَنَا لَسَمَّا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَاهَا مُلْتَأَمًا  
شِدْبًا وَشُبًّا ۖ وَأَنَا كَأَنَّ نَعْدُ مِنْهَا مَقْعَدُ الشَّمْسِ ۖ فَنَ  
يَسْمِعُ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شَهَابًا رَصَدًا ۖ وَأَنَا لَا تَدْرِي  
أَمْرٌ أُرِيدُ يَمُنُ فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمُ رَشَدًا ۖ

وان لنا مشعر الانس مغزى وهيرة من اقسوال  
هؤلاء النفر من الجن : ان نشبه كما انتبهوا الى أنه  
قام فينا نحن ايضا ملبسون ، بكلفونا ان نصدق بكل  
منقول ، ولو كان منا تناقض العقول ، وبخالف ماقرره  
الاسلام من القواعد والأصول . فلا ينبغي اذن ان يكون  
اولئك النفر من اخواننا الذين اهدى منا الى صحيح  
الايان ، ولا اشد تمسكا بأداب القرآن :

ثم لقد قامت الطيور فتنى  
لا يكون الحمام اطرب منسا

ومما قاله اولئك النفر قومهم امر بالغ في الغرابة  
يتعلق باوهام الانس في الجن . ذلك ان اساسنا مشعر  
البشر كانوا يعتقدون سلطة الجن ، وعظيم صولتهم  
عليهم ، فهم يعوذون بهم ، ولجأون اليهم مستعطفين  
ضارعين لا يؤذوهم . فكان الرعب من عرب الجاهلية  
اذا اسما في واد او قفر وخافوا من الجن - ليجئوا  
الى الاستمادة بعظيم الجن المسود فيهم ، فيقولون :  
« نعوذ بسيد هذا الوادى من سفاهة قومه » ، ثم يبيتون  
أمنين . وكانوا اصابوا بمرض او آفة ، علوا هلى  
اجسامهم مكام وتعاويد يزعمون انها تقبهم اذى الجن ،  
وكثيرا ما يلطخون تلك التعاويد بالنجاسة ليعتمد الجن  
من حاملها ، ويسمون التصويبة اذ ذلك تنجيسا ،  
ويجمعونها هلى تنجيس ، ويلقون هلى انفسهم  
أحيانا ودعا وعظاما . وقد ادرك بعض مقالاتهم قبح  
هذا وسخافته كمرى القيس الذى يوصى زوجته  
اللا تزوج - اذا مات وارادت ان تزوج - احمق  
محتوها من نمط من ذكرنا فيقول :

يا هند لانتكى بوهة عليه عقيقته احببا (١)

(١) البوهة : الرجل العاري ، والظان ، والاحمق . والمتيقة  
خروا كاترا يزعمون ان من فتن بها سكنت دوعته عند الضمام .  
والاحسب : الأبرس ، ورجل في شعر راسه شقرة ، ومن  
ايست جلده من داء فلدست شعره فصار ابيض .  
القاموس . المصحح

كل ذلك ليمتصوا ثروتهم ، ويستثمروا بآلاتهم ، كما تستثمر البقرة الحلوب . وهذا معنى ( رهقا ) فهو اسم مصدر لأرقعه أرقاها بمعنى احتته وكلفه فوق طاقته . ولا جرم أن سفهاء العقول يتحملون من عبء هذه الأوهام والشغوات فوق ما يطيقه نفوسهم ، وتقوى عليه ملكاتهم ، فيعيشون في الوسوسة والخيل والتعاسة إلى ما شاء الله .

وهكذا ضيق القرآن الكريم دائرة الاعتقاد في الجبن ، ورد البشر في أمرهم إلى حد محدود . فكم نجني على أنفسنا بل على القرآن نفسه إذا كنا نعتقد في الجبن والشياطين اليوم ما يعرفه عرب الجاهلية أنفسهم مما لو سمعوه منا لضحكوا عجباً ، وأمعنوا منا هرباً . ثم قال خطباء الجبن قهقههم : إن غفلة الانس كغفلتهم أتت يامعشر أخواننا الجبن . لهم يظنون كما تظنون أن الله يترك كلا الفريقين - الانس والجبن - من رحمته ، فلا يثبت إليهم رسولا يربح من أعينهم غشوات الأوهام ، ويميط من قلوبهم رين الأضاليل ، ويهدبهم إلى الصراط المستقيم . وكأنهم يقولون أن ظن الفريقين فيما ذهبوا إليه كاذب ، فهذا محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم قد أرسله الله رحمة لانس والجبن ، وأنزل عليه القرآن الذي سمعنا آياته ، ودامع بيناته ، فوجدناه لا يتفق مع ما نحن عليه جميعاً من العقائد والأوهام ، فأمطناها من قلوبنا ، وطهرنا من لوثها نفوسنا .

( لسننا ) يراد من اللبس الطلب وإن كان أصلاً للبس بالبد . وكثيراً ما تقول نحن اليوم لنتمسك كلنا أي نطلبه . ولما عندك التماس أي طلب . وهذا كالجس ، فإن أصله تعرف الشيء بالبد ، ثم استعملوه في طلب الخير وتعرفه ، ومنه التجسس والجاسوس . فقولهم ( لسننا السماء ) يريدون به طلبنا أخبارها ، وحاولنا أن نتعرف أسرارها . و ( الحرس ) في الأصل جمع حارس ، وهو حافظ الشيء ، ثم استعمل استعمال الفرد ، وأصبح اسماً للجماعة الذين يحرسون السلطان ، ولذا لا يقال في واحد حارس ، بل حرس ، أي منسوب إلى الحرس . ولو اعتبر جمعا ما صحت النسبة إليه ، لأن الأصل في الجموع ألا ينسب إليها ، ودليل آخر وصفه في هذه الآية بالفرد وهو ( شديد ) ، ولو اعتبر جمعا قيل في وصفه شديداً . و ( شهاب ) جمع شهاب الشملة الساطعة من النار ، وهو أيضاً اسم لما يرى في سماء الليلة المصحبة كأنه كوكب منقش . وقوله ( وإذا كنا نقعد الخ ) يريد به إذا كنا من قبل نقعد من السماء مقاعد لأجل أن نسمع أخبارها أي مقاعد قليلة ذات صفة خاصة بحيث يتيسر لنا منها استراق السمع ، ولذلك نكر ( مقاعد ) . وقوله ( يجهل به ) أي يجد معداً ومهيئاً في طريقه . ويقال في ( رسدا ) مأخوذ في ( حرسا ) من أن أصله جمع راصد ثم استعمل استعمال الفرد ، ومن ثم وصف به الفرد بقيل ( شهاباً ورسداً ) ولم يقل ( شهاب رسداً ) أي أن ذلك الشهاب مهياً في طريق ذلك الشيطان المستمع برقبه لينقض عليه . وهذه مسألة ثانية من المسائل ذات البلبال التي

قررها القرآن بلسان أولئك النفر من الجبن تصعيحها لعتائنا بشأن جنس الجبن ومبلغ سسوطهم على الانس ، فلا نذهب في الأوهام فيهم والمخاوف منهم كل ملذهب . قال أولئك النفر في الآيات السابقة أنهم استفادوا من سماع تلاوة القرآن أن الجبن ليس من مقدورهم أن يؤذوا الانس ، فليطمئن هؤلاء بالآ من هذا القبيل . ويقول الجبن في هذه الآيات : أنهم يريدون - بالصمود إلى السماء - أن يعرفوا الغيب ، ويسترقوا خبر ما قدره الله وأراده في البشر ، لكنهم يطردون منها طرداً ، ولا يوفقون إلى ذلك ، وأنهم كانوا قبل بعثته صلى الله عليه وسلم يظنون يحتاجهم أحياناً ، فيلتفتون من السماء أخباراً ، أما اليوم وقد بعث صلى الله عليه وسلم ، وأنزل عليه القرآن ، وتقررت فيه الحقائق - فلم يعد للجبن نصيب من ذلك : يعني أن الجبن والشياطين كان لهم قبل الإسلام صولة ودولة ، أما بعده فقد سلبوا ما كان لهم من هذا القبيل .

والسماع في عرف جميع الأديان المنزلة مساحة المكوث الرباني ، ومجلى السر الروحاني ، وفيها عرض السلطان الإلهي ، ولوح التقديرات الأولية المتشكلة بعالم الدنيا . وهي ممكنة الالذكة : منها يهبون ، وإليها يعرجون ، ومن كانت قبلة الدعاء ، ومنتهى الرجاء . وكان الكهان والمخبرون ودعاة البشر الذين يريدون التلصص بشغاف العقول واستغلال بلاهم - يستخفون الجبن في تعرف خبر السماء ، والوقوف على ما قضاه الله وقدره فيها ، وكثيراً ما ادعوا أن هؤلاء الجبن يعلمون الغيب ، وأنهم يأتون به الكهان فضا طرباً فيخبرون به الناس . فانت ترى أن حائل الكهان في الغواية والأضلال ، ومزالق البشر إلى الوهم والوسواس والخيال - كانت منحصرة تقريباً في الجبن : من جهة الظن فيهم أنهم مسلطون مؤذون ، ومن جهة الوهم فيهم أنهم يعلمون غيب السماء ، وما خبايته الصابة الإلهية للبشر فيها . وكانت هذه الأضاليل كثيرة الزواج ، شديدة الوطأة على عقول البشر في تزييفهم التقديم حتى قبيل البعثة المحمدية ، فوضع القرآن والإسلام حدا لهذه المسألة ، وفرد بلسان الجبن أنفسهم ( أولا ) أن الجبن لا يؤذون إلا الذي يخافه شغاف العقول - ( ثانياً ) أن الجبن لا يعلمون الغيب ، وأن الغيوب بشأن البشر في لوح محفوظ في السماء بعيد من أن يصل إلى أولئك الجبن الذين أهد لهم في طريقهم حفلة أشداء وشهب وراصد تمنعهم وتدفع في صدورهم . ويعزى آيتنا هذه في إزالة الأوهام بشأن الجبن ومعرفة الغيب هو نفس المعزى في آية سبأ : ( فلما خر بينت الجبن أن لو كانوا يعلمون الغيب مالبثوا في العذاب المهين ) . فكل من الآيتين أثبت جهل الجبن ثم جهل الكهنة والعرافين بأمر الغيب وما قدره الله في خلقه . كما أثبت القرآن أن الغيب لله وحده ( وعنده مغانث الغيب لا يعلمها إلا هو ) ، فقد حجبه عن الخلق أجمعين ، حتى سيد البشر وخاتم المرسلين : ( قل لا أقول لكم منى خزان الله ولا أعلم الغيب ) . ثم

السموات والأرض ، وستبقى الى ما شاء الله مادامت سننها الالهية ، ونواميسها الطبيعية قائمة في هذا الكون ، غير أن القرآن جعل تلك الشهب بعد البعثة المحمدية رمزا وتنبيها للبشر الى أن الجن والشياطين لم يعد لهم بعد محمد صلى الله عليه وسلم وشرعه وقرآته ما كان لهم قبل ذلك لدى الأمم القديمة الزائغ فيها السحر - من السلطة والتفوذ والتأثير في عقول البشر بواسطة مخفوقة الكهان والسحرة ودموى الغيب والمزاعم الباطلة .

فالتقرآن يهتف من فوق دعوى الأمم والشعوب بأن العقل البشرى تحرر من هذه الأوهام بفضائل القرآن وبعثة محمد عليه الصلاة والسلام . ولكن هذه الشهب التي ترونها اربا البشر تنقض في السماء من وقت الى آخر علامة لكم على ذلك فهي ترمز لكم وتشير الى أن الشياطين مطرودون من السماء ، محطون (١) من حظائرهم برشق نبال تلك الشهب ، فلا تصدقوا من بعد اليوم دعاوى الكهان والسحرة الذين يكذبون عليكم ، ويتلمعون بعقولكم .

ويشبه هذا ما جاء في التوراة من أن الله تعالى وعد نوحا وولده بالا يكون طوفان آخر مثل الطوفان الذي وقع لهم واهلك البشر وكل حيوان ماملا نوحا وأولاده ، وأنه تعالى جعل قوس قزح في الضمام علامة على عهده معهم (٢) . قال مفسر التوراة : ولا ينتج من هذا أن قوس قزح لم تكن موجودة قبل الطوفان ، لأن تكونها طبيعي كما وقعت أشعة الشمس على قطرات المطر ، لكنه تعالى جعل مكانا - علامة لما سيكون ، ومزا إلى أنه تعالى لا يسمح من بعد اليوم بحصول طوفان كهذا . ثم ضربوا مثلا لذلك صخرة ملقاة في أرض منذ القديم ، ثم قسمنا الأرض الى قسمتين ، وجعلنا تلك الصخرة تخما وعلامة بين القسمتين لرمز الى كل فريق أين تنتهي حدود أرضه .

وهكذا القرآن فاته جعل ارسال الشهب الموجود من قبل علامة على ابطال دعوى الشياطين والسحرة معرفة غيوب السماء بقصا غلال البشر ، كما جعلت التوراة قوس قزح الموجود من قبل علامة على منع حصول طوفان آخر يهلك البشر بعسد طوفان نوح عليه السلام .

ثم شرع في وصف ماكانوا عليه من التفرق والانقسام المؤذي الى الضعف والانخزال ، ثم ماصاروا اليه بالإيمان والاتفاق على طريقة واحدة يرجى لهم بواسطتها الخير والاسعاد .

وقوله ( الصالحون ) صفة لمحمد ، أي ( انا منّا ) اقوم ( الصالحون ) ، وهم الأبرار العاملين بما يرضى الله من اتباع أوامره الالهية ، والتمسك بسننه الحكيمه ، والعكوف على العمل الصالح .

(١) حلاه من الله " طرده " .

(٢) وقد ورد مثل هذا في حديث ابن عباس : « امان لاهل الأرض من الفرق - القوس » وخبيث بالقوس قوس قزح . الخلف .

وَأَنَّا مِنَّا الصَّالِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَلِكَ كُنَّا طَرَائِقَ قَدَرًا ۖ وَآنَا نَعْنَأُ أَنَّ لِيْ نُنْعِجَ آلَهِ فِي الْأَرْضِ وَلَنْ نُّعْجزَهُمْ رَبَّكَ ۖ وَآنَا لَمَّا سَمِعْنَا الْمَدَائِرَ كَأَنَّمَا بِهِمْ كَبَبٌ يُّؤْمِنُ بِرَبِّهِ فَلَا يَنفَخُ بَخْسًا وَلَا رَهَقًا ۖ وَآنَا مِنَّا السَّالِبُونَ وَمِنَّا الْقَاسِطُونَ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُولَئِكَ تَحَرَّوْا وَرَحُّوا ۖ وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَأَنَّمَا لِحْمَتُ خَطْبَاءٍ ۖ

لا يعلم صلى الله عليه وسلم من الغيب الا ماياثبه به الوحي الصادق .

هذا ما استفادته أولئك النفر من الجن مدمسعو القرآن ، وهذا ما أعلنوه في قومهم ، وهذا ما أحووا أن يعلمه الانس ايضا ، مؤكدين خيرهم واعتقادهم بأبلغ اساليب الخطاب العربي المعهودة في لسان اهله ، ولا سيما افتتاح كل جملة بكلمة ( ان ) التي هي الأصل في التاكيد .

ثم انهم اتوا الحديث من جهل الجن بنتيجة بنفي ان يعيها كل انسى وهي قولهم : ( وَأَنَّا لَأَنفِى أَشْرٍ أَوْبَدَ بِمَنْ فِي الْأَرْضِ أَمْ أَزَادَ بِهِمْ رُشْدًا ) ، أي انا معشر الجن الذين نزعون فينا يلعنشر الانس معرفة الغيب واستراقه من السماء - لاندري ولا نعلم ما الله فاعل في سكان الأرض ، وماذا قضاه وقدره عليهم في لوح تقديراته : أراد وقدر شر انا أراد وقدر رشدا ، أي هداية وتوفيقا . فضلا نظنوا فينا معرفة شيء من ذلك بعد اليوم ، ثم لا تصدقوا الكهان بما يروون لكم عنا . هذا ما قالوه ، لكنه تعالى في الواقع ونفس الأمر قضى بالشر والشؤم والفضال على بعض من في الأرض من الأشخاص والأمم ، كما قضى بالخير والرشد وسعد الطالع لبعض الأشخاص وبعض الأمم .

يشي بحث نصب إلا يفتونا ذكره ، وهو ان ظاهر هذه الآيات يفيد أن الجن بعد البعثة المحمدية منعوا من استراق خبر السماء بأرسال الشهب عليهم ، ولما أورد على هذا أن الشهب كانت ترى في السماء قبل البعثة - أجيب بانها لم تكن من الكثرة الى هذا الحد الذي وقع بعد البعثة بدليل قوله ( ملئت ) ، وهذا يدل على أن الحادث الجديد هو الله والكثرة وكذلك قوله : ( نتعد منها مقاعد ) ، أي كنا أولا نجد فيها بعض المقاعد خالية من الحرس والشهب ، أما اليوم فقد ملئت المقاعد كلها كما صرح به الفخر الرازي . وقد يقال : ان الشهب كانت منذ خلق الله



وقوله ( دون ذلك ) هو أيضا صفة لحذوف أى ( ومنّا ) قوم ( دون ذلك ) ، أى ادنى وأسطق مراتب العمل ومراعاة السنن من أولئك الصالحين . ولم يعلم

أكان هؤلاء الأذنون المنحطون من أولئك فريقا واحدا أو رأى واحدا وسيرة واحدة ، لم كانوا على خلاف ذلك - حتى قال : ( كذا طرائق لنفدا ) ، فإفاد بهذا الاستئناف البلي أن يتألف من مجموع الفريقين : الصالحين والأذنين - طرائق قد .

و ( طرائق ) جمع طريقة مؤنث طريق ، وهما اسم للشارع الذى يطرق ويسلك ، ثم غلب استعمال الطريق فى معناه الأصل ، أى الطريق المحسوس المسلك ، كما غلب استعمال الطريقة فى الطريق المعنوى ، وهو مذهب الإنسان وسيرته التى يتربسها فى حياته إلى آرائه ومقاصده .

و ( القلند ) جمع قلند : القطعة ، من قد الشيء إذا قطعه . وطرائق القوم مقدود بمضغها من بعض ، ومقطوع جانب منها من جانب ، فكل واحدة منحارة من الأخرى ، مقطوعة منها .

يريدون بهذا القول تذكير قومهم بما كانوا عليه من القوضى بسبب تفرق أمواتهم ، وتباين مذاهبهم . وقد ساء لهم إلى هذا الفرق الأثرة والطمع وحجب الرئاسة وجلب النافع الزائلة ، وهذا بالضرورة يؤدى إلى الشقاء وسوء الخاتمة . أما التفرق فى الآراء يساقى

الاستعداد ، وتلثم السعادة والعصول على نظام كالف السبابة الاجتماعية - فهو تفرق محمود نافع ، تعرض عليه الأمم الموقفة ، وترغب فيه ، وتسمى إليه بواسطة الصحافة والاندباء ومقد المؤتمرات والجمعيات التى يؤدى تفرق الآراء إليها إلى معرفة الحقائق والتمسك بها .

فالتفرق من الجن الذين خطبوا قومهم ذكرهم بما كانوا عليه من التفرق المعقوت ، ووعدا أنفسهم جميعا - بعد أن سمعوا هدى القرآن وآمنوا به -

بانتظام أمرهم ، واتحاد طريقتهم ، والتوفيق بين آرائهم ومذاهبهم ، فتتجه أبدا إلى الخير ، وتنصرف من الشر .

ثم قالوا لهم : ( وإنا ظننا ) ، أى علمنا واعتقدنا . والظن كثيرا ما يأتى بمعنى العلم ( أن لن نجزئ الخ ) ، أى لن تكون فى الأرض جبارة أقوياء يعجز تعالى عن أخذنا وإنزال قهره بنا . كما لا تقدر على الهرب والتفلت

نفوتهم لم يعجز عن اللحاق بنا ، والانتقام منا . يقولون بقومهم : أنسا كنا من قبل علم ذلك

ونعتقده ، ولكن لم يفدنا ذلك العلم ، ولم يتقلنا من بلاد ما كنا فيه من التفرق الشثوم حتى سمعنا القرآن وآمننا به ، وانتقمنا بهديه .

فعادوا إلى ذكر نعمة الإيمان والشكر له تعالى على أن وفقهم إليها . ولا جرم أن فى ذكر النعمة وترديد على الأنواء غناية بها ، وفى إعلان الحمد والثناء على مصاديها استزادة منها . وهذا هو المقصود من قولهم : ( وإنا لما سمعنا الخ ) .

ومعنى ( لا يتخالف بخسبا ) أى انتقاسا من حقه فى الثواب فيعطى أقل ما له .

ومعنى ( ولا رهقا ) أى لا يخاف ظلما لا يطاق تحمله ، بأن يحرم الأجر والثواب بالرة ، أو يحمل عليه من سيئات غيره ، وهذا رهق وإى رهق ، لكن المؤمن بر به آمن من ذلك .

وقد سبق التصريح من هؤلاء النفر الذين سمعوا القرآن بأنهم آمنوا به . فقولهم الآن : ( وإنا منّا المسلمون الخ ) يريدون به تحذير قومهم وإيقاظهم فادخلوا أنفسهم فى جبلتهم ، وقالوا لهم أنه سيكون من مجموعنا فريق مسلمون ، وفريق فاسطون . وهذا على حد قوله تعالى : ( وإنا أو إياكم لعلى هدى أو فى ضلال مبين ) ، وهو من أساليب اجتذاب الخصم ، ولطيف حذنه ، واستلانة مركبه . فهم بهذا الأسلوب

يحركون من عاطفة قومهم لطرد شيطان التفرقة والاختلاف من بينهم ، وليكونوا بندا واحدة فى الإيمان ، واتباع تعاليم القرآن . ويشيرون من طرف خفى إلى أنه سيكون منهم جميعا أفراد فاسطون ، أى جاثلون وحادثون من سبيل الهدى والرشد ، وهم ضد المسلمين الذين استسلموا لله ، وساروا فى هذا السبيل . فكأنهم يقولون : ليس له يكن فريقا فريقا قاسط ، بل تكون كلنا مسلمين ، أذ شتان ما بين الفريقين : من أسلم ومن قسط .

( فمن أسلم ) واتباع الحق وآمن بمحمد صلى الله عليه وسلم كما فعلنا نحن ( فاولئك نحرروا وشهدنا ) أى طلبوا الأخرى والأهدى من الطريق م اختاروا لأنفسهم طريق الرشد والحق فاستقاموا عليه ، وهو أخذ بهم إن شاء الله إلى الجنة . وهذا وإن لم يذكره الكتاب كما ذكر العذاب بحطب جهنم فى جانب القاسطين - مفهوم من ذكر موجه أمتى نحرى إلى الرشد . والله تعالى

أعدل من أن يذهب القاسطين ، ويدع المسلمين من لوابه .

( وإما القاسطون ) الصادقون من ذلك الطريق ، ( فكأنوا ) بما اختاروه واستمروا ( لجهنم حطبا ) وقودا يلقون فيها ، ويصلون سحيرها جزاء وفافا لأعمالهم ، وسوء اختيارهم . وليس هذا الكلام من أولئك النفر إلا إيقاظ قومهم كما قلنا ، وحسب لهم على النظر والتدبر فى العواقب ، فلا يسلكون إلا طريق النجاة والقوز .

و ( القاسط ) من قسط إذا جار وحاد عن الحق ، ومصدره القسط بفتح القاف . ويكون ( قسط ) أحيانا بمعنى عدل . يقال : قسط الوالى فى حكمه إذا عدل ، وإن كان قسط الاستعمال بهذا المعنى فإن مصدره الذى هو القسط بكسر القاف كثير جدا .

أما ( أقسط ) بالهمزة فهو بمعنى عدل ، واسم النافل منه مقسط أى عادل . ومنه قوله تعالى : ( إن الله يحب المقسطين ) ، وكان همزه للإزالة ، فإذا قالوا : ( أقسط الوالى فى حكمه ) كان معناه أزال القسط

بفتح القاف أى الجور والظلم ، فيكون « أقسط » موافقا لقسط قسطا بكسر القاف بمعنى عدل .



واذا أرادوا الدواء لأحد بالحياة ، ولين العيش ، وسيوخ النعمة - قالوا : « سقيا له » ، و « سقياه الله » ، كما يقولون : « طوبى له » و « حياه الله » :  
 بمعنى قوله : (لأستقيانهم ماء غديقا) لوسننا عليهم الرزق ، وأجزنا لهم النعم ، وبسطنا لهم الدنيا ، يتلقون من رغبنا وغشيرة عيشها فيما شاموا وأحبوا .

فتوفر أسباب الحياة الطبية ، ورغد العيش في الأمم - إنما هو اثر من آثار تقوى الله ، والعمل بطاعته ، وسلوك طريقته التي يرصاها ، كما قال هؤلاء النفر خطباء الجن لقومهم . غير أن الماء الغديق ، وسعة الرزق ، وبسطة الحياة الدنيا - كما تكون نوبا من الله للأمم على استقامتها ، وحسن طاعتها واستمسكها بittal بسنة تعالى في خلقه - تكون في الوقت نفسه فتنة تصيب الأمم فيها مرضة للخطر ، ومزلقا تهوى منه الى حضيض الشقاء ، والتعاسة والفناء . وذلك يكون بمدلول تلك الأمم من الطريقة التي استقاموا عليها ، والتي كانت سببا لسعادتهم ، واعتلاء شأنهم .

فاله يرشد الأمم والشعوب الى طريقة مثلى من دينه وحسن طاعته ومراعاة سننه ، فلذا استقاموا افلحوا وسعدوا ، لكنهم - وهم في هذا الفلاح والسعادة - بسبيل المغلة والدلول والزهو والفور والتكبر - عن الطريقة المثلى : طريقة الدين والحق والعمل ، وحسن العمل .

فما أحرارهم ساعدت باليقظة والانتباه والتدبر ا ما أحرارهم يقرط الحذر والاحتياط والاستمسك بجبل النجاة ا ما أحرارهم ان يكونوا في هذه التجربة والمزق الدخس ذوى اقدام ثابتة ، وحلوم راجحة ، وعزائم متينة ، كي يجتازوا الصراط ، وينخطوا المزيق ، وينجوا بأنفسهم . اقرأ كتاب الله ، وتصفح التاريخ ، واستعرض أحوال البشر ، وطبق هذا الزاموس الالهى عليهم - تجده مطرد لا خلف فيه ، محكما لا وهن يعتريه .

ان هذا الدور ، دور الفتنة والتجربة بالتبسط في افانين النعيم وللألد الحياة الدنيا - من أرهب الأذوار على الأمم ، وأشد لها خطرا على حياتها . والى هذا الدور اشار تعالى مآ قال : (واذا أردنا ان نهلك قرية امرنا مترفينها ففسقوا فيها فحق عليها الدور فدمرناها تدميرا ) ، وقال : ( فلما نسوا ما ذكرنا به فتحنا عليهم أبواب كل شيء حتى اذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتة فلذا هم مبسورون ) .

وكل ماذكر الله في الكتاب من اخبر الأمم الماسية . انما ذكره تقريرا لهذا القانون الالهى ، وكشفا من أمره ، وتحذيرا من غوائله ، بل تنزل الوحي الى ذكر ذلك لنا على لسان اخواننا من الجن - كما في هذه الآية - ليكون ادعى الى الانتباه والاعتناء والاعتبار .  
 وحصل معنى الآية ان أولئك النفر من الجن قالوا لقومهم : ان الذين يستقيمون على طريق الحق يصلون

الى بحايح السعادة وطيب الحياة، ولكن ليحذرنا - وقد بلغوا هذا الدور - ان يبطروا ويشغلوا بزهرة الحياة الدنيا ولذائنها من العمل بالحق والعمل وطاعة الله . فان سعادة الحياة فتنة واختبار ، كما ان شقاها ومصائبها كذلك ، فكفونا ايها القوم من تلك الفتنة على حذر ، وهذا هو معنى قوله تعالى : ( لتفتنهم فيه ) ولا ( لتفتنهم ) هي مايسميه النحاة لام العاقبة ، وليست هي لام التعليل ، اى ليس المعنى ان الله يوسع عليهم الرزق ويغدق النعم - لأجل ان يفتنهم ، وإنما المعنى انه يفعل ذلك بهم جزاء طاعته ، واتباع طريقته ، ثم تكون عاقبة ذلك انتقامهم الى دور خطر ، وموقف حذر ، فيه يفتنون ويجربون : فان احسنوا وصدقوا ما عاهدوا الله عليه - نجوا وسلموا ، وان خاسوا بالهدم ، واستخفوا بالوعيد والوعد - بادوا وقصوا .

وقد فهم من هذا الشرح معنى قوله تعالى : ( ومن يعرض عن ذكرى ربه ) ، اى من يعرض عن أولئك الذين استقيانهم ماء غديقا - أثناء اجتيازهم دور الفتنة والاختبار - من وحى ربه ودينه والعمل بطاعته ( يسلكه ) بدخله ( غلبا صعدا ) اى في مذاب صعد . وفعل ( سلك ) يتعدى بى ، قال تعالى : ( ما سلككم في سقر ) اى ما أدخلكم فيها ، لكنه هنا مدى الى مفعوله بنفسه حملا على فعل « دخل » ، يقال : « دخلت السوق » و « أدخلته الحان » من دون « فى » .

( و الصعد ) بفتحين وبضمتين بمعنى الصعود : مصدر صعد صعدا ، والصعودا كثر استعمالا منهما . و « المذاب الصعد » هو المذاب الشديد الشاق ، وأصله من التصعيد في الجبل ، فانه منصب متعب ، فجعل العرب التصعيد فيه مثلا للمشقة والنصب الذى يلحق المرء من أى شيء كان ، وتقول « تصعدنى الشئ » و « تصاعدنى » اذا شق عليك ، ومنه قول عمر رضى الله عنه : « ما تصعدنى شيء ما تصعدتنى خطبة النكاح » يريد ما شق على ولا غلبنى الا هي ، او هي من الصعود بفتح الصاد العتية الشاقة ، كما قالوا « تكادنى وتكادنى » من العتية الكئود ، اى شق على . ومثله قوله تعالى : ( سارقه صعدا ) ، معناه ساسومه غلبا يشقى به كما يشقى الصعد في الصعود .

والعذاب الذى يمتري الأمم بسبب امراضها من امر ربها ، ومن مراعاة سننه ، والعمل بطاعته - من أشد أنواع العذاب وأكثرها حزا في القلوب ، وأمرضا للنفس .

وقد فسرنا « ذكر الرب » بالطاعة والدين واتباع السنن الالهية ، لأن سعادة الأمم وشقاها ، وسقوطها وارتقاها - إنما يكون بهذا النوع من الذكر ، أمضى العملى ، أما الذكر اللفظى الذى تتعلل به الأمم حين غلبة الجهل والتكسل واخمول عليها ، فانه لا قيمة لهن دون عمل ، ولا بدفع منها الخطب اذا الخطب تزل ، ولعلنا نجد في كلام الله كلمة « الذكر » الا مرادا بها

وَأَمَّا لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ  
لِبَدًا ۝ قُلْ إِنَّمَا أَدْعُوا رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِهِ أَحَدًا ۝  
قُلْ إِنِّي لَا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا ۝ قُلْ إِنِّي لَنْ  
يُجِيرَنِي مِنَ اللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَدًا ۝  
إِلَّا بَلَاغًا مِنَ اللَّهِ وَرِسَالَاتِهِ ۚ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ  
قُلْ لَكُمْ نَارُ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ۝ حَتَّىٰ إِذَا رَأَوْا  
مَاءَ عُودُنْ فَمَجِثُوا مِنْ أَصْفَىٰ نَاصِرًا وَقَبَلْ عَدَا ۝

القرآن والوحي والدين وطاعة الله واخشية منه . أما  
الحركة العضلية أو الميكانيكية لما أبعدنا عن مقاصد  
القرآن ! وما أضفها إلّا في نجاة الإنسان !!!  
ومما قاله أولئك الخطباء لقومهم مساجين بما  
سمعه واستغافوه من الوحي الإلهي ( أن المساجيد  
للّه ) . و ( المساجد ) جمع مسجد . والراد به مكان  
العبادة ، أو الراد به السجود نفسه . فيكون مصدرا  
ميميا سميت به الصلاة تسمية لكل باسم الجزء ،  
كما تسمى أيضا تركوما لذلك . فالتعني أن الصلوات  
كلها التي يصلحها أي شخص ، مسلما كان أو غير  
مسلم ، أو أن المأبد كلها للمسلمين كانت أو لغيرهم  
من أبناء الملل الأخرى . هي لله ، أي ينبغي أن تكون  
خاصة له ، فهو الخالق الحقيقي للبشر ، ولا يحسن  
منهم أن يجعلوا صلواتهم أو مآبدهم لقهره أو باسم  
غيره ، بل يجب أن يخصوه وحده بها ، ويخلصوا له  
العبادة فيها .

هذا ما قاله الجين لقومهم ، ثم فرعوا عليه نهيهم لهم  
عن عبادة غير الله ، فقالوا لهم : ( فلا تدعوا مع الله أحدا )  
أي إذا كانت المساجد له وحده فلا تعبدوا معه سبحانه  
أحدا من خلقه . فالراد باللعاء هنا وفي قوله يمدده  
( يمدوه ) العبادة . وقبلما ذكر اللعاء في الكتاب لا أريد  
به هذا المعنى ، أي العبادة . بل قالوا أن اللعاء مع  
العبادة . واللعاء في الأصل الطلب ، ثم صغر يطلق  
على العبادة ، لأن من شأن العابد أن يطلب من معبوده  
ما لا يقدر عليه غيره . ومن ثم نهى المؤمن بالله أن يطلب  
من غير الله ما لا يقدر عليه إلا الله ، ثلّا يكون في طلبه  
هذا هابدا لذلك المطلوب منه أو الكالمبال به . قال تعالى :  
( والذين يلعبون من دونه ما يكونون من قسطن . ان  
تدعوه لا يسمعون دعوكم ولو سمعوا ما استجابوا  
لكنكم ) .

ولما انتهى أولئك النفر من الجين حديثهم أحبوا أن

يختوه بذلك ما علموه من أحواله صلى الله عليه  
وسلم ، وقيامه بدعوة الناس إلى التوحيد ، وما كان  
من تكذيب الناس له ، وصبره على آذاهم . . فقالوا :  
( والله لا قام عبد الله يدعوه الخ ) ، وقد سموه صلى  
الله عليه وسلم باسم ( عبد الله ) تنبيها لقومهم إلى أنه  
مع ما هو عليه صلى الله عليه وسلم من رفعة القدر ،  
وبهاة الذكر ، واستجماع الكلمات في ذاته الشريفة —  
ليس من شأنه أن يؤسم بغير ميسم العبادة .  
لا تدعني إلا يعبدها قاته اشرف اسمائي  
فليس هو صلى الله عليه وسلم الها أو متساها في  
الأرض ، ولم يتم ليكون جبارا من جبابرتها ، ولا  
طافوتا من طوافيتها . وإنما هو كما قال من نفسه :  
« ميد ، أجلسي كما يجلس العبد ، وأكل كما يأكل  
العبد » . وقد حض أمته على ألا يطروه كما تطرى  
الأمم إبطالها ومظالمها وأتباعها إلى درجة الألوهة ،  
ولكن يقولوا عنه : أنه عبد الله ورسوله .

فالجن يقولون لقومهم : ( أنه لما قام عبد الله )  
محمد صلى الله عليه وسلم ( يمدوه ) يمدوه ربه ،  
ويعبده وحده من دون الأصنام والابتداع التي تعبدوها  
والقتال والدم في ذلك العهد — حاج هؤلاء الأقوام ،  
وتألبوا عليه من كل جانب بحيث ( كادوا يكونون ) من  
فرط كثرتهم وتجمعهم وتعاونهم وإزدحامهم ( عليه )  
لصده من دعوته ، وأسكانه من تبليغ رسالة ربه —  
( ليعاد ) ، كالتبدي : أي كيتوط الشعر أو كيتوط  
لبثت والى بعضها إلى بعض . و ( اللبد ) بكسر ففتح  
جمع لبدة بكسر اللام ويجوز ضمها فتجمع الذاذ على  
لبد كقرفة وفرف . وهي اسم لكل شعر أو صوف  
متلبد . وسمى الشعر المتلبد على أكتاد الأسد لبدا  
لذلك ، ويلقب الأسد به فيقال « ذو لبدة » وفي المثل  
« هو أمتع من لبدة الأسد » .

ثم قال الخطباء : وإن ميد الله محمدا صلى الله عليه  
وسلم لما تلبت عليه القبائل تناصبه وتحارب به . لم يقل  
لهم قول المخبولين الموسمين ، ولا الجبابرين المتكبرين ،  
بل ( قال ) لهم قول البررة المخلصين : أي يا قوم لم آت  
أمر منكرا ، ولم أفعل ما استوجب به منكم كل هذا  
الأعراض والنفور والإصفاق إلى عداوتي ومقاومتي  
( إنما ادعوا ) وأبعد ( وبني ) الذي خلقني وأمدني من  
ضروب العناية والتربية والتأديب بما صرت به بشرا  
سويا ، وعيدا بطمعة ربه مليا ، قاننا لا أكثر بكل هذه  
الشم ، ( ولا أشرك بربي ) وميادته والإخلاص إليه  
( أحدا ) من خلقه : الذين إنما قاموا به ، واستمسدوا  
كيانهم منه ( أ ) .

( ١ ) اقتصر المؤلف هنا على قراءة « قال » وفي تفسير الأنوم :  
( وقرأ الأكثرون قال على أنه حكاية منه تعالى لقوله صلى الله عليه  
وسلم للمترجمين عليه ، أو حكاية من الجين منذ يومهم إلى يومهم  
« . . وقراءة الأخرى قراءة عامسة وحيدة وبني صنف — أظهر  
وافوق لقوله سبحانه « قال لي لامت لكم شرا ولا رشدا » ) .

والعمل بما يرضيه ؟ لاجرم أن الأمر الإلهي ، والنشر السماوي - نموس عام ، بدين الصنع والاحكام ، مطبق بدقة على جميع الأنام ، فمن رآه ، واستمسك بعراه - سلم ونجا ، ومن استخف به ، وحاده عنه - شقى في الحياتين ، ثم هوى .

نفى الوحي عنه صلى الله عليه وسلم في الآيات السابقة كل طاقة وقدره تحول بينه وبين انفاذ الشئنة الالهية فيه ، كما نفى عنه أن يكون مالكا لشئ من مصير الخلق وأمر ضرهم ونفهمهم ، وغيرهم ورشادهم . لكنه عاد فأنبت له صلى الله عليه وسلم حقا واحدا ، وعملا واحدا ، ووظيفة واحدة يملكها بالذن الله ، وهي مناوئته أولئك القوم المكذبين ( بلافا ) جاءه ( من الله ) تعالى و « رسالات » ، وهي مسور القرآن وآياته : أنزلت عليه من الله ليتلوها عليهم ، فمن سمع البلاغ ووعاه من المخاطبين ، وتقبل الرسالات وتبدرها ، وعمل بمضمونها - كانت له الجنة خالدا فيها ابدا ، ( ومن يصي الله ورسوله ) ، فيعرض عن سماع البلاغ وتبدر الرسالات والارتفاع بهلا فان له نار جهنم ) جزاء وفاقا لتكذيبه وأمرافه وسوء صنيعه . وقوله : « خالدين فيها » أي لايتين في العذاب الى غير نهاية ، وإنما جمع ( خالدين ) ميلامع المعنى : وذلك أن ( من ) لفظها مفرد ، فأعاد عليها الضمير مفردا فقال : ( فان له ) ، أما معناها فعصام شامل لكل عاص ، فلذلك جمع خالدين تمايلا مع ذلك المعنى . وفي الكلام - قيل قوله ( ومن بعض الله ) - مقلد اشترنا اليه بقولنا : « فمن سمع البلاغ ووعاه الخ » ، ثم حطفا عليه قوله تعالى ( ومن بعض الله الخ ) ومثله كثير في آيات القرآن ومختلف أساليبه ، ولو ذكر فيه كل ما حلف منه من هذا القبيل لبلغ حجمه أضعاف ما هو عليه ، فسبحان من أنزله ، وبطحية الإيجاز والاعجاز زينته وكلمه .

والضمير في قوله : ( حتى اذا راوا ) يرجع الى ( من ) باعتبار معناها الجمعي كما قلنا في خالدين ، وكلمة ( حتى ) غاية لمضامين الآيات التي وصف فيها أمراض المكذبين وتألبهم على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، بحيث أشبهوا في تألبهم وتظاهرهم البلى . فالملعى : سوف يستمر هؤلاء المستندون في فيهم وضلالهم ، واستخفافهم برسول الله وصحابته ، واستضعافهم لهم ، ( حتى اذا راوا ما يوعدون ) أي حتى وقت ممانتهم ما أوعدهم الله به من العذاب والمعقوبة : أما في الدنيا فان مصيرهم فيها الخزى والخللان والهزيمة وظهور أمر المؤمنين ، وأما في الآخرة فان ما بهم فيها الى النار ونشس القرار ، ( فسيعلمون ) منذ رؤيتهم ذلك ، وتحققهم صحته ( من أصف ناصرا ) معينا وحاميا ( وأقل عددا ) نفرا وجندا : هم

ما من كان آخر حديث أولئك النفر من الجن مع قومهم . ثم انتقل الوحي منه الى الحديث معه صلى الله عليه وسلم معلما له ، ومرشدا الى أفضل الطرق وأمتلها في خطاب قومه من قريش ، ومحتاجتهم في الله ، وتخويفهم عقابه ، جعللا محاجة الجن لقومهم توطئة وتمهيدا ، بل نموذجا ومثالا ، فقال :

( قل ) يا معصدي في محاجة هذه القبائل التي ازدحمت عليك للبش بكَ ازدحام شمير اليهود : ( أتى لا املك لكم ضرا ) أي ولا نفعا - كما لا املك لكم غيا ( ولا رشدا ) : فحذف « نفعا » من الأول لدلالة « ضرا » عليه ، وحذف « غيا » من الثاني لدلالة « رشدا » عليه ، فهو من جوامع الكلم الذي كثر ورود أمثاله في الكلام المجيز .

يأمر الله نبيه صلى الله عليه وسلم أن ينبه قومه ومقوامي دعوته الى أنه لم يبق فيهم لتكون له سيطرة عليهم ، ولا ليليل ويقرر ما قدره الله وقضاه فيهم من خير وشر ، ونفع وضر ، وغى ورشاد ، واشفاء وأسماد - كلا ! فان ذلك كله ليس من مقدوره ، وإنما هو بيد ربهم ، واليه مرجعه . وأتاه هو صلى الله عليه وسلم لم يزد من كونه واحدا منهم : أرسله الله ليبلغهم وحيه وأمره ، ويبلغهم على الطريق التي يريد ربهم أن يستقيموا عليها . فيقدر ما يكون منهم من الهدى في تلك الطريق وعدم الانحراف عنها يكون لهم من الضر والنفع ، والنفى والرشد ، ثم يكون حسابهم على الله . بل ( قل ) لهم يا محمد فوق ذلك ( أتى ) أنا المرسل بتبليغ أسر الله اليكم ( لن يصبرني ) أن خالفت ، وأعلمت ، أو أذنت ، ( من الله ) أن أراد عقساي ، والتنكيل بي ( أحد ) من البشر . ( ولن أجد من دونه ملتصقا ) أي ولن ألقى ان هربت من عقب الله وسطوته ملاذا التجيء اليه ، وآمن فيه من العقاب . سمى الملاذ والملاجا « ملتصقا » من « اللحد » ، وهو في أصل معناه الميل . يقال : لحد فلان الى فلان اذا مال اليه ، ولحد السهم الى الهدف اذا مال عنه ، ولحد في دين الله اذا مال من صراطه الى مضايقه ونياته . ولما كان الملاجا والملاذ يلتصق اليه الهارب للاعتصام به سمى ملتصقا . وقد نفى أولا أن يجد صلى الله عليه وسلم مجيرا وناصرا من جنس البشر ، ثم عاد فنفى أن يكون له ملجا ومقلد يأوى اليه من الأجناس الأخر - فلذا كان هو صلى الله عليه وسلم - حبيب الله وصفيه من خلقه ، ومبلغ وحيه وأمره اليهم - معرضا للقتل والانتقام الالهى ان خالف أو عصى أو قصر في هداية أولئك الأقوام المرسل اليهم - فكيف يكون حالهم هم اذا عصوا وظلموا وتساموا من استماع أمر ربهم ،

قُلْ إِنْ أَدْرِي أَقْرَبُ مَا تَعْبُدُونَ أَمْ لِيِ جَلَلٌ رَبِّي  
أَمَدًا ﴿٦٦﴾ عَلِيمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهَرُ عَلَى غَيْبَةٍ أَحَدًا ﴿٦٧﴾  
إِلَّا مَنِ ارْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَيَمْنُ  
خَلْفَيْهِ رَصَدًا ﴿٦٨﴾ لِّيَعْلَمَ أَن قَدْ أَبْلَغُوا رَسُولَاتِ رَبِّهِمْ  
وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا ﴿٦٩﴾

او محمد عليه الصلاة والسلام . لا ريب أنه صلى الله عليه وسلم هو الأقوى ناصرا ، فان ناصره الله تعالى ، وهو الأكثر عددا ، فان جنده الملائكة الأطهار ، والمؤمنون الأبرار .

ويحتمل أن يكون المعنى أنهم سيعلمون يوم القيامة أن الله تعالى هو القوى العزيز القادر على التنكيل بهم ، والانتقام منهم ، فلا ينفعهم يومئذ انتصارهم وحلفائهم شيئا ، ولا يفيئ منهم عددهم وكثائر حصاهم قليلا .  
كان صلى الله عليه وسلم كلما خوف المكلفين نذر جهنم ، وحلهم أهوال السعاة - أظهروا الاستخفاف بقوله ، وسالوه : متى تقوم هذه السعاة ؟ وطلبوا منه أن يعين لهم زمنها ووقت حلولها ، ويتفلسفون من جهلهم وقتها ، وإخفاء الله لها ، سبيلا إلى تكذيبها واتكارها بالجملة . والله في إخفاء الوقت الذي تخرب فيه الكائنات وتقوم السعاة - حكمة هو سبحانه أعلم بها ، وربما كان لذلك تعلق شديد بحياة البشر ، واستتباب أمرهم ، وانتظام مصالحهم . وقد كانوا يلحون عليه صلى الله عليه وسلم في تعرف أمر السعاة ، فكان أحيانا يشاركهم في الاهتمام بها ، وترديد ذكرها ، حتى عابته ربه عليه ذلك في سورة التافات فقال : ( يسألونك من الساعة إيان مرساها ليس أنت من ذكرها . إلى ذلك متبهاها ) ، يعني أن أمرها غيب اقتضت الحكمة الإلهية ألا يطلع عليه أحد حتى أنت يا محمد ، فدع منك كثرة الهيج بها .

وهكذا القرآن : كان كلما ذكر من أمر السعاة وتحقيق وقوعها ، أتبع ذلك ببيان أن زمنها مكتوم من الخلق يجعله كل أحد إلا الله .

ولما ختم في الآيات السابقة الحديث مع قبائل العرب المتألبين عليه صلى الله عليه وسلم - بإعدادهم بنار جهنم والخلود فيها - كانوا يسألون أن يسالوه حسب شئسنتهم - متى يكون هذا الذي تعدنا به ؟ قريب هو أم بعيد ؟ فقال الله لنبيه ( قل ) لهم يا محمد ( أن أدري ) أي ما أدري ( أقرب ما توعدون ) من قيام

الساعة بحيث أصبح متوقع الحول ، منتظر الحصول كل وقت وأن ، ( لم يجعل له ربي أمدا ) ، يعني أم من غير منتظر الآن وغير متوقع الحصول ، لأن الله جعل له أمدا وأجلا هو بالثمة ، فقله ( أمدا ) واقع في مقابل قوله ( قريب ) كما تقول : اقربية زيارتك أم لها أجل فهي مؤخرة إليه ؟

ثم وصف تعالى نفسه بقوله : ( عالم الغيب ) . وفي سياق الآيات الماضية أمران اقتضيا وصفه تعالى بذلك :

١ - ما ورد على لسان أولئك النفر من الجن : أنهم لا يعلمون الغيب ، وأن الله قد حال بينهم وبين معرفة ما قدره في السماء بشأن الخلائق .

٢ - إخفاء السعاة عن متناول علم البشر ، وأنه لا معنى لاحتمامهم بها وتساؤلهم عنها من وقت لآخر ، فالغيب بوجه عام - وغيب يوم القيامة بوجه خاص - مما استأثر الله بعلمه .

( فلا يظهر ) (١) أي لا يطلع ( على غيبه أحد ) من خلقه .

و ( آل ) في ( الغيب ) للاستفراق ، أي أنه تعالى عالم كل الغيوب على اختلاف أنواعها وأشكالها ، والغيب ما غاب عنا معشر البشر مما لا نهندى إليه بشيء من حواسنا ومشاعرنا ، أو بشيء من فرائسنا وقبائسنا واستنتاج عقولنا . وكل ما أمكننا علمه والوصول إليه بأحدى هذه الوسائل لا يكون غيبا ، بل لا يسمى غيبا بالمعنى الذي يشمله قوله تعالى ( عالم الغيب ) .

والغيوب التي استأثر الله بعلمها أنواع ، لكن منها ما للبشر فيه حاجة ، ولهم بالاطلاع عليه رفق ورحمة وفائدة : كالوحي والشرائع والأوامر والنواهي الإلهية الغيبية عنهم ، والتي لا يلبثها علمهم ، وإن تهتدى إليها عقولهم . فلهذا الشرائع السماوية إذا بقيت مكتومة عنهم ، غير مبجلة إليهم - أضر ذلك بهم ، وأخل بنظام أمرهم ، وضح عليهم السعادات الدنيوية والأخروية .

وقد قام في البشر حكماء وفلاسفة وكهان ادعوا علم هذا النوع من الغيب المتصلقي بمصالح البشر ، وانتظام أمرهم ، وكانوا يزعمون أنهم وصلوا إلى حوز منه بعقولهم أو رياضاتهم ، أو بواسطة الجن ، ففني الله ذلك أولا من الجن بلسان الجن أنفسهم ، وفيه

(١) ورد في الحديث أنه صلى الله عليه وسلم سمع جوارى ينين في مرس ويقين :

وأصغى ثيا أقبسا تبسبح في المرديد  
ودجرك في التلوي ويسلم ما في قسدد  
فقال صلى الله عليه وسلم : لا يعلم الغيب إلا الله . ومعنى تبسبح تتمن وتجلس مستريحة ، والريد الخطيرة - المؤلف قوله ( في التلوي ) هو كذلك في الأمل وفي لسان العرب ، ولعله في التلوي - ليستقيم وزن البيت - المصحح .

تكون مايسميه النحلة لام العاقبة ، وميثاقون لها بقوله تعالى ( فالتقطه آل فرعون ليكون لهم عدوا وحزنا ) وكما مر في لام ( لتفتنهم فيه ) .

فمعنى الآية اذن انه تعالى عالم القيب كله لا يطلع عليه احدا من خلقه ، انسيا كان او جنيا ، حكيم او كاهنا ، اللهم الا غيبه الذى في اطلاع الخلق عليه رحمة بهم واستصلاح لهم ، وهو شرعه السماوى ، وخطابه الأزلئ الالهى ، فاته يوحيه بواسطة أمين وحيه جبريل الى ( من ارتضى من رسول ) ، أى الى أى رسول من خلقه ارتضاه واختاره واصطفاه لذلك ، فيأمره بتبليغه اليهم ، واته تعالى ( يسلك ) ، أى يرسل ويبحث ويبحث من بين يدي رسله ومن خلقهم ( رسلا ) على معنى انه تعالى يحيط برسله من كل جانب يرصد من الحراس والحفظة ، وذلك صوتا لهم ، وحفظا من الواسوس والتخاطيل ، او من الدخول والنسيان ، حتى لا يتروكا بعض ما أوحى اليهم ، أو يذهبوا عنه ، أو يفقدوا تبليغه . وهذا كتابة عن أنه تعالى ركن في فطرة أنبيائه مقدرة أو صفة بها يطبقون تبليغ رسالاته الى خلقه من دون تفريط في شيء منها ، كما تقرر في « علم العقائد » ، ويسمون تلك الصفة « العصمة أو الأمانة » .

ثم ان ازال الوحي ورسالات الكتب السماوية الى الأنبياء ، وعصمتهم من التفريط فيها - تكون نتيجته ابطالهم تلك الرسالات الى البشر ، وبذلك تتحقق المعلومات الالهية ، وتم الشيئة الأزلئ في اسعادهم وهدايتهم ، واستصلاح أمر دنياهم وآخرتهم . فالرأد من قوله ( يعلم ) يظهر وينكشف ويتحقق كما قلنا آنفا . وقد زاد هذا المعنى وضوحا بقسوله بعده ( وأحاط بها لديهم ) ، أى انه تعالى أحاط علمه بجميع ما لدى الأنبياء من الوحي والشرائع والرسالات ، قلن يفوته منها شيء ، ولا يتفقت حرف ، فهو محص لها ، معين عليها : وهو تعالى لم يحط علمه القديم بما لدى رسله فقط بل انه ( أحصى ) ، وعلم علم ضبط واستقصاء وحصول - ( كل شيء ) من هذه المخلوقات المنبئة في الأرضين والسماوات ( علما ) ، أى حالة كون كل واحد من تلك الأشياء معلودا مميذا من غيره . هذا هو مبلغ علمه سبحانه بتفاصيل الأشياء المكونة وجزئياتها ، فكيف لا يحيط علما بما عند رسله من وحيه ورسالاته التي أمرهم بتبليغها الى خلقه ؟ وكيف يمكن لرسله عليهم الصلاة والسلام ان يفرطوا في تلك الرسالات ، أو يزيدوا أو ينقصوا ، أو يحرّفوا فيها أو يغيروا ، وهو تعالى محيط بها محص لها ؟

منهم مستلزم لتلقى معرفته من الكهان بالضرورة . ثم ثنى في هذه الآية إمكان اطلاع أحد من البشر مهما ارتقى عقله ، وضح حكمه ، وصفا قلبه ، واشترت نفسه - على ما في غيب الله من الوحي والشرع الذى يتوقف عليه خير البشر وصلاحهم ( الا من ارتضى من وصول ) - فاته تعالى قد يرضى ويصطفى رسلا من خلقه يطلعهم بواسطة جبريل عليه السلام على ذلك الغيب السماوى ، فيبلغهم آياه وحيا - تورا أو زبورا أو انجيلا أو قرآنا ، متضمنا ما يريد ان يخاطبهم به مما اليه صلاحهم وسعادتهم ، وانتظام امر معاشهم وممادهم .

وهذا هو المراد من الغيب الذى قال الله عنه انه يطلع عليه رسله الكرام عليهم الصلاة والسلام . نقل ذلك ابن جرير الطبرى في تفسيره من ابن عباس رضى الله عنهما ، وذهب اليه أيضا ابن جرير ، وذو ين حبش ، وابن واقد ، وابن زيد ، وقالوا : ان الغيب هنا بمعنى الوحي والشرائع كالغيب في قوله تعالى : ( وما هو على الغيب بضئ ) ، أى ما محمد صلى الله عليه وسلم على الوحي والشرع الذى يلقى اليه بمتهم البغير أو يبدل فيه .

ومما يشهد على أن المراد بالغيب ما ذكر - قوله تعالى بعده : ( فانه يسلك من بين يديه ومن خلفه وصفا ، يعلم ان قد ابلفوا رسالات ربهم ) .

( بسلك واسلك ) بمعنى ادخل وارسل وبث ، ( والرصد ) مر أنه بمعنى الحرس والحفظة ، وضمر ( يديه ) يرجع الى ( من ) في قوله ( من ارتضى من رسول ) باعتبار لفظها المفرد ، لكن لما كان معناها جمعا : وهو كل رسول يرتضيه سبحانه ويصطفيه لنبوته - أماد عليها الضمر في ( ابلفوا رسالات ربهم ) جمعا ، وقد مر نظيره في قوله : ( فان له نر جهنم خالدين فيها أبدا ) .

ومعنى ( يعلم ) لاجل ان يقع تبليغ الرسالات وينكشف أمره للخلق ، فيتملق علم الله به واقعا - وقد سعى ذلك الوقوع علما كما سعاد ذلك في آية ( ولنبلوكم حتى تعلم المجاهدين منكم والصابرين ) ، والا فان اطلاع الله رسله على وحيه ، ثم حفظه لهم من نسيان شيء منه - ليس لاجل ان يعلم الله هو ذاته ذلك ، كيف وهو يعلمه منذ الأزل وقد قدره وقضاه ؟ وانما يرسل الله الرسل ويعصمهم من النسيان لاجل ان يعقب ذلك انجاز القدر الالهى ، وتعلق العلم القديم ، وتكون نتيجته تبليغ هؤلاء الرسل رسالات ربهم ووحيه الى خلقه . فاللازم في قوله ( يعلم ) يشبه ان

(٧٢) مَبَازِلُ الْبَزْمَلِ مَكْتَبَةٌ  
الْآيَاتُ ١٠٠ وَ ٢٠٠ تَدْنِيهِ  
وَأَهْلَانَا ٢٠ نَزَلَتْ بِعَدِّ الْفَتَرِ

## بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

يَا أَيُّهَا الْاَزْمَلُ ١ قُمْ ائِيلَ إِلَّا قَلِيلًا ٢ قَصِّفْهُ  
أَوْ اَنْقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا ٣ أَوْزِدْ عَلَيْهِ وَزِدْ الْقُرْآنَ  
تَرْبِيًا ٤ إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا ٥ إِنَّ نَاشِئَةَ  
الْأَيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْأً وَأَقْوَمُ قِيلًا ٦ إِنَّكَ فِي النَّهَارِ

الناسوس الذي كان ينزل على اخوانه الانبياء  
والمرسلين قبله ، او ان طلبه التلقف بالثياب كان  
لقشورية يرد شعر بها في جسمه .

ولا حاد اليه الملك مرة ثانية وجهه صلى الله عليه  
وسلم متمزلا في قطيفة ، فقال له : ( يا ايها الزمل  
قم الليل الخ ) ، وهي فاتحة سورتنا هذه . ثم جاءه  
مرة اخرى وكان متمذرا ، اى متلفعا كذلك بكسائه ،  
فقال له : ( يا ايها اللذر قم فانذر الخ ) ، وهي فاتحة  
السورة الآتية . والسبب في الخطاب فيها كالسبب  
في الخطاب في هذه السورة على ما سيأتي . وفي كلتا  
الحالتين كان صلى الله عليه وسلم غير متثبت من أمر  
الوحي لأول نزوله عليه ، فكان يريد أن يتجنبه  
بالتزمل والتدثر ، وعدم التعرض للهاتف ، حتى  
تحقق الأمر أخيرا ، ولم انه جبريل عليه السلام  
ياكبه بالوحي ويبلغه أمر الله . وقد كان للسيدة  
خديجة رغي الله منها الوقت العظيم في تثبيت قلبه ،  
وتهذئة روحه ، وكشف الهواجس من خلده ، كما هو  
مبسوط في كتب السير .

و « المزل » و « اللذر » من « تزل وتلذر »  
قلبت تاهما زايًا ودالا ، وأدغمنا في الراى والدال  
الأصليتين ، وأجلبت الهزة في أول كل منهما لأجل  
التوصل إلى النطق بالساكن ، فقل « ازل واذلر » .  
واسم الفاعل منهما « زمّل ومذر » .

أما خطاب الملك لتبينا صلى الله عليه وسلم بياها  
المزل ، وبلبيله أمر ربه بقيام الليل وترويل القرآن ،  
وبقية الأوامر والأرشادات التي تستمعها في هذه  
السورة - فالقصد منه إفراغ الأمة الحديدية في قلبه  
متين من التريبتين الجسدية والروحية . فالشارع  
الاعظم لم يهملنا من بيان الطرائق التي تؤدي إلى توفير  
هاتين التريبتين فينا . فهو لم يكتف بما كان عند  
أسلافنا العرب من القوة الفطرية الراسخة في نفوسهم  
وأبدانهم ، بل شرع لهم من طرقها ووسائلها ما يزيدنا  
رسموذا فيهم ، فيستفيدون من هذه التربية فيما  
نلدوا له من القيام بالأعمال الجليلة . كما أن ههذه  
التربية نفسها تقى إنبادهم الآتين مضرات الترف  
والدعة وبلهيتة العيش التي سيجبسون مرضين  
لها بسبب الفتح واستبحار العمران ، والتبسط في  
مناسي الحضارة . فالتكاليف الشرعية المتعلقة بالبدن  
مثل المحافظة على الصلوات الخمس ، والقيام من  
آخر الليل لصلاة الفجر ، والوضوء بالماء البارد مرارا ،  
والاعتسال به أحيانا ، وكالصوم في أيام الحر ، والقيام  
للسجود من آخر الليل ، كاللحج وتحمل المشقات  
السفر لأداء فريضته ، والأحرام والسعي والطواف ،  
وكالجهاد وما ينطوي تحته من شروب المشقات  
والاعمال - كل ذلك يورث أبدانا صلابة ونفوسنا  
قوة تسامنا على الثبات في معترك الحياة الصام ،  
وتكون هونا لنا على نشر تعاليم الاسلام بين الأمم .  
مسئل فائدتي الزعيم الهندوسي المشهور عن تذكراته في

نواحي هذه السورة من أوائل ما أنزل عليه صلى  
الله عليه وسلم بعد سورة ( اقرأ باسم ربك ) . وكان  
من خير ذلك أن العناية الإلهية يصدا عادت نفسه  
الشريفة لقبول الوحي - وكان في الأربعين من عمره -  
نزل عليه جبريل وهو في غار حراء ، فالتقى عليه :  
( اقرأ باسم ربك الذي خلق . خلق الإنسان من  
الطين . اقرأ وربك الأكرم . الذي علم بالقلم . علم  
الإنسان ما لم يعلم ) ، فكان أمر العلم والتعلم أول  
ما قرع قلبه الشريف من قوافح الوحي السماوي  
والتعليم الإلهي . واذ لم يكن له صلى الله عليه وسلم  
عهد بتلقى وحي ومخاطبة ملك - فحضر منه (١) ، وظننمسا  
أن عارضا عرض له . والمرد في مثا هذه الحالة لا يجد  
مسكنا لروحه ، مخفقا لهواجسه - مثل الانتجاع إلى  
بيته ، ويث شكواه إلى زوجة . ففعل صلى الله عليه  
وسلم ذلك . وكأنه خاف أن يفجسه من أمر الملك  
ثانية ما فاجأه أولا ، فالتقى نفسه في فراشه ، وقال  
للسيدة خديجة زوجة : زمولني زمولني ، اى لغفوني  
بالثياب . فيشبه أن يكون قد أراد بذلك الاستخفاء  
عن الملك ، وإراحة نفسه من شقاء الطارئ الجديد ،  
وما خامر قلبه من الهول الشديد . ولم يدرك أنه

(١) وهناك تبينا محمد صلى الله عليه وسلم في حصول اللذر  
والاضطراب والتعبية له عند نزول الوحي عليه - فكان جده  
إبراهيم عليه السلام في ذلك ، لدى الناس الكتب للشمس  
للدكتور بوست في ترجمة إبراهيم الخليل : ( ولا كان إبراهيم ابن  
تسع وتسعين سنة ظهر له الله على أسلوب غريب اعتلا منه ربما  
وخفا وسقط على وجهه ) ، ( ولا قاربت الشمس الزوال وقع  
على إبراهيم سبات مصعوب « برجة مظلمة » ولّى خلالها أوصى  
إليه ببعض الحوادث المفطرة التي تجري في مستقبل ابنه وفسله  
من بعده ) ١ ج .



السجن فقال : « ان اضطر شيء حصلت عليه في السجن هو تعودى احتمال متاعب الجسد ، فقد كنت اجد ان قوتي الروحية تزداد نشاطا . واتنى اعتقد ان الله يقوى ويساعد المظلومين ، وذلك يجعلهم يقاسون الأتلاف الجسدية كاستحسان لقواهم الروحية » ١ هـ . فالتكاليف السماوية تقوى الجسم يسبب تعرضه بها ، وتعرضه لها المرة بعد المرة . وتقوى النفس انشا يسبب انها تصبح حاكمة على الجسد ، نافذة الإرادة فيه ، مصرفة له فيما تريد ، ولا تكون لشياطين الأخلاق الرديئة - كالكسل والاسترخاء والجبن والأهمال - سيطرة عليها . بل ان افتراض الركاة نفسها فيه تعويد النفس قهر شيطان البخل ، والتغنى من سطوته ، وخفى وسوسسته . وبذلك تصبح النفس قوية العزيمة ، نافذة الكلمة في مملكتها البدنية . وفي القرآن الكريم آيات جمة تتضمن الحث على تقوية الجسم والنفس والتمسك بأسبابها . وهذا الحث السماوى يلقى على المخاطبين بأسلوب عجيب لا يتفطن له الا بعد تأمل وامعان نظر . وقد يقرأ القارئ آية من القرآن يحسبها ترمي الى ممارسة عبادة ما ، ويكون هناك حكم وأمرار أخرى لهم والشمل وأطلق بالتربية الاجتماعية من التربية الجسدية . من ذلك هذه الآيات التي افتتحت بها هذه السورة .

فقلوه : ( يا ايها المزمل ) ، أى يا بهما الذى تلفف بقطيعته ، واضطلع برأوية بيته ، وقد أشبه في فعله هذا من يؤثر البعة والسكون ، ويحاول التخلص من صموبة ما يورث اليه من أمر يعينه أو مصلحة تهمه : ( قم الليل أو قليلا . نصفه أو انقص منه قليلا . أو زد عليه ) ، أى دع القرآن والتفكير ، واتشغل لصلاة الليل والقيام فيه ساعات . والواجب ان تكون هذه الساعات طويلة بحيث لا تقل عن ثلث الليل ، خشية الا يكون لها تأثير في الجسم والروح ، كما لا تزيد عن الثلثين خشية ان يؤدي القيام الى عكس المراد منه : فيضعف جسمك ، وتتضائل قوتك ، فلا تعود قادرا على تحمل أميأ التبليغ ، ومعاونة شؤون الدعوة . فقلوه ( قم الليل أو قليلا ) معناه لاتقمه كله . ثم فسرد ذلك بقوله : نصفه ، أى قم نصفه ، أو اقل من النصف قليلا ، أو أكثر منه ، يعنى قليلا . وهذا هو معنى ما قلناه : ان المكلف هو ساعات تختلف بين الثلث والثلثين لما بيننا من الحكمة في ذلك .

( ورتل القرآن ترميلا ) ، أى اقرأ القرآن اثناء قيامك من الليل قرواة ثبت وثوقة : آية إثر آية ، كما يرسخ في نفسك معنى الوحي السماوى ، وتغنى مغزى الخطاب الإلهى فهم احاطة واكتناه ، ولا تسرده سردا يضيع معه التدبير وفهم المعنى . يقال كلام ورتل ورتل اذا كان من مرلا مفضلا ، كما يقال نفر رتل ورتل اذا كان مفلجا مغرجا .

لا جرم انه صلى الله عليه وسلم قد تادب بادب القرآن ، وتأسى به أصحابه الأبرار ، فاطلوا ربه في

أحياء الليل ، والتخفف للصلاة ، ومجاهدة النفس ، حتى شحبت روائهم ، وذبلت أجسامهم ، ووروت أقدامهم . وقد رحمهم ربهم فانزل على نبيه مؤذنه بأنه بلغ من المجاهدة والعبادة وقيام الليل ثوقا مكلفه ، فقال تعالى : ( هـ ) ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى ، الا تذكرة لمن يخشى ) .

وبعد ان أمر الله تعالى رسوله صلى الله عليه وسلم بطراح النوم ، والوقوف الى العمل ، وان يصلى في الليل ساعات طويلة ، وأن يفهم الخطاب الإلهى المتعلق بهداية المكلفين ومجاهدتهم فيما يصعدون من دون الله - انتقل الى بيان السبب في هذه الأوامر الثلاثة ذات التكليف الشاق ، فقال : ( انا سنلقى عليك قولنا ثقيلا ) ، أى انا سننزل عليك وحياتضمن الدعوة الى دين جديد ، وحمل الناس عليه ، وتكليفهم العمل بأحكامه . فهو بالطبع سيكون ثقيلا شديدا الوطأة عليهم ، لما فيه من ترك ما القوه من العقائد ، وتبدل ما ورثوه من أسلافهم من التقاليد . فانت يا محمد معرض لمتاعب كثيرة ، وأخطار جمة ، في سبيل هذه الدعوة ، وحمل الشر على قبولها . فكيف يمكنك ان تقوم بهذه المهمة وأنت على مآثر من التزمل والتلف والنوم والعزلة ، وملازمة الراحة والسكون ، والبعد عن المشاق وقهر النفس وحملها على العبادة والمجاهدة الطويلة ، وعدم دراسة الوحي الإلهى درس تفهم وتدبر ؟ فلتشغل من مضجعتك اذن ، واسهر معظم ليالك ، وادرس آيات القرآن درسا عميقا ، استعدا لتحمل مشاق الدعوة ، ومتعب تبليغ هذا الوحي الشديد ، والدين الجديد .

وكان هناك سائلا يشك في أن قيام الليل ودرس القرآن مما يساعد على تحمل متاعب الدعوة ، فرجع الخطاب الإلهى الى تقرير هذه الحقيقة فقال : ( أن ناشئة الليل الخ ) .

( و ناشئة الليل ) : ما يحدث فيه ويتجدد من الطاعات والعبادات : من نشأ اذا حدث وتجدد . ومعنى ( أشد وطئا ) أصعب على النفس وأثقل مما لو انشئت في النهار . ومنه قوله صلى الله عليه وسلم : « اللهم اشد وطئاك على مفر » . والمعنى ان ما ينشئه المرء ويحدثه من طاعة وعبادة يقوم لها من مضجعه بعد هذاه من الليل : هو ممارسة صعبة ثقيلة عليه ، ومن شأنها ان تقوى النفوس ، وتشد العزائم ، وتصلب الأبدان . ولا ريب ان التفرس بالمجاهدين ومساوئهم وطول النزاع معهم يحتاج الى نفوس قوية ، وأبدان صلبة .

هذا هو تأثير ناشئة الليل في الأجسام والنفوس . اما تأثيرها في تعقل الوحي ، واستيعابه معاني الخطاب الإلهى - فلا يقل عن التأثير الأول . وهذا معنى قوله تعالى : ( واقوم قليلا ) .

( القيل ) : مصدر كالقول والقال . و ( اقوم ) أى اعمل وأبين وأسد وأثبت . والمعنى ان تلاوة القرآن ودراسة الوحي في الليل أو في صلاة الليل ، وتفهمه والتأمل في معانيه - أبين وأسد وأثمن في الليل منها في

سَمِعًا طَوِيلًا ﴿٧﴾ وَادَّكِرَ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ

تَبَتُّلًا ﴿٨﴾ رَبَّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ

فَاجْلِهِ وَبِكَلِّ ﴿٩﴾ وَأَسِيرَ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَاجْزَمْ جَزْمًا

جَمِيلًا ﴿١٠﴾ وَذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ أُولِي النِّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ

قَلِيلًا ﴿١١﴾ إِنَّ لَدُنَّا أَتْكَالًا وَجَحِيمًا ﴿١٢﴾ وَطَعَامًا ذَا

النهار . فان هدو الصوت في الليل ، وسكون الحركة فيه - اجتمع للقلب ، واهون للنفس على التسدير والتفكير والتأمل في الأسرار والقاصد . وهذا أمر محقق يعرفه كل من امتطى صهوات البالي ، الى بيل المطامح والآمال .

ثم رجع الوحي الى بيان الحكمة في تحمل مشقات قيام الليل ودراسة القرآن فقال : ( ان لك في النهار سمعًا طويلاً ) . اصل معنى السبح العموم على وجه الماء او المروء السريع في الماء ، ثم استعمل للمروء السريع في الهواء ، فيستعمل في الطير والفارس ، ومنه « سبحوا لها منها عليها شواهد » . ويستعمل أحياناً في التصرف في الأشغال ، وسرعة المروء في الأعمال . وهو المراد هنا ، بقول : ان لك في النهار تصرفاً وتقبلاً ، واشتغالا طويلاً في مهمات الوظيفة المقدسة الموكولة اليك ، وهي دعوة المشركين الى دينك ، ومجادلتهم في بطلان ما هم عليه من الشرك . ومثل هذا العمل الشاق لا يقوم به الا من توفرت فيه القوتان : قوة الجسم وقوة النفس . وان ناشئة الليل ، والقيام فيه للمعبادة وتلاوة القرآن - مما يساعد على ذلك ، ويكسب جسمك صلابة ، ونفسك مثالة لممارسة هذا العمل الشاق في النهار .

قد يعترض معترض بان قيام الليل وطول التهجد فيه يضعف الجسم من المقاومة والمكافحة ، فكيف يكون وسيلة لقوة والجلادة ؟ هذا الاعتراض نفسه أورد على سيدنا علي بن ابي طالب رضى الله عنه ، واجاب عنه . وهذا نص قوله :

« وكاني يقاتلكم يقول : اذا كان هذا حال ابن ابي طالب ( أى من التخشن والتهجد والتأمل من الطعام ) فقد تعد به الضعف من قتال الأقران ، ومنافاة الشجيمان . الا وان شجرة الربة اصلب مودا ، والراولع الخضرة ( أى الاعشاب اللينة ) ارق جلودا ، والنباتات البدوية اقوى وقودا ، وأبواب خمودا ، وأنا من رسول الله كالصنوبر من الصنوبر ، والذراع من العصف ( أى انه هو وسيدنا الرسول من أصل واحد والخلق العمل ) والطريقة واسلوب المعيشة فيكون في حالته كما كان سيدنا الرسول : شديد اليأس قوى العزيمة ، وان كان خشن المعيشة ) . ثم قال : « والله لو تظاهرت العرب

على قتالي ما وليت عنها . ولو امكنت الفرس من رقبها لسارعت اليها » اه . هلما ما قاله على رضى الله عنه ، ومنه تعلم ان الرياضات البدنية : من الصيام والقيام والتكشف ، اذا روي فيها الاعتدال الشروع ، أدت الى قوة الجسم ومثانة العزم ، لا الى ضعفها . وقد تحصل من الآيات السابقة ثلاث مقدمات :

١ - نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن النوم والعزلة والتلف في الثياب كما يكون من شأن المتراخي المتفصى من التعرض للاخطار في سبيل القيام بوظيفته .

٢ - حضى صلى الله عليه وسلم على قيام الليل الى حد محدود ، ودرس الوحي الذى يلقي عليه درساً عميقاً كى يقوى على أداء وظيفته .

٣ - بيان صعوبة أمر الدين ، وصبر الدعوة اليه ، وان على الداعى ان يبذل الجهد العظيم ، ويقضى الوقت الطويل في مصاولة الجاحدين وجندال المبطلين .

وبعد ان قرر الخطاب الإلهي هذه المقدمات التى هي بمثابة تمهيد وبساط الدعوة - انتقل الى أمر الرسول صلى الله عليه وسلم بها نفسها ، وتعليمه كيفية السير فيها عملاً ، يمدد ان مهدها له نظراً ، فقال تعالى : ( وادكر اسم ربك وتبتل اليه تبتيلاً ) . أى بعد ان يتم لك ما تريد من تقوية بذلك ونفسك بواسطة الطاعات والمبادات البليغة ودرس الخطاب الإلهي درساً مدققاً - باشر وظيفتك النهارية ، وهى دعوة الخلق الى الحق ، والزاهم بخلع الأوثان وما يعبدون من دون الله .

فقلوه ( وادكر اسم ربك ) مثل ما تقول لآخر « سم الله » وأنت تريد حضى على الأخذ بعمل فيه مشقة ، وإبدائه بطول وقته . كأنك تقول له : هيا باشر وظيفتك ، وقم بالعمل الذى أمرت به ، فقد جاء وقت الشروع فيه .

او المراد بقوله : ( وادكر اسم ربك ) ارفع صوتك بذكر ربك ، وأعلن صفاته الحقيقية بين أظهر المشركين ، وادهم الى عبادته وحده ، وخلع الأنعنام .

ثم علم الله ان يكون مقبلاً على ربه ، منصرف الهمة اليه وحده ، فقال : ( وتبتل اليه تبتيلاً ) . أى اتقطع اليه انتقاماً تاماً ، وأخلص اليه إخلاصاً عارياً من الشوائب ، ولا تدع نفسك تعتمد في شأن من شئتوك على غيره تعالى ، وهذا هو التوحيد الحقيقي . اما اذا شاب الاعتقاد بالله شوب اعتماد روحاني من غير الله - فانه يكون ولا رب خسوياً من حيم ، ولا يكون صاحبه من أمر عقيدته على الصراط المستقيم .

واصل معنى البتل : القطع ، كالبت والبر والبتك ، ثم غلب التبتل على الانقطاع عن الدنيا الى الله ، ومنه « البتول » لقب السيدة مريم ، وقيل سميت به لانقطاعها عن الزواج ، ويقال : بتل الى الله ، كما يقال : بتل اليه .

وكان الظاهر أن يقول في تأكيد ( تبتل ) في الآية « تبتلا » لا « تبتيلا » ، فإن التبتيل مصدر تبتل لا تبتل ، لكن لما كان معنى تبتل : تبتل نفسك - جاز أن يؤكد تبتل بالتبتييل ، ميلا مع هذا المعنى ، ومراعاة لحق التواصل . وقد مر مثله في قوله تعالى : ( والله ابتكم من الأرض نباتا ) . ومثاله في كلام العرب قول شاعرهم :

وخير الأمر ما استقبلت منه وليس بأن تبتيه اتباعا  
فان « تبتيه » من التبتل والمغرب ويدبر امورها  
وكان الظاهر أن يقول « تبتيه تبتيا » .

ثم استدل على وجوب الانقطاع له وحده وترك  
اشراك غيره به بقوله ( وب للشرق والمغرب ) ، أي هو  
وحده الذي يربى الشرق والمغرب ويدبر امورها .  
و ( للشرق والمغرب ) يكتنى بهما عن الكائنات كلها  
والخلاق بجمليتهم ، وأن التقابل فيهما يشعر بالاحاطة  
والشمول وإرادة الجميع ، كما يقولون : « من الباب  
الى الخراب » يريدون كل ما في الدار لا بابها ومخاربا  
وحدهما ، وعرباب الدار صهرها . ومعنى كونه تعالى  
رب الكائنات أنه ربها ومهد لها سبيل النمو والرفق  
والانتقال في التكامل من طور الى طور كما يرى  
الشخص ابنه أو فصيلته (١) .

وقد يكون في تخصيص كلمتي ( للشرق والمغرب )  
بالذکر ، وبكونه ربها - إشارة على الاستدلال على  
وحدانية الله . ووجوب الانقطاع اليه بطريق عقلي  
كأنه يقول : أنك أيها الإنسان لو تأملت في الكائنات  
كلها من شرقها الى غربها - وجدتها : من حيث التكوين  
والتركيب والانساق السنن والتواميس - على نمط  
واحد ، ووفرة واحدة . ادرسي طبيعة الكائنات في  
أقصى الشرق ، ثم ادرسيها في أقصى الغرب - تجدها  
خاضعة لتواميس طبيعية واحدة - وسترى الاهیة  
متساوية متقاودة : لا تتبدل ولا تتغير . فلاحظها  
الحكيم الذي أبدعها على هذه الصورة ، وألفها في  
هذا انقلاب - هو واحد لا متعدد . الكائنات في الشرق  
والغرب واحدة في تكوينها فخالقها واحد في وجوده .  
الكائنات ذات واحدة في الطبيعة والتكوين والقوة  
والجوهر الفردية وتعاود التواميس ، فلا جرم أن تكون  
لكل الكائنات منبعثة من اله مختل ذي وحدة حقيقية  
في ذاته وصفاته وأفعاله ، فيكون في ذكر ( للشرق  
والغرب ) إشارة الى دليل عقلي وطبعي على أن  
الحق لهذه الكائنات : واحد أحد ، فرد صمد ، لا شريك  
له ولا ولد ، فلا يجوز إذن الاستعداد وطلب الاسماء  
من غيره تعالى ، ولذلك عقبه بقوله : ( لا اله الا هو  
فاتقوه وكبريا ) ، أي اتمد يا محمد عليه وحده في  
دعوتك البشر الى الإيمان - وهذا الخطاب وإن كان  
موجها اليه صلى الله عليه وسلم ، فإن القصد منه  
التعريض بالمشركين ، وإسباغهم ما يجلب بهم أن يفعلوه  
هم أنفسهم الذين يعبدون الأصنام ، ويتوكلون عليها

(١) الفلذ تكتب ، وعدو ، وسو : الجحش والمهر فلما أو  
بنا السنة ، والفيلة : النحلة الصغرى - القاموس .

ويؤفزون (١) في التشاؤم إليها ، لا هو صلى الله  
عليه وسلم .

ظهر مما تقدم كيف انتقل الخطاب الالهي بالنبی  
صلى الله عليه وسلم من ساحة الاستعداد والتهيئة  
اليلية الى ساحة العمل وممارسة الدعوة النهارية .  
وبدیهی أنه سيجد أمامه في الساحة الثانية سدا  
منيعا من المكذبين القارمين : كلهم يردون عليه ،  
ويسفهون رأيه ، ويرغمون فيه الزاعم الباطل : من  
مثل أنه - وحاشاه - ساحر أو مجنون أو طالب  
رباسة دنیویة في نظیر ذلك ، ولكن الله تعالى رباه  
التربة التينة التي تجعله يصبر على هذه المشاقبات  
والناقضات .

ولذلك قال له بعد أن امره بالدعوة النهارية :  
( واصبر على ما يقولون ) ، أي اذا دعوتهم في النهار  
وعرضوك ، وتقولوا عليك الأقاويل - فاصبر عليهم  
يا محمد ، وتجدد قلوبهم ، ( واصبرهم صبرا جلیلا ) ،  
أي امرض منهم امراضا لا يشبهه كذا ولا شتم ولا  
مقاومة ربما يمتحن أصحابك بالعبادة والمجاهدة  
اليلية على المناجزة والمجاهدة النهارية . وتكون بذلك  
قد تمها لك الرد ، واستوسقت العصية ، وتوفرت  
أسباب القلیة والظهور عليهم . أما الآن ، أي قبل أن  
تصل أنت وأصحابك الى هذا الطور : طور القدرة على  
أعمال السیف والسنان - فینبئ الصبر والاعتصام  
على الدعوة باللسان .

تقول : ومن أين اخذت هذا المعنى ؟ فأقول : من  
قوله تعالى بعد ذلك : ( وذری الذکین اولى النعمة  
ومهلهم قلیلا ، ان لنا لفيها اكالا نافع ) . يقول الله تلبية :  
اهمل الآن أنت وأصحابك بما امرتكم به من قيام  
اللیل ، وترويض النفس بالطاعات ، وتختلف التكاليف  
الشاقة ، حتى اذا تكاملت تربيتكم الصعبة  
والنفسية ، وتوحدت طرائقكم الدينية والروحية ،  
وبقي اولکم الذکین املاؤکم منقسمين في ترفهم  
وتنعمهم ، منهمكين في ملذاتهم وشهواتهم - فان من  
شان حالتهم هذه ان تفسد تربيتهم وأخلاقهم ،  
وتنهك قواهم واجسامهم ، على حين تكونون أنتم  
بواسطة الرياضة والعبادة والمجاهدة وتحمل المشاق -  
على العکس منهم (٢) . فحينئذ ( ذری ) ، أي دعني  
والمکذبین ، أي أنك لا تحتاج في نيل الظفر بمرادك ،  
والانتقام من مكذبيك الا الى أن تنكل على ، وتغفر

(١) يؤفزون : يسرون .

(٢) وشبه هذا من وثائق التلويح ما كان من سكان القدس  
( القوط ) التلويح الذي استولى العرب الاسماء على بلادهم  
كما كان منهم الا الليرة واللتايح الى جيل ( استوريس ) أو  
( استوريس ) كما يسميها العرب ، وهي جبال شاقة تامة  
في الشمال الغربي من اسبانيا ، فالتعب اللائق من بيتنا  
خلقة وقوة وخشونة ، حتى اذا اكتملت لهم هذه التربية فإ يفسح  
مئات من السنين - انقلبوهم من قن جلالهم كالعقبات على اولئك  
الرايين التلويح ، فاجلهم من صياصيمهم ، وطبقوا مسنة  
الله فيهم .

غَصْبَةً وَعَلَى الْيَمِ ۚ يَوْمَ تَرْجُفُ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ  
وَكُنَّتِ الْجِبَالُ كُثُبًا مِهْلًا ۚ إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكَ  
رُسُلًا شُهَدَاءَ عَلَيْكَ كَمَا أَرْسَلْنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رُسُلًا ۚ  
فَعَصَىٰ فِرْعَوْنَ الرَّسُولَ فَأَخَذْنَاهُ أَخْذًا وَبَسًا ۚ  
فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِن كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيبًا ۚ  
السَّمَاءُ مُتَفَطِّرَةٌ ۚ كَأَن يَوْمَئِذٍ مَّتَعُولًا ۚ إِن مِّنْهُ

الامر الى ، وتدمتي وهؤلاء المكذبين ، أطلق عليهم  
سنتي في خلقي ، وذلك بأن أسلط القوي : وهو انتم  
على الضعيف : وهو هم ، وأمكن أوليائي الذين يعملون  
بأوامري ويرامون سنتي من أعدائي الذين يخالفونني  
لم يحق هؤلاء المخالفين العقاب ، ويدخلون بشؤم  
بمخالفتهم دار العذاب ، وهذا معنى قوله تعالى : ( أن  
لدينا أنكالا وجحima ) .

و ( الانكال ) جمع تكل - بكسر اوله - وهو القيد  
الثقل . و ( الجحيم ) دار العذاب . و ( الطعام ذو الفضة )  
هو ما أهداه الله في تلك الدار من الطعام المنكر البشع  
الذي ينشيب في حلق أكله - فمضون به ، ولا  
يقدرن على أسافته .

ذكر الوحي الصلاب القول ومكانه وهو الجحيم ،  
والآله وهي القيود وطعام الرقوم ، وأراد تخويف  
المكذبين وتهديدهم بأنه تعالى يماقيهم بذلك كله أن  
يقوا مستمرين في تكذيبهم ، مستمرين مرضيهم .  
روى أن الحسن البصري أتى بطعام فطوره في بعض  
أيام صومه ، فعرضت له هذه الآية : ( أن لدينا أنكالا  
وجحima وطعاما ذا غصبة وعذابا الينا ) ، فقال  
لقلامه : أرفعه بأفلام - ووضع عنده في الليلة الثانية ،  
فعرضت له فقال : أرفعه بأفلام . وكذلك الليلة  
الثالثة . فبلغ خبره ثلثا البثني ، ويزيد الضبي ،  
وجيح الكاء - فجعلوا إليه ، ولم يزالوا به حتى  
شرب شربة من سويق .

ولقد تبين من سياق الآيات التي افتتحت بها هذه  
السورة أن تربية الجسم والنفس بشروط التكليف  
والرياضات والعبادات الشاقة - هي ما أراد الله لنا  
وحضنا عليه في الكتاب ، ولم يكن طلبها منا لذاتها ،  
أو لاسترضائه تعالى بممارستها ، ومكادبة أمتائها .  
الكيف - وقد قال تعالى : ( لن ينال الله لحومها ولا  
دمها ) - وإنما أراد مسيحته بهذه التكليف  
بالمجاهلات تربيته تربية دينية ، تجمع بين فطري  
القوتين - القوة في الجسم ، والقوة في النفس ، بحيث

تفتح أمامنا طريق التغلب والتمكن من نشر الإسلام ،  
كما حصل لاسلافنا مد عملا بأصول تلك التربية ،  
وتحول بيننا وبين الاستكافة والخسوع لفرنا ، كما  
حصل منا اليوم مد اعلمنا تلك الأصول وفطرنا فيها ،  
وقصرنا في تطبيقها ومرامها . والامر لله العلي  
الكبير .

( يوم ) متعلق بضمون الكلام السابق ، أي أن  
العقوبة معدة للمكذبين في هذا اليوم الذي فيه  
( ترجف الأرض والجبال ) ، أي تضطرب وتزلزل بما  
عليها زلزلة شديدة ، وذلك يوم القيامة . ولما كانت  
الجبال صلبة جامدة بالنسبة الى سائر اجزاء الأرض  
- خصها بوصف ما ينوبها في ذلك اليوم من التفرق  
وتناثر الاجزاء فقال : ( وكانت الجبال كُثيبا ) تلا من  
الرمل سائلا متناثرا : من كُتب الملة اذا صبه ، وكُتب  
الشيء اذا جمعه . ففي مادة الكُتب معنى الصب  
والجمع ، ومن هنا سمي الكُتيب كُثيبا ، لأن الرياح  
تحمل الرمال من ها هنا وها هنا وتصبها في مكان  
الكُتيب ، ثم تأخذ الرمال الأخرى تتجمع عليها وحولها  
حتى يتكون الكُتيب . ويرمل هذا الكُتيب اذا حرك  
أو مس تساقط وتناثر بعضه اثر بعض ، وهذا معنى  
كونه ( مهيلا ) ، وهو اسم مفعول ، وأصله مهيول  
كمكبل أصله مكبول ، يقال : هلث الرمل فانها ، اذا  
حركت أسفلت فسال من علاه وتناثر ، وما كان اشد  
تماسكا وكثافة من الرمل - كالبناء مثلا - فانه يقال  
فيه هرتة - بالراء - قاتل .

يقع هذا الحادث الجلل في العالم عندما يتأذن الله  
بخرابه وانقضاء اجله ، ثم يستبدل به مالا آخر  
أشد احكاما ، وأكثب نظاما ، وأكمل امنا وسلاما .

وتصوص الكتاب تدل على ان خراب عالم الدنيا  
يكون بزلزلة الأرض ، وتبدل اجزائها ، وتسير جبالها  
يحيث تصبح هذه الجبال كالكتيب المهيل أو المنفوش .

على ان هذا اغراب الذي ينزل بالارض فينسفس  
جبالها ، ويمزق أوصالها - ليس خاصا بها وحدها ،  
بل هو نازل بمجموع عالم الدنيا المنظور الينا : أرضه  
وسائه ، وسائر كواكبه وأجرامه ، بل دليل آيات الكتاب  
الأخرى من مثل : ( اذا الشمس كورت . وإذا النجوم  
انكثرت ) ، و ( اذا السماء انفطرت . وإذا الكواكب  
انثرت ) . والله يعلم بأي سبب يحصل ذلك الخراب  
العالم ، وما اذا كان وراء الكواكب المنظورة عوالم وكواكب  
أخرى يشعلها اغراب التنظور أو لا يشعلها فتنتي  
سالة من مثل ما نزل بعلنا الى ان يشاء الله خرابها ؟  
وهل ينشئ ربنا العوالم الأخرى في ساحات العوالم  
السمائية الأخرى غير المنظورة أو ينشئها علما جديدا ،  
وكونا مستقلا لا علاقة له بالعوالم الغالية اليوم من  
هيونا ؟ - كل ذلك غيب لا تمكن معرفته ، فنكل أمره  
الى الله سبحانه وتعالى .

يتراوح الوحي الإلهي بين تخويف المخاطبين بين  
تذكيرهم بيوم القيامة وما أعدده الله فيه للمكذبين ،  
وتذكيرهم بالأمم التي خلت من قبلهم وكيف عصت

ومردت فانزل بها من أمره ما أنزل ، وقد أتى في هذه الآيات على الأمرين معا .

وقوله : ( **رسولا شاهدا عليكم** ) يعنى به محمدا صلى الله عليه وسلم ، فانه يشهد لسان مقاله انه بلغهم أمر ربهم ، أو انه صلى الله عليه وسلم شاهد عليهم بلسان حاله ، فان من تصفع أحواله ، واستقر ما جرى له في حياته منذ ولد نشأ ، فبعث ، فدعا الناس الى الإيمان ، فاستأثر الله به - لم يجد في ذلك كله إلا آية صادقة ، أو معجزة خارقة : تثبت انه رسول الله الى الناس ، لم يأل في تبليغهم ، ولم يتوان في أمحاء النصح لهم . فحاله هذه شهادة على أولئك المكذبين انه أنما يبلغهم ما به نجاتهم في الدنيا والآخرة ، وأنه لم يخ من وراء ذلك التليخ جر مغن لنفسه ، أو تأسيس ملك لفته ، بحيث يصدق عليه ما وصف به سيدنا على بن أبى طالب نفسه منذ قال : « فوالله ما كنت من دنياكم تبوا ، ولا ادخرت من فئائلكم وفرا ، ولا أبعدت لىالى ثوبى طعوا » .

والرسول الذى أرسله تعالى الى فرعون هو موسى الكليم صلوات الله عليه . وقد تركه مد قال ( **رسولا** ) لإفادة تعظيمه . كانه يقول : رسولا عظيما من أولئك الرسل أولى العزم . أو انه تركه للإشارة الى انه متعين لا يتيسر غيره . وقوله ( **الرسول** ) أى ذلك الرسول : قال فيه للمهد الذكري . وأخذ الله لفرعون كتابا من أهلاكه ، و ( **الويل** ) فى مطلق معناه التثقل الشديد الضخم . فلذا قالوا : طام وويل ، أو كلا وويل ، أو مرعى وويل - أرادوا أن وخم ثقل على آكله : لا يستمر لونه ولا يعضمونه . وإذا قالوا : مطر وابل أو ويل - أرادوا انه شديد الهمر كبير القطر . والويل : الصبا الضخمة . وتقول العرب : لا لقد

أوبلت على شرك ، أى اغلظته على ، وبهظنتى به ، و ويل فلانا بالسياسة : تابها عليه بشدة وعنف . وكل هذه المعاني تقال تقريبا فى ( **الويل** ) ، فقوله تعالى : ( **ذاقوا وبال أمرهم** ) ، وقوله هنا ( **أخلفناه** ) **أخلفنا** ) - التكلتان فيهما منحوتتان من بجمة واحدة . ولا جرم أن أهلاكه الله لفرعون وقومه بالفرق كان باظنا لهم ، ولحا عليهم بحيث لم يفلت منهم أحد . بعد أن ذكر الله أخذه لفرعون فى دار الدنيا ، وأن ملكه وجبروته لم يمتصاه من ذلك الأخذ - ماد فذكر مكلى قريش - الذين ضرب فرعون لهم مثلا - يوم القيامة ، وأنهم غير معجزى الله فى ذلك اليوم ، ولا مفلتون منه بأنفسهم كما لم يفلت فرعون مما فعل به ، فقال لهم :

( **فكيف تتقون** ) ، أى تحذرون . وتخافون ( **إن كفرتم** ) ، أى امررت على الكفر - ( **يوما** ) ، وهو يوم القيامة ومذاببه الشديد بل الأشد وبالا وغلظا من عذاب الله لفرعون فى دار الدنيا ، قيوما مقول به لتتقون على معنى تحذرون وتخافون كما قلنا ، وقال « **أتى الله** » ، و « **أتى مقلب الله** » أى حلوه وخافه ، و « **ما أتى فلانا** » ، أى ما أخوفه وأخشاه له . وأصل معنى

أتى المقلب ، أو الأسد ، أو البرد : أتخذ لنفسه وقاية من المقلب أو الأسد أو البرد ، ثم كثر حتى صار يعنى خاف وحذر ، ونصبا به المنول . والمعنى هنا : كيف يصح أن تكونوا حذرين خائفين يوم القيامة ، أو كيف يصح أن تعدوا أنفسكم حذرين خائفين ذلك اليوم أن يفتنكم هكذا متمادين فى كفرهم ، متبين على ضلالتكم ؟

ثم وصف ذلك اليوم بأنه ( **يحمل الولدان شيئا** ) ، والولدان جمع وليد ، كما أن الأولاد جمع ولد ( شيئا ) جمع أشيب وهو من أبيض شعر رأسه . ولا مانع من أن يكون الرعب أو التهم سببا فى حدوث الشيب فى الرأس ، ولو فرضنا أن هذا لم يثبت لنا ، فيكون الكلام وأردا على ما جرى به العرف بين العرب منذ القديم ، يقولون : « يوم يشيب نواصى الأطفال » ، أى فتخطبوا فى القرآن بما أتوا ، وما زال العرف به الى يومنا هذا : قال أبو الطيب :

والهم يخترم الجسيم نحافة

وشيب ناصية الصبي ويهرم

على أن الهول والهم أن كانا شيئا الكبر لا خطرأب قلبه وتأثر عصبه من شدة وقعهما ولذع الهما - فمأ بال الصبي العاقل ، وكيف يمكن أن يبلغ الحزن أو الخوف من نفسه الى حد أن يشيب ناصيته ، وينقص عليه حياته ، ولا سيما اذا لاحظنا أن الولدان غير مكلفين ولا مؤاخذين فلا يلطمهم رعب ولا فزع يوم القيامة ؟ فلم يبق إلا أن المراد من الآية المبالغة فى وصف اشتداد الكرب ، وتقام الخطب .

وهول يوم القيامة أن كان يؤثر هذا الاثر فى نواصى الولدان فيشيها ويضر لونها - فلا عيب ، إذ أن هناك ما هو أقوى جسا ، وأضعف جرم من لم الولدان وشعر دعوسهم وهو ( **السباد** ) ، أى بناء السباد وسقفها المرفوع فوق رموسنا ، فانه ( **منطفر** ) ، أى متصدع ومتشقق ( به ) أى بهول ذلك اليوم الذى يحمل الولدان شيئا . فالتفرد والتحول والتأثر بهول ذلك اليوم ، وعظم ما يقع فيه - عام شامل : يتناول أدق السواد والينها والأطفال ، كما يتناول أشد السواد وأصلبها وأضعفها . و ( **اتفطار** ) السباد : الصداع أجرامها ، وتيل أوضاعها ، فلا يعود حالها على ما هو عليه اليوم . وذكر فعل السباد فقال ( **منطفر** ) ، ولم يقل ( **منططرة** ) كما هو الاستعمال الشائع - فمبالا الى إرادة البناء والسقف فى معناها . صلى أن ( **السباد** ) وردت فى كلام العرب مذكرة ، قال شاعرهم :

فلو رفع السباد إليه قوما

لحنتا بالسباد مع السحاب

فالسباد فاصل ( رفع ) ولم يقل رفعتم . يريد الشاعر أن السباد لو كان من مادتها وذبابها أن ترفع اليها قوما لتضلهم وعزهم ومجدهم - لرفعتنا اليها ، ولكننا متبين فيها مع مسحابها . أو يقل أن السباد مؤنث غير حقيقى ، ويجوز فى مثله تأنيث فعله وتذكيره وقوله : ( **كان وعده مفعولا** ) تحقيق وتأنيث لما وعد

فما الذي جعل نجد الشر أحب إليكم من نجد الخير ؟  
قوله : ( ان ربك يعلم **النج** ) له اتصال بأول هذه  
السورة مد قال تعالى : ( ثم الليل الا قليلا : نصفه او  
انقص منه قليلا ) . وقد قلنا ثمة : ان الوحي الالهي  
كلهم ان يقوموا ساعلت من الليل طويلة : لا تفل من  
لثته ، ولا تزيد على ثلثيه . فان قيام الليل على هذه  
الصورة ، واحياهه بالطاعات المختلفة : من ذكر ،  
وصلاة ، وقراءة قرآن - يقوى ابدانهم ونفوسهم معاً  
وبعدهم الخشونة في العيش ، واجتناب ما عليه  
المتفرون من الراحة والرخاوة والانغماس في الملذات  
الى حد ان تضعف همهم ، وتنصرف نفوسهم من  
جسم الامور الى دنياها ومحتراتها . كلهم ربهم ذلك  
العمل الليلي تقربا اليه ، واستعدادا للدعوة ، وقرع  
الروس الغائبة بها .

والخطاب في لائحة السورة للنبي صلى الله عليه  
وسلم وحده مراداً به امته معه بدليل قوله هنا :  
( **وطائفة من الذين معك** ) ، فان صحابته رضوان  
الله عليهم قاموا قيامه ، وساهموا صلاته وصيامه ،  
ولبنوا في ذلك مشرعين ، وقيل اقل من ذلك ، وهي  
مدة كافية لحصول اثرها من الاصدار والتهئية  
واستجماع التربية الدينية التي ابرأها ربهم لهم .  
وبعد مضي عشر السنين المذكورة نزل الوحي خطاباً له  
صلى الله عليه وسلم لصحابته القاطنين معه في الليل  
بهذه الآية : ( ان ربك ) يا محمد ( يعلم انك تقوم ادنى من  
ثلاثي الليل ونصفه وثلاث ) .

لايشبه احد من المخاطبين في اتمه تعالى يعلم ذلك ،  
فلم يكن المراد منه افادة انه تعالى عالم به ، بل افادة انه  
وقع منكم ذلك ، ويضيق به رضاه ، والحد الذي اراده  
ورسمه لكم . فهو مجازيكم عليه ، موفقكم الى نيل  
الغرض الذي قمتم وتعبتم من اجله . واستعمال العلم  
بهذا المعنى مثله في قوله تعالى : ( وانا لنعلم ان منكم  
مكذبين ) . فليس المراد به افادة العلم بتكذيبهم ، بل  
افادة انه تعالى مرصد لهم العقوبة على تكذيبهم .

وقوله : ( ادنى من ثلثي الليل ) - ( الادنى الى اصل  
معناه : الاقرب مسافة ، لكن لما كان البعد الاقرب  
مسافة اقل احياناً ومقاييس ، سمو الاقل ادنى .  
وقيام النبي صلى الله عليه وسلم وصحابته ثلثة اقل  
من ثلثي الليل ومرة نصفه واخرى ثلثه - هو معنى  
ما قلناه في ( ثم الليل الا قليلا النج ) . انهم امرؤا بال  
يتراوح قيامهم بين الثلث والثلثين ، فهو تعالى يقول :  
فلمتم ما امرناكم به من قيام الثلث الى الثلثين ، والغاية  
غير داخلة كما دل عليه قوله ( ادنى ) .

وقوله : ( وطائفة ) بالرفع عطف على ضمير تقوم .  
وجاز ذلك للفصل بينهما . يعني تقوم انت يا محمد ،  
وتقوم طائفة من صحابتك الذين معك ، ومشؤون على  
اثرك فيما امركم به جميعاً وانهم .

وجعلهم طائفة لانه اراد بهم اولئك السابقين في  
الايمان ، الذين هم اول من كفروا بهذا التكليف الشاق .  
اما وقد تم ما اراد الله بهم ، ورضيه لهم : من  
تمحيصهم وتقويتهم ، وتربيتهم التربية الدينية

تذكره فمن شاء اتخذ الى ربه سبيلاً ﴿ ٥٠ ﴾ \* ان ربك  
يعلم انك تقوم ادنى من ثلثي الليل ونصفه وثلاث  
وطائفة من الذين معك والله يقدر الليل والنهار  
علم ان محصوه فتأب عليك فاقرة واما تيسر من  
القرة ان علم ان سيكون منكم مريض واهتروا  
يصربون في الارض يفتنون من فضل الله واهتروا  
يقبلون في سبيل الله فاقرة واما تيسر منه واقبوا

الله به : من وقوع ذلك اليوم ، ولن يخلف الله وعده ،  
مهما طال امده وتوسى ذكره . فلينتبه اليه الغافل ،  
وليعمل للخلاص من هوله المائل .

وغير ( وعده ) يرجع الى الله وان لم يجز لمذكر  
فيما تقدم من الكلام ، لما ان المقام بينه . او هو التفات  
من المتكلم في قوله ( فاعلناه ) الى الفية في ( وعده ) .  
وكان الظاهر ان قول : ( وعلنا ) ، فعدل الى ضمير  
الغائب فتفنا في الكلام ، وطرفة الاسلوب . ويحتمل  
ان ( وعده ) من اضافة المصدر الى مفعوله ، ويكون  
الضمير راجعاً الى اليوم المتحدث عنه . والمعنى  
كان وعده الله بذلك اليوم مفعولاً ، وامره كائن  
لا محالة .

( هذه ) اشارة الى الآيات السابقة ونظائرها مما  
فيه تخويف المكذبين من يوم القيامة واحواله ، او  
تخويفهم من ان يأخذهم الله في عاجل ديارهم كما اخذ  
قرونهم بعدايبه وتكاليه . ( لتذكره ) : عظة وعبرة تذكر  
الناس فيذكر ، وتتلل القائل فيعتبر . ( فمن شاء )  
من القائلين الناسين ان يستفيد من هذه التذكيرة قبل  
الموت ( اتخذ الى ربه سبيلاً ) ، اى سلك الطريق  
المؤدية الى رضاه ربه ، فعمل بطاعته من دون مطال ولا  
تسوية . فان الاسباب ميسرة ، والسبل الى العمل  
الصالح مشرعة ، والاخيارين الى الله مد موهوب ،  
وكل من الخير والشر مقدور ومكسوب . قال تعالى :  
( وهدينا للتجدين ) اى رفعنا امام عيني كل واحد  
منكم انما البشر طريق الخير والشر ، ودلائله عليهما بما  
وهبناه من نعمتي الوحي والعقل ، فما عليه الا الاستمانة  
بنا في الوصول اليها ، وان يختار ما هو الاجمل به ،  
والاصح له . فليترد امرؤ لنفسه ، قبل حلول رسمه ،  
وتحول غده الى اسمه . دوى من الحسن البصري انه  
قال : يلتفتي ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :  
ايها الناس ، انهماء نجدان : نجد الخير ، ونجد الشر .

عليهم بما كان منهم من قيام الليل حسب أمره الأول وبين ظهور عجز الكثيرين منهم أخيراً من المثابرة عليه ، والخشي فيه ، منها لهم إلى أنه تعالى هو الذي قدر الليل والنهار ، أي جعل لكل منهما قدراً معيناً ، وحداً محدوداً ، لا يتجاوزانه مهما اختلفا وعاقبا ( لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار ) . وقد دبر ذلك على حسب مصالح البشر ، ويقدر ما يحتاجون إليه في سكون ليلهم للنوم والراحة ، وحركة نهارهم للسعي وطلب المعاش . ولو تحولت تلك المقادير إلى غير ما قدره الله ودبره في خلق الليل والنهار - لاختل أمر البشر ، أو كان لهم نظام في الحياة غير ما هم عليه الآن . فالواجب عليهم إذن أن يرضوا بما قدره الله ودبره : من نواهيهم ما هم هذا ، ويطيعوه فيما رسمه من الحدود والأحكام . وعمل من المأثم وهو ( قدر ) إلى المضارع فقل ( يقدر ) تنبيها إلى صفة الجيب في تدبير أمر الليل والنهار ، وتصويراً له في أذهان المخاطبين .

ومحصل معنى الآيات أنه تعالى كلف الصحابة في بدء الإسلام قيام ساعات طويلة من الليل ، فاستمعوا على ذلك حيناً من الدهر ، ثم لما كثرت المسلمون ، ودخل في عبادهم شيوخ ونساء ، ومن لا يطيق قيام الثلث إلى الثلثين من الليل - رسم لهم من القيام والعبادة وقراءة القرآن ما يطيقونه ، ويتحملة طورههم الجديد . ذكرنا فيما مضى أن تبدل الحكم في أمر الصلاة وقيام الليل ، ناهي عن تبدل الحالة والزمن ، وكثرت المسلمين في قرون عشر السنين التي قضاها المسلمون السابقون يعيشون معظم ساعات الليل في الصلاة وقراءة القرآن وصنف أعبادات .

وقد صنف الوحي في هذه الآيات المسلمين إلى أصنافهم التي حدثت فيهم ، وكانت سبباً لتغير حكم صلاتهم ، مبيناً الحكمة في ذلك فقال تعالى :

( علم أن سيكون منكم مرضى ) . هذا هو الصنف الأول الذي علم الله وجوده في المسلمين علماً تابياً لتقديره الإلهي - من أن البشر في جملة المسلمين - بطرا عليهم أمراض وظل يتعلم عليهم معها قضاء معظم ساعات الليل في التهجد والذكر وقراءة القرآن . ( وآخرون يضربون في الأرض الخ ) . هذا هو الصنف الثاني ، وهم التجار والمسافرون في البلاد يطولون الرزق وكسب المال مما هو ففضل من الله ونعمة ، فإن هؤلاء أيضاً قد تحول أسفارهم والمشاق التي تلحقهم في خلالها نهشاً دون القيام الطويل في صلاة الليل وقيامه .

( وآخرون يقاتلون في سبيل الله ) ، وهذا هو الصنف الثالث ، وهم الذين يعملون على نشر دين الإسلام ، والدعوة إليه ، ومحاربة من يتصدى لهم ومقاومتهم . هؤلاء أيضاً يتعلم عليهم أحياء الليل تهجداً وقيلماً ، وقد قبلوا التهاون حرياً وصدماً . وفي جمل التجار والمحاربين الذين يتفانون الكسب في مقابلة الجاهدين الذين ينشرون الدعوة ستوتوه بالتجارة وعلو

بواسطة ماشرعه لهم من قيام الليل في هذه السنين العشر - وقد كان في خلالها أنضم إليهم ودخل في دينهم من لا يصبر صبرهم ، ولا يطيق ما أطاقوا من المجاهدة والقيام والتبذل - فقد خفف منهم ذلك ، وردهم إلى ما يطيقون من العمل وقيام الليل ، باعتبار جدوعهم لا باعتبار كل فرد منهم ، وإن كان بعضهم لا يستطيع البقاء والدوام على ما كلفه أولاً . لكن الخطاب الإلهي والتكاليف الشرعية ، إنما يراعى فيها مجموع المخاطبين ، وعامة المكلفين ، لا الأفراد منهم . وهذا معنى قوله تعالى : ( علم أن لن تحصوه ) ، أي علم أنكم لا تطبقونه بجموعكم ، وقد ظهر عليكم - بعد أن دخل في الإسلام منكم داخلون آخرون - شيء من الضعف والفتور ، والصبر من القيام بما قام به إخوانكم الأولون ، فطلبتم التخفيف والتيسير لجموعكم . وهذا الطلب حق لكم بحسب الطبيعة البشرية الفاتية ، واجبتكم عليه مما تقتضيه رحمة ربكم وعمله ( فتأب عليكم ) ، أي رجع عليكم بالتيسير والتخفيف مد رجعت إليهم بالشكوى والطلب والمعاء ( فاقربوا ) من بعد اليوم في قيام الليل وأنتم في صلاة أو غير صلاة ( ماتيسر من القرآن ) ، وسهلت عليكم تلاوته وتدبره ، وهو القليل من آياته مما لا يستغرق الثلثين ولا النصف ولا الثلث .

وليل أن المراد بإمرهم بقراءة القرآن - الصلاة نفسها ، لأن القراءة من أعظم أركانها ، كما يعبر عنها أحياناً بالركعة والسجدة وسباتي ، أي أصلاً ماتيسر وخفف عليكم من صلاة الليل .

والعلم في قوله ( علم أن لن تحصوه ) مراد به أيضاً ظهور عدم الإحصاء منهم ، ووصولهم إلى دور تحقق فيه عجز مجموعهم عنه ، فتجلى ذلك لكل أحد وتعلق علم الله تعالى به بعد وقوعه .

وقوله ( فتأب عليكم ) . التوبة هنا بمعنى الرجوع وليس المراد بها الصنع والصفو من الذنب لأن الصحابة لم يندبوا ، ولم يخالفوا دينهم فيما أمر ، وإنما أمرهم على العكس : أطاعوا وقاموا بما كلفوه خير قيام .

و ( الإحصاء ) في الأصل : التقصي والمبالغة في مد الشدة ، ويستعمل كثيراً في معنى الطاقة والاضبط . يقال : « هذا شيء لا أحصيه » ، أي لا أطيعه ولا أضبطه ، وفي الحديث : « خصلتان لا يعصيهما رجل مسلم إلا اختلفت الجنة » ، أي لا يطيقهما ولا يقدر عليهما .

أضربنا في فحوص كلامنا السابق إلى أن هنالك أحوالاً من الصحابة كانوا يشعرون من أنفسهم الطاقة على قيام الليل كما أمر الله ورسم ، وربما أحزنهم أن ردهم إلى الأخف الأيسر من العمل وقيام الليل مع بقية إخوانهم المؤمنين الذين يتألف منهم سواد الأمة وتعدوا أو تسامروا : لذا لم يكن الليل أطول مدة وأوفر مساهلات مما هو عليه ، كي يتسرع لذكره تعالى ، والتلذذ بتلاوة كلامه ؟ فقال تعالى كافياً من حكمة في ذلك : ( والله يقدر الليل والنهار ) . وقد تخلل بهذه الجملة بين التناء

الصَّلَاةَ وَءَاتُوا الزَّكَاةَ وَأَقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا وَمَا

تَقْدِمُوا أَنْفُسَكُمْ مِنْ خَيْرٍ يَحْدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَيْرًا  
وَأَعْظَمَ أَجْرًا وَاسْتَغْفِرُوا لِلَّهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٥٠﴾

شأنها في نظر الشارع ، لأنها من اقوى العوامل في اعزاز الأمم ، وفبات أمرها ، وانتشار تعاليمها . وربما كان معظم السبب في انتشار الإسلام في أطراف المعمور - ولا سيما أفريقيا وشرق آسيا - راجعا الى رواد الكسب ، ووراد مناهل الربح . فقد كان هؤلاء التجار يحملون متاجرهم الى بلاد الوثنية وبخاطون أهلها ، فيعرضون عليهم بضائعهم مقرونة أحيانا بعرض دينهم وتعاليدهم . والتجار اليوم عند دول الاستعمار آتة من آلات الفتح والتغلب : يرسلونهم الى البلاد الكاثلية ، ويجعلونهم طلائع للدعاة والبشرين . ثم يتلو هؤلاء دعاة الفتح ، ورفاة التسلط والاستعمار .

علم الله وجود تلك الاصناف الثلاثة ، ونشوءهم في المسلمين ، وربما كان يوجد اصناف آخر غيرهم ، لكن الوحي اقتصر على ذكر ما كان أكثر وجودا من سائر الاصناف - فانقضت حكمتها تعالى التيسير والتخفيف ، فصاد الى ذكر ما قاله أولا ، زيادة في تقريب الحكم ، ولتثبيت في نفوس الكلفين ، فقال : **( فاقبلوا ما يبين منه )** ، اي من القرآن . وقوله : **( واقبلوا الصلاة )** عطف مفابر ، فيكونان شيئين : قراءة قرآن ، وصلاة ذات ركوع وسجود . او هو من قبيل عطف التفسير ، ويكون المراد بقراءة القرآن الصلاة نفسها ، لأنهم كانوا اذا صلوا اطالوا صلاتهم ، وقرأوا فيها ماشاء الله ان يقرأوا ، وهذا هو المعبر عنه أحيانا كثيرة بقيام الليل . فكانوا يفهمون من صلاة الليل ، ومن قيام الليل ، ومن قراءة القرآن في الليل - شيئا واحدا تقريبا .

والقصد من ذلك ان قيام الثلث الى الثلثين من الليل في الصلاة وقراءة القرآن - أصبح شاقا عليكم معشر المؤمنين بعد ان كثرت ، ووجد فيكم مرضى ومسافرين ومجاهدين ، فانقصوا بعد اليوم من فريضة الصلاة وقراءة القرآن على الصلوات الخمس : التي يقع بعضها في أول الليل ، ومعظمها مفروق في سحابة النهار ، لكن عليكم ان تأتوا بهذه الصلاة على وجهها الشرعي : من الخشوع واستحضار القلب ورماعة الآداب والسنن ، وهذا هو معنى الإقامة في قوله تعالى **( اتبعوا الصلاة )** . ولعلنا ذكر الامر بالصلاة في القرآن الا ذكر معه الامر بالزكاة ، ولا غرو ، فان الصلاة عماد الأمر بين المرء وربه ، كما ان الزكاة عماد الأمر بينه وبين بني جنسه .

والمراد بالزكاة زكاة الاموال الواجبة بناء على ان

آخر هذه السورة مما نزل في المدينة حيث فرضت الزكاة ، وفيل السورة مكية كلها ، والزكاة هنا زكاة القطر .

وقوله : **( واقترضوا الله قرضا حسنا )** - حض على اتفاق المال في رضاء الله ، ووجوه المبرات بالبلغ أسلوب . وذلك ان القرض لا يتأخر عادة عن قرض اخوانه مبالغ كبيرة من ماله . وربما كان مصير هذا القرض التلف والضيعا عليه ، فكيف يحسن منه البخل في ان يقرض الله تعالى بالانفاق على مباداة الفقراء والموزين ، وقرضه هذا مضمون مصون عند الله لا يضيع منه مثقال ذرة ؟ بل هو يرد عليه يوم القيامة اضعافا مضاعفة .

حث الكلف أولا على اخراج الزكاة المفروضة عليه ، ثم اخذ بضيعه الى مستوى أرفع ، فحفزه على بلل المال في وجوه البر ولو لم يكن ذلك مفروضا عليه ، فإنه اذا بلله في سبيل الخير كان كأنه اقترضه ، لكن بشرط ان يحسن النية في هذا القرض ، فيبتغي من ورائه رضاء الله لا طلب التعويض من الخلق ، او الشهرة فيهم ، او التوصل الى غرض دنيوي قد يكون حقيقيا فانها ، وهذا معنى قوله : **( قرضا حسنا )** .

ثم ارتقى بالانسان الى بحبوحة الاحسان المطلق ، فحفزه على عمل الخير ، وفعل البر ، وممارسة الفضائل والكمالات الانسانية مهما كان جنسها : بدلا او قهرا من شروب الاعمال النافعة التي يتوصل بها المؤمن الى رضاء ربه او خدمة نوره ، فقال :

**( وما تقبلوهما أنفسكم )** ، وقبلوا ايها البشر **( من خير )** ، اي خير كان **( يتقبلوه )** : تتلقوا ذلك الخير الذي قدمتوه في دنياكم **( عند الله )** يوم معادكم **( هو خير )** . ( خيرا ) مفعول به ثان لتجدوه ، و ( هو ) ضمير فصل بين المفعولين ، وضمير الفصل من مادته ان يقع بين المبتدأ والخبر ، ومفعولا ( وجد ) اصلهما مبتدأ وخبر . والمعنى تجدوا ما فعلتموه يوم القيامة خيرا لكم منه : يعني انكم تجدون ثواب الله عليه ، وذلك الثواب المعد لكم خير واكرم وافضل من صدقتكم التي أنفقتموها ، او طاعتكم التي مارستموها في دار الدنيا ( فخيرا ) الثانية أفضل تفضيل ، بخلاف ( خير ) الاولى فانها اسم بمعنى الاحسان والبر والعمل الصالح .

ثم فسر « خيرا » بقوله : **( واعظم أجرا )** ، يعني ان الاجر الذي تجددونه اذا قيس بالعمل الذي قدمتوه وجدتموه اعظم وافضل من عملكم ، فان عملكم فان بالذ ، اما الاجر عليه فباق خالد .

وقد ختم السورة ببارشاة التفتيح الحسنين الى ان يطلبوا من الله الصفح والمغفرة ، اذ ربما كانوا لم يخلصوا النية في الاتفاق ، او لم يحسنوا العمل في الاقراض ، فيضيقوا النفقة في غير مواضعها ، او ينقصوها فيما لهم فيه غرض وشهوة ، فاذا **( استغفروا )** الله من ذلك فخر لهم ، ( قاله ) سبحانه وتعالى **( غفور رحيم )** من شأنه الغفران والرحمة .



(٧٤) سُبْحَةَ الْمَدِينَةِ  
وَأَيَّاهَا ٥٦ تَزَلَّتْ بَعْدَ الْمَرْثَلِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

يَا أَيُّهَا الْمَدِينُ ① قُمْ فَأَنْذِرْ ② وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ③

كلمة (المدثر) في أحوالها الصربية كالزمل، وقد تقدم بيان ذلك . و (المدثر) مشتق من الدثار، وهو اسم الثوب الذي يلبس فوق الثمار، والشمس الثوب الذي يلبس شعر الجسد، ومعنى (المدثر) المتلفف في دثاره . ويقال في سبب خطاب الملك له صلى الله عليه وسلم بهذا الخطاب ما قيل في سبب خطابه له بـ (ياها الزمل) ، ومن لم قال بعضهم أن أوائل هذه السورة أول ما أنزل عليه صلى الله عليه وسلم . وبيان ذلك أن جبريل بنشد أن لقته سورة « اقرأ باسم ربك » و (ياها الزمل) ثم الليل (الليل) إلى آخر الآيات ، وحصل له صلى الله عليه وسلم من التأمل ما حصل - تخلف منه الملك زمنا طويلا كي بهذا روعه . ويستجيب نشاطه ، وليعود صلى الله عليه وسلم إلى ذكرى الوحي ، ويتطلب تلك المناجاة السابوية برفعة وشوق وحسين . ثم عاد الملك فتجلى له ثانية مخاطبا مشجعا ، فعاد صلى الله عليه وسلم أيضا شيء مما كان مراد في المرة الأولى ، فجاد بهته وقال لأهله : « دلوني دثروني » ، وبينما هو متدثر جاده الملك فخطابه قائلا : ( ياها المدثر ) الذي اشتمل بدثاره داخلا فيه كمن لايهمه أمر ولا يعنيه شأن (قم) واتشبط من مضجعه هذا ، وأربا بنفسك أن تنزلها هذه المنزلة من الوحشة والعزلة . فإن العناية الإلهية قد رشحك لقام صام ، ونشر دين عام ، ( فاقدر ) الناس بذلك الدين ، وخوفهم العاقبة أن هم أمرؤوا عنه ، وكذبوا به .

وقل ( انذر ) يتعدى إلى مفعولين ، يقال : « انذر قومه هذا شديدا » مثلا ، لكن لما كان الوحي الإلهي إنما يريد منه صلى الله عليه وسلم في أول الأمر أن يتقوى على الانذار ويتصدى له بهمة ونشاط - حذف مفعولى انذر لسمد تعلق الغرض بهما - وتعلقه بأصل الانذار ، إذ كان هو أهم شيء بالنسبة إليه صلى الله عليه وسلم مادام لا يعلم بعد من هذا الذي يخاطبه ؟ وماذا يريد من فشايته له المرة بعد المرة ؟ وقول القائلين أوائل هذه السورة أول ما أنزل على النبي صلى الله عليه وسلم - يراد به أنه أول ما أنزل عليه بعد سنتين أو أكثر من اتقاع الوحي عنه . وقال

بعضهم : لم يكن السبب في تدلره صلى الله عليه وسلم ما لحقه من خطاب الملك ومفاجأة الوحي ، بل كان السبب فيه سوء معاملة قومه له ، وتهكمهم به عند قيامه بالدعوة وبمباشرة أمرها . فكانوا كلما تصدوا لهم أو عرض شيئا من الوحي عليهم أسمعوهم مايكره معا لم يعتد سماعه من أحد . وكانوا يقولون له : يا ساحر ، يا مجنون . وقد اتقوا عليه يوما سلى جزور ، فنجسوا ليايه ، ولوثوه بالدم . فاقتم صلى الله عليه وسلم من ذلك ، وشق عليه ، ورجع إلى بيته مكتئبا حزينا . والراء في مثل هذه الحالة تطبيق له العزلة والتلفف بثوب أو قطيفة ، مقكرا في أمره ، مستطعلا طلع مصره . وهذا ما كان منه صلى الله عليه وسلم فاته لما وصل إلى بيته تدثر وجعل يفكر في مبدء الرسالة ، وصعوبة أمر الدعوة ، ولا سيما بين قوم كقريش في أعلى ذروة من السؤدد والمجد ونفوذ الكلمة في العرب . وكان من أخص خلافتهم الكبر والعيرال والجبروت والتمسك بتقاليد الآباء ، فكيف ينتظر أن يخضعوا لشاب منهم : جلسته أخلاقه الفطرية ، وفصائله النفسية - في معزل عنهم ، ولم يقسمهم به يوما مجلس تملر أو خمر أو لهو ، ولم يروه مشاركا لهم في أميادهم ، أو السجود لسانهم ، أو معارسة عسادة من عبادهم . مما من شتائه أن يؤلف بين القلوب ، ويغرس الميل واللفة في النفوس ؟

كان صلى الله عليه وسلم في مثل ما ذكر من شروبه الهواجس والأفكار ، وإذا الملك يعطف به قائلا : ( ياها المدثر ) المستغرق في هواجسه وهوم نفسه ، ( قم ) نشيطا ، ولا تجعل للياس اليك سبيلا ، ( فانذر ) قومك وادهم وخوفهم مهما تجهضوك وأسمعوك وأذكوك ، وأمضي في دعوتك قدما من دون أن تبالهم أو تخشى جاتهم . فان انسلاكا ممن بين أيديهم ، ونومك في بيتك بمنزل عنهم - لا يفتيك شيئا ، بل ربما افراهم بك ، وجراهم عليك ، وحال يبتك وبين ما انت بسبيله من نشر التوحيد والاسلام ، وإبطال عبادة الطوائف والأصنام .

وسواء ألقنا أن تدلره عليه السلام واتزواده عن الناس في بيته كان تهيبا للوحي ، وتفصيا من ضغطته ، أم تجنبا لأذى قومه ، وتفكيرا في مصيره معهم - فإن الوحي السماوي لم يسله في أي الأمرين كان ، بل حفنه على الهبوب من الضجع ، والتشجيع للدعوة ، والجد في أداء الوظيفة التي اختارتها لها العناية الأزلية . ويدهي أن قيامه صلى الله عليه وسلم بدعوة جبابرة متاة إلى خلق دينهم ، وما وزكوه من أجدادهم - يحتاج إلى سلاح ماض يتحصن به في أثناء المقارعة والمصارلة ، فما هذا السلاح ؟ وما هي تلك القلاع والشاهقة ؟ والجويوش المتلاحقة ؟ والأعتد والالات المهلكات المبيدات ، التي استعان بها صلى الله عليه وسلم في الدعوة إلى ربه ، ومحاربة الشرك وحزبه ؟ لم يكن شيء من ذلك كله ، ولم يكن معه مساعد غير الوعد

وَيَا بَكَ فَطَهِّرْ ۝ وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ ۝ وَلَا تَمْنُنْ  
تَسْتَكْثِرُ ۝ وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ ۝ فَإِذَا نَقَرْنَا أَنَاوُورُ ۝

الابى ، وغير ما فى هذه الآيات الآتية من الوصايا التى أمره وبه أن يتدرج بها ، ويرضى نفسه عليها ، وهى قوله تعالى :

( **وربك فكبر الخ** ) ، والفاء فى ( تكبر ) لافادة معنى الشرط ، فهى فاء الجواب ، كأنه يقول : ومهما قام فى وجهك من العقبات فلا تدع تكبير ربك ، وكلما يقال فى فادات الجمل الآتية . ومعنى ( كبر ربك ) اختصه بالكبرياء ، وأفرده بالعظمة والمجد ، وأرفسه من أن يكون له شركاء من مبيدات المشركين وأهلبهم . ففى هذا تقرير لمقيدة التوحيد ، وتحرير للعقل من سلطة الأوهام وعبادة الخيال .

هذا هو السلاح الأول ، أما السلاح الثانى فهو تحرير النفس من سوء الأخلاق ، وردىه الخصال ، وهو ما أرادته تعالى بقوله :

( **ويأتيك فطهر** ) . لافىه يلزم الإنسان فى مختلف حالاته ، وبماحبه فى جميع أدوار حياته : منذ ولادته الى حين مماته . مثل ليابه التى ينحجر فيها ، فصارث كانها جزء من أجزاء ذاته ، وأحد مقومات قرونته ( ١ ) . وصاروا اذا وصفوها بوصف كانوا كأنهم وصفوا النفس ذاتها ، فيقولون : فلان طاهر الثياب او تقى الثياب ، وطاهر الجيب والذيل والأردان ويريدون وصفه نفسه بالنقاء من العائب وملانس الأخلاق . ويقولون فى ضد ذلك : فلان دنس الثياب ، وخيب الثياب ، وقال عنتره بنى ميس :

فشككت بالرمح الأصم كسياه

ليس الكرم على القنا ببحرم

وشك الثياب بالرمح ليس مما يتمجد به ، واتما المقصود شك جسده ، بل قلبه أو نفسه بالرمح . فان هذا الشك هو الذى يريده قتيلاً ، وهو الذى يثبت بسالة عنتره وحلقة فى فنون القتال . فمعنى قوله تعالى : ( **ويأتيك فطهر** ) ، وقلبك أو نفسك طهرها من فميم الأخلاق ، وسوى اللكاث ، فلا تجعل للرجز والسامة وقلة الصبر والخور وضف الهمة وغير ذلك من أمراض النفس - سبيلا الى نفسك . فالآية تحفه صلى الله عليه وسلم على تهذيب نفسه ، وتحريرها من قيود الصفات المميمة ، وهو السلاح الثانى .

أما السلاح الثالث فتحرير الجوارح من المعاصى والذنوب ، وآليه الاشارة بقوله تعالى :

( **والرجز فاهجُرْ** ) . الرجز بكسر الراء وضمه فى أصل معناه العذاب ، ثم كثر استعماله فى كل ما أوجب العذاب ، وأدى اليه من المعاصى والآثام . فهو يقول :

( ١ ) الترونة : النفس

اترك كل ما يحجر الى العذاب من تلك المعاصى ، وحجر جوارحك من مغالوتها : فلا تدع سمعك ولا بصرك ولا قفك ولا يدك ولا رجلك ولا عضواً آخر من أعضائك - يلم بشيء منها . هذا هو السلاح الثالث من الأسلحة التى يتم بها استعدادها صلى الله عليه وسلم للمضى فى دعوته ، والنجاح فى مهمته ، والظفر بطلبتها .

وقد استوعب الرضى فى هذه الآيات الثلاث التى لا تتجاوز بضع كلمات - أمهات الفضائل الإنسانية . اذ أن الإنسان ليس سوى عقل ونفس وجسد ، وكل فسادا وصلاح بطراً عليه ، أو شر أو خير يصدر منه - فانما مقره هذه الأشياء الثلاثة ، التى هى مقومات وجوده ، وأركان كيانه . فبقدر مايتوفر له من صلاح العقل بالعقائد الصحيحة ، وصلاح النفس بالآداب الرفيعة ، وصلاح الجوارح بغير الآثام الويلة - تتوفر له السادة الكاملة فى الدنيا والآخرة . وبقدر ماينقص من ذلك يخسر من سعادته ، ويدنو من شقاوته .

وليس معنى أمر الله له صلى الله عليه وسلم بتحرير عقله ونفسه وبذنه أنه - وحاشاه - ملوث بشيء من دنس الوثنية أو العيوب أو المعاصى . اذ قد ثبت بالنقل المتواتر الذى لا ريب فيه أنه صلى الله عليه وسلم كان كاملاً فى عقيدته : فلم يمارس عبادة جاهلية ، كاملاً فى نفسه : فلم يتلوث بخلق ذميم ، كاملاً فى جوارحه : فلم يتقرف بها مضمية قتل . ومهما كان أعداؤه المشركون يوجهون اليه المظنن والشكك ، فلم نسمعهم مرة يقولون له : أنك كنت بالأمس شريكاً لنا فى عبادة الألات والمعزى أو هبل الأعلى ، أو يقولون له : غدرت بغلان ، أو أسأت الى فلان ، أو استحققت على فلان ، أو يقولون له : أتت الذى كنت تفعل كلها وكلها من المعاصى وانخارى . . لم يكونوا يقولون له شيئاً من ذلك . ولو وقع منهم لنقل إلينا كما نقل قولهم له أنه ساحر ومجنون . وقد بسطنا ذلك بسطاً شافياً فى كتابنا الذى نؤلفه فى سيرة حياته صلى الله عليه وسلم . أما قوله تعالى له فى سورة الضحى : ( **ووجدك ضالاً فهدى** ) ، فمعناه أن ربك ووجدك منذ نشأتك ضلالاً ، أى حيرة من أمر هداية قومك ، واتقاهم من دنس الشرك ومعرة الجاهلية ، اذ كنت واقفاً من أمر هدايتهم فى مفترق طرق : لتأدى الى طريق تسلكه الى هدايتهم ، حتى هداك ربك بالوحى الى دين الإسلام وتعاليم القرآن ، وأمرك أن تسير بقومك على نوره ، وأنقلك من الحيرة التى كنت فيها . هذا هو معنى الضلال فى الآية .

تقول : وإذا كان الأمر على ماذكرت من سلامته صلى الله عليه وسلم فى عقله ونفسه وجوارحه وعدم تقصره - فما معنى الرضى فى بتمجيد الرب ، وتطهير النفس ، وترك المعاصى ؟

فأقول : أن المراد من أمره بما ذكر طلب النوام منه على ما هو عليه ، وتذكيره بأنه صلى الله عليه وسلم مزود من طهارة عقله ونفسه وجوارحه بما يساعده على أداء وظيفته والقيام بمهمته : فلا يبتس ، ولا

يحزن ، ولا يئاس ، ولا يكثر من القلق والاهتمام .  
وينبئه الى ان من كان مثله طاهرا من الشوائب سليا  
من العائب - لا يخسر ولا يخيب ، بل يكون له من  
الظهور وحسن العاقبة او فر نصيب . وهذا كما تقول  
لابنك : وانت ترشحه للضرب في البلاد من اجل كسب  
مال او معال ، وقد شعرت منه بشيء من التهييب  
وتوقع الخيبة : « اقدم بابني ولا تخف ، وكن اديسا  
فطنا أينما طمعا لريك ، مالكا لريك ، وفيما لصحك ،  
واصبر تر ما الله فاعل بك » . تقول له هذا وانت تعلم  
ان كل ما امرته به هو من صفاته وأخلاقه ، ولا تريد  
من توجيه الخطاب اليه بذلك الامر الا حثه على انتظار  
النجاح ، وبث الطمأنينة في نفسه للمستقبل . ومثل  
هذا قوله تعالى : ( انا اعطيناك الكور . فصل لريك  
والنحر ) ، اي اعطيناك يا محمد الخير الكثير ، فلتكن  
صلاتك وما تقدمه من اقرباين خالسا لله ، ولا تجعل  
لفيره من العبودات فيهما نصيبا . والمعنى : دم على  
ما آتت عليه من هذا الاخلاص ، فانه قضاء للذمة ،  
ووفاء لحق النعمة . والا فانه صلى الله عليه وسلم  
لم يسجد لصنم قط ، ولم يبيع لصنم قط ، ولهذا هو  
معنى قوله تعالى هنا لتيه : مجيد ريك يا محمد ،  
وطهر نفسك ، واحم جورحك - ان شاء الله .

ثم ان من الصفات النفسية صفتين هما اشد  
ما يلزم للقائم بالدعوة - اية دعوة كانت - دينية او  
دنيوية ، سياسية او اجتماعية - ناك الصفتان هما  
الجود والصبر ، فلا يمكن قط ان ينجح داع في  
دعوته وهو مسك شحج ، كما لا يمكن ان ينجح  
فيم اذا كان ملوا جروما ، مسترخي العزيمة مطول  
عروة الصبر . فكم دعوة حق اضمحلت وزالت بسبب  
شح القائم بها ، او بسبب مله وقلة صبره ، وكم  
دعوة يبطل ل أساس لها تدرع صاحبها بالجود  
والسماح ، واستشعر الصبر والدب واللاحاح ،  
فكانت عاقبت الفوز والغلبة والنجاح .

وقل من جسد في امر بحاوله

واستشعر الصبر الا فاز بالظفر

اعتبر ما قلناه في الدول التي ظهرت في ازمنة  
التاريخ المختلفة ، وخاصة التي ظهرت في صدر  
الاسلام . فان الدولة الاموية لم تثبت ويستتب لها  
سلطان الا بايثار والسخاء ، والصبر وانتظار  
القرص . أما الدول الاخرى التي كانت تنافسها  
وتجري معها في ميدان واحد كالدولة الزيرية مثلا -  
فانه لم يضر بها ويقطع عليها الطريق الى غايتها الا  
النشح والظن بالسبال ، والملل وعدم انتظار القرص .  
اذا تقرر هذا فهما السر في تخصيص الله هذين  
الخلقين بالذكر بعد ان تم في آية ( وليابك فطهر )  
التي قلنا ان معناها عليك بكرام الخصال ، ومحاسن  
الاخلاق ، لم خصص فقال : ( ولا لمن تستكثر )  
ولريك فاصبر ) ، كانه يقول : واخص من بين تلك  
الاخلاق العطاء بلا استكثار ، والصبر على المكروه  
والمضار ، فقلوه : ( ولا لمن تستكثر ) معناه لا تعط  
وانت مقدّر من نفسك ان ما تعطيه كثير ، بل اعط

عطاء من لا يخاف الفقر ، وقدر ان ما تعطيه قليل وان  
كان كثيرا في الواقع ونفس الامر ، يقال : « من الامر  
على فلان » اذا اتم عليه واصطبح عند يدنا .  
وقوله : ( ولريك فاصبر ) معناه اصبر على اذى  
قومك وعوامهم ، وعدم اتيادهم لك ، لأجل ريك  
وتبليغ رسالته ، وتلقين وجهه ، فان في هذا الصبر  
بلوغ ما تشتهي وتحب من ايمانهم ومساندتهم الى  
تصديقك . وقد قال تعالى لتيه في معرض الامتنان  
عليه بما وهبه من حسن السجاية حتى كانت سببا  
في تالف العرب ، وحيهم له ، واتيادهم الى دعوته :  
( ولو كنت فظا غليظ القلب لانقضوا من حولك ) .  
فلنت : صلى الله عليه وسلم ورفقه ، ومكروا اخلافه  
عامه ، وسخاؤه وصبره خاصة - كل ذلك مما اذبه  
ربه به فكان سببا لظهور دينه ، ونجاح دعوته ، ومن  
لم قال صلى الله عليه وسلم : ( ادبني ربي فاحسن  
ناديني ) . اما تاديه بالجد والسجاء فيكي في  
التمثيل له اعطاه يوما بعض المؤلفه طوبهم : رادبا  
مملوا ابلا وشاء ، واما صبره وليك قلبه فيكي في  
الدلالة عليه ما قاله صلى الله عليه وسلم في جواب  
عنه ابي طالب مد رغبه في السكوت عن قومه ، وترك  
التمرض لهم في دينهم ، وانهم يمتنون في مقابل ذلك  
بما شاء من زهرة الحياة الدنيا وزينتها : « والله لو  
وضع الشمس في يميني والقمر في شمالي ما تركت  
دعوهي الى دين الله » .

قوله : ( فاذا نقر في الناقور ) . الفاء للسببية كالفاء  
التي في قوله تعالى : ( فاخرج منها فانك رجيم ) ،  
اي لآناك رجيم . والمعنى هنا انهض يا محمد لآناك  
قومك متندرا بما امرك به ، واصبر على اذاهم ،  
ولا تبسل بهم ، فان امامهم ان بقوا على كفرهم يوما  
شدبد الهول عليهم ، و ( النقر في الناقور ) هو يعني  
التفخ في الصور ، تقول : « نقر الرجل » . اذا صوت  
له بلساك ، والتقر بالخيل ازماجاها بالصوت حثا لها  
على المسير ، و ( الناقور ) فاعول اسم الآلة التي ينقر  
بها او عليها فتصوت ، كالحاشوم اسم للدواء الذي  
يؤكل فيكون به الهضم . فالنقر كما يكون بمعنى  
الضرب على دف مثلا بحيث يسمع له صوت ، يكون  
بمعنى الصوت والتفخ في الشيء فيسمع له صوت .  
ويفهم من كلام بعض المفسرين ان النقر غير التفخ ،  
وهو يدل على ان التفخ في الصور والنقر في الناقور  
كليهما ليس من باب الحقيقة ، بل هو كتابة من اعلان  
ذلك اليوم ، والنداء به ، وظهور امره ، واكتشاف  
سره . او هو تمثيل لبث الخلاق وحشرهم في  
صعيد واحد بحيث يصحب من راهم ان نغمة صور  
او نقرة ناقور اهابت بهم وازمجتهم الى حفرة ربه .  
على ان الشرع ان كلنا الاعتقاد بالصور والناقور فانه  
والحمد لله لم نكلفنا معرفتهما ، ولا كيفية التفخ في  
الصور ، او النقر في الناقور - معرفة اكتناه .  
وذلك رحمة بنا ، وتيسيرا لآلام علينا .

وقوله ( فذلك ) اشارة الى الوقت المقوم من اذا  
اي ذلك الوقت او اليوم الذي ينقر فيه في الناقور .  
وقوله : ( يوم عيسى ) خبر قوله ذلك . وقوله

فَذَلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ ﴿١﴾ عَلَى الْكَافِرِينَ غَيْرُ  
يسيرٍ ﴿٢﴾ ذُرِّي وَمَنْ خَلَقْتَ وَحِيدًا ﴿٣﴾ وَجَعَلْتَ لَهُ مَا لَا  
تَحْسِبُ ﴿٤﴾ وَبَيْنَ شُهُودًا ﴿٥﴾ وَمَهَّدْتَ لَهُ تَمَهِيدًا ﴿٦﴾  
ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ ﴿٧﴾ كَلَّا إِنَّهُ كَانَ لِآيَاتِنَا عَمِيدًا ﴿٨﴾  
سَاءَ هُوَ صَعُدَا ﴿٩﴾ إِنَّهُ فَعَّرَ نَفْسَهُ فَقِيلَ كَيْفَ

الشرح والتفسير ، الى ان قال له ربه هنا : ( ذُرِّي )  
اى دعنى يا محمد بعد ان تكون انت على ما احببت لك  
من اجتماع الكلمات الانسانية فيك ( ومن خلقت )  
اى وعدوك الوليد الذى خلقته ( وحيدا ) ، اى دعنى  
وحدى معه ، ولا تستعجى عليه الاخوان والاصهار ،  
فانا كافيك وحدى ، وفى الغناء عن كل عون ونصير .  
فيكون ( وحيدا ) حالا من مفعول ( ذُرِّي ) . او المعنى  
دعنى وهذا الذى خلقته وحدى ولم يشركنى فى خلقى  
له شريك او مساعد . وفى ذلك تنبيه للوليد الى ان  
من العار عليه ان يقرن بمن تفرد بخلقته شريكا فى  
العبادة ، او ايقاظه الى ان من خلقه وحده قادر على  
ان يهلكه وحده ولا يعارضه فى اغلاك معارض ، فيكون  
( وحيدا ) على الوجهين حالا من فاعل ( خلقت ) .

او المعنى : دعنى يا محمد وهذا الذى خلقته ،  
فكونته فى بطن امه وحيدا : لا رفيق له سوى رفقتى  
ولطفي وهناتى ، ثم ولدته امه فكان وحيدا فريدا :  
لا مال له ولا ولد ، ولا حول ولا ملأ ، حتى اذا اسيقت  
عليه الآلام ، وامدته بالاموال والاوالاد والاخلاء - قام  
بكفرى ، ويكذب رسولى ، وعصاى آيائى . فيكون  
( وحيدا ) حالا من مفعول ( خلقت ) وهو ضمير يعود  
على من .

وهذا المعنى الآخر يناسب ما بعده من تعداد  
النعم ، وتذكر الوليد انه أصبح بها كثيرا واغرا العدد ،  
بعد ان كان وحيدا منقطع المأوى . وبعد نزول هذه  
الآية صار يلقب الوليد بالوحيد تمهيدا له ، وبهكسا  
به . وقيل : كانوا يلقونه بالوحيد قبيل نزول الآية  
تكريا له ، وتوحيها بانفراده فى الواسية ، فلما نزلت  
قلبت اللوح الى قدح ، وحولت التكرير الى تعبير .

ثم اخذ الكتاب فى بيان النعم والابادى التى كانت  
لخالقه عليه فقال : ( وَجَعَلْتَ لَهُ مَا لَا مَسْدُودَ ) ،  
اى ميسورا موسما . وقرب منه قوله « فلان  
صاحب سمه » وموسع عليه فى الرزق » ، فهو من الد  
بمعنى يسر الشئ وتوسيعه ، ويحتمل ان تكون من  
المدد والامداد ، يعنى ان ماله كان كالنهر : كلما نفذ  
منه شئ مد باخر ، وكلما انفق نعمة اخلف الله عليه  
غيرها . وكان الوليد هذا بستان فى الطائف لا ينقطع  
ثمرة صيفا ولا شتاء فى نمو واموال اخرى كانت ممتدة  
بين مكة والطائف . ومن ثم قال بعضهم ان امتداد  
ماله المفهوم من قوله ( ممدودا ) هو على حقيقته .  
( وَبَيْنَ شُهُودًا ) ، اى مقيمين معه فيبلده لا يبرحونها  
ابتغاء للكسب وطلب الماشى ، لوجود اموال لا ينفونهم  
مؤونة ذلك ، فهم دائما شهود حضور بين يدى ابيهم ،  
يستأنس بهم ، ولا يتفحص عيشه لفرأهم . وبشبه  
هذا ما قالوه فى بيت حسان رضى الله عنه :

اولاد جفنة حول قبر ابيهم

قبر ابن مارية الكريم الفضل

وانه اراد بقوله « حول قبر ابيهم » انهم ملوك اعزاء  
مقيمون بدار مملكتهم : لا يبرحون لالكتساب ، ولا  
ينتجعون كالامراء .  
او الراد بكونهم ( شهدوا ) انهم بلغوا من الرجلة

( يومئذ ) بدل من ( فذلك ) الذى قلنا انه بمعنى  
فذلك اليوم . وفائدة هذا الابدال زيادة التقرير  
والتصوير فى الالهام . وكما اكد فى الابدال من البيت  
اكد بتقرير الوصف مد قال : ( غير يسير ) فانه بمعنى  
( عسير ) . وهذا كما تقول « انا محب لك غير مبغض » ،  
فقولك « غير مبغض » يورث الكلام فضل تأكيد . بل  
ربما كانت نكتة التكرير فى الآية الاشارة الى ان مصر ذلك  
اليوم لا يصحبه يسر كما يصحب مصر الدنيا ، فهو  
عسر مطبق ، وهول متلق . و ( على الكافرين ) متعلق  
بيسير ، او بيسر . والفاعل فى قوله ( فاذن ) مضمون  
جملة الجزاء وهى ( فذلك يومئذ يوم عسير ) والمعنى :  
يشهد الهول ويسر الامر وقت نقر الناقور .

معنى ( ذُرِّي وَمَنْ خَلَقْتَ ) دعنى واباه ، وكل  
امره الى ، وفق ائى قادر على كفايتك همه . وهو  
اسلوب بليغ فى التهديد ، مثله ماسيق فى آية ( وذُرِّي  
والكذابين اولى النعمة ) ، وآية ( فذرني ومن يكذب  
بهذا الحديث ) .

وهذا الذى يقول الله انه خلقه وسينزل به  
مقوته هو الوليد بن الفيرة الخزومي . احد عظام  
قريش وذوى السؤدد والجاه والسعة فيهم . وقد  
ذكره تعالى باباديه منده فى معرض تهديده وتخوينه ،  
ليكون ذلك احمى الى الكسر من نفسه ، والغض من  
خيلائه ، فيكف عن بعض شره وابداله للنبي صلى  
الله عليه وسلم . والوحي وان نزل فى سبب خاص ،  
او خطوب به واحد من الأشخاص - فان اسلوبه  
يبقى عاما متشائلا كل من كان كالوليد فى مصائدة  
الحق ، والكفر بالله ، وترك الشكر له على نعمه وسوانح  
آلله . ويقول بعض المفسرين ان الوليد هذا هو الذى  
اذاى رسول الله وكاد له ، واضطره ان يأوى الى بيته  
ويتدنى بغطيته مخفيا حزنا . فان صناديد قريش  
لما يروا برسول الله ، وضائق عليهم الحيل فى اسكانه ،  
واطفاء نور دموله - لجأوا الى الوليد ، فآثروا عليهم  
بان يلقوه صلى الله عليه وسلم بالساحر ، ويأمروا  
مبيدهم وصبيانهم ان ينادوا بذلك فى مكة ، فحملوا  
بنادون : ان محمدا لساحر . فلما سمع رسول الله  
ذلك وجم واشتد عليه الامر ، ورجع الى بيته حزنا ،  
فتدنر بغطيته ، فنزل عليه جبريل يقول : ( يا ابا  
النضر قم فانذر ) ، وقد ذكرنا هذا اتفا مستوفى

والكمال والنجاة مبلغا يشهدون به مع أبيهم الجامع والمحال العامة ، فيكونون زينة لأبيهم وجمالا .

وقوله ( **ومهدت له تمهيدا** ) من قبيل التعميم بعد التخصص . فبعد أن ذكر من مظاهر النعم الإلهية المال والبنيين ، عاد فلف النعم والفيضات اللطيفة لفا في هذه الجملة فقال : ( **ومهدت له** ) أي بسطت بين يديه الدنيا بسطا ، ويسرت له تكاليف الحياة ومظاهر الجاه تيسيرا ، بحيث لا يصعب عليه تناول ما شاء منها ( **و التمهيد** ) في الأصل أن تجعل الشيء أو الأرض مهيأة مبسطة ، يقال « مهد الأمر » إذا وطئه وسهله وسواه وأصلحه . ثم جعلوا يتجوّزون به عن بسطة المال والجاه . ويقول الكتاب في ترسلاتهم : « **إدام الله تابيدك وتمهيدك** » يريدون ما ذكرنا .

ويدل أن يشكر الوليد لربه هذا الإحسان ، ويقابله بالطاعة والإيمان - عكس الأمر وقابله بالجدود والكفران ، فلم قرشا أن يلقبوا وسوله بالساحر ، وينادوا عليه به في كل أرجاء مكة . وقد أشار الوحي إلى ذلك في الآية الآتية من هذه السورة على لسان الوليد : ( **إن هذا إلا سحر يؤثر** ، **إن هذا إلا قول البشر** . وقال عنه في سورة « **ن والقلم** » : ( **إذا تلى عليه آياتنا قال أساطير الأولين** ) . وكان الوليد يقول لأولاده ورجال مشيرته : « **لئن تبع دين محمد منكم أحد لا أنفعه بشيء أبدا** » فكانوا بسبب ذلك يمتنعون من الإسلام . وقد مر من الوليد هذا خبر طويل في سورة « **ن** » والقلم ، وقوله تعالى فيه ( **ولا تطع كل حلاف مهين** هذان ) آخر الأوصاف العشرة التي وصفه الوحي بها - ذاك هو شأنه مع الوليد في استثناء النعم وموالة الإحسان ، وهذه هي شئنة الوليد مع ربه في الجدود والمصيان ، ومقاومة أهل الإيمان . ( **ثم** ) أن الوليد بعد ذلك كله لا يستحي من ربه ، ولا يفسطن إلى سوء أدبه ، بل هو ( **يطعم** ) ويحرص ( **أن أزيد** ) له من نعمي ، وأوالى عليه من إحساني .

يسام النساء ثم يرجى ودادنا

لقد هان من يعطي مودته قصبا

ويروى أن الزيادة التي كان يطعم فيها الوليد لم تكن من جاه الدنيا وخيراتها ، بل من نعم الآخرة وبها يحج جنتها . فقد كان يقول : « **إن كان محمد صادقا فما خلقت الجنة إلا لي** » . ( **كلانا** ) أي ليرتدع الوليد عن طعمه وليكتف من غروره ، فليس هو أهلا لما طعم فيه . وقد روى أن الوليد لم يزل بعد نزول هذه الآية في نقصان وخسار حتى افترق ومات معلما .

( **أنه كان لا ياتنا** ) حينما دلى خلقنا : من كتب ورسل ( **فنعيدا** ) معاندا ؛ لها ، مكابرا فيها . عند من الطريق : مال ومعل ، ومعاندا فلانا : جانب وفارقه ، وعارضة بالخلاف والمصيان ، ومعاندا الحق : جحدته ورده وهو يعرفه ، فهو معاندا وعندي . ومما رويوه من عناد الوليد أنه مر على النبي صلى الله عليه وسلم

وهو يقرأ « **حم السجدة** » ، وقيل بل سمعه يقرأ آية ( **إن الله يامر بالعدل والإحسان وإيتاء ذى القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى يعظكم لعلكم تذكرون** » ، فرجع وقال لقرينش : « **والله لقد سمعت أنفاس محمد كالآص من ما هو من كلام الإنسي ولا من كلام الجن** : **إن له لحلاوة ، وإن عليه لطلاوة ، وإن أعلاه لمشر ، وإن أسفله لمندق ، راته يعلو ولا يعلو** » . لا جرم أن من عرف من كلام الله مثل ما عرف الوليد وبني مقيما على تكذيبه له ، ووصفه بأنه ( **أساطير الأولين** ) ، وقوله فيه ( **إن هذا إلا سحر يؤثر** ، **إن هذا إلا قول البشر** ) - كان معاندا للآيات ، خليقا بأن يكابد من العذاب أشد الصعوبات . ومن ثم قال تعالى فيه : ( **سارقه صعدا** ) ، أي سالكته وأحملة عذابا شاقا صعبا عليه ، تصعب عنه قوته كما تصعب قوة من يصعد في الجبل . و ( **الصعود** ) بضم الصاد : مصير صعد ، وبفتحة : العبقة في الجبل يصعب على المرء التصعيد فيها . وقد مر في تفسير قوله تعالى : ( **عذابا صعبا** ) أن السرب جعلوا صعود المرتبة الصعب مثلا في تكليف الأمر الشاق الذي لا يطاق ، فراجع ما قلناه في سورة الجن .

ذكر في الآيتين السابقتين أن الوليد شديد العناد لآيات الله ، وأن الله سينزل به ما لا طاقة له به من العذاب . وكان سائلا سمع ذلك فسأل : وكيف كانت حالتي معاندة الآيات حتى استحق العذاب ؟ ثم سأل : وما هو العذاب الذي يرهقه يوم القيامة ؟ فاجاب عن الأول بقوله تعالى : ( **أنه فكر وقدر الخ** ) ، وأجاب عن الثاني بقوله بعد ذلك : ( **سأصليه سقر** ) ، وما أدراك ما سقر الخ ، فهذه الآيات والتي تليها تفصيل وشرح لما أمدحه في آتي ( **أنه كان لا ياتنا نعيدا** ، **سارقه صعدا** ) ، وهذا كقوله تعالى في سورة الأخلاص ( **الله أحد ، الله الصمد** ) ، ثم عاد بالبيان على ( **الله أحد** ) فقال : ( **لم يلد ولم يولد** ) ، وعلى ( **الله الصمد** ) فقال : ( **ولم يكن له كفوا أحد** ) ، وفي هذا الإسهاب بمدح الإيجاز - ما فيه من البلاغة وباهر الإعجاز .

( **قدر** ) الأمر في نفسه : هياه ، وأجال فيه رايه ، ليبرزه إلى الناس نافعا كاملا ، ومثله ( **روحه** ) إذا عمل الروية في تربيته وتقديره ، و ( **زوره** ) بتقديم الزاى إذا أذره في نفسه وهياه .

وقوله ( **فقتل** ... **ثم قتل** ) يعني قتله الله وهو كقولهم : **قتله الله** أو أشجعه أو أخزاه الله أما أشعره : يقول السرب هذا في معرض التعجب والاستعظام مدحا ، وكان الأصل في هذا الاستعمال أن هذا الشجاع أو الشاكر بلغ في شجاعته وشعره حدا يشير الصمد في نفوس الناس ، فلا يمكن السنتهم من الدماء عليه بالقتل أو الخزي ، شأن الحاسد مسع محسوده ، ثم شاع هذا الاستعمال وصرف إلى المدح والتعجب حتى صار بقوله الحب في محبوبه ، والوالد لولده ، أما هو في الآية فتعجب واستعظام مشبوبان بالتحقير ، ولا مدح فيهما ، أو يقال أن المدح فيهما وأرد مورد التهنيم ، فلا ضرر ملاحظته في الآية .

قَدَرٌ ۝ ثُمَّ قِيلَ كَيْفَ قَدَرٌ ۝ ثُمَّ نَظَرَ ۝ ثُمَّ عَبَسَ  
وَبَسَّ ۝ ثُمَّ أَذْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ ۝ فَقَالَ إِنْ هَذَا إِلَّا  
جَهْرٌ يَوْمُرُ ۝ إِنْ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ ۝ سَاطِعُ  
سَعَرٍ ۝ وَمَا أَذْرُكَ مَا سَعَرٌ ۝ لَا تَبْقَى وَلَا تَذَرُ ۝  
لِرَاحَةِ الْبَشَرِ ۝ عَلَيْهِ سَعَةُ عَشَرَ ۝ وَمَا جَعَلْنَا

و: (العَبَسَ والبَسَّ) والكَلُوحُ: تقلص عضلات  
الوجه عند الألم أو الحزن، أو هم نفسى يتفصل له  
المرء، وجعل بعضهم الكَلُوحَ في الشفاه بحيث تبدو  
الشفاه، والعَبَسُ في تقطيع الحاجبين، والبَسُّ  
أشد من العبوس.

وقوله (يَوْمُرُ) معناه يروى ويتناقل خلفا من  
سلف.

قلنا إن الوليد على عتقه، وشدة مناده — كان  
لا يملك نفسه من الإجابات بالقرآن وقصاصة آياته،  
حتى قال فيه قوله المأثور: «إن له لحلاوة، وإن عليه  
لطلاوة الخ». وقال قرئش يوما: سأبائر لكم — أى  
سأجرب وأختبر — هذا الرجل الليلة — بمعنى محمدا  
صلى الله عليه وسلم — فجاهده فوجده يصلى ويقرأ،  
فرجع إليهم واجما، وآله النفس، فقالوا له: «مه»  
قال: «سمعت لولا حوا أخضر مشيرا بأخضر  
بالقلب». وزار أبا بكر مرة وسأله عن القرآن،  
فأسمعه شيئا منه بصوته الرقيق الحزين اختل به  
لبه، فخرج إلى قرئش فقال: «يا عجب! لما يقول ابن  
أبي كبشة! أو الله ما هو بشعر، ولا بسحر ولا بهدى  
من الجنون، وإن قوله أن كلام الله»، فكلمت قرئش  
يسمعون هذا وأشباهه من الوليد فيخامروهم الرئب  
فيه، ويقولون: «والله لئن صاب الوليد لتصبان

قرئش»، أى لئن خرج من دينه إلى دين محمد ليفعلن  
مثله. ثم راجعوا أبا جهل في أمره، وخوفوه المأقية  
أن هو أسلم. فأعلن أبو جهل عظماء قرئش  
وصناديدهم وجوب الاجتماع في ناديهام المسمى  
«دار الندوة» فشهده مأثم وأشرفهم. وحضر  
الوليد، فقال له أبو جهل: «أى هم، إن قومك  
يريدون أن يجمعوا لك مالا» قال: «وله» قال:  
«يعطونك إياه» فأنك تتعرض لحمد طلبة ما قبله  
يريد أبو جهل أنه يتعرض للنبي في طلب عطية منه.  
وأما أراد بهذا القول أن يحصى الوليد ويغضب،  
فيتجنب مجالس النبي صلى الله عليه وسلم  
والمصاحبة. ففسال الوليد: قد علمت قرئش أنى  
أكثرها مالا. قال أبو جهل: فقل إذن فيه قولا يعلم  
قومك أنك منكرا لما قال، وأنت كاره له. قال الوليد:

قما أقول فيه؟ قالوا: نريد قولا نقوله لو فود العرب  
إذا هم جاءوا الموسم، وسألونا عن محمد: ما حقيقة  
أمره؟ فإذا اختلفنا في الجواب، وقال بعضنا: هو  
شاعر، وقال آخر: كاهن، وقال ثالث: هو مجنون  
— استدلوا من اختلفنا على بطلان قولنا من أصله،  
فهلموا نتفق على رأى واحد، ووصف واحد. فقال  
بعضهم إذ ذاك: نقول كلنا: أنه شاعر. فقال الوليد:  
لا والله، ما هو بالشاعر، وليس أحد أعلم بالشعر منى  
ولا برجزه ولا بقصيده ولا بأشعار الجن، اليس قد  
عرضت على الشعراء شعرهم: النابغة وعبيد بن  
الأبرص، وأميرة بن أبي الصلت، وغيرهم؟ فلا يشبه  
كلامه كلامهم. قال آخر: نسميه الكاهن. فقال  
الوليد: لا والله، ما هو بكاهن، ولا سيما أن الكاهن  
يصدق تارة ويكذب أخرى، ومحمد لا يكذب قط.  
قالوا: هو مجنون. فقال الوليد: المجنون يخيف  
الناس، وما يخيف محمد أحدا قط. فلما سمعوا  
هنا منه سكتوا. فقال له الوليد: فدمنى حتى أفكر  
فيه. فقال له أبو جهل عند ذلك: والله لا يرضى  
قومك حتى تقول أنت فيه قولك.

وكان من حق الوليد في هذا الموقف أن يكون ثابت  
القدم، جرىء النفس، قوى الإرادة، مؤثرا للحق على  
الباطل، والتواب الباقي على العرض الرائل: فيعترف  
بلسانه بما اعترف به في وجدانه، ويشهد أن القرآن  
حق، ودموى محمد صلى الله عليه وسلم صدق.  
لكنه قلب عليه الجحود والعداء، فأعلن كفره الصريح  
في ذلك التاد، وأشار إلى القوم أنه سري لهم بشأن  
محمد رأيا يتقدم به من حيرتهم، ويهددهم إلى صالح  
أمرهم. فأشربته إليه عند ذلك الاعتناق، وسمرت  
في وجهه الحماليق والأحداق.

وقد وصف الوحي محمدا الوليد ويجزه — في تلك  
المديدة التي كان يفكر فيها — وصفا استوهب  
فيه جميع الحالات الجسمية، والانفعالات النفسية  
التي تبدو مادة على كل من كلف تكليف الوليد، وكان  
في مثل منصبه. والكلام عنه مسوق للسخرية به،  
والتعجب من غفلته، وقصور نظره، على حد ما  
قيل في مثله:

فان قيل: كم خمس وخمس لارائى  
ولنقل ليتنه بمسد ويحبس  
خمس خمس ستة أو سبعة  
قولان قالهما الخليل وتعلم

فان تعالى: (آه) أى الوليد حين طلب منه أن  
يأتى بوصف ينطبق عليه صلى الله عليه وسلم (فكر)  
جعل قلبه وجوه الرأى في استحضار الأوصاف  
والألقاب المختلفة، (وقدر) أى جعل يعمل رويته  
في الترتيب والتصنيف بين تلك الألقاب واختيار  
الأنسب والأليق منها. ثم قاطعه الوحي معجبا من  
أمره، ناعيا سوء فسله، داعيا عليه بما يشبه  
الاستعظام له والتفخيم، وهو إنما يريد الاستهزاء به  
والتبكيت، فقال: (فقتل كيف قدر) أى قبضه الله

ما أشد هوسه في أمر ذلك التقدير الذي اجتهد أن يقدّره ! وفي استنباط القلب الذي كان يحصل أن يستنبطه ! ويلفاده الصرب إذا قالوا قولاً في أمر ، أو حكموا حكماً على شخص ، وتوقموا الكثر المخاطب لما قالوا ، أو استنبطوا للحكم الذي حكموا به عادوا فتركوا قولهم مؤكدين مؤيدين ، ويصلرونه بحرف العطف ( ثم ) ، كأنهم يقولون للمنكر : مهما استغرقت من زمن في الإنكار والرد فإن قولنا أو حكمنا هو الحق الذي لا ريب فيه ، فيقول شاعرهم في اظهار حبه لحبوبيته مثلاً : « لا يا أسلمي ثم أسلمي نمت أسلمي » : توقع في قوله « لا يا أسلمي » الأول الإنكار عليه ، وأن المنكر سوف يطيل في لومه وعده ، فقال : ( ثم ) أي بعد كل ما تقوله أيها المنكر وتسرده من كلمات اللوم والعلل أقود إلى قولي الأول ، وأدعو لحبوبيتي بقولي لها « أسلمي » ، وهكذا المعنى في قوله في المرة الثالثة : « نمت أسلمي » .

والكتاب المنزل إنما يورد خطابه موارد العرب في خطابهم ، ويتصرف فيه تصرفهم في مناسباتهم . فهو بعد أن دعا على الوليد كما أترف من بشاشة التفكير والتقدير - عاد فكرر دعاءه عليه مؤكداً قاطعاً على المنكر الإنكاره فقال : ( ثم قتل كيف قتل ) . تركنا الوليد يفكر ويقتل ، ولترجع إليه لنرى ماذا فعل بعد . قال تعالى : ( ثم نظر ) أي بعد أن فكرت ، ونظره بالقلب الذي ظنه في زعمه أشد انطباقاً على النبي من غيره - دفع بصره إلى القوم المحتشدين في النادي وجعل يدير نظره في وجوههم . وكان نظره إليهم أولاً نظراً هادئاً لما يبوس معه ولا كلوح ، وإنما كل ما أراد - أن يشعروا بأنه أصاب المحر ، ووقع على الفصاة المنشودة ... حتى إذا استجمع القوم ما انتشر من نفوسهم ، ورآهم قد تهيشوا لسماع كلامه - ميس وقطب حاجبيه محاولاً في ذلك استهواهم والتأثير فيهم ، كما يفعل النوم تنويماً مفطنياً في هذه الأيام . وهذا معنى قوله : ( ثم هسس ويسر ) أي قلب حاجبيه أشد التقطيب متعشياً للكلام وأعطاه الحكم القطعي .

ولما كان رايه الذي سيبدله للقوم ، والوصف الذي اختاره له صلى الله عليه وسلم - ناشئاً من محض كبر ، وغبط الحق ، وإعراض عن الإيمان - عين الكتاب من رايه هذا بأنه ادبار واستكبار ، فقال : ( ثم ادبر واستكبر ) ، أي ثم أبدى للقوم رايه فيما يجب أن يلتب به محمد صلى الله عليه وسلم ، فكان ذلك الرأي محض ادبار ، وقول من الحق واستكباره ولم يكن فيه أثر مما شعر به في قلبه من خلالة القرآن وطلابه ، وقوله فيه : « انه ليس بشعر ولا يسحر ولا جنون انه لا كلام الله » . عرف كل هذا وأقر به أولاً ، حتى إذا شهد النادي ، واحتف به القوم - جحد وأتكر ، وادبر واستكبر ، فضل بذلك وأضل - واستكان لوسوسة الشيطان وذل - والدة التي فكر فيها الوليد وقدر ، ثم أبدى هذا الرأي المنكر - لم تكن طويلة حتى يعبر من كل فترة

من فتراتها بشم التي تفيد البعد والتراخي ، لكن القوم لما كانوا في شوق شديد إلى معرفة ما كان يقدره الوليد ويديره من الكايد - كانت المدة بالنسبة إليهم طويلة ، فكان بين تفكيره وتقديره ، وبين نظره إلى وجوههم وبين بوسه ويسوره وبين تصريحه بما صرح به أخيراً من القول الدال على ادباره واستكباره - فترات طويلة في نفوسهم بحيث يصح التعبير عنها بشم .

ثم فسر الوحي تلك الكلمة التي قالها الوليد للقوم ، والقلب الذي عرضه عليهم فكان به دبراً مستكبراً - بقوله : ( فقال إن هذا ) أي ما هذا القول الذي يقوله محمد ( إلا سحر يؤتى ) أي يروى مثله من الأشوريين والبابليين ، وفلسافه الهنود والمصريين ، أما رايتهم يفرق به بين الرجل وأهله ، والوالد وولده ، والسيد وعبيده ؟

ثم أكد رايه بأنه سحر معروف في الأمم القديمة وليس من كلام الله بقوله : ( إن هذا ) أي ما هذا القول ( إلا قول البشر ) ، أي مثل قول البشر الذين عاشوا في القرون الماضية ، ومارسوا السحر في الأمم الخالية . وانظر كيف قال : ( فقال إن هذا إلا سحر ) ولم يقل ( ثم قال ) - لأن قوله تفسير وبيان لادباره واستكباره المتجدين في رايه القتال ، فكان الكلام للقاء المفردة من دون تراخ . وكذلك قوله : ( إن هذا إلا قول البشر ) أي به من دون عاطف لكونه يساراً وتوكيداً .

وسياق الآيات في استنكار قول الوليد ، واستشباع رايه في اختيار ما اختاره من تلقيبه صلى الله عليه وسلم بالساحر مع ظهور كذب ذلك - يشبه قولهم في عبارتهم المشهورة « سكت دحرا ونطق كفرا » فان الوليد اطلال التفكير والتقدير ، وتفنن ما شاء في التخيل والتصوير ، ثم لم يأت في آخر الأمر إلا بالرأي الفطري ، والقول النافذ العقير . ومع هذا فان القوم المحتشدين في النادي هتفوا له مبدسموا قوله ، فلارجع النادي بهتافهم ، ثم تفرقوا ممججين بقوله ، متمججين من دهائه ووفور عقله !

قوله : ( ساصيله سقر ) لا أدعيه في قوله : ( ساصيله صمودا ) كما مرت الإشارة إليه . و ( سقر ) اسم من أسماء جنم ، وهو من « سقرته الشمس » إذا لوحته ، وأكث دماغه بصرها . و « السقرة » شدة وقع الشمس . و « الساقور » الحديدية تحمي ويكرى بها المحارب . و « أصلاؤه سقر » تعريضه لنارها ، وجعله يقاسى حرها ، والضمير يرجع إلى الوليد . وقوله : ( وما أتواها ما سقر ) استفهام يراد به التعجب من هول سقر ، وأنه مهما فكر المفكر فيها لا يمكنه أن يقرر من أمرها سوى ما عرفه به الوحي ، ومن ذلك أنها ( لا تنقي ) على شيء يلتقي فيها إلا أهلكه ، ( ولا تلز ) أي لا تدع أحداً من النجاة يحاول الهرب منها إلا نأشته واحتجته . وقوله : ( لواحاة للبشر ) مؤكداً لما يفهم من كلمة

أَحْصَبَ النَّارَ إِلَّا مَلِيحَةً وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً  
لِّلَّذِينَ كَفَرُوا لِيَسْتَيْقِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَرِذَادَ  
الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّا وَلَا يَرْتَابَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ

(سفر) ، وهو تلويح الجسم وتغييره الى سواد ،  
الفلوحة اى مقبرة اللون الجسم : فعالة من « لاحت  
الشمس » . ويقال فى الأكثر « لاحت الشمس » .

( والبشر ) جمع بشرة ، وهى ظاهر جلد الانسان ،  
وليس المراد به الناس الذى يكى بهم آدم فيقال :  
لا آدم ابو البشر « وان كان هذا المعنى هو المتبادر  
من اللفظ . فالغنى ان دار العذاب المسماة سفر  
تلفح وجوه المذنبين بها ، وتسفع جلودهم ، وتفسر  
لون اشرارهم الى السواد من شدة ما ينزل بهم من  
العذاب .

ولعل السر فى قوله ( لواح البش ) مع قوله  
( لا تبقى ولا تلب ) الاشارة الى ان اخف حالات  
العذاب لا سقر لا يطاق ولا يحتمل . ومن يطبق ان  
يعرض جسمه على النار ينصلى حرها الى حد ان  
تسود بشرته ، وتجل (١) من اللحم جلدته ؟  
لا يطبق هذا احد ، فكيف به اذا عرض على سقر فى  
اشد احوالها ، واقطع احوالها ؟ وهو المعبر عنه  
بقوله ( لا تبقى ولا تلب ) .

وقد نسر بعضهم ( لواح البش ) بانها تحرق  
الجلود حرقا . وذهب آخرون الى ان تفسير (لواح)  
بغيره ومسوذة ومحركة لا يتسق مع قوله قبله  
( لا تبقى ولا تلب ) المفيد انها تهلك اهلاكا وتمحطه  
محقا ، وقال ان معنى (لواح) : لامة ، يريد ان سقر  
الشد لورائها ، وانفجار نيرانها ورميها بشرد كانه  
القصر ، او الجمالات الصفر - تلوح ونظير لانتظار  
البشر من مسافات بعيدة ، ويكون المراد بالبشر فى  
الآية بنى آدم ، فهى لامة لهم ، بارزة الى انظارهم .  
يروتها من غير استشراف ولا مد اعناق . فلواح  
فعالة من « لاح البرق » اذا اومض ولج . ويقولون  
« لوح اليه بنوبه » اذا رفع الثوب وحركه لراه من  
بعد فيقبل عليه ، وهذا كما اذا اردت ان تصفبركانا  
عظيما ، يقدف نيرانه وحمله بشدة وعنف الى عنان  
السما بحيث يرى من مسافات بعيدة - فتقول  
مثلا : بركان لوح ، تسرى مقدوقاته من مسائر  
النواح .

ثم ذكر الوحي من صفات تلك النار ان ( عليها  
تسبعة عشر ) وهم خزنتها المولكون بامرهما على ما يملهم

(١) مجلت يده كتبر ورفح : تفتت وقرحت وتكون بين  
بطلها ولحمها مله .

الله من حقيقة ذلك ومبره ، كما يعلم سبحانه الحكمة  
فى كونهم ( تسعة عشر ) ، لا اقل ولا اكثر . وسبأى  
فى صريح الوحي ان اولئك الخزنة من جنس الملائكة  
ولكن ( التسعة عشر ) المذكورين هنا : هل تسعة  
عشر شخصا من الخزنة او صفوا او صفوا وتقيبا  
او زعيما ؟ الله اعلم بجميع ذلك . ولم نكلفنا البحث  
فيه ، بل اشر الى تعلل معرفته ، وأنه مما لاطافة  
للخلق بادراى مد قال تعالى . ( وما ادراك ما سفر )  
ولا سيما اذا كان المقصود بالضطاب فى ( ما ادراك ؟ )  
صاحب الرسالة عليه الصلاة والسلام ، فيكون غيره  
اولى واجدر بعدم معرفته . وكل ما علينا اعتقاده  
هو ان تلك النار ذات الاهوال المذكورة فى الكتاب  
حق ، وانها ستكون مأوى للعنابر الذين كفروا بالله  
وجحدوا الحق فى هذه الدليل .

ولما ذكر الوحي فى صفة النار ان ( عليها تسعة  
عشر ) فتح باب الجدل للمكابرين المشككين : كابى  
جهيل واحزابه ، فجلسوا يقولون : ما هؤلاء التسعة  
عشر ؟ ولماذا كانوا تسعة عشر ولم يجعلوا عشرين ؟  
اما لرب محمد اعوان الا تسعة عشر ؟ بل ذهبوا الى  
الاستهزاء بالوحي الى ابد من هذا ، فقال ابو جهيل  
لقريش : كلتكم امهاتكم . ابصير كل عشرة منكم  
ان يبطشوا يواحد من هؤلاء الخزنة التسعة عشر ؟  
فقال احدهم - وهو ابو الأشد بن اسيد الجمعي ،  
وكان مشهورا بالقوة والبطش - : انا اكفيكم سبعة  
عشر ، فاكفوني اتم اثنين فقط .

وهكذا كانوا يسافهون صلى الله عليه  
وسلم ، ويستهزؤن بالوحي المنزل عليه ، ويصرفون  
قلوب العرب من الاعتناء به ، واخذ العبرة منه .  
والنبى صلى الله عليه وسلم ثابت القلب ، مطمئن  
النفس ، واثق بوعد الله انه ناصرهم ومظهر دينه ،  
فكان يجيبهم من دون امتعاض ولا ارتباك بما يأمره  
ربه ان يقول لهم ، فابى ابا جهيل واخذ يسده فى  
بطحاه مكة وخوفه قائلا : ( اولى لك فاولى . ثم اولى  
لك فاولى ) ، اى يوشك ان يحل بك العقاب الالهى ،  
فاحذر لنفسك . فاجابه ابو جهيل : « والله لا تقسر  
انت ولا ربك ان تفعلوا بى شيئا » ، ثم ما لبث ان اخذه  
الله بالتكاليف ورفعه بئر .

وقد زلت هذه الآيات فى صمد الرد عليهم ،  
وتوبخهم على ما كان من استهزائهم ، فقال تعالى :  
( وما جعلنا اصحاب النار الا ملائكة ) ، اى ان خزنة  
النار ليسوا بشرا متلكم ايها الجاحدون ، فتصاولوهم  
وتقووا عليهم ، انما هم ملائكة ذوو ابد وقوة فوق  
قوة البشر ، فاسالوا عنها ان شئتم قوم عاد وثمود  
واهل سدوم وعمواء ، فهم يخبروكم انهم لقوا من  
تلك القوة ما لا قبل لهم به ، فخربت ديارهم ، وعفت  
انهارهم ، وكذلك هى فى جهنم ان خلعتوها تطبق  
عليكم ، وتاخذ باكتافكم وتصفبكم غدايا وتكالا ، فلا  
تسألوا من مدة هذه القوة واشكالها فليست العبرة  
بالمعد ، ولا تخطئوا الجد بالبالب ، وتصرفوا قلوب  
الناس من استماع الوحي والانتفاع بهديه .



لم يجب الوحي من حال أولئك المكذبين المستهزئين الذين لم يأخذوا من آيات القرآن عبرة وعظة ، ولم يخافوا مما خوفهم به من سقر وأهوالها ، وإنما كان مكان العبرة فتنة لهم ، وضلال عن الحق ، واستغفال بسلا لا فائدة لهم به من ظاهر القول ، فتملقوا بكلمة ( تسعة عشر ) ، وتساووا من هذه العدة وسببها وحتمتها : مما لو أريدوا على فهمه ولعقله - وهو من شؤون العالم الأخرى - لصر عليهم تعقله ، بل لازدادوا اشكالا ، وأوغلوا بعدا من التصديق وضلالا ، وهذا معنى قوله تعالى : ( وما جعلنا عدتهم إلا فتنة للذين كفروا ) .

( عليهم ) ، أي عدة خزنة سقر في قولنا عنهم أنهم ( تسعة عشر ) ، و ( فتنة ) بمعنى ضلالا وميلا وإعراضا عن الحق . وليس المراد أنه تعالى أوحى إلى نبيه بذلك ليقتن السكافرون به ، وإنما كانت نتيجة الوحي بالنسبة إليهم ضلالا وكفرا بالنظر إلى معنادهم في باطلهم ، وجمودهم على ما ورثوه من تقاليد آبائهم . أما النتيجة والعاقبة بالنسبة إلى غير الكافرين - وهم المؤمنون به عليه الصلاة والسلام ، وإلى أهل الكتاب الذين شموا رائحة الوحي ولهم عهد بالكتب المنزلة وأساليب الخطاب الإلهي فيها - فإن الفريقين استفادوا من الآيات المذكورة : فالذين أوتوا الكتاب « استبقوا بها » ، أي أيقنوا صحتها ، وأوردوا نظائرها في كتبهم المقدسة ، فكلم في هذه الكتب من أخبار من العالم الأخرى ، وعالم القيب ، وحوادث المستقبل ، أرسل فيها القول أرسالا ، وأودعت من الأفراب في الوصف والأبغال في التمثيل ضروباً وأشكالا .

ويكفي في الاستشهاد على ذلك ما جاء في « رؤى دانيال » من أسفار العهد القديم ، و « رؤيا يوحنا » من أسفار العهد الجديد .

وقد قال المفسرون من علماء أهل الكتاب : « أنه وإن يكن يوجد في سفر دانيال حوادث غير اعتيادية فليس هذا بمستغرب لأنه يتم الكتاب المقدس « قربيا » ، وقالوا في رؤيا يوحنا : « أن معناها عويص وهي مشحونة بمسائل محيرة لا يمكن حلها قبل تمتة ألف السنة ، بل أن مسالة ألف السنة نفسها من جملة تلك المسائل المحيرة ، ولا يمكن أن نفهم هذه المسائل قبل وقوعها » .

وقالوا أيضا : أن كل ما جاء في هذين السفرين من قبيل الرمز « وهو أن يشير بكلام خرقى إلى معنى روحى ، والرمز كثير الوقوع في جميع الكتابات الشريفة لا سيما الكتاب المقدس » .

فمثل ما جاء فيه من الرمز بالأعداد إلى مصان غيبية أو مستقبلية « حيوانات حزقيال الأربعة التى لكل منها أربعة أوجه وأربعة أجنحة وأربعة جوانب » ، وملائكة رؤيا يوحنا « كانت سبعة وفى أيديهم سبع جامات وسبع فريات » ، أما عدد أجنحتها « فكان ستمائة زوجا : فكانوا أزواجاً : فكانوا يشظون وجوههم ،

لأنهم غير مستحقين أن ينظروا إلى وجه الرب » ، ويزوج يفظون رجلهم لأنه تعالى أجل من أن ينظر إليهما ، ويزوج بطيرون قضاء مشيئة الهم » ، و « كان التنين الذى رآه سبعة رموس وسبعة تيجان ومشرة قرون » ، وهذا كالحبائن في رؤيا دانيال « فإن له عشرة قرون أيضا » .

فذكر هذه الأعداد من قبيل الرموز والأسرار : وقد فسروا السرفولهم « أنه حقيقة روحية لا يسل الإنسان إلى معرفتها بمجرد ذهنه ، ولا يفهمها تماما فى هذه الدنيا ، وتسمى بمص التعاليم أسراراً لما فيها من الإبهام والصعوبة على الفهم » . قالوا : « ومن الأسرار غير المفهومة ما جاء في رؤيا يوحنا من ذكر الكواكب السبعة ، والنقار السبعة ، والمرأة المنسرية بالقرمز » .

وقالوا أيضا في وصف صعوبة فهم أحوال عالم القيب : « أنه قد يكون في الفردوس أمور فوق أفكار البشر بحيث لا توجد لغة قادرة على أن تصبر عنها ، وإذا كنا نحن مشعر الشر في دنيانا هذه لا يمكننا التصبر على أفكارنا العادية حينما تكون حاسباتنا شديدة الانفصال ، فكلم بالحرى إذا كان موضوع الكلام حقائق العالم الأزل ، ووصف الأرواح المجردة من المادة ، ووصف مختلف أطوارها » .

فقد تبين من هذا أن كتب أهل الكتاب رموزاً وأساراً من شؤون عالم القيب يقصر الفهم دون ادراكها وتعقلها ، وإن علماءهم معتزلون بوجود هذه الأسرار ، وبأن لها معاني صحيحة منها ما يفهمه الراسخون فى العلم ومنها ما لا يفهمونه إلا بعد وقومه فى المستقبل أو فى العالم الأخرى . فلا بدع إذا لم يستغرب أهل الكتاب فى زمن نزول القرآن ما قاله تعالى من أن عدد خزنة سقر تسعة عشر ، كما استغرب المشركون الأصناميون ذلك . وهذا معنى قوله تعالى : ( ليستيقن الذين أوتوا الكتاب ) .

ويحتمل أن يكون المراد من كونهم يستيقنون أنهم يستدلون من مقاومة المشركين له صلى الله عليه وسلم ، وتآلمهم عليه فى التكذيب والمشافاة طورا ، والسخرية والاستهزاء لذة أخرى - أنه نبى كاتبياهم ، مد يرون حاله مع أولئك المشركين ، وصبره على أذاهم ، وبثاله فى تبليغ أمر ربه - كحال أولئك الأنبياء وصبرهم وثباتهم ، فيستيقنون ويصدقون بصحة نبوته .

أما المؤمنون الخالص فإن ورود الوحي بأن خزنة سقر تسعة عشر - لا يبيحك فى نفوسهم ثرا من شبهة سوى ازدياد الإيمان بالله ، والتصديق بوعيه ، وأن خفيت عليهم الحكمة فيه ، ولا سيما حين يرون موافقة أهل الكتاب عليه ، واعترافهم بأن فى كتبهم مثله . وهذا معنى قوله تعالى : ( ويؤذاد الذين آمنوا إيما ) .

ويروى أن الصحابة لما سمعوا المشركين يقولون : « لا يسجل كل عشرة منا أن يظنوا بواحد من أولئك

وَالْمُؤْمِنُونَ وَلَيَقُولَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْكَافِرُونَ  
مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَن يَشَاءُ

التسعة عشر - قالوا لهم مستهزئين . « ويحكم ا  
انقاس اللاتكة بالحدادين ؟ » و مرادهم بالحدادين  
السجانون الذين يضعون الحديد في ايدي المسجونين .  
وقد ذهب قولهم هذا مثلاً فيقال : « لا تقاس اللاتكة  
بالحدادين » في التفرقة بين الاثنين احدهما طيب  
والثاني خبيث .

ثم ان استيقان اهل الكتاب وازدياد المؤمنين ايماناً  
فيهم منه بالضرورة ، بل بلان منه علم ارتباط الفريقين  
جسماً . ومع هذا فقد أكد الوجيه استيقان الأولين  
وازداد ايمان الآخرين بالتصريح بذلك الاثر . اعني  
عدم الارتياب ونفيه عن الفريقين معا فقال : ( ولا  
يرتاب الذين اتوا الكتاب والمؤمنون ) ، اي أنهم  
يستيقنون ويزدادون ايماناً ولا يربايون ، كما تقول  
آخر : « اني ابغضك ولا يحبك قلبى » ، فان اليك  
البغض يستلزم نفى الحب . لكن العرب في اساليب  
تخطيهم امتدادوا التصريح بذلك الاثر تأكيذاً للتكلام ،  
وتقوية للحكم . على ان في امادته في الآية تعريضاً  
بأولئك الكافرين المشافيين الذين اصبح ذاهبهم  
الارتياب بالوحي ، وتشكيك الضعفاء فيه .

وكذلك قوله تعالى . ( وليقول الذين في قلوبهم  
مرضى والكافرون الخ ) . فان قولهم هذا انما هو اثر  
من استيقانهم ، ولازم من لوازمه ، ولكنه ذكره ليفص  
من ذلك الافتتان ، ويروى شيئاً من اقوالهم ،  
وليفضيل الى الكافرين متفان منهم ، وهم الذين في  
قلوبهم مرض ، ويعني بهم المنافقين . وفي ذلك من  
التفنن في التعبير ، وزيادة التعرير والتعير - ما فيه ،  
كانه يقول : كان من نتيجة ذكرنا لمدة الخزنة افتتان  
أولئك الكافرين وضلالهم ، وقولهم - ولا سيما  
المنافقين منهم - : ( ماذا اراد الله بهذا مثلاً ) .

و ( هذا ) اشارة الى « تسعة عشر » في مدة خزنة  
سقر ، ( المثل ) : القول السائر في الناس ، المتداول  
على اللسان ، ولا يكون الا في امر ذي شأن وخطر  
وصرف مستغرب . فالتشركون الذين سمعوا الوحي  
يخبر ان خزنة سقر تسعة عشر - تعجبوا منه  
واستغربوه ، وهدوه في جملة ما يصح ان يسر مثلاً  
بين الناس ، فقالوا : ( ماذا اراد الله الخ ) اي ماذا اراد  
بهذا القول الذي هو مثل في الفرافة والبداعة ،  
فيخوفنا بواسطته من سقر ، وخزنتها التسعة عشر ؟  
قوله ( كذلك ) اشارة الى ما ذكر قبل من الامرين :  
افتتان الكافرين والمنافقين وارتياحهم بالوحي ،  
واستيقان الكتائبين والمسلمين وازديادهم ايماناً به .  
ولا ريب ان الأولين كانوا من فتنهم وارتياحهم على  
ضلال ، وان الآخرين كانوا من استيقانهم وزيادة

ايمانهم على هدى . والله تعالى يضل من يشاء من  
الخلق ويهدي من يشاء منهم : مثل الاضلال والهداية  
اللذين كانا من نصيب الفريقين المذكورين .

وليس معنى اضلال الله فريقاً وهدايته فريقاً :  
انه تعالى يجبر كل فريق منهما على تناول نصيبه  
من الضلالة والهدى ، ولا انه تعالى يكرهم على  
سلوك اى السبيلين شاء من سبيلي الخير والشر -  
كلا . فان هذا الاكراه مناف للمثل الالهي . بل منافع  
لحكمة التشريع السماوى ، ولا يتجمل مع نصوص  
الشريعة التواترة القطعية في دلالتها على معناها : من  
ان العبد له ارادة واختيار هما مناصب التكليف  
والمواخلة ، وكذلك كان الصحابة والسلف بفهمون  
من تلك النصوص ... سال سائل علياً عليه السلام  
فقال : « اكان مسيرك الى الشام - يعنى لقتال  
اهلبا - يقضاه الله وقدره ؟ » فقال له . « ويحك !  
لملك ظننت قضاء لازماً ، وقدرنا حاتماً ، ولو كان ذلك  
كذلك ، ليطل الثواب والعقاب ، وسقط الوعد  
والوعيد . ان الله سبحانه امر عباده تخيراً ، وبهام  
تحذيراً ، وكلف يسيراً ، ولم يكلف عسيراً ، واعطى  
على القليل كثيراً ، ولم يعص مغلوباً ، ولم يطع مكرهاً ،  
ولم يرسل الانبياء امياً ، ولم ينزل الكتب للاماد  
عياً ، ولا خلق السموات والارض وما بينهما  
باطلاً - ذلك ظن الذين كفروا فويل للذين كفروا من  
النار » اهـ .

وحضر « الواسطي » بعض الاربطة - جمع رباط  
للسوفية - فسمع من فنى يقول العباس بن  
الاحنف :

فأكثرنا لو اقلا من اساءاتكم  
فكل ذلك محمول على القدر

فجن واستفك وشق الجيب وحولق واستغفر  
وقال : « يا قوم ، اما ترون الى العباس بن الاحنف  
لا يكفيه ان يجن . . حتى يكفر . متى كانت الفضائل  
والذنوب والميوب محمولة على القدر ؟ ومتى قدر  
الله هذه الاشياء وقد نهى عنها ؟ ولو قدرها كان قد  
رعى بها ، ولو رعى بها ما عاقب عليها ، ولو قدرها  
على مبدع وهاجب عليها ، كان من الظلم الذى يقيح  
بالمخلوق . فكيف بالخالق ؟ اتا الله ، لمن الله القول اذا  
شيب المجاعة ، ولعن المجاعة اذا قرنت بمم - يقدح  
في الذبابة » .

وما زال يقول هذا واشباهه حتى رد عليه ابر  
صالح الهاشمي فقال : « هون عليك يا شيخ ، فليس  
هذا كله على ما ظنن ، القدر باق على كل شيء ،  
وينعلق بكل شيء ، ويجرى على كل شيء ، وبكل  
شيء ، وهو سر الله المكتوم ، والعلم الذى يحيط بكل  
شيء ، وكل ما جاز ان يحيط به لم جاز ان يجرى  
به قدر ، واذا جاز هذا جاز ان ينشأ عنه خبر ، وما  
هذا التحارج والتضايق والشاعر يهزل ويبدع ،  
ويقرب ويبعد ، ويصيب ويخطئ ، ولا يؤخذ به  
الرجل الديان ، والصالح ذو البيان » اهـ .

أما التصوص التي يشبه ظاهرها أن يكون العبد مكرها لا اختيار له ، وتقول أنه تعالى هو الذي يضل ويهدي - فمعناها أنه تعالى يشرع أمام البشر السبيلين : سبيل الخير والشر ، ويرفع إلى إصرارهم التجدين : نجدي الهدى والضلal ، ولكل فريق منهم أن يختار لنفسه ماوافق استعداده وتجربه إليه إرادته وتربيته ومزاجه وورائته وعوامل المحيط الذي يعيش فيه . وهذا الذي يختاره لنفسه متجديا إليه بالجوازب المذكورة لا يقع إلا منطقيا على ما في علم الله وإرادته ولوح تقديرانه ، فلا يمكن أن يختار العبد لنفسه مالا يكون ثابتا في العلم الأزلي القديم ، وقيوت ذلك فيه لا ينفي من العبد صفة الاختيار ولا يسلبه حرية الإرادة ، لأن صفة العلم ليست سوى صفة تنكشف بها المعلومات لله تعالى ، فهي لا جبر فيها ولا إكراه . وقد ذكر ابن القيم في كتاب « القضاء والقدر » نقلا عن الإمام أحمد بن حنبل رضى الله عنه أنه قال : « القدر علم الله » .

ولما كان شرع السبيلين : سبيل الخير والشر ، وراغب التجدين : نجدي الهدى والضلالة - هو الله سبحانه وتعالى ، قيل في بعض التصوصي : أنه هو الذي يضل هذا ويهدي ذلك ، وهو الذي قضى وقدر على زيد بأن يعمل الخير فيكون من أهل السعادة ، وقضى وقدر على عمرو بأن يعمل الشر فيكون من أهل الشقاوة . وقضوه تعالى وقدره فينا خفيان عنا مشير البشر ، وأما يظهران لنا ، ويقعان تحت أعيننا ، فمثلين في سئنته الكونية ، ونواميسه الاجتماعية ، التي بها في جناب هذا العالم ، وركب بناءه عليها : نكل شخص أو أمة تراعى سئنته ونواميسه الحكمة العادلة - ينساق أو تنساق إلى بحاجب السعادة والخير ، وكل شخص أو أمة تدابير تلك السنن والنواميس ، وتهمل العمل بها - ينساق أو تنساق إلى مواطن التعاسة والشر .

فهذه السنن والنواميس البارزة لنا هي مظهر قضاء الله وقدره الخفيين عنا ، بل هي لعمري الرأيا الصغيلة التي ينعكس عنها إلى إصرارنا ما في ألوح السماوي من حكم الله وإرادته ومشيتته في تدبير هذه الكائنات وفي سعادة البشر وشقاوتهم .

وقد قرر القرآن هذا الأصل المحكم في مصير الأفراد والأمم في غير ما سورة الأنفال : ( قل للذين كفروا أن ينتهوا بغفر لهم ما قد سلف وإن يعودوا فقد مضت سنة الأولين ) ، وفي سورة الأحزاب ( سنة الله في الدين خلوا من قبل وإن تجد لسنة الله تبديلا ) ، وفي سورة قاطر : ( فهل ينظرون إلا سنة الأولين . فلن تجد لسنة الله تبديلا . ولن تجد لسنة الله تحويلا ) . وآيات أخرى بهذا المعنى في الفتح والأسراء والؤمن والحجر وآل عمران والنساء . ويظهر من سياق هذه الآيات والإطلاق القول فيها أن تلك السنن محكمة لا تنسخ ، مطردة لا تتخلل ، عادلة لا تحايي ، صارمة لا تقبل شغافة : فمن اتفاه

وراعاها من أي قبيل كان ، ومن أي بلاد كان ، ومن أي دين كان - سعد وقلي . ومن استخف بها ، وأعرض عنها - شقي وخاب .

فإذا لاحظنا هذا ، ولاحظنا الآيات الناطقة بأن الإيمان وحده هو مناط السعادة ، وأن الكفر وحده هو مناط الشقاوة - حكما بان بين هذه السنن وبين الإيمان والكفر علاقة متينة ورحما ماسة ، وأن اتقاء هذه السنن ومراعاتها شعبة من شعب الإيمان ، وأن الاستخفاف بها والأعراض عنها شعبة من شعب الكفر .

وهذا الموضوع لا يحتمل كلاما يكثر مما تكلمنا وسر القضاء والقدر لا ينبغي الإشارة إليه بآكثر مما أشرنا . والسعيد ومن وفق فنظر في ملكوت السموات والأرض فافهم وأزجر ، وتصفح أحوال الشعوب والأمم كما أمره الله ففاس واستنتج واعتبر . على أن القام ربما وسع كلمة نجب إلا تفوتنا عملا بما أمرنا به القرآن من النظر في الأمم وحالاتها ، ثم الاعتبار ببداياتها ونهاياتها ، فنقول :

أشرنا في أطوار كلامنا السابق إلى أن البشر قد تجلبهم إلى معادتهم أو شقاوتهم « جوازب » ، وأن شئت سميتها «عوامل» : من مثل الملة التي يارسون شعائرها وأحكامها ، والحكومة التي تسيطر عليهم ، والعائلة التي تربى أطفالهم ، والمدرسة التي تعلم أبناءهم ، والمحفل أو النادي الذي يحتشدون فيه للحديث أو السمر أو الفلور أو البيع والشراء أو مختلف الأعمال والمصالح - فالمراد من المحفل أو النادي ما يريده علماء التربية بقولهم « جماعة الأصدقاء والمعارفين » - والورولة التي تنتقل إلى أبنائهم دم آباءهم ومزاجهم وتكوينهم الجسماني ، كما تنتقل إلى نفوسهم طباع أولئك الآباء وغرائزهم وأخلاقهم وتكوينهم الروحاني ، والأقليم الذي يشربون ماءه ، ويستنشقون هواه ، ويلبسون حره وبرده ، ويقتاتون بمحصولاته . وهذا المؤثر يسميه علماء علم النفس « البيئة الجغرافية » ، ويسمون العوامل الأخرى « البيئة الاجتماعية » .

هذه « الجوازب » أو « العوامل » هي التي تعمل في تكوين الأمم ، وهي التي تعمر بها حالتها الاجتماعية ، ودورجتها في سلم المدنية : فإن صلحت تلك العوامل واستقامت ، صلحت المجتمعات واستقامت في أفرادها وجماعاتها ، إذ ليست الجماعات إلا فردا متكررا ، وأن سلمت وقسدت سابت أحوال الأمم ، وانحطت شائنها ، وتقهقر عمرانها .

هذه الجوازب هي التي تجلب البشر إلى ملابس الخير أو موافقة الشر ، وتقودهم من أيديهم إلى مواطن السعادة ، أو مواطن الشقاوة ، وهي التي نستل بها ، ونمشي على أثرها في معرفة ما هو قضاء الله وقدره في هذه الأمة ، أو تلك الأمة .

فهما رأينا من كمال تلك العوامل وسدادها ، وقيوت أمرها ، وحسن نظائرها - فهناك فوز الأمة

وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَمَا يَعْلَمُ جُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ وَمَا يَـ  
لَّا ذِكْرُكَ لِلْبَشَرِ ﴿٦٦﴾ كَلَّا وَالْقَمَرِ ﴿٦٧﴾ وَاللَّيْلِ إِذَا يَدْبِرُ ﴿٦٨﴾

وفلاحها ، وتطلى حكم القضاء والقدر فيها . ومهما رأينا من نقص « العوامل » وخطئها ، واضطراب أمرها ، وقبح نظامها - فهناك هلاك الأمة ودمارها ، وحكم القضاء والقدر فيها .

هذه العوامل هي التي يعنى بها الآيات والحكماء والمشرعون والعلماء الاجتماعيين ، فيجتهدون في إصلاحها ، وتقويم أودها ، حيا في إصلاح اسمهم ، وثرية شان شعوبهم . ولم نال الدين الاسلامي في التصحيح لآبائنا بوجوب توليها وتنقيتها من الشوائب ، كي تبقى صالحة لمساعدتهم في دنياهم ، ونجاتهم في آخرهم .

قد يقال : اذا كانت هذه العوامل هي مظهر قضاء الله وقدره في البشر ، وعلى سلمها ينزلهم ربهم ويصلحهم ، ويشرحهم ويسمدهم . . فأنى لنا الوصول اليها بالإصلاح والترميم ، والتغيير والتبديل ؟ وهل هذا الا اغتات على القدر ، وتداخل في وظيفته ؟ والجواب على هذا آيات القرآن نفسها ، فاتها اما امرتنا بالنظر في احوال الامم والاعتبار بما جرى ، لتتسلك بما كان سببا في نجاحها وسماحتها ، لتجنب ما كان سببا في هلاكها وشقاوتها . ونحن في كلنا الحالتين مبينون ما قساه الله وقدره فينا ؟ اصلوا فكل ميسر لما خلق له .

وهذه الامم المعاصرة لنا - مشر المسلمين - ارتفعت وعزت وفلحت بما كان من عنايتهم بأمر العوامل المذكورة . فليس الدين لديها اليوم ، ولا طرز الحكومة ، ولا نظام العائلة ، ولا نظام قوانين المدرسة والتربية السليمة وسائر مقومات الاجتماع - كما كانت عليه في عصورها الوسطى .

تقول : والاقليم والورثة كيف يكون اصلاحهما ؟ فاما اصلاح « الاقليم » فيكون بتجفيف المستنقعات ، وغرس الاشجار ، وإنشاء الغابات والخراج ، وحفر الترع ، وجبر المياه النقية للشرب .

واما اصلاح « الورثة » وتحسين حالة النسل والاخلاف ، فقد اخذ الفريون في الايام الاخيرة يعتنون به ، ويستفيدون مما يرشدهم اليه العلم الصحيح ، والتجربة الناطقة بشانه .

وهذا ، او ذلك ، او ذلك - مما يدخل تحت الطاقة ، ويستطيعه البشر . وقد أصبحت المبكرة فيه ضربا من الجيل والثفاوة بعد ماراينا حسن الره واضحا جليا في الامم التي غلبت علينا ، وأصبحت للتحكمة فينا .

وعجيب من مسلم أن يجرؤ على القول بأن في

اصلاح الدين ، او الحكومة ، او نظام العائلة ، او طريقة التعليم والتأليف ، او سائر عوامل الحضارة وال عمران - مخالفة للدين ، او تدخل في وظيفته القضاء والقدر ، وهذا الشراخ العظيم صلى الله عليه وسلم يجعل الامر بالمعروف والنهي عن المنكر ركنا من أركان الدين ، وليس هو في الواقع ونفس الامر الا مراقبة دائمة على الدين والتدينين به ، فلا يتصرف اليه أو اليهم باليس منه في ثوره فيفسد ويفسدون . فالامر والنهي اذن اصلاح ، والامر والنهي مصلحون . وكان بعض المارقين يقول : « ينبغي لأهل كل مذهب في كل عصر أن يكون فيهم عالم كبير ينقح مذهبهم ، وذلك لأن الأحكام تتغير بتغير الزمان » .

ومما يحسن ابراده هنا ان الشراخ صلى الله عليه وسلم نيهنا الى تأثير ناموس الورثة ، وأشار الى أن في اصلاحها اصلاحا للنسل والورثة ما ذال : « تخيروا لنطفكم ، فان الفرق نزاع » ، يريد تزوجوا كرام النساء ، فان اولادكم من زوجاتكم يرجعون في طيب الاخلاق وقبحها الى اجدادهم من امهاتهم ، أما رجوعهم في اخلاقهم الى اجدادهم من جهة آبائهم فبالطريق الاولى . وليس فوق هذا ارشاد وتعليم لنا في أن نصلح شؤنا ، وعوامل اجتماعنا ، حتي ما يظن أنه مما لا يدخل تحت طاقتنا كمسالة الورثة هذه . وقال أبو الأسود الدؤلي مخاطبا اولاده :

وأول احساني اليكم تخيري  
لمساجدة الاعراق باد عفافها

وبالجملة فان الدين والعلم والتجربة والمشاهدة اتفقت كلها - وان خالفها الجبل والتقليد والكبراء - على أن سعادة الامم وشقاها أمران ميسوران لها ، داخلان تحت طاقتها . وليس معنى أن الله يصلحها ويهديها الا أنه تعالى يهد تحت مواقع ابيصارها طريقى الهدى والضلال : فهي اذا اختارت لنفسها طريق الهداية اختارته وسلكته بمشيئة الله وارادته وسابق علمه ، واذا اختارت لنفسها طريق الضلال اختارته وسلكته ايضا بمشيئته تعالى وارادته ومسابق علمه . وما احسن ما قاله نبينا صلى الله عليه وسلم : « ايها الناس ، اتهمنا نجلان : نجل الخير ونجل الشر ، فما جعل نجل الشر أحب اليكم من نجل الخير ؟ » ويشبه هذا ما قاله الامام جعفر الصادق في محمد الباقر : « ان الله اراد بنا شيئا واراد منا شيئا ، فما اراده بنا طواه عنا ، وما اراده منا اظهره لنا ، فما بالنا نشقتل بما اراده بنا فما اراده منا ؟ » .

واوضح السبل الموصلة الى مساعدة الامم هو اصلاحها دينيا : فلا يكون فيه حشو او بدعة ، او تكليف مما لم يات به وحى ، ولا خير صادق . ثم اصلاح بقية المقومات والعوامل التي قلنا انها هي التي تجلب بضع الامم الى مراقى الكمال والعزة والقلبة . كما ان اقرب الطرق التي تأخذ بالامم توا الى هاوية الدلة والسكنة والمار والاضمحلال - هو ترك الدين محشوا بالبدع ، وبما لايرضى الله ورسوله من

الآراء والتعاليم والأقوال البين سقطها ، الظاهر غلطها . ومثل ذلك في الضرر ان نترك كل تقديم على قدمه من اوضاع حكومتنا ، ونظام عائلاتنا ، وأصول التدريس والتأليف في مدارسنا ومؤسساتنا ، وسائر مقومات اجتماعنا . وقد تبين فساد ذلك كله وعدم امصاله الى بحايح الحياة السعيدة . فان جميع ذلك سبل ضلال : يسطها الله تحت مواقع ابصارنا ، وبالع في تحديرتنا منها في محكم كتابه . فما علينا الا التنبك عنها ، والاستعاذة به تعالى منها ، فنكون من الفائزين المهتدين ان شاء الله .

بعد ان ذكر الأصل الكلي في ان مسعادة البشر وشقاوتهم امران مرتبطان بسلوك ما اشعره الله لهم من طريق الخير والشر ، وان ترجيحهم أحد الطريقين مستعمل من علم الله الأزلي ومستند الى مشيئته القديمة ، وان ابا جهل ورفاقه المستهزين بالوحي القائلين : « ما لرب محمد اموان الا تسعة عشر ؟ » لم يكونوا من امهرهم على بصيرة ، ولم يختاروا لانفسهم الا أنجع النضال ، ولم يسلكوا الا طريق الضلال - عاد الى توبيخهم على قولهم المذكور الدال على غيائوتهم ، وفطرت جهلهم بما يجب لله من التعظيم والتوقير والوقوف عند حدود الأدب ، وتنبههم الى ان خزنة جهنم ان كانوا تسعة عشر فليس ذلك من قلة في جنود الله ، فان جنوده كثيرة لا يحصىها الا هو . و ( الجنود ) جمع جند ، وهم الاعوان والانصار والعسكري . وقد يراد من الحشد احيانا صنف من الخلق على حدة . يقال « هذا جند من الخلق قد اقبلوا » اي طائفة من الخلق . وفي الحديث : « الأرواح جنود مجندة » . ومنه المثل « ان الله جنودا منها السمل » . وربما كان المعنى الثاني هو المراد في الآية .

وبدهى ان جنود الله التي يستتب له بها السلطان الابلي في ملكوته ، والقهر الرباني على ماخلق ويخلق في عالمي دنياه وآخرته - ليست عسكريا حريبيا ، ولا جنودا بشريا ، وانما هي وسائل اجراء وتنفيذ وتصرف مطلق : منها ما علمناه ووقفنا عليه بالجملة في هذه الدار ، ومنها ما لم نعلمه بعد ولم تكلف البحث عنه ، وهو غيب منا ، ولكننا تؤمن به وبما ورد على لسان الشارع من احواله وشؤونه على الوجه الذي يليق به ، وينطبق على حكمة خالقه ، ومن هذه الجنود أو الوسائل القبيية : الملائكة .

وكلنا معشر البشر نشعر في انفسنا اننا مسخرون للقهر الابلي ، وخاصمون الى ما يراد منا في هذه الدار الدنيا . وقد اخبر الوحي الصادق ان له جنودا جعلها وسائل في تنفيذ مشيئته ، وتتميم ارادته في خلقه . وقد سمي تلك الوسائل ملائكة . وكما قامت هذه الوسائل في ايفاء وظيفتها في هذه الدار مستقوم بعمل هذه الوظيفة في الدار الاخرى على النحو الذي يريده الله تعالى ، ويناسب حال تلك النشأة .

ولذا رأى اولئك المستهزون الكلابيون تحديده عدة خزنة جهنم بتسعة عشر امرا غريبا ، وهو شأن

من شؤون عالم آخر له سنن وتواويس خاصة به ، ولا يستفرون من عالمهم هذا - الذي خلقوا من طينته - احواله العجيبة ، والوارد القريب ؟ وهذه قوائمه المختلفة ، وعناصره المتعددة ، وما شاء الله من مواده ومعادنه ، وحيوانه ونباته ، وشعوبه واقماره ، وثوابته وسيلراته - ولكل منها صمد خاص ، ونسب معينة ، ومقاديير محدودة ، وتراكيب معلومة - فلا نسمعهم يبالون لما اذا كانت الحروب اثني عشر ولم تكن اكثر أو اقل ؟ ولما اذا كانت خلقات زحل ثلاثا ولم تكن خمسا ؟ واقماره ثمانية ولم تكن عشرة ؟ والوان الشمس سبعة ولم تكن ششرين ؟ ولما كان الملح مركبا من عنصرين فقط اذا انحلا وتفردا شرا وانفصلا ، واذا اتحدا وتركبا نفصا واصلحا ؟ ولم يكن المقلد والخاصة على خلاف ذلك ؟ وهكذا مما لا يكون السؤال من سره الا ضربا من العنت والمحاكة ، وطمع المخلوق فيما كان من خصائص الخالق .

لقد فغل المشركون المستهزون من سر التشريع الابلي ، وذهلوا عن الحكمة في انزال الوحي السماوي ( وما هي ) اي تلك الحكمة التي انزل القرآن من اجلها ( الا ذكوى ) وموظفة ( للبشر ) ، فيخافون ربهم ، ويتحاجزون بينهم ، وتنظم احوالهم ، ويسعدون في دنياهم واخرهم . ولم تكن الحكمة قط افهام البشر حقائق النشأة الاخرى ، وجعلهم يدركون احوالها وقوانينها بالكنه ، فان هذا غير مستطاع لهم ، وعقله لا يدخل تحت قدرهم .

والضمير في قوله ( وما هي ) يرجع الى الآيات السابقة وما اشبهها مما فيه بعض الوصف لاصوال الغيب ، او انه يرجع الى الحكمة المفهومة للمشاطب بعمونة المقام كما اشترنا اليه في حل الآية . وارجاع الضمير الى غير المذكور كثير في القرآن وفي كلام العرب ومثله قول ابي نواس :

الا باين الدين فنوا وماوا  
أما والله ما مانوا لتبقي

وما لك فاعلمن فيها مقام  
اذا استكملت اجالا ووزقا

او ان الضمير يرجع الى الحكاية والثمان والقصص ، وهو ما يسيه النحلة ضمير الشأن والقصص .

تقدم ان ( كلا ) كلمة ردع وزجر ، فالمنى ليردع اولئك المستهزون بالوحي - الذين اتخذوا من ذكر عدة خزنة مسقر سبيلا الى اكثارها ، والتشكيك فيها - من فعلهم وصور صنعهم .

ثم اقسم بالقهر ان سقر حق ، وانها احدى الدواهي التي يمتنى بها اولئك الكلابيون . وقد تقدم بيان الحكمة في اقسام الله تعالى ببعض مخلوقاته والسر فيه ، اما قسمة هنا بالقهر والليل والصبح - فلتنبهه الآتام الى ما في خلقها من جميل الصنع ، وبديع الاحكام ، وما قارن ذلك من الرفق بهم وتقسيم

وَالصَّحْحُ إِذَا أَسْفَرَ ١٦ إِنَّمَا لِحْدَى الْكَبِيرِ ١٧ نَذِيرًا  
لِّلْبَشَرِ ١٨ لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ ١٩ كُلُّ  
نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ٢٠ إِلَّا أَنْصَبَ الْيَتِيمَ ٢١  
فِي جَنَّتِ بَنَاتِهِ ٢٢ عَنِ الْمُجْرِمِينَ ٢٣ مَا لَكُمْ  
فِي سَفَرٍ ٢٤ تَأْوَلُوا لَكُمْ مِنَ الْمُصَلِّينَ ٢٥ وَلَمْ تَكُنْ تُعْلَمُ

أوقالهم ، وتقدير اسماءهم ، بما فيه كل الخبر  
والنفع لهم .

وفي الآية إيحاء إلى ان الشمس والقمر مخلوقان  
للله ، وانهما في حركاتهما ، وإدبارهما وأسفرهما ،  
ونشوء الليل والنهار منهما - مسخران لأمره ،  
ساجدان بين يدي قوته وقهره ، فكيف يحسن  
بالشعر أن يبدواهما ، ويكفروا بالآله الذي خلقهما ؟  
وقوله ( إِذَا أَسْفَرَ ) قرئ هكنا ، وقرئ أيضا  
( إِذَا دَسَرَ ) و ( إِذَا أَدْبَرَ ) ، ولا فرق بين ديسر  
وأدبر في المعنى ؛ يقال : دبر النهار أو الصيف ، إذا  
انصرم ، ودبر فلان : ولى ، كادبر . واستعماله من  
دون ههنا قليل سوى قولهم : « أسى الدابر » . فانه  
شائع .

يقسم تعالى بإدبار الليل ، وإقبال النهار .  
وهذا معنى ( وَالصَّحْحُ إِذَا أَسْفَرَ ) ، أى أضاء وتبلىج ،  
وقال بعض أهل اللغة : أن من قرأ ( دبر ) بلا همز  
أراد أنها من دبر الليل النهار إذا خلفه واتى على أثره  
ودبر فلان فلان إذا جاء خلفه ، فهو تعالى يقسم بالليل  
مد يعقب النهار ، وبالنهار مد يسفر عقب الليل .

ومعنى ( إِنَّمَا ) يرجع إلى سقر كما عرفت الإشارة  
إليه ، وقوله ( الْكَبِيرِ ) جمع الكبير مؤنث الأكبر ،  
وجمع الكبرى على كبريات أيضا ، أى أن سقر المدة  
للتكبيين إحدى الدواهي الكبار والأمور العظام التي  
ما اعتادوا بعد رؤية أمثالها ، فهي واحدة من يبين  
لائظير لها في العظم والهول كما تقول : صاحبك فلان  
أحد الرجال ، ولا تريد أنه واحد من دهاتهم  
وشبائطهم .

وقوله : ( نَذِيرًا لِّلْبَشَرِ ) . ( نَذِيرًا ) إما أن تكون مصدرا  
غير قياسى لآلئرا نذيرا ونذيرا ، كما يقال أودع إيمانا  
ووعيدا ، وأمولت المرأة أموالا ووعيدا ، وتعرب تمييزا .  
أى أن سقر إحدى الكبر من جهة تخويفها وإقذارها  
للشعر ، تقولهم : فلانة إحدى النساء عفاقا ، يريدون  
أن لها شائنا يبينهن ورجحانا عليهن من جهة مفاها ،  
وأما أن تكون اسم فاعل على غير قياس أيضا لآلئره  
فهو منذر ونذير كما يقال : آله العذاب فهو مؤلم

واليم ، وأوجه الضرب فهو موجه ووجيع ، وعرب  
( نَذِيرًا ) إذ ذاك حالا من ( إحدى الكبر ) على أرادة  
معنى العذاب فيها لكى يصح مجيء ( نَذِيرًا ) حالا  
منها ، والا يجب أن يقال : نذيرة ، بالتأنيث لكونه  
وصفا لأحدى الكبر المؤنث . وليس « نذير » مسا  
يستوى فيه المذكر والمؤنث ، لانه بمعنى اسم الفاعل  
لا بمعنى اسم المفعول . فآله تعالى يقسم بأن سقرهى  
أحدى البلايا أو الدواهي العظام منسلفة للشعر ،  
محطوة لهم نفسها ، وقوة بطشها . وروى عن الحسن  
البصرى أنه قال : « وآله ما أتلر الناس بشيء أدهى  
منها ولا بدهاية أعظم منها » .

وبعد أن هم في كلمة ( البشر ) ، عاد فخص منهم  
أولئك الذين يهمهم شأن أنفسهم ، وينظرون في  
مستقبل أمرهم ، وهم موضوع الخطاب ، ومحط  
الأمل ، فقال : ( لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ ) ألتج .

وقوله ( لِمَنْ ) بفتح ( البشر ) ، أى أن سقر منلرة  
لكم أيها البشر وخاصة ( لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَتَقَدَّمَ )  
فيكون سابقا إلى الشر وممارسة الفضيلة فيصير ،  
( أَوْ يَتَأَخَّرَ ) فيضل إلى الشر وممارسة الرذيلة  
فيهلك .

وجعل بعض المفسرين قوله ( لِمَنْ شَاءَ ) ألج  
مستأنفا لا بدلا معا قبله ، على أن يكون بمعنى قوله  
تعالى : ( فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفِرْ ) ، وقال  
في إروابه : ( أن يتقدم أو يتأخر ) مصدر مؤول  
ميتدا ، وقوله : ( لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ ) خبره مقدم عليه .  
والمعنى ألكم معشر البشر - بعد أن أصدر الوحي  
إليكم ، وألقى من كلمات النصيح والإنذار ما ألقى  
عليكم - لم يبق إلا أن تستمعوا لفرعكم ، وتستفيدوا  
من المشيئة والأختيار المنوحيين لكم ، فتختاروا  
لأنفسكم من الخير والطاعة ما هو المأمول فيكم ،  
والإتيق بكم . فإن كلا من التقدم إلى الخير ، والتأخر  
عن الشر - أمر ميسر لكم ، مهمل أمامكم ، منوط  
بحسن اختياركم فإن لم تتقدموا إلى الخير كنتم  
الجائين على أنفسكم .

وحمل الآية على هذا المعنى له تعلق كبير بآية  
( يضل الله من يشاء ، ويهدي من يشاء ) الواقعة قبلها  
قريبا منها ، ومفسرة لها بالمعنى الذى قلناه في تفسيره  
من أن للإنسان أرادة وإختيارا وهما مناط التكليف  
والمؤاخذه ، وأن ما يومه الجبر والاكراه محمول على  
أنه تعالى أشرع أمام الشر طرعى إلى الخير والشر ، وأن  
سلوك المرء في أحدهما مطابق لسلام الله الأزلى  
ومستمد من مشيئته القدريه .

ثم إن المعنيين اللذين قلناهما في هذه الآية بظهر  
أنهما يصلحان أن آية سورة « التكويد » : ( أن هو إلا  
ذكر للعالمين . لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ ) ، لكنى لم  
أرهم تعرضوا لتبر المعنى الأول ، وهو أن يكون ( لِمَنْ )  
شياء - بدلا من ( للعالمين ) لا مستأنفا كما قالوا  
باحتماله هنا .

مر أن آيات الوحي أتلرت الإنسان ، فما عليه  
أذن إلا أن يفعل ما يبين له ، من التقدم إلى الخير أو

عن حالهم ، قائلين لهم : ( **ماسلككم في سقر** ) وما الذنب الذي أدخلكموها ؟ فالتخطب في ( ما سلككم ) ، إنما هو مستند إلى سابق كلام مفقود قبله ، وقد حذف اختصارا واعتمادا على فهم المخاطب ، ومثله كثير في القرآن ، وهو من أعجب أساليب أعجازه ، ولولا هذا التقدير لكان الظاهر القبيح : على معنى أن السعداء يسأل بعضهم بعضا ما سلككم ، أي سلك الجرمين في سقر. ولهذا الأبحاث نظائر في أقوال العرب وأشعارهم ، من ذلك قول جاثم العائلي :

لكل امرئ نفسان : نفس كريمة  
ونفس ... فيعصى نفسه ويطيعها

وأصل الشعر مع المحذوف منه هكذا : لكل امرئ نفسان : نفس كريمة ونفس البيمة : فهو تارة يعصى نفسه الكريمة ويطيعها ، وطورا يعصى نفسه اللثيمة ويطيعها ) .

فالمذكور في الكلام سبع كلمات ، والمحذوف منه سبع أيضا بقر ما ذكر . ومنه أيضا قول الآخر :

شهور بنقشين وما شمرنا  
بأنصاف لمن ولا سراد  
فما ليلن فخير ليل  
وأطيب ما يكون من النهار

أي وأما نهارهن فطيب اللع . ويمكن إبقاء الخطاب في ( ما سلككم ) على ظاهره ، على معنى أن السعداء ( يتساءلون من الجرمين ) : المدينين فيما بينهم لم يرجعوا إلى مقرهم من دار العذاب فيسألونهم عن حالتهم مواجهة قائلين لهم : ( ماسلككم في سقر ) . وفي هذا التوجيه حذف أيضا بضع كلمات كما حذف في التوجيه الأول .

( **قالوا** ) الخ ، هذا جواب الجرمين لأصحاب البيمين الذين سألوهم عن الذنب الذي أدخلهم سقر . والصلاة في اللغة : الدعاء والدين والاستغفار ، ثم غلبت في العبادة المعروفة ذات الركوع والسجود ، فقول الجرمين أنهم لم يكونوا من المصلين - الأئبية أن يكون معناه لم تكن من أهل الدعاء والدين التي يرضى الله تعالى وهو دين الإسلام . وقد مر أن الدعاء قلما يذكر في القرآن إلا مرادًا به العبادة ، والله تعالى إنما يحكي في هذه الآيات عن أبي جهل وأضرابه من سادات قريش السابقين في الشرك والضلالة وعبادة غير الله ، فهم - بأن طلب منهم في أول الأمر الصلاة بمعنى الدين والدعاء والعبادة - أجدر من أن تطلب منهم الصلاة المعروفة ذات الركوع والسجود . على أن هذه الصلاة لم تكن فرضت يومئذ ، وإنما فرضت قبل هجرته صلى الله عليه وسلم إلى المدينة بسنة ، وبعد بيمته باتت مشرة سنة ، وسورتنا هذه ( يا أيها المشر ) مكية - بل من أول ما أنزل عليه صلى الله عليه وسلم كما مر . فالجرمون المخاطبون بهذا لم يكونوا مكلفين حين نزولها إلا الصلاة بمعنى الدين والعبادة ، ويشهد ذلك قول هؤلاء الجرمين في أنفسهم أنهم كانوا يكتلون بيوم الدين . والوحي في عشر السنوات الأولى التي قضاها صلى الله عليه

التأخر عنه إلى الشر ، وليكن على ثقة أنه إذا اختار الشر ومقارفة الآثام فليس بمعجز الله ، ولا بمفلس من أن يحاسبه على عمله ، وبأخذه دينه ، إذ ( كل نفس ) من نفوس البشر ارتكبت ذنبًا أو اقترعت أثمًا ، هي ( بما كسبت ) ، أي ارتكبت واقتربت من ذلك الذنب والآثم ( رهينة ) ، أي رهونة ومجسوة يوم القيامة في مقابل ذنبها حتى تعاقب عليه ، وأكثر المفسرين على أن ( رهينة ) ليست مؤنث رهنين بمعنى رهون ، لأن رهنين هذا يستوي فيه الذكر والمؤنث ، فلا حاجة إلى أن يقال في تأنيبه ( رهينة ) ، وإنما هي مصدر . يقال : رهنهنا ورهينة كما يقال شحمه شحما وشحمة ، والمصدر يستوي فيه الذكر والمؤنث والمفرد والجمع ، ثم أطلق المصدر على الشيء الرهون وريقة لشيء آخر ، يقال : فلان رهن أو رهينة أو مرهن بجريرته كما يقال هو مسلم بها وبجسل بها ، وكله بمعنى أنه مأخوذ بها ولا فكك منها . فنفوس البشر يوم القيامة مصورة على معاقبتها والاقتصاص منها ، فتدخل دار العذاب غير مفككة ( **إلا أصحاب البيمين** ) ، أي إلا فريق السعداء . وقد مر أن أهل البيمين واليمين عنوان يطلقه الشرع على السعداء كما يطلق أصحاب الشامة والشمال على الأشقياء . فالسعداء هؤلاء فكوا رقابهم وخلصوها كما يخلص الزاهن رهنة بإدائه لمطليه من الحق ، وأصبحوا في منجاة من العذاب على ذنوبهم : أما لأنهم لم يفتروا ذنوبا يستحقون معها العذاب ، بأن كانوا من الصديقين أو الأبرار ، وأما لأنهم اقترفوا من الذنوب ما لم يبلغ بهم حد التعذب عليها ، بأن تابوا منها توبة نصوحا ففرحها الله لهم ، أو عملوا من الصالحات ما أربي ثوابه على تلك الذنوب : كالاستشفاد في سبيل الله ونصرة الحق ، فكان ذلك كفارة لها .

هؤلاء ينمون ( في جنات ) : مواطن كرامة وسعادة لا نظير لها ، ولذا تكراها ، ويكون من شأنهم فيها أنهم ( يتسألون ) : يسأل بعضهم بعضا ( عن الجرمين ) اللذين الذين يعدونهم في دار الدنيا فذلكلوا الوحي ، وأعرضوا عن الحق ، وارتكبوا من الآثام والمناسك ما استحقوا به العذاب .

وتسأل أصحاب البيمين عن الجرمين قد لا يكون عن جهل بأمر مصيرهم ، وسوء متقلبهم ، وإنما هو زيادة في تبيكت أولئك الجرمين وتوبيخهم ، وإدخال الآثام والصره على نفوسهم ، مل يتذكرون أن أسباب النجاة كانت موفرة بين أيديهم في دار الدنيا فاهملوها وسبل الأعمال الصالحة كانت مهعدة تحت مواقع ابصارهم فتنبهوها . على أن في تسأل السعداء هذا السؤال ما يزيدهم التلذذ بتعظيمهم ، وسرة بما وفقوا إليه من العمل الصالح في دار الدنيا فسدوا ونجوا من العذاب .

فإذا تسألوا عن حال الجرمين كما وصفنا ، أجابهم بعض السائلين من رفاقهم السعداء بما كان سبق لهم من الحوار مع هؤلاء الجرمين السعداء فيقولون لهم : كنا أشر فقا على الجرمين يوما وسألناهم

الْيَسِيرِينَ ﴿١٨﴾ وَكَأَنَّهُمْ خُوفٌ مَعَ الْخَائِضِينَ ﴿١٩﴾ وَكَأَنَّهُمْ كَذِبٌ  
يَوْمَ الدِّينِ ﴿٢٠﴾ حَتَّى أَتَيْنَا الْبَيْتَ ﴿٢١﴾ فَاسْتَفَعْنَاهُ شَفَعَةُ  
الشَّافِعِينَ ﴿٢٢﴾ فَمَا هُمْ عَنْ التَّذْكِيرَةِ مُعْرِضِينَ ﴿٢٣﴾ كَانَهُمْ حَرٌّ  
مُسْتَفْرِغٌ ﴿٢٤﴾ فَرَفَّتْ مِنْ قَسْرَةٍ ﴿٢٥﴾ بَلْ يَرِيدُ كُلُّ امْرِئٍ  
مِنْهُمْ أَنْ يُؤْتَىَ صُحُفًا مُنشَرَةً ﴿٢٦﴾ كَلَّا بَلْ لَاجِفُونَ الْآخِرَةَ ﴿٢٧﴾

وسلم في مكة بين أظهر المشركين إنما كان فرضه  
أمرين : (١) إثبات التوحيد والعبادة لله دون المبودات  
الأخرى (٢) إثبات البعث والحساب . ونقول المجرمين  
« ما كانوا من المصلين وأنهم كانوا من المكذبين يَوْمَ  
الدِّينِ » يتلحم مع الفرضين المذكورين إذا قرنا  
الصلاة بالدين والعبادة .

وسمى يوم القيامة « يوم الدين » ، لأن فيه يقع  
الحجز والحساب والقضاء والقهر ، وكل هذا من  
معاني كلمة الدين . ويسمى أيضا يوم الدينونة أي  
الحشر والقضاء بين الناس ، والدين القهار والمجازي  
والقاضي . قالوا : « وكان على بن أبي طالب رضي الله  
عنه ديان هذه الأمة بعد نبينا » ، أي تفرد بمزية  
القضاء والحق في فصل الخصومات بعده عليه  
الصلاة والسلام .

ذكر المجرمون من خصائصهم البشعة التي استحقوا  
بها دخول سقر - أربع خصال : خصلتين تملكان  
بالمقائد وهما الشركوا تكرر البعث ، وخصلتين تملكان  
بالإخلاق ، وهما البخل والخوف في البطل .

وكان القوم في جاهليتهم يلدرون أموالهم في السفه  
والقمار ومنافسة بعضهم بعضا فيما لا يفيد ولا ينفع  
ولا يظهر له أثر في مصالحهم الاجتماعية ، ولا سيما  
كفابة المساكين وسد جوعتهم وتخفيف ألم البؤس  
منهم . فهؤلاء المجرمون ما كانوا يطمعون المساكين ،  
وما كانوا ينفقون فيما بينهم على سبيل هذا الظل ،  
وملافة ذلك الشر : أمضى البؤس والفقر الذي إذا فشا  
في قوم أفسد أخلاقهم ، وقطع روابطهم ، وعرضهم  
لشر من الأمراض الجسمية والاجتماعية والسياسية .  
ومعضلة أوروبا اليوم إنما هي الفوضوية ، ولم يولدوا  
فيهم إلا استئثار حامتهم وذوى اللهاة فيهم بالأموال  
الطائلة ، واحتاجتها من علمتهم وسواد أمتهم . وأن  
معظم اهتمام قتلانهم في هذه الأيام في تسوية هذه  
المشكلة ، وحل تلك المعضلة .

وانما اقتصر المجرمون من أسر العناية بالمساكين  
على ذكر علم أطعمهم لأن القسوت أهم ما يحتاجون  
إليه في قيام حياتهم ، ولأن إيمان الإسلام بأمر بؤسائهم ،

والرفق بهم ، وإبصال أي ضرب من شروب الخير  
إيهم ، وقد مر في سورة الحاقة شيء من هذا عند  
قوله تعالى : ( ولا يحض على طعام المسكين ) .

أما الخصلة الأخلاقية الثابتة التي اعترف المجرمون  
بأنهم كانوا اقترفوها في ذنباهم فهي الخوف في الباطل ،  
والاجتماع على القبيحة والتنمية ، والافساد في الأرض ،  
وتدبير المكائد لأهل الحق ، وتأثير نار الفتن بينهم ،  
مما يؤدي إلى تسلط الظلم ، وخراب الدين ،  
وسقوط جماعات البشر في مهوى الشقاء والبوار .  
فهم يعترفون بأنهم ما كانوا يجتمعون في أنديةهم  
للمذاكرة فيما يفيد وينفع ويصلح ، وإنما كانوا يجتمعون  
للخوف فيما يضر ويغدر .

وأصل ( الخوف ) الذهاب في الماء ، ثم نقل إلى  
الذهاب في الكلام والأخذ بأطراف الحديث ، ثم قلب  
على الأكثر من بطل الكلام وما لا يفيد من الحديث .  
وقلما ذكر الخوف في القرآن إلا مرادا به هذا المعنى  
وإن لم يذكر مفعوله . ومثله في ذلك « اسمعه » فأنهم  
يريدون أنه اسمعه ما بكره من القول وإن لم يذكروا  
ذلك ، و « ذكره » فأنهم يريدون به أحيانا أنه عابه  
وتكلم في حقه بسوء وإن لم يذكروا ذلك أيضا . ومنه  
قوله تعالى : ( سمعنا فتى يذكرهم يقال له إبراهيم )  
وكانوا سمعوه يعيب أعتابهم .

قال المجرمون : اتنا ما زلنا في ديننا نشارك بالله ،  
وتكذب بالملاد ، ونرتكب من مساوئ الأخلاق أكثرها  
وابشعها ، كالقسوة على المساكين ، والافتساح في  
الباطل ( حتى أتانا اليقين ) : العذاب الحق الذي  
تقاسيه اليوم ، أو المراد باليقين الموت الذي توقن به  
كل نفس ، وفيه إيمان أي أنهم كانوا في غفلة عنه ،  
وأنهم لانهم لم يبالوا . كانوا على شك منه .

ثم لما انتهى القوم حديثهم عقيد الوحي . بان هؤلاء  
المجرمين المرتكبين ما ذكر من منك الأعمال لا منقذ  
ينقذهم من صب سوط العذاب عليهم ، ولا وسيلة  
من وسائل النجاة تحول بينهم وبين إنفاذ العدل الإلهي  
فيهم . فقال : ( فما تنفعهم شفاعة الشافعين ) .  
و ( الشفاعة ) في المجرمين لدى الحكام : إما أن يكون  
الحامل عليها الكفكة من ظلم أولئك الحكام ، وتخفيفهم  
حدود العدل في حكمهم ، وأما أن يكون الحكم أصاب  
مقطعهم من العدل غير أن المحكوم عليه في رأي  
الشفعاء مزية تقتضي الزفق به ، والمغو عنه . والأول  
لا يتصور في جانب الإلهية ، ولا يجوز أن يقال أنه  
تعالى جار أو ظلم في الحكم على المجرمين ، وأن هؤلاء  
الشفعاء يتوسطون في إزالة ذلك الظلم عنهم . أما  
الثاني - وهو غفو الحاكم عن الجرم رحمة به وشفقة  
عليه - فإن هذا ممكن الوقوع في جانب الإلهية بعد أن  
يأذن به سبحانه وتعالى ( من ذا الذي يشفع عنده إلا  
بإذنه ) . ولكن هذا الفريق من المجرمين الذين وصفوا  
بما ذكره الوحي لا يقبل الله شفاعة الشافعين فيهم ،  
فليعلم إذن من كان على شاكلتهم من الناس هذا الأمر ،  
ولا يعتمد على الشفاعة ، وإنما عليهم أن يعتمدوا على  
التوبة والإنابة إلى الله ، فهي وحدها التي تنجيهم من  
من العذاب .



وهذا لا يمنعنا أن نقول أنه ما أخطر بمصالح المسلمين وأشد حالهم ، وأخسر عمراتهم ، وأوهن عزائمهم عن العمل بأوامر القرآن والخوف من زواجه ، وجعلهم يتسلحون فيما تسلحوا به : مما أصبح أمره متعلما معروفا ، وعلى أسلأت الانسنة والأقسام

مذكروا ، وموصوفاً - شيء مثل سوء فهمهم الشفاعات وتخلد أعصابهم بالمد والبركات ، ونفوذ سلطة الكرامات ، بل التلمذ أحيانا في فهم الآيات النبوت . فقول قائمهم : « إذا قال لي ربى يوم القيامة : ما غرك بربك الكريم ؟ أقول له غرني كرمك برب » - ذهب في فهم كلمات اللغة غير مداهها ، وحمل للكرم على معناه في لفتهم لا في لغة العرب ، والا فإن معنى الكرم في اللغة أن يبلغ المرء الكمال في الأخلاق والسجيا . وكرم الله كماله في صفاته القديمة التي منها العدل والحق وصديق الوعد وإطراء السنن والتواضع الأولية اطراداعليه تقوم السموات والأرض ، ويتحقق ما في الوحي الإلهي من واجب وفرض بحيث يظهر أثر إرشاده وتعليمه في نفوس المالكين به ، ، والسالكين في طريقه . أما أن المراد بكرم الله الكرم الذي قد يكون في بعض الأمراء والسادات : تركب إليهم كل جناية مخربة ، وتمازس بين ظهرياتهم كل ذليلة بشعة مفسدة ، ثم يعفو ذلك السيد عن صاحبها فلا يهاج ، ويحلم عليه فلا يمس بعقوبة ولا أزعاج - فإن هذا غير مراد بالآية ، وليس كرمه سبحانه وتعالى هذا النوع من الكرم . نعم أنه تعالى مطلق التصرف في خلقه يحكم ما يشاء ويفعل ما يريد ، ولكنه سبحانه وتعالى وصف ذاته القديمة أيضا بأنه حكيم قويم صادق الوعد والوعيد ، لا تتبدل سنته ، ولا تغير نواحيه . ولا نقول هنا تعميلا لنطوق النصوص الأخرى الدالة على شمول عفوّه سبحانه من المذنبين ، وقبوله شفاعة بعض الشافعين ، وإنما نرى أن نقف إزاء هذه النصوص وثقة تحفظ ، فلا تؤمن إلا بما صرح ولبت منها ، ثم نقف إزاء هذا الصحيح الثابت وفقنا أمام التشابه تقريبا ، فنقول : أنه سبحانه وتعالى يقبل شفاعة نبينا صلى الله عليه وسلم وفيره من المقرئين قبولاً يدل على علو مقامهم ، وعظيم منزلتهم عند ربهم ، ويلتزم مع حكمته تعالى وعدله وإطراء سنته ، وصدقته في وجهه : من حيث يؤدي اتباع هذا الوحي الصادق إلى قيام أمر العالم ، وانتظام شتات الأمم ، واستقرار الخير والعمل الصالح فيهم ، واستبدل العدل والحق بينهم .

وأما إذا صدقنا كل ما يقابل ويروي بشأن الشفاعة في الجرمين والآمين ، والتوسط في العفو والصفح من الخيرين المفسدين - فإن الوحي السماوي الصادق يصفك ذلك تأثيره في نفوس المخاطبين ، كما وقع وشاهدنا أثره ميانا في المسلمين . فانظر إليهم اليوم وقد اتاهم اليقين ، هل تلبستهم معلرة ، أو نفعتم شفاعة الشافعين ؟

قوله ( فيما لهم ) الخ تفرع على قوله قبله ( فما تنفعهم شفاعة الشافعين ) ، أي إذا كانت السنة الإلهية

في الجرمين المكذبين ماذكر من ارتدائهم بما كسبوا من أفعالهم ، وعدم قبول شفاعة الشافعين فيهم - فما بهم يعرضون عن التذكرة بعنى عن القرآن وآياته التي أولت لعظمهم وتذكيرهم ، فلا يتدبرونها ، ولا يهتدون بهديها ؟

ثم وصف أعراضهم عن القرآن وتسللهم عن استماعه ، ونفوذهم ممن يدعونه إلى الانتفاع به ، فقال : هم من هذه الجهة ( كأنهم حمى ) جمع حمى ، والراد بها حمى الوحش ، فإن العرب كثيراً ما يضرّبونها مثلا في النفاق والشرد ، ولا سيما إذا نجح لها شخص ، أو أراد أن يقتضها قاتص ، وقوله ( مستشفرة ) بكسر الفاء بمعنى أنها طلبت النفل من نفسها ، وتكلفتها تكلفا ، فيكون ذلك أشد في مدوها ، وإبد في نفلها . ومن قرأها بفتح الفاء أراد أنها قد نفلها منفرا ، وحملها على الصدو حامل . ثم ذكر السبب الذي دعاها إلى النفاق فقال : ( فرت من قسورة ) . والمعنى المشهور التبادر من معنى ( القسورة ) أنه الأسد ، مشتق من القسر ، وهو القهر والغلبة . يقال : ليوث قساور . ويحتمل أن يكون المراد بالقسورة جملة الرما الذين يتتبعون حمى الوحش والوصول لصيدها وقتصها . والمعنى الأول أشهر كما قلنا : مثل ابن عباس رضي الله عنهما عن قوله تعالى : ( فرت من قسورة ) ، فقال : هو بالبرية « الأسد » : وبالقرسية « شير » ، وبالتطيلة « أربا » ، وبالحيثية « قسورة » ، فالقسورة على وجه مرة وبليغة بعبارة الأصل .

ثم وصف الوحي من حال أولئك المكذبين ما هو أشد قرابة من حالة أعراضهم عن القرآن فقال : ( بل يريد كل أمرئ منهم ) الخ كأنه يقول : دع منك ذكر أعراضهم وقبائحهم ونفائهم نفاق الجماعات مما فيه خيهم وسعادتهم وهداهم ، واستمع ما هو أعجب وأقرب : ذلك أنهم ( يريد كل أمرئ منهم ) أى من أى من أولئك المعرضين ( أن يؤتى صحفنا منشرة ) مكان القرآن . فيشبه حالهم أن يكونوا يعلمون أن القرآن من عند الله لكنهم يعرضون عنه ، ويتفرون من سماعه ، إذ لم يؤت كل واحد منهم صحيفة خاصة به ، تشر بين يديه ، ليؤمن بالنبي صلى الله عليه وسلم . ولا ريب أن هذا الاقتراح والاستطراد في تصديقهم بالقرآن والنبي عليه السلام أقرب من أعراضهم من سماع القرآن ، ومن ثم عطف جملة ( يريد كل أمرئ منهم ) على ما قبله بل التي تفيد الاضراب والانتقال إلى ما هو أهم وأجلر بالذكر و ( الصفح ) : القراطيس التي تكتب وتداولها أبدي الناس يقرؤونها وينظرون ما فيها . و ( المنشرة ) : المبسوطة المفتوحة تحت إصبعهم : يقال نشر الثوب ونحوه إذا بسطه ، ويقولون « صفح منشرة » ، وملا « منش » ، أى منشور ومبسوط . والملاء جمع ملاوة : الثوب المعروف ، ويقول لها العامة : ملاية .

واختلفوا في أولئك المعرضين عن التذكرة كيف كانوا يوردون اقتراحهم بشتان الصحف المنشرة ، فروى أنهم قالوا له صلى الله عليه وسلم : « أنا لن

كَلَّا إِنَّهُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٢٥﴾ فَنَسَاءً ذَكْرٌ ﴿٢٦﴾ وَمَا يَذْكُرُونَ  
إِلَّا أَنْ نَسَاءَ اللَّهُ هُوَ أَوَّلُ التَّنْقِيقِ وَأَوَّلُ الْمَعْرِفَةِ ﴿٢٧﴾

نتيمك حتى تأتي كل واحد منا كتاب يكتب في السماء وينزل به الملك ساعة كتب فغضب رطباً منشوراً لم يطو بعد ، عنوانه : من رب الصالحين إلى فلان بن فلان . أتبع محمد بن عبد الله . « ويؤيد هذه الرواية آية ( وَلَنْ نَمُنَّ لِرَفِيقٍ حَتَّى تَنْزِلَ عَلَيْنَا كِتَابًا يَقْرُوهُ ) . وقيل أنهم قالوا له : « ان سرنا أن نتيمك فليصبح كل واحد منا خيراً عند رأسه صحيفة منشورة فيها تيمته من النار » ، يعني أنهم يريدون أن يؤثروا ببرادة من هذاب جهنم قبل أن يعملوا العمل النجى منها . وهذا دأب قصاص النزل الذين يطلبون النهاية في البداية ، ويريدون بلوغ الألفية قبل تكليف السير إليها . ولما كان فعلهم هذا دالاً على مكاربهم ونفساد رأيهم ترجمهم منه بكلاً ، فقصص تعالى : ( كلا بل لا يخافون الآخرة ) الخ .

( كلا ) ، أي ليرتدوا من رأيهم الفاسد في أمثال هذه الاقتراحات ولا يحسبوا أن دعواهم أن يتبعوا رسولنا ، ويصدقوا وحيها ، أن هم أوتوا الصحف المنشرة - تروج علينا ، فالامر ليس كذلك ، ( بل ) هم قوم ( لا يخافون الآخرة ) ، ولا يصدقون بالبعث والحساب ، ولا يؤمنون بداري النعيم والعذاب ، وهذا هو الذي استخدمه ، وجعلهم يمرضون من التذكرة والانزعاج بها . ولو أنهم خافوا الآخرة لصدقوا تلك التذكرة ، واعتناهم ذلك من الصحف المنشرة . فطلب الصحف المنشرة على الوجه الذي سبق انما كان خداعاً وتمويهاً واضلاً وقت . ولشد ما نهاهم القرآن عن اقتراح آيات وعجائب أمثال ذلك ، وويخبرهم على تكليفه صلى الله عليه وسلم الاتيان بها ، وقال لهم : ان القرآن وما فيه من الهدى والحكمة والأرشاد هو الآية الساطعة ، والحجة القاطعة ، على صدق محمد ، وأنه مرسل من عند الله ، فلا ينبغي لما نزل من الطب من الطب شهادة على صحة دعواه وحذقه في صنعة الطب من مثل انزال صحيفة من السماء ، أو تفجير ينبوع من الأرض بعد أن يكون الطبيب اقام دليلاً على دعواه ، ولما على مهارته - شفاؤه الأمراض ، وإبراء ذوى المال والمالهات .

وهكذا كان شأنه صلى الله عليه وسلم في هذابة الناس بالقرآن وما أودعه من الحكم والعبر ، وبما فطرت عليه ذاته الشريفة من الأخلاق الفاضلة ، والسجيا العالية . . كل ذلك كان أكبر آية على صدق دعوته ، وأوضح معجزة على استقامة محبته . فما بال هؤلاء القوم يقترحون عليه الاتيان بالفرائب والعجائب ؟ ألا يعلمون أن دورها ذهب مسع ادوار الامم القسدية وقت ان كان السحر والتشعوذة والطلسمات والكهانة ، واستخدام الجان ، وتمسخر

الشیطان وإخراجه من بدن الإنسان - ركانا من أركان دياناتهم ؛ وشعبة من شعب شرائعهم وتعاليمهم ؟ أما وقد بعث محمد صلى الله عليه وسلم ، وأطلقت العقول من عقال الأوهام ، واستعد البشر بمجموعهم لدخول في طور كرم من التشريع والهداية والتعليم - فان الوحي لم يعد يجيبهم إلى كل ماكانوا يفترون ويسالون ، بل كانوا إذا اقترحوا شيئاً أحاطهم على القرآن وما فيه من الهداية العملية الجبرية في استصلاح نوع الانسان . على أن الوحي لو كان يجيبهم إلى أي اقتراح اقتروه - وهم من العناد والكآبرة على ماكانوا عليه - لاقترحوا أمراً آخر وهكذا . ومن أجل ذلك رد الوحي عليهم اقتراحهم الصحف المنشرة ، فقال في أوائل سورة الأنعام : ( ولو نزلنا عليك كتابا في قرطاس فلمنوه بأيديهم لقال الذين كفروا ان هذا الا سحر مبين ) .

ترجمهم أولاً بقوله ( كلا ) من اقتراح أمثال الصحف المنشرة ، وأشار في قوله ( بل لا يخافون الآخرة ) إلى انه لم تحلهم على اقتراح الصحف رغبتهم في التذكرة ، بل كان الصراف الحقيقي لهم عنها عدم خوفهم من الآخرة . ثم عاد فترجمهم عن كل أعمالهم ومجموع مزاعمهم فقال ( كلا انه تذكرة ) أي فليتردوا عما هم عليه من الاستغفاف بامر الآخرة ، وعسدم الخوف منها ، وامراضهم من التذكرة ، والتصدق بها ، وادعاءهم ان أجبروا إلى مقترحهم ، وأعطوا الصحف المنشرة - آمنوا ، ليرتدوا عن ذلك جميعه . لم يبين سبب وجوب ارتدادهم مشيراً إلى أن شأن محمداً القرآن الذي أتاهم به فتتل نفوسهم ، وأرض قلوبهم : فوقأوهامهم ، ونوق مايتصورون ، فقال : ( انه تذكرة ) أي أن ذلك الذي أتاهم به محمد صلى الله عليه وسلم ، وحضهم على تصديقه ، وترك الأعراض عنه - ليس سوى تذكرة لهم : تذكرهم بما يجب عليهم من الإيمان بالله ، وترك عبادة الأصنام ، وتترهم أن كلبوا واستكبروا مهاب يوم عظيم . فالضمير في قوله ( انه ) يرجع إلى ما أتى به النبي صلى الله عليه وسلم من الوحي والقرآن المفهوم بمعونة المقام . وكان سبق فمبر عنه بالتذكرة مذ قال : ( فما لهم من التذكرة ممرضين ) ، أي من القرآن والوحي . وقد سماه في هذه الآية تذكرة لما فيه من التذكير والإنذار والتحذير .

ثم عاد أخيراً بعد مآزجر المعرضين من التذكرة زجراً عاماً فاكد لهم أمر القرآن والوحي الذي اعرضوا عنه ، ملقياً له مرة ثانية بأنه تذكرة وإرشاد البشر ، ليس له وصف سوى ذلك : فما هو سحر يؤثر ، ولا قول البشر كما زعموا ، فلماذا يعرضون عنه ، ويتشامون به ، ويرتابون في تصحسه ، ولم يطلب محمد صلى الله عليه وسلم منهم عليه اجراً ، ولا كفهم عطاء أو منصباً يكون لأولاده من بعده ذخراً ؟ فهو محض خير لهم ، وكل نفعه مائد عليهم .

وفي ختمه السورة يقول ان القرآن تذكرة ويطب لنهايتها ببدايتها ، وتذكير بموضوعها الذي سبق في

فانتحتها ، وهو الإنذار بالقرآن مذ قال : ( ياأيها المدثر  
قم فأنذر ) ، أي خوف قومك بالقرآن ، فهو هنا يقول :  
ان ذلك الذي أمرتك بالإنذار به في أول السورة ليس  
سوى تذكرة بالغة للقوم ، وأرشاد وموعظة لهم .  
وهي لعمرى كافية في إصلاح أمرهم اذا تدبروها  
وانظروا بها ، ولكن هل يرجي منهم الإعاضة والإدراك ؟  
أجيب عن ذلك بقوله : ( فمن شاء ذكره ) ، أي فمن شاء  
وأحب منكم أيها المعرضون عن القرآن ، المتفادون من  
هدية - ذكره فلم ينسه ، ووضع نصب عينيه فلم  
يعرض عنه . فان القرآن جدير بالإقبال عليه ، خليق  
بالاستضافة بتورده ، وكل واحد منكم أيها المعرضون  
متمكن بتمكين الله ان يختار طريق نجاته وما به صلاح  
أمره ، فليختار إذن ولا يقصر . لكنهم غلبت عليهم  
الشهوة فلا يختارون إلا الرول ، وتغفلت قلوبهم  
بالغفلة فلا يذكرون إلا الضلال . أما القرآن وما فيه  
من الخير والهدى فلم يعد في مكتنتهم اختياره وإدراكه  
وتوجيه نفوسهم إليه ( إلا ان يشاء الله ) ذلك منهم  
بقهرهم عليه ، لكنه تعالى لم تجر عادته في شرأله  
السموية ووجه النزول على أنبيائه - ان يقصر  
الناس عليه قسرا ، او يسوقهم الى التصديق به  
جبرا . وإنما هو تعالى يشرع لهم السبيلين : سبيل  
الخير والشر ، ويرفع لهم التجدين : نجدي الهدى  
والضلال ، وينصب لهم المتارين : مشر الحق  
والباطل . وعليهم هم ان يختاروا لأنفسهم : فمن شاء  
منهم ذكر ، والعظم واعتبر ، ومن شاء غفل ونسى ،  
وكان هو الجاني المسموء . وهذا هو تفسير قوله تعالى :  
( وما يذكرون إلا ان يشاء الله ) .

وهذا التفسير ان شاء الله يلتمس معنى الآية أشد  
الاتحام مع قوله قبله ( فمن شاء ذكره ) الدال على  
تخيير المكذبين ، وتنبههم الى ما أودعه الله نفوسهم  
من المكنة والاستطاعة .

يقول تعالى : ( فمن شاء ) من أولئك المعرضين  
ان يذكر القرآن ( ذكره ) ، وبقي منه على بال ، فينتفع  
به . ( و ) لكنهم لفرط عنادهم ، ولسوء ملكتهم  
( مايدذكرون ) ، أي مايشأون ان يذكره ذكر انتفاع  
واستفادة ( إلا ان يشاء الله ) ذلك بقهرهم عليه .  
وهذا لا يكون منه تعالى ، لكونه مخالفا لسنة الإلهية  
مع الأمم . وإنما سنته ان يبين لهم الأمرين ، وينصب  
أمام أعينهم الطريقتين ، فذاسلخوا طريق الحق نجوا ،  
واذا سلخوا طريق الضلال خسروا وهلكوا . كما قال  
تعالى في آية أخرى : ( فمن شاء فليؤمن ومن شاء  
فليكفر ) .

أما قهره تعالى الأمم ، وأجباره لها على الإيمان  
الذي قلنا انه لم تجر عادته به - فهو كان يبرز للعبان  
وسائل الهلاك وأدوات التعذيب ، ثم يقال للمكذبين :  
ان لم تؤمنوا فأنتم حالكون بما ترون من هذا الملبأ  
الواقع بكم . والتكليف على هذه الصورة لم تات به  
الشرائع السماوية ، بل قال العلماء : ان معجزات  
الأنبياء والآيات التي تظهر على أيديهم لاتتمدى دائرة  
التعذيب والتخويف ، كما قال تعالى : ( وما نرمسل  
بآيات الا تخويفا ) . قالوا : ولا يكون من المعجزات

ان يقول النبي لقومه : انظروا الى السماء ، فترون  
فيها مكتوبا بأحرف من نور بالقطع الكبير « فأنزله »  
ودينه هو الحق ، فابعوه « ثم بقي ذلك باديا للعبان  
حقبة من الزمن . قالوا : هذا لايمكن ان يقع ، لان  
الدعوة الى الإيمان بهذه الصورة تصعب من قبيل  
الإيحاء والإجبار ، ودعوة الأمم تعالى جرت بها عادة  
الله تعتمد على التوفيق والاختيار ، لبتيز بذلك  
الأبرار من الفجار . ولو كتب في السماء بأحرف من  
نور كما وصفنا لم يعد في وسع أحد من الناس مهما  
كان عنيدا ، أو سحبا بليدا - ألا الإيعان والتصديق .  
فقوله تعالى هنا : ( وما يذكرون إلا ان يشاء الله )  
بمعنى قوله : ( فمن شاء ذكره ) الدال على مطلق  
التفويض والتخيير - لاينبغي تفسيره بغير ما ذكرنا .  
ومثله في سورة التكوين آية ( وما تشاءون إلا ان يشاء  
الله ) يد قوله ( ان هو الا ذكر للعالمين ان شاء منكم  
ان يستقيم ) .

فهو تعالى يقول : ان الاستقامة بامعشر البشر  
داخلة تحت مشيئكم فاستقيموا إذن . ثم قال  
مويشا لهم ، نأبأ عليكم سؤمكم ، وفرط عنادهم :  
( و ) لكن انتم ( ماشاءون ) الاستقامة وأتباع الحق  
( إلا ان يشاء الله ) ذلك منكم بالقر و الإيجار والالقاء  
وهذا لم تجر به عادته تعالى في الأمم ، فالويل لكم  
ان لم تنظروا لأنفسكم .

وان لم تقل في تفسير هاتين الآيتين ماقلنا وقمنا  
من ظاهر التناقض فيهما في جسد لاينتهي مع  
المطابق المشكك ، من حيث يفتح لهم بابا الى تعطيل  
الشرائع ، وتوهين أمر الدين .

على ان ماقلناه في معنى الآيتين لايفرج حبل امر  
في تخاطب اهل القلة ... تقول لأنك الذي تريد  
تسلك في تريته طريق الرفق واللين : « افعل يا بني  
ما أمرك به ، ولا عراك في المخالفة فذاك بحمد الله  
مطبق لما كلفته ، فلاذ عليه » ، فإذا خالفك ولم  
يعمل بمشورتك عنادا أو لجاجانهده فتقول : « أنا  
أعلم أنك لأشياء ان تفعل ما أقول لك إلا ان اشأ أنا  
ان تفعله » ، ولست تريد في قولك هذا ان تصب  
ابنك الاختيار والأرادة بالرة ، وإنما كل ما تريده  
تهديده من طرف خفي بان في طافتك ان تكرهه على  
ما أردت منه بواسطة الضرب الموجه ، والكم المتتابع  
مثلا . غير أنك تريد بنفسك ، وبإتاك الحبوب ان تقف  
معا هذا الموقف ، متريبا به الرجوع عن فيه بواجر  
من نفسه .

ومن عادة القرآن ان يأتي عقب التهديد بكلمات  
الترقيق والترغيب ، وهذا ماكان في الآية التي  
نفسرها ، فلها حققت بقوله تعالى : ( هو ) ، أي الله  
( اهل التقوى ) ، أي اهل لان يتقى ويحذر عقابه ،  
فلماذا لاتتقونه أيها القوم ؟ ( واهل الفقرة ) ، أي وأهل  
لان ينفر ان إتهام منكم وأصلح عمله ، فلماذا لاتصلحون  
أعمالكم ، وتتركوا أفعالكم ، وتتوبون الى ربكم ؟  
هذا ما وجدناه الأقرن والأحسك في تفسير آيات  
الاضلال . ونسال الله الا يجعل علينا بعة فيما قلنا  
او قلنا . ربنا لا تؤاخذنا ان نسئ أو اخطانا .

## بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

لَا أَقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَمَةِ ① وَلَا أَقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَامَةِ ②  
أَتَحْسَبُ الْإِنْسَانَ أَلَّنْ يَجْمَعَ عِظَامُهُ ③ بَيْنَ قَلْبَيْنِ  
عَلَى أَنْ تُسَوَّى بَنَانُهُ ④ بَلْ يَرِيدُ الْإِنْسَانُ لِيَفْجُرَ  
أَنَامُهُ ⑤ يَسْأَلُ أَيَّانَ يَوْمُ الْقِيَمَةِ ⑥ فَإِذَا بَرَأَ  
الْبَصَرُ ⑦ وَخَسَفَ الْقَمَرُ ⑧ وَجُمِعَ الشَّمْسُ

افتتحت هذه السورة بتحقيق أمر البعث ، وإن  
الناس لا يتحركهم ربهم سدى من دون حساب ، مؤكداً  
ذلك بالقسم حسب عادته تعالى في الاستقام بما عظم  
خطره من مخلوقاته . وقد أقسم هنا بيوم القيامة  
على وقوع يوم القيامة . وفي ذلك تقرير له ، وتحقيق  
لأمر وجوده . وظاهره نفى القسم ، لكن المراد بهذا  
النفى التوصل إلى التأكيد ، وكأنه يقول : إن الأمر  
بين فلا احتاج إلى أن أقسم عليه ، وهذا القول يؤكد  
الخبر أحد تأكيد ، قال أبو مسلم : ( لا ) هنا نفى  
القسم ، كأنه قال : لا أقسم عليك بذلك اليوم وتلك  
النفس ، ولكنني سألك غير مقسم : اتحسب أنا لأنجم  
عظامك إذا تفرقت بالوت ؟ فإن كنت تحسب ذلك  
فاعلم أنا قادرون على أن نفعل ذلك اهـ .

وقيل إن ( لا ) نافية محذوف ، وليست نافية  
للقسم ، وإن التقدير ( لا ) صفة لما ترموزياته لإحساب  
ولا عقاب . ثم استأنف فقال : ( أقسم بيوم القيامة )  
و ( بالنفس اللوامة ) أتم ستمشرون . وهذا على عادة  
العرب من زيادتهم ( لا ) قبل ( أقسم ) كأنهم ينفون  
ما سوى القسم عليه فيفيد التأكيد . وقد مر في  
سورة الحاقة زيادة أيضاً لذلك عند قوله تعالى :  
( فلا أقسم بما تبصرون وما لا تبصرون ) .

وجواب القسم هنا محذوف دل عليه قوله بعد :  
( احسب الإنسان الخ ) ، والتقدير « ليتعشَّن  
ولتحاسبن » . ثم عاد فاستفهم على وجه الإنكار أن  
يكون الله تعالى عاجزاً عن خلق الإنسان ثانية فقال :  
( احسب الإنسان الخ ) .

وفي أقسام الله تعالى بالنفس اللوامة ثناء عليها وتنبؤ به  
بشائنها . وقالوا : إن المراد بها النفس التي لا تزال تلوم  
ذاتها وإن اجتهدت في الإحسان والعمل الصالح .  
وقال الحسن البصري : « إن البار لا تراه إلا لئسا  
نفسه ، وإن الفاجر يعضى قملاً لا يعاب نفسه » ،  
قديماً أي من دون أن يعرج أو ينثنى . وقد ذكر  
الوحى في سورة الفجر اختاً للنفس اللوامة ، وهي  
النفس المطمئنة مد قال تعالى : ( يابئنا النفس المطمئنة  
أرجعى إلى ربك راضية مرضية ) . والنفس المطمئنة  
هي الثابتة في عملها ، الوقتية بما وعد ربها . وهذه  
النفس على فضلها وعلو منزلتها عند ربها مد قال لها .  
( ادخلى في عبادى وادخلنى جنتى ) - يوشك أن تكون  
اختها - النفس اللوامة - أفضل منها ، وأعلى منزلة ،  
لأن اللوامة لا تستقر على حال من قلقها وخوفها إن  
تكون قصرت فيما يجب عليها من بلوغ الكمال الدينى  
والأخلاقي المطلوب منها .

فلا تعالى يقسم بالنفس التي هذه حالتها ،  
التابعة في طاعة ربها ، مرغياً في طريقتها ، وحاضياً  
النفس الأخرى أن تكون على مثل شاكلتها : فلا تبلغ  
درجة من الكمال حتى تلحق إلى الدرجة التي فوقها ،  
ولا تمارس فضيلة أو تقوم بعمل صالح حتى تفرغ  
إلى آخر أمثل منه . هذه النفس التي تحيا في الدنيا  
مثل هذه الحياة لا بدعها خالقها من فضله ، ولا يمنها  
من عدله ، فهو سوف ينقلها إلى دار كرامته ، ويقسمها  
في كوتل رضاه ورحمته . ولولا ذلك لكانت نفوس  
المجموعات والحشرات خيراً منها وأحسن عاقبة ،  
ويكون الخالق أشد رحمة وعناية واحساناً بهذه  
النفس الهائلة ، من تلك العملة الكاملة ، إذ أنه تعالى  
أراح المجموعات من زجر الضمير والوجدان ، وخفف  
منها عبء طلب الكمال الذي يؤتمن عليه الإنسان .  
تعالى الله ، وتزده عدله ، وتقدس صفاته من مثل  
ذلك . وعلى هذا يكون القسم بالنفس اللوامة في صدر  
تحقيق أمر يوم القيامة - مما يشير وينبه إلى ما ذكرناه  
من الدليل العقلى عليه . وما أحسن ما قاله بعضهم  
مستندلاً على وجوب طاعة الله ولزوم عبادته :

هـ البيه لم تأتينا رسله  
وجاحمة النار لم نرهم  
اليس من الواجب المستحق  
لئنا العباد على النعم

وقوله : ( احسب الإنسان الخ ) يريد مطلق انسان  
من ذاب كذب الوحى ، وإنكار البيه ، وإن كانت  
الآية واردة في معرض الرد على انسان خاص ، وهو  
هش بن ربيعة . وقصة ذلك أن عبداً هذا وخته -  
الأخس بن شريق - كانا جارين للنبي صلى الله عليه  
وسلم ، وكان جوارهما ينس الجوار ، وكان صلى الله  
عليه وسلم يقول فيهما : « اللهم اكفنى جارى النسوء » ،  
فجلس على يوما إلى رسول الله وطلب منه أن يحدته

عن يوم القيامة ، فذكر له شيئا من أمره ، فقال له عدى : « أما والله لو رأيت ذلك اليوم بعني لم أصدقك بالمحمد ، ولم أومن بك ولا به . أيمكن أن يجمع الله العظام ؟ » فنزل الوحي في الرد عليه ، فأقسم أولايوم القيامة نفس وبالنفوس الناصبة في طاعة ربهـا أرادته النجاة في ذلك اليوم ، ثم قال : ( اجسب الإنسان ) عدى واحزابه ممن حال الجهل بينهم وبين الاعتبار بشمول القدرة الإلهية ( أن لن نجعم عظامه ) ، أي لن يقع منا جمع لعظامه بعد موته وتفرقها . ( بلى ) نجعمها . و ( بلى ) تقع بعد المنفى فتبته . وفي ( نجعمها ) المقدر معنى القدرة ، فيكون قوله ( قادرين على أن ننسوي قدرتنا فوق ذلك على تسوية بناته و ( البنان ) أطراف الأصابع ، والأصابع نفسها . وأراد بذكره ( تسوية البنان ) أنه تعالى قادر على جمع عظام الإنسان ، وإعادة تركيب أعضائه كلها كما كانت أولا ، فيتمثل بشرا سويا كاملا لا ينقصه شيء حتى أطراف أصابعه التي هي أصغر أعضائه ، وتمتئى أطرافه ، وآخر ما يتم به خلقه . فذكر تسوية البنان مثل في الكمال وعدم نقصان .

أو المعنى : أنه تعالى قادر على إعادة جسم الإنسان الى سابق حالته بعد أن يكون قد مات وانحل تركيب أجزائه وفسد تكوين أعضائه ، حتى الطفاها حجما ، وأدناها تركيبا : وهي البنان . فهو تعالى قادر على إعادة خلق الإنسان بانفا هذا الحد من الكمال في تلك الامادة .

فاللغنى الأول يرمى الى إعادة الإنسان كاملا في الأعضاء وعندها ، والثاني يرمى الى إعادته كاملا في تكوينها واستجماع شرائط قيامها بوظائفها .

وقيل : أن المراد بالبنان الأصابع نفسها لا أطرافها ، وأن المراد بتسويتها جعلها مستوية قطعة واحدة ذات صفيحة جامدة كخفف البصر فلا ينتفع بها . وهو تعالى لم يجعلها كذلك ، بل جعلها تفريق ذات أطوال متناسبة ، ومفاصل متحركة ، وأنامل ملمسة ، ومرواة تامة فيما يطلب منها من الانضمام والانفراج ، والانتقباض والانبساط ، بحيث كانت تمت الآلة للتناول ومزاولة الأعمال المختلفة . ولا كذلك البصر والجمار اللذان لا يقدران على استخدام الحف والحافر في طرق الانفراج المختلفة كما يفعل الإنسان بيده ، فيضطران الى أن يتناول طعامهما وشرابهما بغيرهما مباشرة .

ولعل المعنى الأول هو الايتق بالمقام ، لأن القصد اثبت أنه تعالى قادر على إعادة الإنسان خلقا سويا يوم القيامة ، لا اثبت أنه قادر على أن يخلق في دار الدنيا بأى صورة أرادها .

قوله ( بل يريد الخ ) اضراب من شأن الإنسان الذى ربخه عليه في الآية السابقة ، وانتقال الى ذكر

شأن من شأنه اعجب ، وسريرة من سرانه أغرب . كأنه يقول : لا أرى الجبل يبلغ بالإنسان الى حد انكاره قدرتنا على جمع عظامه ، ومحاسنته على سوء أعماله ، ( بل يريد ) ذلك الإنسان بهذا الانكار الانطلاق من كل قيد ، والتفتت من كل سلة ، لأجل أن يفجر ( امامه ) ويركب في غط الحق واختراق أنام رأسه ، ثم لا يقلع عن ذلك حتى يلقى حمامه ، وتقوم عليه القامة .

و ( الفجور ) : انبعاث المرء في الذنوب ، وانحرافه عن حدود الشرع وأوامره من دون أن يخامر شعور خوف أو خشية . ولعلق الثرف وهو ( امامه ) به بدل على أنه مضمين معنى النوم والتماضى والاسترسال كأنه يقول : يريد الإنسان في انكار ما لم يت أن يفجر محرا ومضاديا في طريقه الذى امامه الى آخر عمره . فهاتان الكلمتان ( يفجر امامه ) في افادة معنى اللجاج والإصرار مثل قولهم : « ركب رأسه » ، و « خلع غماره » . والمعنى هنا معص في أساءته ، مصر على بطله لاشتيه منه شيء ، ولا يرضى فيه أحدا .

وهذا الفاجر النعاسى من الحق ، المتحدى في الفضالة ، كلما نصح له ناصح بالكف والارواء ، أو خوفه يخوف من عذاب الله ومحاسنته له على أعماله يوم الحساب — ( يسأل ) ناصحه أو يحوفه سؤال مخبرية واستهزاء وعنت : ( إيان يوم القيامة ؟ ) أى متى وقته ؟ وريب هو أم بعيد ؟ هو يسأل الآن ، ( فلما برق البصر ... ) يقول ... أين القفر . ففي هذه الآيات وصف لبعض أحوال ذلك اليوم ببيان ما يكون فيه من شأن ذلك السائل المنكر .

ومعنى ( برق البصر ) زاغ وبهر حتى لا يطرّف ، أو دهش فلم يعد يصر . وأصله أن يرى الشخص البرق الشديد اللعنان ، فيخطف بصره ويدهش فلا يعود يرى . ثم استعمل في كل حيرة ودهش يعترى البصر ولو لم يكن مسببا عن رؤية البرق . ومثله في ذلك ( صمق الرجب ) إذا وقع مفشيا عليه . وأصله أن يقع هذا به بسبب إصابة الصاعقة له ، ثم تم استعماله في كل شيء .

( وخسف القمر ) : ذهب ضوءه وأظلم . وهذا يكون منه وقت أن يتأذن الله بخراب هذا العالم ، وتغيير نظامه ، ونسخ أحكامه ، فلا تعود الأرض أرضا ولا السماء سماء . وقد عبر الوحي عن هذا الانكسار والاضطراب العام في العالم بقوله : ( وفتحت السماء فكانت أبوابا ) ، أى مفتحة الأجرام ، مفرقة الأجزاء ، ويقول : ( إذا السماء انشقت ) أى تطلعت ، ووقع الاضطراب في نظامها العام ، فاختل تركيبها ، وفسد تكوينها ، ويقول : ( وإذا النجوم انكثرت ) ، أى تناثرت متفشة من كل جانب . يقال : انكسر علبشا القوم إذا حاذونا متباعين من كل صوب ، ويقول : ( وإذا الكواكب انثرت ) أى تساقطت متفرقة في كل ناحية . فلذا كان هذا شأن السماء بمجموعها ،

وكان سائلا يسأل : اذا لم يكن الناس يومئذ وزر او ملجأ يلجأون اليه ، فهل يقولون فوضى مشمتين ام يصبح لهم مقر يستقرون فيه ، ومنتهى ينتهى حالهم اليه ؟ فلها قال : ( الى ربك ) ، لا الى غيره سبحانه وتعالى ( يومئذ ) يوم وقوع ما ذكر من الأحداث والكوارث ( المستقر ) ، أي الاستقرار والسكون والانتجاع فله يومئذ الأمر ، واليه الحكم ، وبه الرجاء ، ومنه ينتظر اكتشاف الأرواح .

قوله : ( ينشأ الإنسان الخ ) استئناف لبيان ما يقابل به الإنسان بعد أن يصير امره الى ربه . قال انه يومئذ يكشف له الغطاء عن أعماله ، فيخبر بها كلها ، بالذي قدمه منها وكسبه بالفعل من خير وشر ، وبالذي أخره ، فلم يعمل ، بل نوى فعله من خير أو شر . الى هذا الحد من الإنباء والإطلاع يكشف الأمر للإنسان ، فهو لا يتكشف له ما فعل فقط بل ما لم يفعل ايضا ، وهذا هو معنى قوله : ( بما قدم وأخر ) .

ويحتمل أن يكون المراد بالذي قدمه ما فعله من الأعمال الصالحة ، وبالذي أخره ما لم يفعله منها ، وإنما سوف فيه كلا واحمالا .

أو المعنى : بما قدم بين يديه الى الآخرة من خير وشر ، وبما أخر بعد موته فتركه في دنياه ينسج الناس على منواله بعده : من بدعة حسنة أو سيئة ، وسمة طيبة أو قبيحة . كما قال تعالى في آية أخرى ( وتكتب ما قدموا وآثارهم ) ، أي تكتب ايضا ما أخره من آثار أعمالهم الباقية على مر الزمان بعد مماتهم ، كما تكتب ما قدموه في حياتهم .

ثم أضرع من ذكر هذا النوع من انباء الإنسان بأعماله ، وارتقى الى نوع منه اتم واكمل ، فقال : ( بل الإنسان على نفسه بصيرة ) ، والمراد ( بالبصيرة ) هنا الحجة والشاهد بشهد بآيات أمر . يقال : جوارحه بصيرة عليه ، أي شاهد وحجة عليه . ومنه « اجعلني بصيرة عليهم » ، أي شاهدا أو رقيباً . وقال تعالى في سورة يوسف : ( قل هذه سبيلي ادعوا الى الله على بصيرة أنا ومن اتبعني ) ، أي ادعوا اليه تعالى حالة كونى على حجة وبينة ودليل قاطع .

ومعنى الآية أن الإنسان ينشأ يوم القيامة بأعماله على أنه هو نفسه حجة شاهدة على نفسه وسوء أعمالها ، وقبح آثارها في دنياها ، فلا حاجة في ذلك اليوم الى ثبت آخر غيرها .

وهذه الآية بمعناها هذا تتفق مع آية الاسراء ( كفى بنفسك اليوم عليك حسيبا ) من حيث أن الإنسان يوم القيامة لمعلم عنه فشوات الوهم والالتباس فتتجلى له الحقائق كما تتجلى البذر لميوت الناس ، يتجلى له ذلك ويتركه ويقتنع به في سره ( ولو ألقى معاذيره ) ، أي ولو حملته النجلى وفوط الاستحياء على الجئل من نفسه بالباطل ، والادلاء ببعض الأدلار الكاذبة لها ، فإن الأمر مع هذا يبقى واضحا له ، وشهادة نفسه عليه أحق بالقبول من هذه المعاذير .

وَالْقَمَرُ ① يَقُولُ الْإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ إِنَّمَا أَكْمُرُ ②

كَلَّا لَا وَزَرَ ③ إِنَّ رَيْكَ يَوْمَئِذٍ الْمُسْتَقَرُّ ④

يَتَّبِعُوا الْإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ عِمَّا قَدَّمُ وَأَخَّرُ ⑤ بَلِ

الْإِنْسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ ⑥ وَلَوْ أَنِّي مَعَادِرُهُ ⑦

لَا أَحْرِكُ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ ⑧ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ

وَقُرْآنَهُ ⑨ فَلِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ ⑩ ثُمَّ إِنَّ

والأجرام بأفرادها — فهل يعقل أن يبقى القمر نوره الممهود أو يخسف ؟ وهل يتصور أن يبقى كل من القمر والشمس في فلكه ، وعلى هيئته وشكله ، أم يتغير ؟ أن تتكاد النجوم وانتشار الكواكب ، أمر يعجز أرواح السماء كلها ، وفي جعلتها الشمس والقمر . فهل إذا انتشر هذان الكوكبان ، وزايل مداريهما — وأحدهما وهو الشمس أكبر من الآخر وهو القمر بنحو خمس وستين مليون مرة — لا يجلب أكبرهما أصغرهما اليه ؟ وإذا جذب اليه التقيما معا في حين واحد إذا بالضرورة ، ولما عني قوله : ( وجمع الشمس والقمر ) . وقولنا أن الشمس تجذب اليها القمر بقوة الجذب العام اثبتت على القريب ، والأفلا سبحانه وتعالى أعلم بآية قوة يجتمعان ، وكيف يكون ذلك الاجتماع ، وعلى أي شكل يقع ، فإن ذلك مما لا يمكن القول فيه بالرأى ، فنندع أمره الى الله ، ونقتصر من الاعتقاد على ظاهر الآية : من أنهما يجتمعان اجتماعا يبقى معه الإنسان أنسانا تام التركيب ، سليم الأعضاء ، له بصر يبرق ، ولسان ينطق . وفي ذلك الوقت الذي يبرق فيه البحر ، وتقع الأحداث الأخرى ( يقبض الإنسان يومئذ بين يديه ) ، أي التراب المنجى من هذه الكارثة ، والوئذ الى الراحة والأمنه . فيجلب حينئذ بما قال الله ( كلاً ) ، أي دعوتك للحال ، وطلب ما لا ينال ، إذ ( لا وئذ ) ولا ملجأ تلجأ اليه ، ولا حرز يعضك مما نزل بك من أمر الله .

و ( الوئذ ) المعقل ، والحصن ، والعصم ، والملجأ ، يقال : أنت حصني ووئزي ، وأصل معنى الوئز في اللغة الجبل . قالوا : كان الرجلان يكونان في ماشيتهما فلا يشعران بشيء حتى تأتياها الخيل مفرة ، فيقول أحدهما لصاحبه : يا فلان ، الوئز الوئز ، الجبل الجبل ، وكانوا في الجاهلية إذا خشوا عدوا قالوا : « عليكم الوئز » ، أي عليكم الجبل لتجشوا اليه ، واعتصموا به . ثم شاع استعماله في كل حرز وحصن وملجأ يمتنع ولو لم يكن جبلا .

والتبادر أن يكون المراد بالمعاذير الأعذار ، لكن الأعذار وأحدها علم والمعرفة جمعها معاذر (١) لا معاذير ، ومن ثم قال بعضهم : (إن المساذير) اسم جمع لمعزلة لا جمع لها . أما الضحاك والسدي فسلبا إلى أن المعاذير في الآية جمع معسذار ، وهو السبأ (٢) ، كأنه يقول إن الإنسان بإفغائه واقتناعه يومئذ يصبح حجة على نفسه ولو ألقى عليها ستورا كثيفة من الحجج والأعذار ، فإنه لا شيء من تلك الستور يمكن أن يحول بين الإنسان وبين ظهور آثار الاقتناع والأدعان عليه يوم القيامة .

**ذهب القفال (به) إلى الكلام في هذه الآية (لا تحرك به لسائك لتعجل به)** متصل بالحدث المسوق في الآيات قبلها ، وإن الخطاب فيها لذلك الجاحد الذي يفجر أمامه ، وإذا خوفه مخوف يوم القيامة أجابه مستهزئا ساخرا : (إيان يوم القيامة) ، حتى إذا جاد ذلك اليوم لم يجد مفرأ إلا إلى الله ، ونبيه بما قدم وأخر . وقد علم من آيات أخرى أن الإنسان يعطي يوم القيامة صحيفة عمله ، ويقال له : (اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيبا) ، فإذا أخذ في قراءتها لتلجج وتكلف الإسراع في القراءة ، لينجو من هذا الموقف المخزي ، فيقال له : (لا تحرك به) أي بعملك وتلاوته (لسائك) مراد التفتي والتخلص منه بهذه العجلة ، فإنه يجب علينا بحكم الوعد والحكمة أن نجتمع علك ، ونقرأه عليك ، (فإذا قرأته فانبس قرأته) بالافرار والاعتراف (ثم إن علينا بيانه) يئأس أمره ، وشرح مراتب عقوبته .

ففسر (به) وما بعده من سائر الضمائي ترجع إلى عمل الإنسان المسطور في صحيفته الموهودة . وقوله تعالى بعد : (كلا بل تحبون العاجلة الخ) خطاب لذلك الإنسان وأضرابه ، وردع لهم مما هم فيه من حب العاجلة الفانية ، وبذلك يبقى الحديث واحدا ، والسياق متصلا .

هذا قول القفال . ولكن المشهور بين المفسرين أن الخطاب في قوله تعالى (لا تحرك) للنبى صلى الله عليه وسلم ، والضمير في (به) والضمائر الأخرى ترجع جميعها إلى القرآن . فقد روى أنه صلى الله عليه وسلم كان يصعب عليه حفظ آيات القرآن وجبريل يلقيها عليه ، فكان يحرك لسانه وشفتيه بتلاوة الآيات قبل أن يفرغ جبريل مخافة أن تنفلت منه ، وينسأها حين التليخ ، فهي من ذلك في سورة طه مذ قبل له : (ولا تعجل بالقرآن من قبل أن يلقى بك وحيه) ، كما نهى في هذه السورة أيضا فقيل له :

(١) على أن بعضهم يجوز اشباع كسرة اللال في معاد واشباعه لفرودة وغير ضرورية ، ولعل الذي حسن الاشباع هنا إرادة الزاوجة بكلمة (بصرة) .

(٢) بالنسبة إلى البسم . وفسر بعضهم الملاير بالمحج كأنه جمع مملور أو معاد بمعنى الحجة لكن هذا الفرد لا يستعمل ، فيكون ملاير من المجموع التي لا تعد له كالدائر والخواص .

(لا تحرك به لسائك) أي بالقرآن والوحى الذى يلقيه عليك جبريل (لتعجل به) أي لأجل أن تعجل بأخذه وتلقفه منه . ثم علل نهيه عن التحريك بقوله (إن علينا) كما وعدناك ولما اقتضته حكمتنا (جميعه) في صدوق حتى نثبت فيه . (و) إن علينا أيضا (قرآنه) أي قرأته ، وهذا هو معنى القرآن : مصدر قرأ قراءة قرأنا ، ثم غلب القرآن كلاً الله المردع بين دفتي المصحف . ومعنى أن علينا قرأته : أن علينا أن نوفقك لقراءته ودراسته بلسانك ، فتحفظه عن ظهر قلب لم لا ننساه . ويحتمل أن يكون (قرأته) بمعنى جمعه ، فإن (قرآن) أيضا مصدر قرأ الشيء جمعه وشم بعض أطرافه إلى بعض ، (فقرأته) إذن معطوف على (جميعه) عطף تفسير ، كأنه يقول : إن علينا جميعه وتآليف أجزائه بعضها مع بعض .

**(فإذا قرأته)** عليك بواسطة جبريل فاستنصت حتى يفرغ ، وإذا فرغ (فاتبع قرأته) ، أي تتبع في نفسك قراءة جبريل مصفيا ، وكفى على نعمة من وعدنا لك بأنك تحفظه ويرسخ في قلبك ، ولا تعجل قراءتك مقارنة لقراءة جبريل . فكان صلى الله عليه وسلم من ذلك اليوم إذا ألقى جبريل عليه الوحى اترك وأستمع ، فإذا ذهب قرأه في نفسه كما علمه ربه ، فيجده محفوظا منقوشا على لوح قلبه الشريف . وكما كان صلى الله عليه وسلم يحرك لسانه بالقرآن وجبريل يلقيه حرصا على استظهار الألفاظ - كان أيضا يقف في خلال القادحين القرآن عليه وقفة المستفسر المستفسر حرصا على فهم المعاني . فنهاه ربه عن ذلك أيضا ، ووعده بأنه يبين له ما أشكل عليه بعد أن يحفظ الآيات ، وترسخ ألفاظها في نفسه . وهذا معنى قوله : (ثم إن علينا بيانه) ، أي تفسيره وإيضاحه والكشف عن معانيه .

هنا ما عليه جمهور المفسرين في معنى الآيات ، لكن يبقى أشكل في وجه ارتباطها بما قبلها ، وكيف صح الانتقال من خبر المكذبين يوم القيامة ، وأنهم سينبأون فيه بأعمالهم كلها - إلى نهيه صلى الله عليه وسلم عن تحريك لسانه بالقرآن تعجيلا يحفظه واستظهاره ، ثم الرجوع إلى الحديث مع المكذبين بقوله : (كلا بل تحبون العاجلة) ؟

وأحسن ما قيل في الجواب أن الآيات السابقة كانت هي نفسها السبب في نزول هذه الآية ، أي آية نهيه صلى الله عليه وسلم عن تحريك لسانه . فينبينا كان جبريل يلقي عليه هذه السورة من أولها (لا أقسم بيوم القيامة) آية فاية ، كان صلى الله عليه وسلم يحرك لسانه تعجيلا إلى الاستظهار والحفظ ، فأوحى إليه ربه آية (لا تحرك به لسائك) ، ولقنه إياها جبريل غصة طرية في غضون تلقينه الآيات التي حرك بها لسانه ، ليكون ذلك أدعى إلى رسوخ مضمون آية النهي في نفسه ، وتلاذه بإدبائها . ومنثلا للعلم بالعلم يلقي على تلميذه - مسائل من العلم والتلميح يكتبها في صحيفة له ، ثم عثر على هذه

عَلَيْنَا يَسَّاهُ ﴿١٦﴾ كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ ﴿١٧﴾  
وَتَذَرُونَ الْآخِرَةَ ﴿١٨﴾ وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاصِرَةٌ ﴿١٩﴾ إِنَّكَ رَئِيهَا  
نَاصِرَةٌ ﴿٢٠﴾ وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ ﴿٢١﴾ تَفَظُّ أَبْ  
يُفَعِّلُ يَسَّاهُ فَاقِرَةٌ ﴿٢٢﴾ كَلَّا إِذَا بَلَغَتِ الْقَرَابَىٰ ﴿٢٣﴾

الصحيفة بعد ذلك فوجد في غضون مسائلها العلمية هذه الجملة « لا تلتفت يميناً ولا شمالاً » ، فيتعجب المتعجب من وجود هذه الجملة مخشورة بين مسألتي من علم فريبتين منها ، حتى إذا عرف السبب ، وأن التلميد كان في أثناء الالتقاء بتلفت يميناً وشمالاً ، فنهاه فاستبداه بهذا القول الثابت في الصحيحين بطل العجب . وله ورسوله . ووجه المثل الأعلى . على أن هذا المثل أن كان المفردون فروسه فرضاً فإن في كتب المحدثين مثلاً له وقع بالفعل : ذلك أن بعض علماء الحديث كان يحدث الناس ، فدخل عليه رجل صالح كثير التهجيد ، فلما وقع نظره عليه استطرد قائلاً : « من كثرت صلاته بالليل حسن وجهه في النهار » ، ثم رجع إلى مكان في صدره من الأحاديث ، فقل بعض من كان يكتب عنه أن قوله « من كثرت الخ » حديث ، فرواه عنه . وروى الإمام مسلم في صحيحه في باب أوقات الصلوات الخمس : حديثاً جاء بين أحاديث الباب فريساً منها : لا علاقة لها بها ، وهو قوله : « حديثاً يحيى بن يحيى التميمي ، أخبرنا عبد الله ابن يحيى بن أبي كثير قال سمعت أبا يعقوب يقول : لا يستطيع العلم براءة الجسم » . وأد . ولا بد من مناسبة عرضت للإمام مسلم وهو يحدث حمله على الاستطراد إلى هذا الحديث .

ثم بعد أن أتم الوحي تعليمه صلى الله عليه وسلم كيف يفعل حين إلقاء القرآن عليه ، وأراد التودد إلى الحديث مع المخاطبين - خطبهم بكلام فيه ما كان ماتب عليه النبي عليه السلام من أجله ونهاه عن فعله ، فقال : ( كلاً ) ، أي ارتدعوا أيها البشر عما أتم عليه من العبادة في شؤونكم وحب التفرغ في الوصول إلى أفراسكم ، وهذا خلق عام شامل لجميع أفرادكم ، حتى من كان منكم في أعلى درجات الكمال ، وأعظم مراتب العصمة ، وهو محمد صلى الله عليه وسلم ، فإنه لم يفعل من عبادة في بعض حالاته .

أتم أيها البشر الكلدون لم فكلوا بالوحي إيفلا للحق كما لعمون ( بل ) من فرط عظمتكم ، أتم قوم ( تصبون الماجة ) ، أي الدنيا الغانية التي بين أيديكم ، وتؤثرون ملأها ، ( وتثرون الآخرة ) التي لم يحسن

وقت مجيئها بعد ، فتلصقونها وتهملونها ، معرّسين عن الأعمال الصالحة المؤدية إليها - كل ذلك يقتضي فطرتم وطباعكم التي غرّز فيها العجل .

وأنت يا محمد من حرصك على الآيات الإمرية بالفضائل والكمالات - تعجل بتجريك لسلكك بها ، وتقسى ما وعدك ربك : من أن الآخرة لك ، ولا تكون لك إلا بالتمام توفيقك إلى حفظ القرآن ، واستظهار آياته كلها من دون نقصان .

فكلا الفريقين خلق من عجل ، لكن عجل المكذبين في الشر والعمل السيئ والحرص المذموم ، وعجله عليه الصلاة والسلام في الخير والعمل الصالح والحرص المحمود . ومع هذا فقد نهى صلى الله عليه وسلم عنه ، ونبه إلى وجوب الثقة بالآخرة الحقيقية له .

وما ذكرناه من معنى الآية في خطاب المكلمين إنما يفهم منها بنص العبارة ، أما ما خوطب به صلى الله عليه وسلم فيها ، فإنه يفهم بطريق التعريض والإشارة .

ولما ذكر تعالى أن البشر يؤثرون الدنيا وللدنيا الفانية على الآخرة ومسرانها الباقية - وصف ما يكون في تلك النشأة الآخرة من انتقام الناس إلى فريقين : أبرار وفجار ، وقال أنه يكون للأولين ( وجوه يومئذ ناصرة ) حسنة جميلة من ظهور آيات النعيم وبشاشة السرور عليها ، كما قال تعالى : ( أن الأبرار لفي نعيم على الأرائك ينظرون . تصرف في وجوههم نضرة النعيم ) ، أي رونقه وبريقه وحسنه وبشاشته . يقال : نضر الشجر والوجه واللون إذا نغم وحسن ، ونضره الله ( مبغففة ومشددة ) كأفنه : جملة ناضراً ناعماً حسناً . وفي الحديث : « نضر الله امرأ سمع مقالتي فوعاها » .

ثم وصف تلك الوجوه بوصف آخر وراه النضرة والحسن فقال : ( التي ربهها ناطرة ) . وقد اختلف المفسرون في تفسير هذه الآية (اختلافاً متنبهاً على اختلاف آخر بينهم ) وهو : هل يرى الله يوم القيامة بجوابية البصر ؟ ففرق منهم - وهم أهل السنة - قالوا : أنه يرى بالفعل بخاصة البصر ، ولا مانع من هذه الرؤية ، ولا تستلزم هذه الرؤية أن يكون الباري تعالى جسماً يشغل حيزاً من الفراغ . فله قادر على أن يرى ذاته من دون أن يكون في حيز ، ومن دون أن يكون على بعد مخصوص منها ، ومن دون أن يكون هناك نور ينعكس عنه إلى أبصارنا ، وغير ذلك من الشروط التي تتوقف عليها رؤية المحسوسات في دار الدنيا مادة . على أن الرؤية مستكون في الآخرة ، والآخرة سنن ونواميس خاصة بها ، ويموجها ترى الله فكافاً (١) وبكون ثنائاً من وراء هذه الرؤية من البهجة والفيطة والمرة ما لا يحاكيه شيء من ملذذات الآخرة وشروب النعيم فيها .

(١) ميماً ومشاهدة .



وقد استدل هذا الفريق على مذهبهم بهذه الآية ، وبأحاديث مريحة في حصولها للمؤمنين يوم القيامة ، حتى أن بعض هذه الأحاديث رواه أكثر من عشرين صحابيا .

قالوا : وأما قوله تعالى : ( لا تدركه الأبصار ) وهو يدرك الأبصار ) فعنهما أن الأبصار لا تدركه تعالى . أدرك أحاطة واكتناه . فالتفتي منصب على الإدراك لا على أصل الرؤية ، فهو لم يقل أنه لا يبصر ، وإنما قال : لا يدركه البصر . وفرق بين قولك : « ما أبصرته » ، وقولك : « ما أدركه بصري » : أن الأول يفيد نفى الإبصار البتة ، والثاني يفيد نفى أن يكون البصر أدرك المبصر . فالبصر يبصره تعالى يوم القيامة ، والشئ تنلذذ برؤيته ، غير أن البصر لا يدركه أدراكه واحاطة .

وقال فريق آخر من المسلمين ، وهم الذين يسمون معتزلة : أنه تعالى لا يرى ولا يمكن أن يرى ، واستندوا مقلدا بأن للرؤية شروطا إذا توفرت كان المرئي جسما ذا حيز ألينة ، وهذا لا يجوز في حق الذات القدسية ، ونقلنا بآية ( لا تدركه الأبصار ) ، وقالوا في آية ( إلى ربها ناظرة ) : أن النظر كما جاء في لغة العرب بمعنى الرؤية والمشاهدة بالخاصة ، جاء بمعنى انتظار الشيء وتوقع حصوله ، وهذا المعنى كثير في كلام

العرب . ومنه قوله تعالى : ( أنظرونا نقبض من نوركم ) ، وتقول : « أنا ناظر إلى فلان ما يصنع بي » تريد أنك تنتظر وتوقع منه حسن التصنيع في حرك . وفي حديث أنس « نظرنا النبي صلى الله عليه وسلم ذات ليلة حتى كان شطر الليل » وسمعت « سريوة » - وهي امرأة كانت تستجدي بمكة وقت الظهر حين يعلق الناس أبوابهم ويأوون إلى مساكنهم - تقول : « عيشتي توبظرة إلى الله واليك » ، أي منتظرة معروفكم .

فمعنى كون الوجه ( إلى ربها ناظرة ) : أنها منتظرة (١) ومتوقفة وراجية النعمة والكرامة منه تعالى وحده ، غير طامعة ولا متوجهة النفس إلى غيره . وأولوا حديث الرؤية بأن تعلق العلم ببلاته تعالى يكون يوم القيامة تعلقا تاما ، واكتشافه انكشافا لا يسر فيه .

والسلف أنفسهم اختلفوا في تفسير هذه الآية ، بل اختلفوا في أصل الرؤية الإلهية أيضا . فقال الحسن البصري : ( وجهه يومئذ ناظرة ) أي حسنة ( إلى

(١) ورد الأخرى أن يكون النظر هنا بمعنى الانتظار قال : لأن العرب لا تقول نظرت إلى الشيء بمعنى انتظرته ، وإنما تقول نظرت فلانا ( أي من دون صرف جر ) بمعنى انتظرته . واستعمل بغير الحظيئة ، لم تقل : وإذا قلت نظرت إليه لم يكن إلا بالعين المجردة إذ نتج لي لكن الشاهد الأخرى التي نقلها الزمخشري ثبت أن النظر بمعنى الانتظار يعمد إلى أيضا . ومنها قول الشاعر العربي : وإذا نظرت إليك من ملك والبري دولك زدني نهما

ربها ناظرة ) أي تنظر إلى الخالق ، وحق لها أن تنظر وهي تنظر إلى الخالق اهـ .

وقال مجاهد : ( إلى ربها ناظرة ) أي تنتظر الثواب من ربها ، لا يراه من خلقه شيء اهـ .

وقال منصور بن العتصم : كان أناس يتلذكرون في حديث « فيرون ربهم » ، فقلت لمجاهد : أن أناسا يقولون أنه يرى . قال : « يرى ولا يراه شيء » .

هنا ولو كان مثل مقال في هذا المجال لفضلت السكوت عن هذه المسألة وأمثالها مما اختلفت فيه ظواهر النصوص ، ولم يلزم منه من جانب الآية ، ولا ينشأ عنه ضرر في الدين ، ولا تعطيل في مصالح البشر . ولو قال المعتزلي لربه يوم القيامة : أتى يارب لم أتف الرؤية إلا مجيها لذلك ، وتزليها لها من مسألة الحوادث ، وقال السني : أتى يا رب لا اعتقد أن الرؤية تسمى مقام الوهتك ، ولم أجتهد واعتقدتها الأطمع في القرب منك وتلذذا برؤية وجهك ... لو قال كل منهما ذلك - ما كان إلا راضيا عنهما ، ومسيلا ذيل عنقه عليهما ، وساخطا من حصول التفرقة في دار الدنيا بينهما .

وباليت المسلمين اضربوا في صدرهم الأول من الاختلاف في أمثال هذه المسألة : مما كان الخلاف فيه لفظيا أو فلسفيا ، أو لا تكون له نتيجة عملية ، أو لا ينشأ أصلا من أصول الدين . وباليتميز مذ اختلفوا لم يوغلوا ، ولم يصلوا الاختلاف سببا للتفرقة . وهذا قرائتهم يهتف من فوق رؤوسهم : ( أن الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعا لست منهم في شيء ) ، ونبيهم صلى الله عليه وسلم يقول : « أفراوا القرآن ما أثقلت عليه قلوبكم ، فإذا اختلفتم فيه فقوموا عنه » : أي إذا شحرت بأن النظر في الآيات ، وتقليب وجوه الاحتمال في معانيها - يؤثر في رابطكم الدينية ... فدعوا النظر بالكلية ، خشية التفرقة .

ولعمري أن انصراف المسلمين منذ قرون من العلم النافع ، واعراضهم عن النظر فيما يطلب أخلاقهم ، ويرتق اجتماعهم ، ويشد مرا الأخاء بينهم - هو الذي جعلهم يوغلون في مسألة الرؤية وأمثالها ، ويفرغون للخصم والتزاع فيها . وبذلك تقلص ظل العمل من ديارهم ، وقام مقبله الجدل في مجالسهم وأسفارهم ، حتى أوشكوا أن ينطبق عليهم حديث : « ما ضل قوم بعد هدى كانوا عليه إلا أوتوا الجدل وجرموا العمل » .

قلنا أن فريق السلفاء الأبرار تكون وجوههم يوم القيامة قاهرة بنصرة البهجة والتبقة والسور ، وأنهم ينظرون إلى ربهم فيربهم من ذاته ، ويحطم من متازل كرامته - ما تقر به أعينهم ، ويطلب معه عيشهم . أما فريق الفجار فأمرهم على العكس ، وهذا ما قاله الكتاب فيهم : ( ووجوههم يومئذ مسفرة ) :

امساوى ما يغنى الثراء عن الفنى  
إذا حشرت يوما وضاق بها الصدر

و ( الترافى ) : جمع ترقوة . والترقوتان : عظمتان تمتدنان يميناً وشمالاً من لفرة البحر الى العاتق . وبلوغ الروح الترافى : كتابة عن مشسرفة الموت ، وظهور امواته . وأهل الحضرة اذ ذاك يتجلدون عادة ، ويتنادون الى الصبر على أمل مباركة الأمر ، فيقول بعضهم لبعض حول فراش مريضهم : من طبيب حاذق ترونه أصلع من فلان الذى يطيبه ، فان طبيبه لم يهتد الى ذاته ، ولعل فى الثانى فرجاً فيوفق الى شفاؤه ؟ وهذا معنى قوله تعالى : ( وقيل لمن راقى ؟ ) .

و ( الرافى ) : اسم فاعل كقاضى ، رقاها يرقهه اذا أجرى له عملية الرقية : وهى ان يمضد المريض بكلمات سحرية او دينية ، ثم ينفث في وجهه او ينفث في يده نفسه ، ويهرها على جسم المريض او في العوذة التى يكون قد كتبها وبرك عليها . ويحتمل أن يكون السراذ بالرافى هو هذا المعنى ، غير اننا نسرناه بالطبيب ، لأن الامم القديمة وعرب الجاهلية منهم كان يمارس الشخص الواحد فيهم الطب والكهانة والأعمال الدينية معاً ، ويكون هذا الشخص كاهناً وطبيباً ووليس دين في آن واحد . وقد كان من جهة وسائل الطب القديم ممارسة الرقية للمريض . فالطبيب الذى يموده ان شاء وصف له أدوية وعقاقير ، وان شاء رقاها ، وان شاء تكهن لهم من مصره . حتى اذا احتضر أجرى له المراسم الدينية حسب معتقدهم .

وما زال هذا شأن الطبابة والكهانة والدين في الامم القديمة حتى توزعت تلك الوظائف في الأزمنة المتأخرة ، وقام كل بواحدة منها . ولا يبعد ان يكون حرب الجاهلية قد سموها الطبيب راقياً لذلك ، قالت الخساء :

لكن سهام المتايام يصبين له  
لم يشفه طب ذى طب ولا راقى

قوله ، ( وظن ) ، أى المحتضر ، والمراد بالظن غلبة الرأى ، ويحتمل ان يكون المراد به اليقين ( أه ) ، أى ان الشأن والامر الذى نزل به هو ( الفراقى ) : فراق الأهل والولد والدنيا المحبوبة .

وقوله : ( والتفت الساق بالساق ) إيراد به وصف نهاية الشدة التى نزلت بالمحتضر بعد ان بلغت روحه ترافيه . والعرب تذكر الساق في أمثال مختلفة وتريد بها كلها اشتداد الأمر ، والتحزم له ، فيقولون : « كشف الأمر من ساقه » ، و « قامت الحرب على ساق » ، و « قام فلان على ساق » ، و « قرع فلان للأمر ساقه » ، كما يقولون « ساق المريض نفسه » عند الموت ، و « سبق المريض » بالبناء للمجهول اذا شرع في نزع الروح ، فقوله تعالى : ( والتفت الساق

وقيل من راقى ) ( وظن أنه الفراقى ) ( والتفت الساق بالساق ) ( لك ربك يومئذ المساق ) ( فلا صدق ولا صل ) ( ولكن كذب وتولى ) ( ثم ذهب إلى أهليه يطمح ) ( أولئك قالوا ) ( ثم أولئك قالوا ) ( أحسب الإنسان أن يترك

شديدة الكلوك والمبوس . وكان قائل يقول : ولماذا كان حالها هكذا يا رب ؟ فاجاب ( تظن أن يفعل بها فاقرة ) ، أى أنها هيست كل هذا المبوس لما تعلم من سوء أعمالها ، وفتح آثارها في دار الدنيا ، ففى يوم القيامة ( تظن ) ، أى تتوقع ويظن على رايها ( أن يفعل ) وينزل ( بها فاقرة ) : داهية عظمى تقصم فقر ظهرها . ومن كسر فقر ظهره هلك . فالفاقرة الداهية : سميت بذلك لما ذكرنا ، وجمعها فواقر . ويقولون « عمل به الفاقرة » أى الداهية التى كسرت فقره . فقله تعالى . ( يفعل بها فاقرة ) نعا به هذا النحر من الاستعمال . ( الضمير في ( تظن ) يرجع الى الوجوه ، والمراد أصحابها . كما ان المراد بالظن التوقع والرجحان وقلية الرأى ، اذ مادام القوم لم يقدف بهم في الجحيم بعد ، فهم يتوقعون الصفر عنهم ، ويؤمنون الرفق بهم . ومنهم من فسر الظن هنا بالانتقاد واليقين فقال : ان تلك الوجوه توقع بنزول الفاقرة بها لما كسبت من خطيئتها ، واقتربت من سيئاتها . والظن بكون بمعنى الاستيقان ، ومنه قوله تعالى : ( وظنوا أن لا ملجأ من الله الا اليه ) .

ردعهم أولاً في قوله : ( كلا بل تحبون العاجلة الخ ) من حب الدنيا وإيثارها من الآخرة ، ووصف ما يكون لفرقى الأبرار والعجبار فيها . ثم عاد ثانياً فردعهم عما ردعهم عنه أولاً من الحب والإيثار ، ووصف لهم ما يلاقونه لحين الموت من اليأس والشدة ، مشيراً لهم في ذلك الى ان الآخرة : ان استغفرتوها أو استعبدتموها ، فان الموت بابها ، وهو من أولى مقدماتها ، فقال :

( كلا ) ، أى ارددتموها ايضاً من إيثار الدنيا الى الآخرة ، واذكروا ما ينزل بكم من فادح الهول ( اذا بلغت الترافى ) . - والضمير في ( بلغت ) يرجع الى الروح وان لم يجر لها ذكر لدلالة السياق عليها . ومثل هذا الاضمار معهود في كلامهم . قال حاتم :

بالساق ( بالساق ) كناية عن اشتداد الأمر على الميت وأهله ، فالتفت في مسأحتهم آخر خطوب الدنيا بأول خطوب الآخرة ، فكانه جعل للدنيا والآخرة أو خطوبهما سيقنا تلفت وتزدحم . وقال بعض المفسرين : المراد بالسائقين في الآية ساقا الحضرة ، وأنه عند نزول الروح بضمهما ويلو أحدهما على الأخرى ، وهذا هو التفافهما ، أو المعنى اتبعا يلتفت في الكفن مشدودتين فلا تفرقان .

ويخطر لي أن التفاف السوق في الآية كناية عن نزاح أهل المحضر وإكبابهم عليه ، والتفاف سوقهم بمضما ببعض حواله ، كما قال أبو العلاء المعري :

تجمع أهله زمرا عليه

وصاحت عرسه . أودى ، فصاحوا

تكلننا بأفواه النسايا

من الأيام السنة فصاح

فإذا نزل بك الموت أيها الإنسان ، وانزعك من بين الأهل والصحب والخلان - فهل تدري إلى أين تقاد وتساق ؟ ( إلى ربك يومئذ المساق ) ، أي مسورك وجرك من تلايك بكون بعد موتك إلى ربك - فهو الحكم العدل ، وله وحده في أمرك القول الفصل ، فكيف لا تردع من حب الحاجة ، ونسيان الآخرة ، وأنت تعلم أن الأمور إلى الله صائرة ؟

قوله : ( فلا صدق ولا صلى الخ ) احتجاج على الإنسان العاجد ، وتفصيل لما أجمله أولا : من أمر عناده وتكذيبه ما كان يقول : ( إيان يوم الدين ) ؟ مهما لنفسه سبيل الاسترسال في الفجور - فالوحي بعد أن ذكره بأحوال يوم القيامة ، ووصف من حاله يوم يلقى حسامه - قال : ( فلا صدق ولا صلى ) أي فهو لا ( صدق ) بالله ولا بوجه ولا نبه ( ولا صلى ) إلى الله ، ولا دماه ، ولا استفرد من فرط فجوره وجوده ، وإنما كان يصلى إلى الطواغيت والأصنام . والأولى حمل الصلاة على هذا المعنى لا على معنى الصلاة المعروفة ذات الركوع والسجود لما قلناه عند قوله تعالى : ( قالوا لم نك من المصلين ) ، والمراد بالإنسان الذي لا صدق ولا صلى أبو جهل ، فإن ما وصفه من حاله وشكله هنا هو الذي كان السبب في نزول الآية . على أن هذا الوصف والتقريع يصلحان لكل آتسان منع منيحه ، ولارتكاب من الإثم منكروه وشنيعه .

و ( لا ) الداخلة على صدق وصلى نافية مثل ( ما ) غير أن ( ما ) تدخل على الفعل من دون تكرير ، يقال : « ما صدق زيد » كما يقال « ما صدق وما صلى » أما ( لا ) فلا بد من تكرير الفعل معها ، فيقال : « لا صدق ولا صلى » ولا قام ولا قيد « ولا يقال « لا صدق » أو « لا قام » من دون تكرار ، وكلما تكررت الأفعال مع ( لا ) وأجبت في الاستعمال ، وحسن وقمها في النفوس كقول الفرجي :

تسألنا عن بعلمها أي فتى ؟  
خب جيبنا وإذا جاع بكى  
لا حطب القوم ولا القوم سقى  
ولا ركب القوم أن ضلت بني  
وياكل النمر ولا يلقى السوى  
كانه غرارة ملى حشا ( ١ )

وقوله : ( ولكن كذب وتولى ) أي إن ذلك الإنسان منكرب البعث ما آمن بدين الله ولا عبده ، ولكن كذب به ، وأعرض عن عبادته ، والقيام بواجب طاعته .

وكان أبو جهل ونظراؤه من صناديد قريش المكذبين في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم يشنون مجلسه ، ويستمعون القرآن منه ، ثم يأخذون في التكذيب والشافة والاستهزاء ، ويرجع الواحد منهم بعد انقضاء المجلس إلى أهله ومشرته متكبرا متبخترا ، مباهيا بما كان منه في مجلس النبوة من الجحود والآباء والمكابرة والاستهزاء ، والسبب والبذاء ، والأسراع والإبداء ، ليكون له بذلك الفضل عليهم ، والمنزلة الرفيعة فيهم ، وليصرفهم عن الآيات ، وتدبر آيات القرآن ، وليوقع في نفوسهم أن أمر محمد صلى الله عليه وسلم لم يكن بالأمر الكريم ، ولا بالذي يستحق العناية والتعظيم .

هكذا كان شأن الواحد من هؤلاء المكذبين في معاندة الحق ، وأطفاء نور الوحي .

وكان صلى الله عليه وسلم هو والصحابية يتأذون بهم ، ويتعوذون إلى الله من شرهم وتخذيبيهم عن الإسلام ، وصلهم الناس من السخول فيه . فكان الوحي السماوي يكفيهم مؤونة أولئك المكذبين المستهزئين بوصف أطوارهم ، والكشف عن هوارهم ، وأطفاء ما أوقدوه للفتنة من نارهم : بمثل ما قاله في هذه الآيات : من أنك ترى الواحد منهم شديد العناد : ( فلا صدق ) بالله ( ولا صلى ) إليه ( ولكن ) إذا حضر مجلس النبي وثلاثة آيات الوحي ( كذب ) ذلك كله ( وتولى ) معرضا عنه زاهدا فيه ، ( ثم ) بعد أن يجادل ويقاوم الحق جهده فرا : قد ( ذهب ) راجسا ( إلى الله ) ومشرته ( يتمطى ) في مشيته ويتبختر ( إلى ) عاد إليهم بكتوز كسرى ويقيم ، وهو لم يفعل سوى قول الزور والأمر المنكر .

وأصل ( يتمطى ) يتمط بثلاث طاءات من المط وهو المد ، والمتكبر إذا مشى متبخترا يحط أطرافه ، ويتكفا ويرجح بلرأيميه ، وهذه المشية تسمى الميطاءة ، وهي مشية بنى مخزوم في الجاهلية وأبو جهل منهم ، وقد ورد النبي منها في الحديث : وإنما قلت الطاء الثالثة في يتمط ألفا فقليل ( يتمطى ) للتخفيف ، ولهذه الكلمة نظائر في اللغة في الفعل الثلاثي المضاف

( ١ ) معنى ( لا حطب القوم ) أنه كسول : لا يجوع لقومه الحطب لايفد والخيط والفرارة : البوراتق ، والحناء : التبن ) .

سُدَى ١٦) أَلَيْكَ نُظْفَةٌ مِّنْ مَّوِيٍّ يُمْنَى ١٧) ثُمَّ كَانَ  
عِلْقَةً خُطْقًا فَسُوًى ١٨) جَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ  
الذَّكَرَ وَالْأُنثَى ١٩) أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقُنْدَلٍ عَلَىٰ أَن  
يُمْنَى الْمَوْتَى ٢٠)

إذا جرى به من التفعل ، فتتوالى الأمثال ، فتقلب  
الآخرة ألفا : فإذا جرى بطن من ياب تكلم قيل : تظنن  
وتظنى ، وتقضى : تقضى البازى وتقضى إذا هوى  
لبقع ، وبسط : تبسط وتطى ، وهكذا .

وقيل إن ( تظنى ) من ( الطأ ) وهو الظهر ، لأن  
الذى يمشى الطيطاء متبخترا يلوى مطاء ، ويوسع  
خطاه .

وبعد أن وصف الوحي من أمر ذلك التكبير المتبختر  
ماقبل وسمج - ماد إليه قتال مخاطبا له : (أولى لك  
فاولى) . وهذه العبارة ذهبت في لغة السرب مذهب  
المثل في التخويف والتحذير والتهديد والوعيد .  
و (أولى) أفعل تفضيل من وليه الشيء : قاربه ودنا  
منه ، فمعنى (أولى لك فاولى) قد وليك الشر  
وأوشك أن يصيبك ، فاحذر واتنبه لأمره . وقيل إن  
(أولى) بمعنى أحق وأجدر ، أى أن العقاب أو الهلاك  
يا هذا أجدر بك ، وقيل أنه بمعنى (ويل لك) ، وفى  
أعادتها وتكريرها فى الآية زيادة تأكيد فى التهديد  
والوعيد ، ولا سيما اقتران الثانية بشم مد قال :  
(ثم أولى لك فاولى) ، أى بعد كل ما تتجدد به وتقلبه  
فى أظهار عدم الإكترار بأمر الله والخوف من عقوبته -  
فأنى أكرر عليك التحذير والتخويف ، فاحذر واتنبه  
لنفسك ، قبل نزول العقوبة بك . والجملة فى أصل  
وضعها تفيد معنى التهديد والوعيد ، وقد فهم ذلك  
منها أبو جهل نفسه مد أخذ صلى الله عليه وسلم يوما  
بتلايبه وقال له : «أولى لك فاولى» ثم أولى لك  
فاولى» ، فقال أبو جهل : «أومعنى بأحمد؟ والله  
ماستطيع أنت ولا ربك فى شيئا» ، والله لانا أهن من  
مشى بين جيلها (أ) ، ثم لم يلبث أن قتل بغير شر  
قتلة ، وتكرير (أولى لك) معهود فى كل مهم ، ومنه  
قوله :

أردت لنفسى بعض الأسود  
فاولى لنفسى أولى لها

(١١) قوله (بين جيلها) أى بين جيلى مكة ، وهذا كما يقال من  
الدنية (بين حربها) .

لا شيء فى القرآن أصعب - وكله معجب - من  
إساليه فى خطاب الكلبين ، ومداهيه فى إيراد كلمات  
التصيح والوعظ على أسماعهم - فهو يمزج لهم مرارة  
التهديد والوعيد بخلابة التفسير والترغيب ، وإذا ذكر  
ما يفيد اليأس منهم ، عاد فذكر ما يشير إلى الرجاء  
فيهم ، ولا يذكر آية نار أو عذاب إلا ذكر بعدها آية  
جنة أو نعم ، وإذا صدمهم بكلمات الزجر والتعنيف  
شغفها بكلمات التزيق والتلطيف . وانظر هنا كيف  
زجر الإنسان للكلب أولا بقوله : (أولى لك) ، أى الوليل  
لك ، أو العقاب على مقربة منك ، فاحذر أبها التكبر  
المتصجر وانتبه ، ثم عاد فقال له : (أيصحب الإنسان  
أن يترك سدى ، ألم يك نطفة من منى يمنى ، ثم كان  
علقة فخطق فسوى ، فجعل منه الزوجين الذكر  
والأنثى : أليس ذلك بقناد على أن يحيى الموتى ؟) .

إن إيراد هذه الآيات الينة بعد تلك الشديدة  
الخشنة ليجتلب القلوب للقللة ، ويقفك منها مراها  
ويستتزل العمم (أ) العاقلة من قننها وشاربغ ذراها .

ومعنى (أن يترك سدى) أن يترك عملا : لا يؤمر  
ولا ينهى ، ولا يكلف عملا ، ولا يخاطب بشرا يصح  
بها أمره ، ويرتقى إلى سلمها اجتماعه ، حتى يبلغ  
درجة الكمال التى قلرها الله له ؟ كلا ، لا يصحب  
الإنسان ذلك ، ولا يهتم اللات الإلهية بأن تنعم من  
حنانتها ، وتسام من عطفها ورحمتها ، بحيث يبقى  
كاليهاثم المرسل : قصارها حفظ نوماها بالتوليد وتناول  
الفداء ، ثم يكون مصيرها إلى الزوال والفناء . لا جرم  
أن نوع الإنسان أكرم على الله من هذه المجاموات ، فهو  
يرمده من وحيه وتشرعيه بما يسمو به إلى أعلى  
الدرجات ، فى هذه الحياة وبعد الممات .

إذا تمثل المرء فى ذاكرته شخصه الكريم - عليه  
الصلاة والتسليم - واقفا على نشز فى بركة الحجاز  
القاحلة ، مشرفا على تلك القبائل الخاملة الجاهلة .  
التي لم ترقه من أسرار الوجود ونظام الاجتماع  
ونواميس العمران سوى ما لا بد منه فى حفظ حياتها ، من  
بل كانت حياتها أيضا عرضة للفناء والاضمحلال : من  
تواتر الحروب واستحار القتال ، وهو صلى الله عليه  
وسلم يتلو عليهم هذه الكلمة الحكيمة من وحي ربهم ،  
ويتنزل نفوسهم الجاسدة بهذه العظة الاجتماعية من  
عظمت خالقهم : (أيصحب الإنسان أن يترك سدى) ؟  
من دون شرع يوفى له أسباب الرغد والهناء ، ونظام  
يكفل له مسعدة الاجتماع وذوام الارتقاء ؟ . . من أمام  
إلى نفسه هذه الذكرى مقرونة بجميع ملابسها من

(١١) (العمم) جمع لعسم الرمل فى يده يهاش ، و (العاقلة)  
التي انفصلت قرن الجبال ممثلا لها لمتنع إليه على سائنها ،  
وبشريتها مثلا لكل ما كان متنعيا يسر الوصول إليه .



## بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْئًا  
مَّذْكُورًا ﴿١﴾ إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ

قوله : ( هل أتى الخ ) وان كان في صورة الاستفهام فان المراد به التقرير والتحقيق فتكون ( هل ) قامت في الآية مقام ( قد ) نفسها . وذلك كقولك لآخر : « هل أكرمك ؟ » والمخاطب يعرف أنك أكرمه . وإنما تريد تحقيق الأكرام وتأكيده أمره . كأنك تقول : « قد أكرمك » . وكذلك الشأن في الآية ، فان كل واحد من بني الإنسان مر عليه وقت لم يكن فيه شيئا مذكورا بل كان شيئا منسيا لا يقطن له أحد ، وذلك ما كان جرموه في صلب أبيه ، أو جواهر فردة منبثة في عناصر هذا الكون . أو المراد بالإنسان نوع الإنسان بجملته ، فإنه أيضا مر عليه حين من الدهر — الله وحده يعلم مقدار به كانت هذه الكرة الأرضية خالية منه ، فلم يكن شيئا مذكورا ، بل كان شيئا منسيا مفمورا ، لا يذكره ولا يعلم به إلا الذي يريد أن يخلقه وهو الله تعالى .

بعد أن قرر أن الإنسان مر عليه وقت لم يكن فيه موجودا أخذ يشرح كيف أفاض الله عليه نعمة الوجود واختبره بالتكليف بعد أن منحه بنعمة الإدراك والصواس فقال : ( إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ ) ، أي نوع الإنسان ، أو كل فرد من أفراد ( من نطفة ) ، أي موهبة وهي القليل من الملة ، كما ذكر في ختام السورة السابقة . فتكون فاتحة هذه السورة مرتبطة بخاتمة تلك ، ومقرورة لمضمون ما ذكر فيها . وهذه النطفة ( أمشاج ) ، أي اخلاط وأجدها مشج ومشج ومشيج ، يقال مشج الشين ، ومشج بينهما إذا خلطهما ومزج أحدهما بالآخر . ووصف ( النطفة ) وهي مفرد بالأمشاج وهي جمع على عادة العرب في طائفة من كلمات لغتهم هي جموع لكنهم يصفون بها المفردات اعتبارا بأجزائها : فيقولون مثلا « لوب أخلاق » كما يقولون « قوب خلق » ويريدون في الأول أن الخلقة أي البلى صمت جميع أجزائه ولم تقتصر على بعضها . أما قولهم قوب خلق بالانفراد فليس نصا في خلقة

أطوار الزمان ، وأحوال المكان ، وأخلاق السكان — علم أن محمدا صلى الله عليه وسلم رجل لا كالرجال ، وسارع إلى حكيم لم يأت له التاريخ بمثال .

وقوله : ( نطفة ) ، أي ماء قليل . ( يعني ) : يراق ويصب . ( علقه ) : قطعة دم غليظة متجمدة . وقوله ( فخلق ) ، أي قدر الله تلك العلقه . ومعنى قدرها جعلها ذات قدر وشكل ووضوح مؤد إلى قيامها بوظيفتها ، وحسن الانتفاع بها . فالخلق هنا ليس معناه الإيجاد من العدم ، لأنه تعلق بالعلقة وهي سابقة في وجودها ، لكنها لم تكن مخلقة ومقدرة تقديرا ترتب في فيه في مراتب الحياة الكاملة . حتى كان الله تعالى هو الذي قدرها وكملها . وليس ذلك فقط بل أنه تعالى بعد أن قدرها ، سواها : أي جعل أجزائها وأعضائها متساوية متعادلة متلائمة : بعضها مناسب لبعض ، وموات له في عمله ، فلا يقع بينها تضاد ولا تدافع في أيافها وظائفها التي خلق المجموع لأجلها .

( فالخلق ) بمعنى التقدير ملاحظ فيه مجسوم الجسم ، وصلاحيته بجملته للفرض الذي خلق من أجله . و ( النسوية ) ملاحظ فيها كل عضو أو جزء بالنسبة إلى الجزء الآخر ، وتلاؤمه معه بحيث تؤدي كل الأجزاء أو الأعضاء وظائفها على وجه الكمال .

والضمير ( منه ) قالوا أنه راجع إلى الإنسان ، أي أنه تعالى بعد أن خلق العلقه فسواها إنسانا ، خلق من الإنسان الذكور والأنثى ، يعني أن الإنسان الواحد يولد له أولاد ذكور وأولاد أنثى .

ويخطر لى أنه راجع إلى الماء القليل الذي يصب صبا ، فيفيد بذلك زيادة في تصوير الحالة ، وتجسيم الغرابة أمام معنى الإنسان ، فيدرك أن الزوجين الذكر والأنثى اللذين يتكون من بينهما البشر لم يخلقا إلا من موهبة حقيرة : حرارة الشمس تطيرها بخارا ، ومسحة نمل تلاشيها فلا تبقى لها آثارا .

هذا هو أصل الإنسان والعرق الذي ينتمى إليه . فليستدبر الأمر وليصنف في الجواب على هذا السؤال : ( أليس ذلك ) الإله الخالق الحكيم الذي رقى بالإنسان من طور نقصه وحقارته ، إلى طور كماله وسعادته — ( بقادر على أن يحيى الموتى ؟ ) فيرقى بهم من طور التراب الذي صاروا إليه ، إلى طور من الوجود والخلق أكمل يصحبون عليه ؟ بلى ! فان من قدر على خلقهم من ماء مهين ، قادر بالضرورة على إعادة خلقهم من تراب وطن ، لاسيما وإعادة أهون من البلية ، وجميع التفرق أسهل من إيجاد المدموم .

يرى أنه صلى الله عليه وسلم كان إذا قرأ هذه الآية ( أليس ذلك بقادر على أن يحيى الموتى ؟ ) أتبعها بقوله ( بلى سبحانه ! )

بَعْلَهُنَّ سَمِيعًا بَصِيرًا ﴿٤﴾ إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا  
وَلِمَّا كَفُورًا ﴿٥﴾ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَلَاسِلًا وَأَغْلَاقًا  
وَسَعِيرًا ﴿٦﴾ إِنَّ الْأَبْرَارَ يَتَرَبَّوْنَ مِنْ كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا  
كَكافُورًا ﴿٧﴾ عَيْنًا يَتْرَبُّ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا  
تَفْجِيرًا ﴿٨﴾ يُوفُونَ بِالْأَنْذَرِ وَيَخَفُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ  
مُسْتَعِيرًا ﴿٩﴾ وَيُطْعَمُونَ أَلْطَعَامَ عَلَى حَيْثُ هُمْ مَسْكِينًا

جميع الأجزاء ، بل يحتمل أن يكون بعض أجزاء خلقه وبعضها غير خلق . وهكذا نطفة أمشاج فانه يدل على أن كل جزء منها مشيخ مزيج من طبائع مختلفة ، وعناصر متعددة .

وأمشاج البدن عناصره وطبائعه التي يتركب منها فالآية تشير إلى أن العناصر والطبائع التي يتركب منها بدن الإنسان حين اشتداده وتنام نموه كانت مضبوذة في النطفة الصغرى والوهبة الحرة التي تكون منها . وإذا كان الإنسان قد ركب من طبائع أمشاج مختلفة فهو يورث تلك الطبائع بالضرورة أنسائه وأقسامه ، فتنفصل إليهم ، وتتوزع بين أفرادهم ، على تفاوت في ذلك من حيث الكيف والكم ، والقسوة والضعف ، والأحوال الأخرى . وهذا معنى قوله تعالى : ( وقد خلقكم أطوارا ) عند من قال من المفسرين أن المراد بالأطوار الفرائز المتباينة ، والطبائع المختلفة التي ركبت في فطر البشر .

ولماذا يارب خلقت الإنسان هكذا أمشاجا ذا طبائع مختلفة ، غرستها فيه منذ كان نطفة ، ثم نقلتها إلى أفراد بعدد أن شيوا وكبروا وتفرقوا على وجه البسيطة ؟ قال تعالى في جواب هذا السؤال : إنا خلقناه كذلك ( نبتليه ) ، أي مردين ابتلاؤه واختباره فيما نوجهه إليه من الشرائع والتعاليم ، وقبعا نهمده أمامه من سبل التكليف ، لنرى : أيكم أم يشكر ؟ ويستقيم في سيرة أم يفسد ويضل ولو لم يكن نوع الإنسان مخلوقا مشيجا من طبائع مختلفة ، وفرائز متباينة ، بل كان ذا عنصر بسيط ، وطبيعة واحدة لا اختلاف فيها ولا تباين - لكانت أفراده كذلك ، فيندفعون في أعمالهم ومساعيهم إلى سلوك طريقة واحدة ، والتزام شاكلة فاردة ، فلا يتم الابتلاء والاختيار الذي أراده تعالى في قوله ( نبتليه ) ، ولا يبقى معنى للتشريع والتكليف ، بل يكن عالم بشري ، ولم ينشأ عمران إنساني . وربما كان هذا هو تأويل قوله تعالى في

سورة هود : ( ولو شاء ربك لجلد الناس أمة واحدة ) ، أي ذات صفة في الطبائع والفرائز واحدة . لكنه تعالى لم يشأ ذلك لئتم قيام العالم الإنساني وبلغ طور كماله ، فجعلهم أمة مختلفة في الطبائع والفرائز والاستعدادات فعملهم يسبب ذلك يختلفون في مساعيهم وبتناسفون في أفعالهم وسائر شؤونهم ( ولا يزالون ) هكذا ( مختلفين ) اختلافا يؤدي بعضهم إلى سعادته ، وبعضهم الآخر إلى شقاوته ، ( ألا من رحم ربك ) أي لكن المؤمنين ممن رحمهم الله ، وأراد لهم السعادة - يسلكون سبيلها ، ويردون مشارعها . ( ولذلك ) أي لأجل هذا الاختلاف الذي يتوقف عليه قيام أمرهم ، ونشوء عمرانهم ، وتكامل اجتماعهم - ( خلقهم ) سبحانه وتعالى .

قلنا : إن الله تعالى خلق الإنسان من نطفة أمشاج فكان ذا طبائع أمشاج لئتم الابتلاء والاختيار . ولكن هل يتم ذلك من دون أن يكون للمبتلى المنع عقل ونطق واختيار ؟ كلا ، ولذلك قال تعالى : ( فجعلناه سميعا بصيرا ) ، أي خلقناه من نطفة ذات أمشاج لأجل امتحان أمره بالتكاليف والشرائع ( فجعلناه ) من أجل ذلك ، ومن أجل أن تقوم الحجة عليه ( سميعا ) : ذا سمع يسمع به الوحي والحكمة والشرائع ، ( بصيرا ) : ذا بصر يبصر به الآيات والعبر ، ويسمى ينشوره إلى تلقى العلم والمعرفة ، وما به يقوم أمره ، وينظم حاله ، فلم يبق له - بعد أن منحناه السمع والبصر - من حجة يحتج بها ، أو علم يتعلم به .

ويحتمل أن يكون المراد بقوله : ( فجعلناه سميعا بصيرا ) : أننا جعلناه ذا عقل وإدراك يميز به الخير من الشر ، والحق من الباطل ، ويتمكن من اختيار ما به صلاحه وسعادته . وإنما كان قوله : ( سميعا بصيرا ) دالا على ذلك ، لأن استجماع عقل الإنسان ، واستجماع قواه ومداركه - أنما يكون من طريق هاتين الحاستين : السمع والبصر . ولو ولد البشر صما صميا منذ أول نشأتهم على وجه البسيطة - ما كان لهم من العقل والإدراك مثل ما لهم اليوم ، أو ما كانوا يشرا ، بل مخلوقا آخر له سنن لحياته ونواميس لمعيشته ... الله اعلم بها .

أهذا يارب كل ما منحه الإنسان وسلحته به أرادة الابتلاء والاختيار الذي كتبه عليه منذ خلقته ؟ أم هناك شيء آخر وراء ذلك ؟ فإن قتل الإنسان مهما حصص ، ومعدوا مهما استحكمت - تبقى ممرضة للني والزرع مرة ، والحرية والاضطراب مرة أخرى ؟ قال تعالى : ( إنا ) فوق ما منحنا الإنسان من نعمة العقل والإدراك ( هديناه ) : دللناه وأرشدناه وأرشدناه ( السبيل ) . والمراد بالسبيل جنس السبيل كأنه يقول : أشرعنا أمام عينيه السبيل المختلفة مذ أوجينا إليه شراعتنا بواسطة الرسل . وقد تضمنت هذه الشرائع أمهات الفضائل والأعمال الصالحة ، وأمراتها بممارستها ، وأبواب طريقها . كما إتنا له في هذه الشرائع النوب والآثام التي لا ترضاها له ، ونهينا عن

ايتياتها ، وسلوك طريقها : انزلنا له ذلك ، ودلناه عليه . ثم انه بعد هذا ، وبعد ان منحناه العقل - ( اما ) ان يكون ( شاكرا ) لنممتنا ، فيسلك سبيل الخير والطفلة ، فيستحق رضانا ، وتدخله دار كرامتنا ، ( واما ) ان يكون ( كفورا ) لانمنا ، فيخالف امرنا ، ويكذب وحينئذ يختار لنفسه سبيل الشر والفجور - فيستحق سخطنا ، وتدخله دار عقابنا . قاله تعالى دل الانسان على سبيلي الشكر والكفر ، وعليه هو ان يختار سلوك هذا او ذاك . وهذه الآية من جملة الآيات الكثيرة الدالة على ان الانسان ارادة واختيارا هما مناط التكليف .

قوله : ( انا اعتدنا النخ ) شروع فيما اعده الله يوم القيامة لكل من فريقى الشاكرين الطامعين ، والمعاندين الجاحدين . ومعنى ( اعتدنا ) اعددتنا وهيئنا . و ( السلاسل القيود ) وقالوا انها تكون في الأرجل . اما ( الاغلال ) فالأطراف من حديد او قد ، وتكون في الأيدي . و ( السمير ) النار الموقدة .

( والابرار ) جمع بر يفتح الأبراء ، والبر والبر مسن جمع في نفسه بين الصدق والتقوى والأخلاص الى الله والأحسان الى خلقه . و ( الكأس ) كما تطلق على الزجاجة يشربها تطلق على الشراب نفسه . وضمر ( مزاجها ) يرجع الى الكأس بالمعنى الشائى . وكل شيئين اختلطا كان احدهما مزاجا لصاحبه ، فمزاج ذلك الشراب الذى يشرب منه الأبرار كافور . و ( الكافور ) طيب معروف يستحضر من اشجار ببلاد الهند والصين ، وهو من انفس الطيوب عند العرب والمراد ان من شرب تلك الكأس وجدها - في طيب رائحتها وفوحان شملها - كالكافور .

ولما ذكر ان الأبرار يشربون شرابا هذه صفته - هاد لمعناه بقوله : ( هيتا يشرب بها عباد الله ) . فعينا منصوب على الاختصاص بالمدح ، وفي ذكرها زيادة بيان للشراب الذى يشربه أولئك الأبرار ، من حيث انه مستمد ومستقى من تلك العين . وفعل ( يشرب ) يتعدى الى مفعوله بنفسه تارة فيقال يشربها ، وبالباء تارة كما في الآية فيقال يشرب بها ، ومنه قول منتره في ناقته :

شربت بماء الدحر شين فاصبحت  
زوراء تنشر من حياض الدليم

والدحر ضان ماعان يقال لأحدهما « دحرش » . والآخر « وسيع » فقلب دحرشا لشهرته على الآخر . يقول : ان ناقته شربت من ماء هذين اللوردين ومن ثم أصبحت مائلة ناقرة من الحياض الأخرى المسماة « حياض الدليم » . وقد اختلفوا فيها وفي سبب تسميتها بحياض الدليم اختلفا كبيرا .

وقال الصريون : الباء في الآية وفي قول منتره وأمثالهما زائدة كبرادها في قوله تعالى : ( ألم يعلم بأن الله يرى ) ، وفي قول الشاعر :

من الحرث لا أرباب أخمرة  
سود الحاجر لا يقران بالسود

وفي قولهم : « تكلم فلان بكلام حسن » ، فيجوز حذف الباء في الكل .

و ( عباد الله ) هم الأبرار المذكورون ، أعاد اسمهم بهذا الوصف تكريما لهم ، وتشريفا بأصافتهم اليه . و ( فجر ) الماء بالشدديد بمبالغة في فجر التلاني اذا بجسه وشق له طريقا يجرى فيه بشدة بعد ان كان محبوسا . وقوله : ( ويجزونها ) وصف للمعين التى يشرب ماءها الأبرار . يقول : ان تلك العين مواتية لهم في الانشاق والجريان ، فهم ينتفعون بها ، ويتناولون ماءها كيفما شاءوا وأحبوا . وسببنا لنا في هذه السورة بيان التميم الذى يكون للأبرار في الجنة ، والعلاب الذى يكون للفجار في جهنم .

كان قتالا يقول : وبماذا استحق الأبرار منك هذا الاكرام يلرب ؟ فاجاب بقوله : ( يوفون بالتسليم ويخافون النخ ) ، فذكر من خلاصتهم التى استحقوا بها ذلك ثلاث خصال : خوفهم يوم القيامة ، فان الخوف الحق منه يجعل المرء ينشط للطاعة ، وعمل الصالحات ، وممارسة الفضائل ، واجتناب المعاصي . وان لم يفعل لم يكن خائفا ، ولم يكن من الأبرار وان اتسم بسمتهم ، وأدعى انه مستقيم على مثل طريقهم .

( ومستطرا ) : منتشرا فاشيا في كل جهة . وأكثر ما يستعمل في ما فيه نار أو نور . يقال : استسطر الحريق ، واستطار الفجر والبرق .

والشر والشيب يستعار لهما اشتعال النار كثيرا ، فناسب أن يقال فيهما استسطر . ويقال أيضا استطار الفيل اذا سطع واتشر .

وذكر من خلايق أولئك الأبرار أيضا العناية بضعفاه البشر ومواساتهم ، والاجتهاد في اتصال كل خير اليهم ، ودفع كل شر عنهم فقال تعالى : ( ويعطون الطعام النخ ) ، وقد قلنا ان هذا الخلق من اخص أخلاق الأبرار ، ومن ثم قال الحسن العسرى : « البر من لا يؤذى اللر » . وإنا ذكر من ضرور الواساة الطعام الطعام كونه الأصل في قيام البنية ، وحصول الحياة ، ولا فان البلى لا يقتصر من عمل الخير ومونة الضعفاء على الاطعام فقط . وسببنا . وقد هم في عنوان هؤلاء الضعفاء أولا فقال ( مسكينين ) ، والمسكين مشتق من السكون ، وهو الذى جملة فقره أو ضعفه أو ذله أو انقطاع اسباب النجاة منه - ساكنا قليل الحركة بحيث لا يظفر اليه ليعطى ، ولا يعنى به قيواسى . ثم خص من هؤلاء المساكين نوعين هما أشد عرضة لضعفهم والتلف من سائرهم : ( اليتيم ) ، وهو الصغير الذى فقد والده ولم يبلغ مبلغ الرجال ، أو المراد به هنا من فقد كافله من أب وأم وغرضهما فاصبح وحيدا بمعزل عن الناس ، فان اليتيم في اللغة المنفرد من كل شيء حتى سمو البيت المنفرد والبلد المنفرد والريلة المنفردة يتيم لذلك . فهذا المنفرد من الكافى في مدرجة الهلاك والضياع ، وإن العناية به بالترىبة والتعليم والاطعام واللباس من سمات الأبرار ، والتفريط في حقه وإهمال أمره من صفات الفجار .

وَيَتَبَاوَأُورَاسِيْرًا ﴿٨﴾ إِنَّا نَطْعِمُكُمْ لَوَجْهِ آلِهَةٍ لَا يُرِيدُ  
مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكْرًا ﴿٩﴾ إِنَّا نَخَافُ مِنْ رَبِّنَا  
يَوْمًا غَاسِقًا قَطِرًا ﴿١٠﴾ فَوَقَّعَهُمُ اللَّهُ شَرَّ ذَلِكَ الْيَوْمِ  
وَلَقَّعَهُمْ نَقْرَةً وَسُورًا ﴿١١﴾ وَجَزَّوْنَهُمْ بِمَا صَبَرُوا  
جَنَّةَ وَحَرِيرٍ ﴿١٢﴾ مُتَكِبِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ لَا يَرَوْنَ  
فِيهَا حَسًّا وَلَا ذَهَبًا ﴿١٣﴾ وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلُّهَا

ومن الضعفاء الذين خصهم القرآن بالذكر من بين  
المسلمين ، وحضي على مواساتهم وإطعامهم والعناية  
بهم ( الأسير ) ، ويعني به من كان من غير أبناء ملتنا  
أذا وقع في أيدينا بعد حرب وقتال ، أما مواساة  
الأسير إذا كان من أبناء ملتنا في الطريق الأولى ، هؤلاء  
الأسارى - لمخالفتهم لنا في الدين والقومية واللغة  
أحياناً ، ولا تقاطعهم في بلادنا من الناصر والمعين ، ولما  
تاصل بيننا وبينهم من الاتحاد والعداوات - يصيرون  
عرضة للإيذاء والتحقير والتمتد ، فالقرآن هتف  
بالمؤمنين مثيلاً لهم ، وحذراً من إغلتهم وإرهاقهم  
وإسائة معاملتهم مذ قال ( وأسرى ) ، أى ومن صفات  
الأبرار أنهم يطعمون الأسير غير المسلم ، ويرفقون به ،  
ولا يمدون أحداً بخلص بشر أو أذى إليه ، ولا يحملونه  
فوق طاقتهم من الأعمال .

نقول : ومن أين فهمت الله من الأولى والله تعالى  
أما أمرنا بإطعامه ؟ أقول أن هذا على حد قوله تعالى :  
( ولا تفل لهما أف ) . لهما من كلمة أف للوالدين ،  
فكان لهما من سائر شروب الإغصاب ، وهنا لهما من  
إحاجة الأسير فكان أمراً بالوإساة العامة ونهياً عن سائر  
شروب الإيذاء ، لأن الأولى النفس أشد تكابة وإيلاماً  
من الأولى الجسمي ، وليس ذكر الطعام إلا مثلاً . قال  
المفسر التيسابوري : « ثم إن الأطعام ليس بواجب على  
التصيين ، ولكن الواجب مواساته بأى وجه كان ، وأما  
غير من الواساة بالطعام لأن سبب نزول الآية كان  
كذلك ، ولأن المقصود الأعظم من أنواع الإحسان هو  
الطعام الذى به قوام البدن » يقال : « أكل فلان مال  
فلان إذا أظفه بأى وجهه كان ، وإن لم يكن بالأكل  
نفسه » اهـ .

أما إن المراد بالأسير الأسير غير المسلم فهذا ظاهر من  
إن المخاطبين لحين نزول هذه الآية لم يكن يتبع في أيديهم  
إلا الأسارى من مشركى العرب . وقد نقل عن عكرمة  
وقتادة أنهما قالاً في تفسير هذه الآية : « لقد أمر الله  
بالأسارى أن يحسن إليهم وإن أسارى الصحابة يومئذ  
لأهل شرك » ، وقال الحسن البصرى : « كان رسول الله  
صلى الله عليه وسلم يؤتى بالأسير فيقدمه إلى بعض

المسلمين فيقول : « أحسن إليه » ، فيكون عنده  
اليومين والثلاثة ، فيؤثره على نفسه . وكفى بهذا  
منقبة للقرآن ، وشهادة على سمو آداب الإسلام .  
وقوله : ( على حبه ) ، أى على حب الطعام . والمعنى  
أن أولئك الأبرار مع حاجتهم إلى ذلك الطعام في سدد  
جويعهم وجوعه ميالهم يطعمون نفساً عنه لبؤساء ،  
ويؤثرونهم به على أنفسهم .

أما الخصلة الثالثة التى استحق بها الأبرار رضا  
الله وكرايمته فهى الوفاء بالثغر . وأنت ترى أنه خص  
هذه الخصلة بالتقديم على الخصلتين الأخريين ، وليس  
ذلك لأن المراد بها أن ينشر المؤمن لله صيام يومين ، أو  
صلاة ركعتين ، أو إطعام وحيقين ، ثم يفعل ما نلده -  
ليس المراد ذلك وإن كان الوفاء بما ذكرنا مطلوباً شرعاً ،  
وأما المراد بالوفاء بالثغر الذى جعله الله من صفات  
الأبرار فى قوله تعالى : ( يوفون بالثغر ) - قوة الإرادة ،  
فلا يأخذ على نفسه عمل خير ، أو معارسة فضيلة ،  
أو قياماً بأمر نافع له أو قومه دنياً وأخرى - إلا إمشاء  
ووفى به . ويدخل في ذلك الوفاء بما نلده من قوة أو  
طاعة . أما أن الواحد منا يفكر في عمل صالح ينفع  
قومه ، ويعلم أنه يريد القيام به والأقدام عليه ، ثم  
يقطعه عنه ويبتغر ، ويماطل إلى أذى سئل عنه ويعتبر  
فلهذا هو ضعف الإرادة الذى عابه القرآن في غير ما  
موضع من آياته ، ولم يجعله من خصال الأبرار الذين  
يستحقون دخول جناته .

قال ابن جرير في تفسيره : « والثغر هو كل  
ما أوجبه الإنسان على نفسه من فعل ، ومنه قول  
عنترة :

الشامى عرضى ولم أشتحمها  
والناذرين إذا لم ألقها دمي » اهـ

ولا يخفى أن سفاك دم عنترة الذى لئله إنا لمعظم  
ليس من القربات في شوه . فهذا هو الثغر في لغة  
العرب ، وهذا هو طريق استعماله حين نزول القرآن .  
ثم لما شاع استعماله في نذر القربات والصدقات لم  
يعد يفهم منه إلا نذر هذه الأشياء : ككثير من كلمات  
اللفظ الواردة في القرآن والسنة ، اختلفت معانيها  
باختلاف الزمان (١) . وعلى المفسر المتقن أن ينتبه إلى  
ذلك الاختلاف . وليفطن إلى أن الوفاء بالثغر الذى  
مدحه القرآن في هذه الآية عبارة عن قوة الإرادة التى  
من آثارها إبراز كل عمل صالح نافع إلى ساحة الوجود  
بعد أن جرى التصميم عليه في ساحة الفكر ، وإن لم  
يبرزه المفكر لم يكن موفياً بالثغر ، ولم يكن من الأبرار

(١) من ذلك كلمة الولي التى جاءت في القرآن بمعنى الناصر  
كما في قوله تعالى : ( لا إله إلا هو لا خوف عليهم ولا هم  
يخزون ) ، ثم أصبح لها في العرب معنى آخر وهو ذو الكرامات من  
الشيخ - وكلمة ( الصالح ) التى جاءت في القرآن بمعنى القائد  
على العمل كقوله تعالى : ( ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر  
أن الأرض يرثها عبادى الصالحون ) أى القادرون على معادتها ، ثم  
أصبح لها معنى آخر وهو المسلم الذى يصوم ويصلى ولا  
يرتكب كبيرة »



الذين تصدق عليهم هذه الآية ، بل تصدق عليه آية ( يا أيها الذين آمنوا لم تتولوا ما لا تعملون ؟ كبر مقتا عند الله أن تقولوا ما لا تعملون ) .

وقوله : ( **اتمسكوا بنظمكم** ) الخ ليس من قول أولئك الأبرار المطمئنين بالسنتهم ، بل ليس من المادح أن يخاطبوا به هؤلاء المساكين الخلقين حول مواعدهم ، وإنما هو مما قاله الوحي منهم مشيراً إلى أن حالهم ناطقة بذلك . وقال مجاهد وسعيد بن جبير : « أما والله ما قالوا ذلك بالسنتهم ، ولكن علمه الله من قلوبهم ، فأتى به عليهم ، ليرغب في ذلك راغب » .

و ( **شكروا** ) مصدر شكر كالشكر والشكران ، والمعنى أنهم يواسون الفقراء والمساكين إرادة اكتساب رضاهم بخدمته الخلق الذين هم حياله والإحسان إليهم ، لا لتحقيق غرض دنيوي أو مصلحة أو مكافأة تعود عليهم ، ولا لم يكن المواسي محسناً إلى المساكين ، بل محسناً إلى نفسه ، ولم يكن خادماً لعيال الله ، بل خادماً لصلحته ، ولا مقرضاً ربه قرضاً حسناً ، بل تاجرًا ينفى الربح من وراء سلته .

رووا من عائشة أم المؤمنين رضى الله عنها أنها كانت تبث بالصدقة إلى أهل بيت من الفقراء ، ثم تسأل الذي أرسلته بالصدقة : ما قالوا لك ؟ فإن ذكر أنهم دعوا ، أخذت هي بالنداء لهم ، ليبقى عملها الصالح خلاصاً لوجه الله ، لا وأما في مقابل عوض من دعائهم .

قوله : ( **اتقوا** ) الخ هذا أيضاً مما يقوله الأبرار بلسان حالهم في السبب الذي يبتهم على أطعام المساكين ، ومواساة المستضعفين : ذكروا أولاً أنهم إنما أطعموهم لوجه الله ، ورفقة في رضاء لا طمعاً في جزاء مجازي ، أو نداء مثني ، وقالوا هنا أنهم إنما أطعموهم لكونهم يخافون من أيام ربهم ( **يوها عبوساً قمطريراً** ) وهو يوم القيامة الذي ذكر من قبل أنهم يخافونه ، ووصفه باستطارة شره ، وفضاعة أمره ، وهذا هو الخوف الحق الذي ينفع صاحبه ، فيجعله على الرفق بالفقراء ، ومواساة الضعفاء .

وأراد من وصف اليوم ( بالعبوس ) شدته وعظم هوله على الخلاق ، أو أراد أن الخلاق أنفسهم يكونون من شدة الغم والقلق الذي يشاهي في ذلك اليوم ذوي عبوس شديد ، فنسب العبوس إلى اليوم لا إليهم توسماً ، نحو قولهم : « نهار صائم » ، وإنما الصائم الشخص لا اليوم ، ونحو :

وأخو الهوم - إذا الهوم تحضر

جنح الظلام - وساده لا يرقد  
جميل الوساد لا يرقد ، وإنما الذي لا يرقد صاحبه .  
وقوله : ( **قمطريراً** ) أي شديداً مظلماً مصيباً ، ويقولون « شر قمطرير » أي شديد ، ورجل قمطرير ، شديد العبوس ، قد قبض ما بين يديه من فرط الغم .

هؤلاء المحسنون الأبرار ، الذين خفوا آلام المرحقين المتيمين ، وعطفوا على ذوي اليأس والعجز في الدنيا

خوفاً من أهوال يوم القيامة - نالوا الثواب على حسن صنيعهم ، ( **فوقاهم الله** ) الذي فعلوا لأجله ما فعلوا من العمل الصالح ( **شر ذلك اليوم** ) أي أذى ذلك اليوم المعبوس الذي خافوه ، ودفع عنهم ما كانوا يحزنون من شدته وهوله ومكرهه ، ( **وقاهم** ) أي أتى عليهم مكان الشدة والرهق والعبوس الذي يفتش الفجار ( **نصرة** ) حسناً وبشاشة ويرى في وجوههم ( **وسروراً** ) أي فرحاً وغبطة وجوراً في نفوسهم ، ( **وجزاهم** ) أنابهم وكافاهم ( **بما صبروا** ) في مقابل صبرهم على مرارة الطاعة والعمل الصالح والإيتار بالمال ( **جنة** ) دخول جنة ذات شان من الجنات التي أعدها لأهل طلعته ، ( **وجزوا** ) أي وأنابهم أيضاً جزوا .

وفي الآية إيجاز ، أخذ بأطراف الإيجاز . ذلك أنه إشار بقوله ( **جنة** ) إلى ما يتبع به أولئك الأبرار في دار الكرامة من صنوف الثمار النسيئة ، والطعام الهنيء ، فإن الجنة لا تسمى جنة إلا وفيها ذلك . كما أشرف بقوله ( **جزوا** ) إلى ما يتمتعون به من ضروب اللبوس والزينة التي من أنفسهم وأقلامه عند العرب الخير . فهو تعالى قد جمع لهم في الثواب والمكافأة بين الشعورين : الشعور بلذة الطعام ، والشعور بلذة اللباس ، وكل هذا تنازل من العناية الإلهية في تصوير المرات الأخروية لتيسر مشعر البشر ، وتقريبها من متناول ذهابنا . وسنأتي زيادة إيضاح لذلك .

ومن مظاهر الخفض واللذة والتعجب التي يتقلب فيها أولئك المحسنون الأبرار ما وصفهم الوحي به في قوله : ( **متكئين فيها** ) أي في الجنة ( **على الأرائك** ) جمع أريكة وهي السرير ترضى عليه الحطة ، والحجلة هي ما يسدل على السرير من فاخر الثياب والسود ، ويتخذ عادة للعراس ، ومن لم يفرغ الوسع في تحسينها ولزيناها ، فإذا أريد من الحطة الرقابة من العبوس سميت كلة ، ونسبها اليوم « ناموسية » .

ومعنى التكائم على الأرائك أنهم جالسون عليها متكئين . ولانكنا معنى آخر وهو أن يجلس الرء على أحد شقيه متملداً على وسادة أو نحوها ، وهذا المعنى هو المشهور المتبادر من الانكنا عند الإطلاق . ولا تناسب إرادته في الآية ، لأن الأرائك لا يتكا عليها بهذا المعنى ، وإنما يتكا على الوسائد والمارق ، اليوم إذا جعلناه من موجز الكلام ، وأن أصله هكذا « متكئين على المارق جوساً على الأرائك » ، فطفت « على المارق » دلالة « متكئين » عليها ، وحذف « جوساً » دلالة « على الأرائك » عليها . ويكون هذا الإيجاز كقولهم بعده في صفة الأبرار أيضاً أنهم ( **لا يرون فيها شمساً ولا زهبراً** ) يريد أنهم لا يرون في الجنة شمساً ولا قمرًا . ولا يصحون حراً ولا زهبراً . فقد نفى رؤيتهم الشمس التي في الخلد أنهم لا يرون القمر أيضاً ، كما أشعر أنهم لا يصحون الحر لأن القمر والحر كليهما من متولدات الشمس ، فهي التي تنير القمر فينير علينا ، وهي التي تشع حرارتها فتشعر بها أجسامنا . أو أنه كما نفى أنهم يرون الزهبرير وهو البرد أقبحهم أنهم لا يرون الحر أيضاً ، لأن الحر أخو

وانقاد بعد صغوبة ، فهو ذلول ، ومن هذا الأخير « بقرة ذلول » و « فانة ذلول » - وبلفظها الناس « ذلول » بالذال المهملة - ( وجعل لكم الأرض ذلولاً ) ، وفي خطاب النحل ( فاسلكي سبيل ربك ذلاً ) ، ومنه تدليل القطوف هنا ، ويقولون : ذلل الكرم اذا دليت عناقيده ، و ( الآية ) جمع اناء ، وهو الوعاء يوضع فيه الطعام والشراب . وقد فهم بعضهم من قوله : ( ويظاف عليهم بآنية ) ان اهل الجنة ياكلون طعامهم على الطرز الذي عليه اهل الترف اليوم : مذ يحمل الفلمسان صحاف الطعام حول المائدة ، ويننون من الاكلين واحدا واحدا ، فيتناول كل منها حاجته . وعطف قوله : ( واكواب ) على ( آنية ) يشمر انه يريد بالآنية صحاف الطعام ، لان الاكواب اواني الشراب ، وهي جمع كوب ، والكوب قدح مستدير الرأس لا عروة له ولا خرطوم ، ونحرفه اليوم فنقول « كباية » .

ذكر اولاً ان آنية الطعام من فضة ، ثم لما جاء لوصف اكواب الشراب قال : ( كانت قواريرا قواريرا ) ، و ( القوارير ) جمع قارورة ، وهي وعاء الزجاج المعروف . فهو يقول ان الاكواب زجاجات ، ثم قال ان تلك الزجاجات متخذة ( من فضة ) ، فكيف يكون ذلك والفضة غير الزجاج ، والمصدنان مختلفان فيما اختلفا ؟ ولما كان هذا الاشكال الذي خامر نفس السامع أكد كلمة القوارير مكرراً لها ، فهو يقول : ان هذه الاكواب - مع كونها متخذة من فضة - هي قوارير هي قوارير - فالسامع يتنبه بهذا التكرار الى ان الامر جد ، وان الحكم عليها بانها قوارير ليس الا لمعنى دقيق اقتضى وصفها به مع انها في ذاتها من فضة . وبعد التأمل يترك انها انما سميت قوارير لكونها رقيقة شفافة شخوف القوارير ، فهي اذن قد جمعت بين بياض الفضة وحسنها وصفاتها ، وشخوف القوارير ودرقتها ولائها .

تقول : ولماذا اقم كلمة ( كانت ) بين ( اكواب ) و ( قوارير ) ، وهي لو طرحت لصح المعنى ؟ اقول : ( كانت ) هنا هي من الكون الذي يقع بعد قوله تعالى للشيء : ( كن فيكون ) و « كن فكان » ، اي فيكون ذلك الشيء ، ويحصل بمجرد تعلق مشيئة الله به . فهو اذن من عالم الارادة الالهية لا من عالم الاسباب الدنيوية . فتكون تلك الاكواب بما جمعتها من صفات الابداع فوق كل ما يتصوره العقل من صنوف الاكواب التي تعاورها الصناعة الدنيوية .

والضمير في ( قدروها تقديرًا ) يصح ارجاعه الى السقاة الطائفتين بالاكواب ، كما يصح ان يكون راجعاً الى الشاربين المظوف عليهم بها . فاضاعى على الاول ان السقاة يقدرون الشراب الذي يقدمونه للشاربين في تلك الاكواب : بحيث لا يزيد على رغبتهم ، ولا ينقص عنها ، فيكون ذلك انها لهم وامراً . والمعنى على الثاني ان الشاربين قدروا في نفوسهم تلك الاكواب وتصوروها على اوضاع واشكال مختلفة ، فكانت اذا تداروا بها ، واوها طبق امانيهم ، وعلى مثال تقديرهم .

وَذَلَّتْ قُطُوفُهَا تَذَلُّلاً ﴿١٤﴾ وَيُظَافُ عَلَيْهِمْ بَعَانِيَةً مِنْ فَضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرًا ﴿١٥﴾ قَوَارِيرًا مِنْ فَضَّةٍ قَدَرُوهَا تَقْدِيرًا ﴿١٦﴾ وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنْجَبِيلًا ﴿١٧﴾ عَمَّا فِيهَا مُسْتَقْبِلًا ﴿١٨﴾ \* وَيُظَافُ عَلَيْهِمْ وَلَدَانِ مُخْلَدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَبِطَتْ لُؤْلُؤُا مَتْنُونًا ﴿١٩﴾ وَإِذَا رَأَيْتَ قَوْمَ رَأَيْتَ عِجْمًا وَمَلَكًا كَثِيرًا ﴿٢٠﴾ عَلَيْهِمْ فِيَابٌ مُسْتَدِيمٌ خَضَرٌ وَأَسْتَبْرَقٌ وَحُلُّو أَسَاوِرَ مِنْ فِضَّةٍ وَسَقَنَهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا ﴿٢١﴾ إِنَّ هَذَا كَانَ لَكُمْ جَزَاءً وَكَانَ سَعْيُكُمْ مَشْكُورًا ﴿٢٢﴾

البرد ، فانظر كيف استوعب بهاتين الكلمتين طائفة من المعاني . والقصد ان في الجنة نورا خاصا ليس متبعضا من شمس ولا من قمر ، وان هوائها معتدل . ليس فيها شئ من حر الشمس الموضع ، ولا من برد الزمهرير المؤذي ، وهذا هو المراد بالزمهرير في قول الاكثريين ، وقال بعضهم : ان الزمهرير هنا اسم للتمر في لغة طي ، قال شارحهم :

وليلة ظلامها قد اعتسكى قطعها والزمهرير مظهر وعطف الزمهرير في الآية على الشمس ربما اشعر بان المراد منه القمر ، فهو تعالى يقول انه لا يرون في الجنة شمسا ولا قمرًا ، وان لهم من نورها الخاص بها ما يقتضيه من ضياء هذين التبرين .

قوله ( وديانة ) الخ عطف على ( متكئين ) او على ( لا يرون ) ، وكلها اوصاف للانوار ، واحوال من الضمير الرابع اليهم في ( وجزاهم ) ، وضمير ( ظلالها ) و ( قطوفها ) الجنة ، والمراد بظلالها ظلال اشجارها ، وهو كتابة من اشتباك اقصان تلك الاشجار وتهدلها من حوالى الجالسين تحتها ، والا فان الظلال اثر من آثار ضياء الشمس ، وقد ذكر آتفا انه لا شمس في الجنة ، اللهم الا ان يكون لنور الجنة الخاص بها ظلال تتولد عنه ، و ( القطوف ) جمع قطف بكسر القاف : العنقود ساعة يقطف ، ومعنى ( ذلت قطوفها ) ان مناقيد ثمارها قد خلقها الله سهلة العطف ، قريبة من ايدى المتناولين ، لا يحول بينها وبينهم بعد ولا شوك .

يقال ذل الرجل ذلا يضم الدال اذا هان وحقر بعد حق ، فهو ذليل ، وذل البعير ذلا بكسر الدال : مسهل

مر أن مزاج الكأس التي يشرب بها الأبرار في الجنة كافور ، وأن العنبر التي يتناول منها شراب تلك الجنة بغيره أولئك الأبرار ، ويجرحونه أتى شاموا من الجنة . وقد ذكر هنا أن تلك العنبر ( تسمى سلبيل ) ، وأن مزاج الكأس التي يسقونها يكون ( زنجبيل ) ، وذكرنا أيضا أن معنى كون مزاجها كافورا فوجان رائحة الكافور منها عند شربها ، ولا يتناقض هذا أن يفرح منها أحيانا رائحة الزنجبيل : تفرح الرائحةان معا ، أو مرة هذه ومرة تلك .

وقيل المراد أنهم يجسدون طعم الزنجبيل في الشراب ، لا أنهم يشمون رائحة الزنجبيل من الشراب شاموا .

و ( الزنجبيل ) عروق نبات كالقصب تمتد في الأرض ، ويتولد فيها عقد حريفة الطعم ، معرب « شكنبيل » بالفارسية . والعرب يستلونها طعمه كما يستلونها رائحة الكافور . قال الأعشى :  
كان الزنجبيل والزعفران  
كل باتا بغيرها وأربا مشورا  
يصف طعم ثم محبوبته وحلاوته في اللهاق ، و ( الأري ) : السسل ، و ( المشور ) اسم مفعل من شار السسل إذا اجتناه من خيلته ، ومثل الزنجبيل في استلادهم طعمه في الخمر ، الفلفل ، قال حسان بن ثابت :

ولقد شربت الخمر في حاتوتها  
صبياء صافية كلم الفلفل  
وقال امرؤ القيس :

كان مكائي الجواء غسدية

صحين سلافا من رحيق مغفل  
يقول كان طيور هذا الوادي وقت الصباح شربت رحيقا تفوح منه رائحة الفلفل ، أو بلده السنان لدع الفلفل ، ولذلك اكثر الصديق والتفريد .

وسميت العنبر ( سلبيل ) لسهولة مساقها وانحدارها في الحلق . وأصل المادة ( سلس ) تدل على اللين والسهولة والانتقاد ، حتى يقولون « في كلام فلان سلاسة » يعنون رقة وانساجاما وسهولة . ويزيدون على هذه المادة لاما في آخرها فتسلل على غاية السلاسة ، فيقولون : « سلسل » و « سلسال » يزيدون بهما الماء العذب السهل الجريان في الحلق لسهولة وصفاته . ويزيدون عليها أيضا ياء فتفيد إذ ذاك الغاية الغايات في السلاسة فيقولون : « سلبيل » ويزيدون به الله الكثير السوغان في الحلق . وبذلك سميت تلك العنبر في الجنة سلبيل ، لأن مادها هذه صفته . وهو يذكر السلبيل دفع توهه الشعور بحرارة الزنجبيل ولذته في اللهاق ، فكانه يقول : أن الكأس تمزج بالزنجبيل فيشعر الشاربون بطعمه لكنهم لا يشعرون بحرارته ، فيبقى الشراب سلبيل سهل المساق في الحلق .

قوله : ( ويطوف عليهم ) ، أي ويطوف على أولئك الأبرار بالآيات والأكواب وسائر ضروب الخمرة ( ولدان ) وصفاء ( غلذون ) من الخلود ، أي لا يموتون . وقيل لا فائدة في هذا الوصف لأن أهل الجنة كذلك . وإنما هو من الخلود بمعنى إبطاء الشيب . والعرب تقول

للرجل إذا كبر وثبت سواد شعره أو ثبث أضراسه وأسنانه : أنه لخلد . . . فوصف الجنة مظلون ، يعني أنهم لا يهرمون ولا يشيبون ولا يجاوزون ما هم فيه من السعادة . ويقال لخل هذلا أيضا أنه مقبيل الشيب ، أي لم يظهر فيه أثر كبير ، بل هو كأنما يستأنف الشيب كل ساعة . ولكن يرد على هذا القول ما أورد على سابقه ، ومن ثم جله بعضهم من الخلد بمعنى السواورومعي القرط أيضا ، يقول أن أولئك الولدان مسورون أو مقروطون .

هؤلاء الولدان ( إذا رايتهم ) متبينين في جنات الجنة مجتمعين مغترفين هنا وهناك ( حسنتهم ) في حسنهم وجمالهم وصفاء أوانهم ( لؤلؤا منثورا ) ثمره نائر تحت مواقع عينيكم ، فترى حبات منه مجتمعة متلافة ، وأخرى متفرقة متباعدة ، مما يزيدنا في النفس بهاء ورواء ، ويكسبها في العيون رونقا وللا . . . هذا إذا خصصت في النظر والتحديق إلى ما في الجنة من مظاهر الأنس والسرور ( وإذا رأيت لم ) أي وإذا أحببت أن ترمي ببصرك إلى ما هناك من فخم المظاهر ومجموع المناظر . ( رأيت نعيميا ) أي نوما من النعيم لا يوصف ولا يعهد له مثال ، ( وملكا كبيرا ) أي وأسما مستوعبا لجميع ما يورث على النفس راحتها وهناها وسعادتها ومسررتها . وقد أجمل في وصف الحالة التي عليها أهل النعيم في نعيمهم ، لأنه مما لا يحيط به وصف ، ويعجز أهل الدنيا - ماداموا في دنياهم - من تصوره ، ومعرفة حقيقته .

رجع إلى ذكر طور من أطوار الأبرار في الجنة ، وهو وصف ما يفرغ على أيدائهم من ضروب الرزقة والبوس ، فقال : ( عليهم لياب ) الخ . و ( هالي ) اسم فاعل من علاه بعلوه إذا كان نونه ، فالعني معلوم : تلك الشيب ، وتشتي ظواهرهم ( ١ ) . و ( السندس ) : شرب من نسج البز ، وقيل : هو رقيق الديباج ، عربي أو معرب ، أما ( الاستبرق ) فهو غليظ الديباج ، معرب « استبر » ، والديباج : الثوب الذي سدها ولحمته حرير . وهو معرب أيضا ، و ( حلاوا ) أي البسوا حلية ، وهي ما يزدان به الشخص من صوغ المعنويات أو الصجارة الكريمة ( أساور ) جمع سوار . زينة معدنية كالطوق يلبس في المصاصم والزرود ، وتلك الأساور ( من فضة ) ، وهي للمعلن الأبيض المعروف . وفي سورة الكهف : ( يطولون فيها من أساور من ذهب ) ، وفي سورة فاطر : ( يطولون فيها من أساور من ذهب وثؤلؤا وليأسهم فيها حرير ) ، ولا تنافض ، إذ يمكن الجمع بين الصنفين في التحلي ، أو يطولون بهذا مرة وبهذا مرة ، و ( الشراب الطهور ) هو البالغ

( ١ ) لم يتعرض المؤلف لفرار « عليهم » مع حاجته إلى البيان ، وقد تركه بالرغم من أنه ميتة خبره لياب ، وقرعه بالصبغ - وهو المشهور - قيل : أنه فرق بمعنى توفهم ، وهو غير مقدم لليباب ، والجملة حال من الصبر المعروف وجعل أي حيان عليهم حال من ذلك الصبر ، ولياب مرفوعا على الغاطية له ( انظر مدح للماني ) المصحح .

إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ تَنْزِيلًا ﴿٢٣﴾ فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا يُطِيعُ مِنْهُمْ ءَائِمًا أَوْ قَفُورًا ﴿٢٤﴾ وَادْكُرْ أَتَمَّ رَبِّكَ بَكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٢٥﴾ وَمِنَ اللَّيْلِ فَاجْعَلْهُ وَسْجَةً لِّكَ لَا يَكُولِيهَا ﴿٢٦﴾ إِنَّ هَؤُلَاءِ يَجْعَلُونَ الْعَاجِلَةَ وَيَذْرَوْنَ وَرَاءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلًا ﴿٢٧﴾ نَحْنُ خَلَقْنَاهُمْ وَشَدَدْنَا أَسْرَهُمْ وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَا أَمَثَلَهُمْ تَبْدِيلًا ﴿٢٨﴾ إِنَّ هَذِهِ تَذَكُّرَةٌ

في نقاله من القلبي والشوائب المادية ، أو المراد طهارته مما يكون في الأشربة الدنيوية من الأضرار وسوء التأثير .

قوله : ( ان هذا كان لكم ) الخ - مما يقال لهم أو بقوله بعضهم لبعض في الجنة وقت تقليم في صنوف نعمها ، أو هو خطاب مستأنف من الله ليشرح الأبرار وهم في دار الدنيا بأن ما وصف من الثواب ، وعدد من مظاهر النعيم - ينتظرهم في النشأة التالية جزاء طاعتهم له ، وأن ( سميع ) الحسن في التزام أوامره تعالى ، والوقوف عند حدود شرعه (مشكور) ، ومعنى كونه تعالى يشكر عليه أن يشيب عليه خير ثواب . وهذا هو معنى الشكر والحمد والرضا والعجب والحب والضحك إذا نسبت إلى الله ، إذ تستحيل في حقه تعالى أمثال هذه الفوارض البشرية ، والانفعالات النفسية .

مر في هذه الآيات أن الله تعالى قد أمد للكافرين سلاسل وأغلالا ، كما هي الأبرار أرواك يتكئون عليها ، وعليهم ثياب السندس والاستبرق ، وفي معاصمهم أساور الفضة ، وبين أيديهم ولدان كالقوَّال المتنور يطوفون على أولئك الأبرار بصحاف الفضة وَاكْوَاهِهَا أَصْنَانِيه صفاء البلور ، وقد ملئت شرابا ممزوجا بالزنجبيل والكافور .

وذكر في مواضع آخر من القرآن وسائل مادية للذة والعذاب فوق ما ذكر هنا وأبلغ منه ، وأن النفوس تتسلسل عما إذا كانت بهذه الوسائل والأدوات ، وأسابغ اللذوي والبلوي مادية حسية من حين ماتهمه في دنيائها هذه - فهل الأغلال الحديدية كأغلالنا قاسية سوداء تفتع ؟ والأساور الفضية كأساورنا مبدورة بيضاء تلمع ؟ وأعمرة المشروبة كخمرتنا سائلة حراء تشمع ؟ أم أن المراد بذلك شيء آخر له حقيقة روحية غير ما يفهم من ظاهر اللفظ ؟

ولعل الأسلم في الجواب أن يقال : اتنا - معشر المسلمين - نؤمن بالسالم الأخرى ، وبما وردت الأخبار الصحيحة به من وصف وسائل العذاب

والنعم الذين يقمان في ذلك العالم من دون أن تكلف أنفسنا مناء البحث عن حقيقتها ، مادامت هي ممكنة الوقوع ، وما دامت قدرة الله سالحة لخلقها وإعدادها . وهناك آخرون يجعلون هذه الوسائل والأسباب تمثيلا للآلام العذاب ومسررات النعيم بما اعتدله في حياتنا الدنيا من الوسائل والأدوات والأسباب بحيث يجعلنا هذا الوصف التمثيلي نتقل تلك الآلام والمسررات على نحو ما نتقلها وتشعر بها عند التعرض لأسبابها ووسائلها ومسرراتها في دار الدنيا . على أن طائفة من أبناء هذا العصر المتعلمين لم يتفهم ما اقتصرنا عليه هنا من هذا البحث ، وتمنوا علينا أن نذكر ما هو الأحق بالقبول في هذه العقيدة مما نلأه روح العصر ، ولينجم مع معارف أهله وأحوالهم الثقافية والفكرية ولا يخرج به قائله من الملة . فلمثل هؤلاء كتبنا رسالة بهذا الموضوع : موضوع « ملذات الجنة ما هي ؟ » . ربما طبعناها على حدة أو احتجنا بهذا التفسير إذا يسر الله طبعه ونشره .

آيات هذه السورة من أولها تدور حول أقطاب ثلاثة :

١ - تذكير الإنسان المكذب بالبحث بخلقه الأصلية ، وبأن الإله الذي خلقه كذلك ، ومتعة بالحواس والشاعر ، وأمد بصنوف النعم - قادر على خلقه ثانية بعد الموت ، فكيف يصح إذن أن ينكر على الله ذلك ؟ بل كيف لا يكون تمسالي جديرا بأن يشكر ويطاع ؟

٢ - تخويف المكذبين بما أمدده الله لآلئهم من الأغلال والسمر .

٣ - ترغيبهم بما هيا لهم من وسائل الفطنة والهناء أن هم شكروا وأمنوا .

وكثرا ما كانت هذه الآيات وأمثال أمثالها معها تلقى على هؤلاء المكذبين ، فلا تحيك في نفوسهم ، ولا يقابلونها بغير الصدود والأعراض . فكان صلى الله عليه وسلم يأخذ شيء من الوجوم والضحج ، مد يرى تتابع إذاهم عليه ، وطول أعراضهم عنه ، وتماذيمهم في تكذب الوحي والاستهزاء به . فكان من المناسب بعد تلك الآيات البالغة في تأثيرها ، ووقوف قريش أمامها وفقة المكذب العائد ، ووجوهه صلى الله عليه وسلم وضجره ، واستبطائه نزول العقاب الإلهي بأولئك المكذبين - أن تشدد عزيمته ، وتفك عن قلبه الشريف عرا ألهم والضحج بمثل قوله تعالى : ( إِنَّا نَحْنُ ) ، أي لا غيرنا بالمحمد الذين ( نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ تَنْزِيلًا ) لا يس في ولا رب ، ووعدهنا وأوعدهنا المكذبين فيه بما وعدنا وأوعدهنا ، فلا تبش ولا تحزن ولا تضجر : فالقرآن حق ، ووعدهنا وأوعدهنا صدق ، ( فاصبر ) إذن ، وانتظر ( لحكم ربك ) ، أي لحين حلول وقت حكمه وقضائه الفصل كيك وفي خصومك ، فينتقم لك منهم ، وتكون الغلبة والنصرة لك ، والعقوبة والديرة عليهم . فالإمام في قوله ( لحكم ربك ) هي التي رسمها النجاة اللام الحينية . وإذا أرادوك على السكوت بالمحمد وترك دعوتهم إلى الإيمان لقاء مال يفيضونه عليك ، أو عروس من بناتهم يزفونه إليك - كما كانوا بالفعل يقولون ذلك

له صلى الله عليه وسلم - فلا تصح اليهم ، ولا تتخذ  
قولهم ، ( ولا تطعمهم ) **أثما أو كفورا** فيما يحاولونه  
منك ، ويدأرونك عليه .

وقد كان أولئك المعاندون المكذبون بين منقسم  
في الآثام ، متعاط للفسق : كعتبة بن ربيعة ، فهو  
ينفر من الإيمان به صلى الله عليه وسلم وبالحوى ،  
لأن ذلك يحول دون تمتعه بشهوته ، وينقص عليه  
حياته . وبين خال في ضلاله ، شبيب الشكيمة في  
كفره : كأي جهل والوليد بن المغيرة ، فهو ينفر من  
الإسلام وأتباعه صلى الله عليه وسلم خشية مفارقة  
دينه وتوديع طوافيته . وقوله : ( **أثما** ) إشارة إلى  
الفرق الأول ، وقوله : ( **أو كفورا** ) إشارة إلى الفرق  
الثاني ، و ( أو ) بعد الجحد تكون بمعنى الواو .  
فالمتى « ولا تطعم منهم أثما ولا كفورا » .

ويرى أن عتبة كان يقول له صلى الله عليه  
وسلم : « أريد من هذا الأمر حتى أزوجك ابنتي ،  
فاني من أجل قرشي بنات » . وكان الوليد يقول  
له : « أنا أعطيك من المال حتى ترضى ، فاني من  
أكثرهم مالا » . ولهذا قال له ربه وأصبر حتى يقضى  
الله بينك وبينهم فيظهر أمره ويرفع لك ذكره ولا تطعم  
أولئك الأتباع الجاحدين فيما يمتنون به من صنوف  
الترف والنعيم ، فدفع ذلك كله ولا تشغل قلبك به ،  
( **واذكر اسم ربك** ) فصل له وأعبده ( بكرة ) غسوة  
قبل الظهر ، ( **وأصيلا** ) عشيا بمذلم ، ( ومن الليل )  
أيضا ( **فأسجد له** ) ، أي صل له تعالى : فالسجود  
بمعنى الصلاة ، و ( من ) في قوله : ( من الليل ) لفادة  
النجس ، إذ لا بد من راحة له صلى الله عليه وسلم  
في بعض الليل وصلاة في بعض ، كما يكون ذلك في  
النهار . ولما كان الليل مظنة غفلة النفس ، وغلبة  
النوم عليها - هاد فأكد عليه صلى الله عليه وسلم  
الأمر بصلاة الليل ، لكيلا يفهم من البعضية المسدة  
القليلة منه ، بل وقتا طويلا فقال : ( **وسبحه** ) ، أي  
صل له ( **ليلا** ) ، أي وقتا من الليل ( **طويلا** ) مستندا  
لأجل من الثلث ، ولا يزيد عن الثلث ، كما مر بيانه  
في آية ( قم الليل إلا قليلا نصفه أو انقص منه قليلا  
أو زد عليه ) . فالليل الأول من قوله : ( ومن الليل )  
مراد به مجموع ساعاته من الغروب إلى الشروق ،  
والليل الثاني ، وهو قوله ( **ليلا طويلا** ) ، مراد  
به وقت وحصة منه ، ولذلك وصفه بقوله  
( **طويلا** ) . ولو كان المراد به مجموع ساعات الليل  
ما تناسب وصفه بالطول كما يظهر للتمائل ، والسجود  
والتسبيح مراد بهما هنا الصلاة كما أشرنا ، وكثيرا  
ما أريد بهما ذلك في القرآن والسنة . والأوجه أن  
المراد بالصلاة في هذه الآية الصلاة التي كان يمارسها  
صلى الله عليه وسلم هو وأصحابه قبل أن تفرض  
الصلوات الخمس ، وكان افتراض هذه الصلوات  
ليلة الإسراء قبل الهجرة بسنة وبعد البعثة بالثني  
عشرة سنة . فهو تعالى يأمر نبيه في هذه الآيات  
بالصبر على المكثبات ، وانتظار حكم الله فيهم ،  
والأعراض عما يمتنون به ، ويصرضونه عليه : من زيارج  
الدنيا ، وبالإقبال على الله ، واستيعاب طرق النسيان

وحزيع طويل من الليل في عبادته والإبتغال إليه .  
ثم إن الخطاب في هذه الآيات وإن كان له صلى الله  
عليه وسلم فإن المراد به أيضا صحابته الذين كانوا إذ  
ذاك في حاجة إلى أن يكونوا أشداء القلوب ، أقوياء  
الجلد والعزيمة ، ليقووا على الجهاد وبث الدعوة  
والصبر على المقاومة .

وقد شرحنا في أول سورة الزمل ما في أمر النبي  
صلى الله عليه وسلم وسحابته بالنجد ، وقيام الليل  
وتحمل منقبات العبادة من الأثر البين في تربيتهم  
النفسية ، وتقويتهم البدنية ، فراجعه إن شئت .

قوله : ( **إن هؤلاء الخ** ) فيه تسلية له صلى الله  
عليه وسلم ، واقتطاع من آياتهم به ، وإبلاغهم دينه ،  
وذلك لما فطروا عليه من حب الدنيا العاجلة ، وإشراك  
للأثمة الناجية : فهم يجتاهون على ما بين أيديهم  
من هذه الشهوات ، ( **ويذرون وراءهم** ) أي يذمون  
ويطرحون خلف ظهورهم ( **يوما قليلا** ) وهو يوم القيامة  
التي هو الوقع ، الشديد الوطأة على هؤلاء الجاحدين  
المكذبين . ومعنى طرحهم يوم القيامة وراء ظهورهم :  
طرحهم العمل له ، وتركهم ما يؤدى إلى النجاة فيه  
من الإيمان والتصدق وممارسة الأعمال الصالحة .  
وفي الإشارة إلى المكذبين بـ ( هؤلاء ) المفيد للقراب  
تحقير لهم ، واستصغار شأنهم ، وإن كانوا يتجلببون  
للناس بجلابيب الكبر والطمعة .

ويحتمل أن يكون معنى الآية : أنهم متهكمون  
فيما بين أيديهم من عاجل لذات الدنيا ، وينسون  
أمامهم يوما قد حياء لهم فيه عذاب ثقيل ، وهول  
ويل . فتكون ( وراء ) بمعنى أمام ، وكثيرا ما جازت  
بهذا المعنى ، ويكون الكلام تعجيبا من حالهم ، وقمرضا  
بغباوتهم ، لم تركوا الحزم ، ولم يندبروا الخطب وهو  
أمامهم .

وقوله : ( **نحن خلقناهم الخ** ) فيه هود إلى تليين  
الكلام لهم ، وترقيق الخطاب معهم ، وتذكيرهم بأنه  
تعالى هو لا غيره الذي خلقهم خلقا : أحكم فيه  
صنهم ، ووثق بالأعصاب ربط بعض أعضائهم ببعض ،  
فكانوا أقوياء أشداء مصوبى الخلق ، مجدولي البدن .  
وهذا معنى ( **وشدنا أسرهم** ) . يقال : « قد أسر هذا  
الرجل فأسره » بمعنى أنه خلق فأسره .  
خلقته ، وأحكم تكوينه . ومنه قول الأخطل في صفة  
أفراس مجنونة :

من كل مجتنب شديد أسره

سلس القياد تضاله مختلا

بمعنى الله على هؤلاء المكذبين ، بل على سائر  
الخلق الجاحدين بأنه تعالى خلق أجسامهم صالحة  
لا يحتلون اليه في وجوه التصرف وممارسة الأعمال  
ومياضرة الأسباب .

وقوله : ( **والأشد شئنا الخ** ) ، أي ليس خلقنا لهم  
شديد الأسر هو مبلغ جهننا ، ومنتهى طاعتنا ( و )  
لكن نحن مع هذا ( **الأشد شئنا** ) أن نهلكهم أهلكهم ، ثم  
( **بذلنا أمثالهم** ) ، أي بدلنا بهم أمثالهم في البشاعة  
نخلق الآخرين خلقا يحكي خلق الأولين في شدة

فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذْ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا ﴿١٥﴾ وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ إِنََّّهُ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٦﴾ يَدْخُلُ مَنْ يَسَاءَ فِي رَحْمَتِهِ ۖ وَالظَّالِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٧﴾

الأسر ، واتقان الصنع ، وتوثيق الأعضاء . والآية تحتمل معنيين :

١ - أن يكون المراد بالأمثال الذين يخلقهم مكان الأولين المكذبين - هم الأولون أنفسهم ، مذ يبعثهم من قبورهم ، ويحييهم بعد موتهم يوم القيامة . فهو تعالى يقول للمكذبين إنه تعالى كما خلقهم في الدنيا شديدى الأسر - قادر على أن يخلقهم ثانية بعد الموت شديدى الأسر . ويكون مغزى الآية إقامة الحجة على البسات البعث وأمكان الحياة الثانية ، لأن من فعل الشيء مرة قادر على أن يفعله مرة أخرى .

٢ - أن يكون المراد أنه تعالى قادر على اهلاك المكذبين ، وأن يخلق في دار الدنيا غيرهم أمثالهم من البشر ، لكنهم مخالفون لهم في العمل : فيطيعون أمره ، ولا يكذبون وحيه . فهو تهدد بهم ، وحض على المسارعة إلى الإيمان قبل فوات الفرصة ، وتذكير بانهم أن ماؤا هم فلا يظنوا أن اولادهم ومن ياتى بعدهم يكونون في الضاد والتكذيب أمثالهم ، بل أن صدق الوحي ، وصحة دعوى محمد عليه الصلاة والسلام - هي من الظهور بحيث لا يخفى مكانها على أحد ، اللهم إلا من طمس على بصائرهم ، وهم هؤلاء الكذوبون المخاطبون . فيكون المعنى في هذه الآية كالمعنى في آيات ( وأن تتولوا يستبدل قوما غيركم لم لا يكونوا أمثالكم ) ، ( أن يشأ يذهبكم أيها الناس ويات بأخريين ) ، ( أن يشأ يذهبكم ويات بخلق جديد ) .

( هذه ) إشارة إلى السورة وما اشتملت عليه من اللفظ الرشيق ، في الأسلوب الأتيق ، والمعنى الدقيق ، في الخطاب الرقيق . ( تذكرك ) ذكرى يذكرك بها العاقل ، وموعظة تنزجر بها الجاهل . ( فمن شاء ) من هؤلاء المكذبين الأذكاء والامناظ والانتفاع بهسده السورة والمشي على نورها - ( اتخذ إلى ربه سبيلا ) - أي أمكنه أن يتخذ من الإيمان والطاعة ، واتباع الحق وتصديق محمد عليه السلام - سبيلا يؤدي به إلى رضوان ربه ، ودخول دار كرامته ، وذلك لما منحه من الهداية والتذكير والدلالة على الحق في هذه السورة وسائر سور القرآن مع مباحته الله به من نور العقل وقوة الاستنتاج ونعمة الحواس . فأسبب الخلاص منسورة ، وسبيل النجاة مهدة تحت مواقع إبطار العاملين أن أرادوا - غير أن غلبة العناد ،

واستيلاء الجهل عليهم ، جعلهم لا يشاعون سلوك هذه السبل الموصلة إلى النجاة ( إلا ) وقت ( أن ) يشاء الله ) أن يسلكوها ( ) مشيئة الهية مقترنة بمشيئة جزئية مكتوبة لهم ، وهذا ما يعبر عنه في اصطلاح المتكلمين بالجزء الاختياري .

( أن الله كان عليما ) بأحوال خلقه ( حكيمًا ) فيما يرسمه لهم من السنن والنواميس ، وينزل عليهم من الوحي والشرائع ، ويرسل اليهم من الأنبياء والرسل : مما فيه صلاح حالهم ، وانتظام أمرهم ، وارتقاء عمرانهم . وقد سبق زيادة إفشاح لهذا البحث عند قوله تعالى في سورة البقرة : ( ذلك يضل الله من يشاء ويهدي من يشاء ) ، وقوله أيضا فيها : ( فمن شاء ذكره . وما يذكرون إلا أن يشاء الله ) .

لم ختمت هذه السورة ببيان عاقبة الفريقين اللذين تضمنهما قوله تعالى : ( فمن شاء اتخذ إلى ربه سبيلا ) ، فإن مفهومه أن فريقا يتخذون سبيلا إليه تعالى . وهم المهتدون ، وفريقا آخر لا يتخذ ذلك السبيل إليه تعالى وهم الظالون ، أي الجاثرون عن سبيل الإيمان ، الواضعون عملهم وسميعهم في غير مواضعه ، وهذا هو الظلم في أصل معناه اللغوي .

فالفريق الأول قال الله عنهم : ( يدخل من يشاء في رحمتي ) ، أي جنته ورضوانه . وعبر عن هذا الفريق الناجي بقوله ( من يشاء ) للإشارة إلى ساحة الإطلاق ، وإلى أن دخوله الجنة يكون بمحض مشيئته تعالى لا بكرهه عليه مكره .

وقال عن الفريق الثاني وهم الذين حادوا عن سبيل الإيمان : ( والظالمين أعد لهم عذابا أليما ) . فعل ( أعد ) اشتغل من أن يعمل بكلمة ( الظالمين ) بضميرها وهو ( لهم ) ، فيقتدر للظالمين فعل ناصب يفسره ( أعد ) مثل أن يقال : « وأعد الظالمين أعد لهم » أو « وجازى الظالمين أعد لهم »

والمعنى أنه تعالى يدخل المهتدين المصدقين جنته حسب مشيئته وتفضله عليهم ، كما يدخل الظالمين المكذبين دار عذاب مؤلم أرصدها لهم .

( ١١ ) وذهب قوم في تفسير هذه الآية إلى غير هذا قالوا : « إلا أن يشاء الله » قومهم طيها بنزول ملاب من السماء مثلا يترصدون من قومهم أو تحت أرجلهم أن لم يؤمنوا ، فيؤنسوا إذ ذاك . لكن حكامهم على الإيمان والجاهم إليه بهذه الطريقة لم يرد الله ، ولم يجعله سنة من سنته الكونية في سياسة الخلق واستصلاح أمر البشر ، لحكم وأمرار يعلمها تعالى . وإنما اختلوا هذا المعنى في تفسير الآية هروبا من مقيدة الجبر المقترنة ، وحلفا لكلام الله من التناقض ، وصوتا لأوامره تعالى من التنازع ، وثلاثا يكون للناس على الله حجة . ليدعوا العمل ، ويفسروا الحجة ، المؤلف .



## بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَأَلْمَسَتْ عُرْقًا ۖ فَأَلْمَصْتِ عَصْفًا ۝

من الصائفة وغيرهم ، مشيرا الى ذلك بما وصفها به من الاوصاف التي لا تجتمع قط مع اوصاف الالوهة .

واقسم ياغيل في سورة الصاديات تنبيها الى فائدتها وما لها من حسن الاثر في خدمة البشر ، ومثلها في ذلك من حيث يبحث على افتتاحها ، والعناية بتربيتها ، وتكثر نسلها .

اما ما اقسام به في فاتحة هذه السورة - سورة المرسلات - فهو الرياح . اذ ليست الكواكب ، ولا الخيل السلاهب - بايديها ، واطيب فمرا - منها في خدمة الخلق ، وتوفير مصالحهم ، وتيسر اسباب معاشهم .

على ان التسلافة المذكورة - اغيل - والرياح والكواكب - اخوات متماثلات ، في الحركة والنشاط وقطع المسافات - اغيل على سطح الفسراء ، والكواكب في فسيح الفضاء ، والرياح ما ينبت في اجوار الفضاء .

وليس الراد بالرياح القسم بها مادة الهواء الجوي الذي يحيط بالكرة الارضية . فان توقف حياة البشر على تلقف هذا الهواء واستنشاقه - ظاهر لا يحتاج الى قسم ، ولا الى تنويه بالذكر - وانما موضع الخفاء في فاتحة الهواء - اذا هو مصف وموج واضطرب واتدفع الى مسافات بعيدة بحيث ينشأ عن التدافع احبانا كثيرة تغرب وتدمر ، وبانه مستطير - يعمل بعض السلاج على سب الرياح ، واستنكار امرها ، والتساؤل عن الحكمة في خلقها .

وان في هذه الرياح واضطرابها ، واختلاف مهابتها - ما لا يحصى من النتائج وتغيير المصالح : من ذلك تسير السفن في البحار ، وسوق السحب الحافلة بالامطار ، وتلقيح النباتات والاشجار ، وحمل البذور وتوزيعها في الصحارى والقفار . وقد ورد في بعض الاثار ان امة من الامم تضرمت من الرياح وتنازع هبوبها ، ورفيت الى لبيها ان يدعو الله بالا يحصلها لهم على بلادهم ، فوعظهم لبيهم ، وخوفهم العاقبة ، وبهمم الى ما في الرياح العاصفة من المنافع لهم ، وأنه تعالى لم يخلقها عبثا ، ولم يرسلها سدى . . . فابوا الا الدعاء ، فلما الله فسكت الرياح تلك السنة ، فعمت الزروع والنباتات في حقولهم : فلم تعقد فمرا ، ولم تعط محصولا سوى التبن ، حتى مادوا فالتبوا من غفلتهم الى سوء فعلتهم ، وابتغوا الى الله في اغاثتهم وتفرج كريمهم . وسواء اصحت هذه الرواية ام لم تصح فانها تفصح عن مغزى صحيح في فائدة الرياح وشمول النفع بها للبشر .

قال تعالى : ( والمرسلات عرفا ) ، اي والرياح التي ارسلت واطلقت هاية يمد طول ركودها وسكونها . يقال : « ارسل اغيل في الفارة » اذا سرعها واطلقت لها العنان .

تقدم ذكر السبب الذي من اجله يقسم الله تعالى ببعض خلقه . ومن اساليب القسم المختلفة في القرآن هذا الاسلوب الذي افتتحت به هذه السورة . وشبهه القسم الذي افتتحت به سورة النازعات مذ قال تعالى : ( والنازعات عرقا . والنازعات نسطا . والصابغات صبغا . فالصابغات سبطا . فالمدبرات امرا ) . اقسام تعالى بالكواكب تسرع في سيرها ، وتقطع مداراتها منتقلة من برج الى برج ، وتسبح في الاجواء صبغا حثيثا . ومنها كواكب تسبق غيرها بقام دورتها : كالقمر والارض ، وهذه الصابغات يكون من ارهاا تدبر بعض الامور السكونية كمعرفة الحبيب والفصول .

وشبهه ايضا القسم الذي افتتحت به سورة الصاديات مذ قال تعالى : ( والصاديات ضبعا . فالبريات قدحا . فالغبرات صبغا . فانرن به نفا . فوسطن به جمعا ) . اقسام بخيل الجهاد تعدو فيسمع لنفسها زفير ، وتقلع الحصا بحوافرها وهي هادية فيطأ بر منها الشر ، لم تغير على العدو . وقت الصباح فتشتر اذ ذاك الفسار بشدة عدوها . وحينئذ تقبأ جمع العدو وتتوسطه فتسرقه شدر ملر .

وقد اراد ابن جرير ان يشبهه بالقرآن في قسمه ياغيل في مقصوده المصورة ، فاقسم اولا بالتيقار تحمل الحجاج الى بلد الله الحرام فقال :

الجنة بالعملات يرمي بها التجار بين اجوار النفا وبعد ان وصفها ووصفهم اقسام ياغيل تحمل الابطال الى ساحات القتال فقال :

بلاله ام ياغيل تصدو المظي ناصرة اكسادها قب السكلى يحملن كل شمري باسبل شهم الجنان خالف شمير الوشي

اقسم الله بالكواكب في سورة النازعات تنبيها الى ما حركاتها ونظام سيرها في مداراتها من المنافع والمصالح ، وأنها لما خلقت لاجل هذا ، ولم تخلق لتكون آتية تصرف في الاكوان كما يزعم عبدها

وَالنَّشِيرَاتِ شَرًّا ۖ فَالْفَرَقَاتِ ۖ فَرَقًا ۚ فَالْمَلَكِاتِ

ذِكْرًا ۚ عَلَرًا أَوْ تُدْرَأً ۚ إِنَّمَا تَعُدُّونَ لَوَاقِعَ ۖ

فَإِذَا النُّجُومُ طُمِسَتْ ۚ وَإِذَا السَّمَاءُ فُرِجَتْ ۚ

وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّتَتْ ۚ وَإِذَا الرَّسُلُ أَقْنَتْ ۚ لِأَيِّ

يَوْمٍ أُجِّلَتْ ۚ لِيَوْمِ الْفَصْلِ ۚ وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ

وقلما ذكر القرآن إطلاق الرياح الأغر عنه بفعل أرسل . ففي سورة قاطر : ( والله الذي أرسل الرياح ) ، وفي الحجر : ( وأرسلنا الرياح لواقح ) ، وفي الأحزاب : ( فأرسلنا عليهم ريحا ) ، وفي الأعراف : ( وهو الذي يرسل الرياح ) ، وفي الروم : ( ومن آياته أن يرسل الرياح ) ، وفي آيات أخرى غيرها . فقلوه تعالى هنا : ( والرسلات ) من هذا القبيل .

أما قوله : ( عرفا ) فهو مثل لتتابع الرياح المرسية ، وهبوب بعضها في الر بعض ، مأخوذ من عرف الفرس ، وهو اسم للشمع النساب في محب رقبته . يقال : « اعروف الفرس » إذا صار ذا عرف ، « واعرف البحر » تراكبت أمواجه ، نصارت كالعرف . و « اعرف النخل » كثف والتف ، فأصبح كالعرف . و « جاء قوم إلى فلان عرفا واحدا » إذا توجهوا إليه كوكبة واحدة . و « أصبحوا عليه كعرف الضبع » إذا تالوا عليه . وأرباب ( عرفا ) على الحال من الرسائل : أي أقسم بالرياح حالة كونها متتابعة ينفق بعضها إثر بعض في هبوبها .

وبعد أن أرسلها الله ، وبعثها من سكنوها - تأخذ في العصف بشدة . و ( العصف ) شدة الهبوب ، فالريح الواحدة عاصفة ، والجمع عاصفات . وعصفها يكون بعد إطلاقها وإخلاء سبيلها من دون تراخ ، ومن لم عطفه بالغاء فقال : ( **العاصفات عصفًا** ) ، أي الشديديات الهبوب ، السريعات الممر .

هذه الرياح إذا أطلقت ، وهبت على هذه الصورة - أنشأت سحباً كثيرة تراها مبسطة ومنشورة في أفاق السماء . والذي نشر هذه السحاب وبسطها هنا وهناك في فسيح السماء هو تلك الرياح العاصفة . وهذا هو معنى قوله تعالى في صفحتها : ( **والنشيرات** نشرًا ) .

وبعد أن تنشر الرياح السحب على هذه الصورة تأخذ في تفرقها وتوزعها على البلاد ، فتجني موانئها ، وتخصب نباتها . والذي يفرقها ويوزعها هنا وهناك هو تلك الرياح المرسلات العاصفات النشيرات . وهذا هو معنى قوله تعالى : ( **فالفرقات فرقا** ) . و ( الفرقات ) اسم فاعل من فرق الأشياء

إذا فصل إبعاضها ، وفرق الشعر بالشط إذا سرحه . ففرق الثلاثي كفرق الرابى .

وقيل : أن فرق فرقا للأصلاح ، ( وأد فرقنا بكم البحر فأنجيناكم ) ، وفرق تفرقا للأفساد ، ( فيطمعون منها ما يفرقون به بين المرء وزوجه ) .

وما وصف الله به الرياح في هذه الأقسام من معاني الأسرار والنشر والغرق - تضمنته آية سورة الأعراف مذ قال تعالى : ( وهو الذي يرسل الرياح بشرا بين يدي رحمته حتى إذا أقلت سحابا ثقالا سقناه لبلد ميت ) . فقلوه هنا ( المرسلات ) من ( يرسل ) في تلك الآية . وقوله ( النشيرات ) من ( نشرًا ) على قراءة من قرأه بالنون . ومعنى ( نشرًا ) : متفرقة تغم جوارب الأرض ، جمع نشور كرسول في جمع رسول ، وقوله ( الفرقات ) من ( سقناه ) . فان معنى ( سقناه ) يرجع إلى معنى ( فرقناه ) ، أي أخذنا ذات اليمين وذات الشمال لنحيي البلاد ، ونسقي العباد .

إن الأقطار التي تكثر فيها الأنهار المتدفقة ، والينابيع المتفجرة - قلما يفكر أهلها في أمر السحب والأمطار ، أو يشعرون بحاجة إليها مادامت أراضيهم مضمونة الري ، مكفية المؤونة . أما أهالي البلاد الأخرى الذين حرموا الأنهار ومياه السبح ، والذين يتوقف خصب نباتهم وري زراعتهم على ماء المطر ، ومقدار ما ينزل منه كل سنة ، ويعلمون أن قلة الأمطار وانحسارها عنهم يضرهم الجذب والتلف والهلاك - فهم لا يكتادون ينظرون إلى الرياح المرسلات تهب وتشتت السحاب وتبسطه في أطراف السموات : حتى تهتز بالفرح قلوبهم ، وتلهج بالذكر السنتم . والذي يلقى هذه الذكرى والبشرى على هؤلاء الناس إنما هو تلك الرسائل الموصوفة بما وصفها الله به من جميل الصنع ، وعصيم النفع . وهذا معنى قوله تعالى في ختام صفاتها : ( **فالمالئيات ذكرا** ) ، أي فهي بعد أن تفرق السحاب ، وتوزعها هنا وهناك على البلاد ، تلقى في قلوب سكانها أو على ألسنتهم ذكرا لن أرسلها إليهم ، ومن بها عليهم .

والبشر - وإن كانوا يذكرون الله حين يرون الرياح الموائف والسحب الحوائف - يختلف ذكروهم هذا باختلاف إيمانهم بالله وصفاته ، ومبلغ تصديقهم بوحية ورسالاته : فمنهم قوم يكون ذكروهم ( **مقدرا** ) لهم عند ربهم في عو سيئاتهم ، والعفو عن خطاياهم ، لأنهم إذا ذكروا الله قرئوا ذكره بالشكر له على ما أدى من الرحمة ، وأسبح من النعمة . ومنهم آخرون يكون ذكروهم ( **نقلا** ) ، أي بمثابة الأنداد والتخويف لهم من سوء ما هم عليه من هذا الذكر اللال على كفرهم ، وفطرت عنادهم ، إذ أنهم ينسبون حدوث هذه الرياح والزسلة ، والسحب الهائلة - إلى أصنامهم وطوائفهم تارة ، وإلى الأنواء وقرانات الكواكب تارة أخرى ، ويفترون عن الفاعل الحقيقي وهو الله تعالى .



وهكذا كان دأب أهل الجاهلية ، فانهم كانوا اذا مطروا قالوا : « مطرنا بنوء كذا » ، فنهى الشارع عنه ، وتقدم بالوعيد فيه ، وفيه من هذه الآية اليه مد قال : ( فاللقبت ذكرا علوا أو نلرا ) .

و ( ملرا ) مصدر على - التلاي - اذا محا الاساءة وورع اليوم والعتب . و ( نلرا ) اسم مصدر لاتلر الرباعي اذا حذر وخوف . وهما في الاعراب يدلن من ( ذكرا ) . والتقدير : ان تلك الرياح باتسائها السحب الثقيل تلقى في نفوس الناس ذكرا . وهذا الذكر يينا يكون علوا ما حيا ذنوب المؤمنين الموقنين - يكون أحيانا كثيرة انلارا للجاحدين المبطلين . ففي الآية تعرض بشركي الصرب ، وتقريص لما كانوا عليه من عبادة غير الله ، والفظة عن الشكر له على الآلهة ونعمه ما نسبوا الى غيره .

اقسم تعالى بهذه الرياح على أى شيء ؟ على أن ما أورد به المشركين أمر لا ريب فيه ، وهذا معنى قوله تعالى : ( انما توعدون ) به أبها المكذبون من مجيء يوم القيامة والثواب والعقاب - ( لواقع ) ، أى هو حق كأن لا محالة ، فلا تمترأ ولا تشكوا . فقوله : ( انما توعدون الخ ) جواب القسم .

وكما اقسم الله بالرياح العاصفة في سورتنا هذه على أن ما أورد به المكذبين واقع - اقسم أيضا بها نفسها في سورة الباريات بالأسلوب نفسه على أن ما أوعدهم به صادق ، فقال تعالى : ( والباريات ذروا . فالخاملات وقرأ . فالجاريات يسرا . فاللقبت امرا . انما توعدون لصادق - وان الذين لواقع ) .

والمننى : اقسم بالرياح التي تلوو التراب ذروا ، ثم لا تلبث أن ينشأ من هبوبها الزان عظيما الفائدة للبشر : سحاب حاملات في مئان الساء من ماء المطر حملا ثقلا ، وسفاتي جاريات على سطح البحر جريا سهلا . وهذه السفاتن أو مجموع هذه السفاتن ، والسحاب في مجيئها وذهابها وفدوها ورواحها تقسم في أقطار البلاد ، أو توزع بين سكانها - امرا عظيم الخطر ، عميم الأثر في انتظام معاشهم ، وتوفير تكاليف حياتهم . وإى شيء مما خلقه الله أنفع للبشر من الأمطار التي تحملها السحب فتسقي بها زروعهم ، ومن شروب الأقوات والأزراق التي تجرى بها السفن لم تقسمها بينهم ؟

قوله : ( فإذا النجوم الخ ) بيان وتفصيل لما أجمله في قوله السابق : ( انما توعدون ) من هول يوم القيامة ( لواقع ) ، فهو يقع على هذه الصورة : النجوم تطمس ، والساء تفرج الخ .

( وطموس ) النجوم : ذهب ضوءها . والطموس اذا نسب الى ما له نور - كالشمس والقمر والنجوم - كان بالمنى المذكور ، واذا نسب الى المين كان معناه مهابا وذهاب قوتها الباصرة ، واذا نسب الى القلب كان المراد ضلاله وحيرته ، واذا نسب الى المنزل أو الدار كان معناه امحائها وذهاب أركانها . وهو لازم متعد ، يقال : طمست آنا ، وطمس هو بنفسه .

ووصف النجوم بذهاب ضوءها يوم القيامة لينافى وصفها بالانكسار والانتثار في آتى : ( واذا النجوم انكثرت ) ، ( واذا الكواكب انتثرت ) و ( انكثرت ) بمعنى ( انتثرت ) . يقال : « انكثرت سيره » اذا أسرع وانقض ، و « انكثرت القوم على فلان » جادوه متسايين ، ثم انصبروا عليه ، وليس هو من لون الكثرة . فالتنجوم يوم القيامة تنكث وتنثار ذاهبة الفناء ، فائدة اللااء واللعمان .

وفرج ( الساء ) كناية عن أحداث الشوق بين اجزائها التلاحمة ، يقال : « فرج الباب » اذا فتحه ، و « فرج بين الشيئين » أوسع بينهما وبعد . وهنا معنى ما جاء في آتى : ( اذا السماء انشقت ) ، ( ونفتحت السماء فكانت ابوابا ) .

أما ( نسف الجبال ) فقلعها من أصلها وتفرق اجزائها : من « نسف الحب بالنسف » اذا قضه وفناه ، و « نسف الرعب التراب » : قلعه وفرقه هنا وهناك . وهذا معنى ما جاء في آيات ( وسرت الجبال فكانت سرابا ) ، ( وبست الجبال بسا ) ، ( وكانت الجبال كتيبا مهلا ) . والمعنى في الكل أن الجبال تزحزح بشدة من مقارها ، وتمود كالفئات الانتثار ، والسفساف (١) المتطاير .

وقد وصف الوحى في هذه الآيات ما يطرا على الصائم يوم خرابه : من اضطراب جله ، وانتكاث قتله ، وتبيل نظامه ، وزوال تماسكه وأحكامه . والله تعالى وحده يعلم بأية الطرق والأسباب يحصل ذلك الخراب ، فعلى المسلم أن يؤمن به ، ويكفل أمر كنهه وتفصيله الى ربه .

ههنا ما يكون من شأن السماء والأرض في ذلك اليوم الموعود ، أما ما يكون من شأن الخلائق يومئذ فان الأمر أهم ، والخطب أهم ، والخوف أهم . ذلك أنه لا يعنى فيه أحد من السؤال والحساب حتى الرسل أنفسهم عليهم السلام ، فانهم يفشون ذلك الموقف الرهيب في وقته المعين الذى كانوا ينتظرونه : فيشهدون على أنفسهم ، ويبرنون أنفسهم من كرامة التفريط في تبليغهم ، والتقصير في انحاض النصح لهم ، وهذا معنى ( واذا الرسل اقتت ) ، وأصله « وقتت » من الوقت ، واقتت الضمير باعتبار الجماعة ، أى جعل لجماعة الرسل وقت معلوم لا يتصدونه . والعرب تعاقب بين الراو والهجرة ، فيقولون : « وكذ الخير والكد » ، و « وقت الصلاة واقتها » . وفى الاسماء وشاح واشاح ، ووعاء وءاء ، وكاف وكاف ، ووسادة واسادة .

وفى التأنيث معنى التأجيل ، بل يقولون أحيانا : « وقت الأمر ليوم كذا » اذا أجل اليه . فلما قال ان الرسل اقتت لها ميقات تشهد به في حينه ، حسن ان يقع السؤال عن ذلك الميقات الذى اقتت ، والأجل الذى ضرب ، فقال تعالى : ( لآى يوم أجلت ) تلك

(١) سفساف الدقيق ما ارتفع من قبله عند النخل ، وسفساف التراب ما رقى مع .

**الْفَصْل ١١** وَيَلَّ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ۝ أَلَمْ يَكُنِ الْأَوَّلِينَ ۝ ثُمَّ تَتَّبِعُهُمُ الْآخِرِينَ ۝ كَذَلِكَ نَقُولُ

وَالْمُجْرِمِينَ ۝ وَيَلَّ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ۝ أَلَمْ تَحْلِفُوا مِّنْ مَّاءٍ مَّهِينٍ ۝ فَجَعَلْنَاهُ فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ ۝ لَّا كَانَ قَدِيرٌ مَّعْلُومٍ ۝ فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ الْقَادِرُونَ ۝ وَيَلَّ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ۝ أَلَمْ تَحْمِلِ الْأَرْضَ كِفَاتًا ۝ أَحِبَّاءَ

الرسول ؟ ، وفي المدول من « وقتت » الى « اجلت » وهما بمعنى واحد - فتفن في الخطاب ، وتطرنه - للأسلوب - كما ان في الاستفهام من ذلك اليوم المضروب موعدا لقيام الساعة - تفخيما لشأنه ، وهويلا لأمره .

ثم اجاب عن هذا السؤال بان الرسول اجلت (يوم الفصل) ، أى يوم القضاء الفصل ، أو الحكم الفصل - ومعنى كون الحكم في ذلك اليوم فصلا : انه لا مقبل له ، ولا محاباة فيه ، بل تستقر النفوس عنده ، وتعلمش القلوب اليه ، وذلك منذ ينكشف منها الغطاء ، فترى الحقائق عيانا ، ويصبح علمها ضروريا ، ويتحول جحودها ايمانا .

ولم يكتف بتفخيخ شان ذلك اليوم ، يوم الفصل بالاستفهام عنه ، بل عاد فنوه بشأنه ، ونسبه الى عظيم هوله بقوله : ( وما ادر الله ) ، أى ما اعلمك - ايها الانسان - ( ما يوم الفصل ؟ ) : ما كنته ؟ واى يوم عظيم هو ؟ وصحيب منك ان تتفاخل عنه ، وتلهو من العمل له ، حتى تكون من شدة تجاؤلك ، وفرط غفلتك - أصبحت على بينة من أمر النجاة فيه . كلا ! فان ذلك اليوم أعظم من ان يدرى أمره انسان ، أو يمحيط به عقل أو جنان .

وجواب ( فاذا النجوم الخ ) محذوف موكول ففهم الى قطانة السامع . والحذف على هذه الصورة من اساليب الإيجاز التى امتاز بها القرآن .

وهو اما ان يقدر بمعونة آية ( انما توعدون لواضع ) السابقة ، والمعنى : اذا طمست النجوم وجرى كيث وكيث ، اذ ذاك تعلمون صحة الوحي الالهى ، وصلق ما وعدكم به من مجرى يوم القيامة ، فتؤخذون باجرامكم وسوء أعمالكم ، ويهتف من فوق دعوكم : ( ويل يومئذ للمكذبين ) ، أى هلاك عظيم ، وخسار كبير في ذلك اليوم لاوتك المكذبين بهذا اليوم الموعود . أو يقدر الجواب بمعونة آية : ( ويل يومئذ للمكذبين ) الآخرة . والمعنى : اذا طمست النجوم

وجرى كلا وكلا ، فهناك تعلمون مبلغ ضلالتكم عن الحق ، وافراقكم في الجحود ، واستحقاقكم اللويل والهلاك على تكذيبكم . وعلى هذا يكون في قوله تعالى : ( ويل يومئذ للمكذبين ) إشارة للجواب ودلالة عليه .

بعد ان أكد الخبر بيوم القيامة ، وانه كائن لامحالة . ويعد ان خوف المكذبين من شدة هوله ولفظامة مايقع فيه - عاد خوفهم من بطش الله على أسلوب آخر فقال : ( ألم نهلك ) الأقوام ( الأولين ) الذين كانوا في ابدء أزمنة التاريخ ، فكلبوا وحيا ، وعصوا رسلى ؟ ( ثم ) بعد ان اهلكناهم ، ألم ( تتبهم الآخرين ؟ ) ، أى نجعل الأقوام المتأخرين منهم في الزمن ممن كانوا مثلكم في التكذيب والعصيان - تابعين لهم في الهلاك ، فاصابهم ما اصابهم ؟ وكان الظاهر ان يقول : « اما اهلكنا ... لم اتبعنا ... ؟ » ، لكنه عدل الى المضارع احضارا للحال الماضية في الدهن وتصويرا لها في انفس المخاطبين ، حتى كأنهم يرون الآن مصارع الهالكين .

والمعنى انكم ايها المكذبون بالقرآن أو بمحمد عليه الصلاة والسلام تعرفون ذلك من فعلنا بالأمم الماضية ، فلماذا لا ترجعون عن تكذيبكم ؟ وتكتفون من حرب منادكم ؟

وما فعله تعالى بالأمم السابقة بفعله في كل امسة تسلك مسالكهم في الجحود والناد والاعراض من الحق - فهو ناموس عام يأخذ بالتهر كل من قاومه ، واعترض في سبيله . وهذاومعنى قوله : ( كذلك ) ، أى مثل ذلك الفعل الذى فعلناه بالأولين والآخرين ( نفعل بالمجرمين ) من اخوانهم المسائرين على مثل طريقتهن . وفيه تعريض بمشركى قریش ، وإيقاظ لهم من غفلتهم ، وتنبية الى أنهم ان بقوا في شمرهم فسوف يثزل بهم ما ثزل بغيرهم .

وقوله : ( ويل يومئذ للمكذبين ) تهديد للمجرمين الذين لا يورعون ولا يصفون الى لقاء الحق ، وتنبية الى أنه تعالى ان اراد التفاض مشيئته فيهم كما ألفظها فيمن قبلهم - فان الويل والهلاك الشديد يكون ممن نصيبهم جزاء تكذيبهم ، فلينتهبوا للأمر ، وليحذروا من الخطر قبل وقوعه .

وجملة ( ويل يومئذ للمكذبين ) قد تكررت في هذه السورة ، وتخللت آياتها عشر مرات ، كما كان في سورة الرحمن من تكرير آية ( فبأى آلاء ربكما تكذبان ؟ ) ، وقد حسن التكرير في سورة الرحمن للتقرير بالنعم المختلفة التى كان الوحي يبعدها واحدة واحدة ، فكلما ذكر نعمة قرر بها ، وبيّن على الغفلة عنها ، كما يقول الرجل لشره : ألم أحسن اليك بأن محتكك الاموال ؟ ألم أحسن اليك بأن اقلدتك من الأهوال ؟ ألم أحسن اليك بأن فلتت لجلالك كلا وكلا ؟ ليحسن منه التكرير لاختلاف مايقرب به .

وهذا التكرير في الحصف على شكر النعم في سورة الرحمن كالتركير في سورتنا هذه : من حيث انها

تضمنت ذكر نعم مختلفة ، ونعم متعددة . فكان اذا ذكرهم بنعمة ، او خوفهم من نقمة - أكد التذكير والتخويف بذكر الويل والهلاك الهيا للمكذبين الذين استخفوا بهذه النعمة ، او تهاونوا بتلك النقمة . فيكون ذلك نادما للمخاطبين من الغفلة ، وزاجرا لهم عن التماضى في التكذيب ، وركوب الراس في العناد . وتكرير جملة واحدة ، وعايدها مرارا في خلال الكلام الواحد - مألوف للعرب ، معهود في خطبهم وأشعارهم . فمهلهل بن ربيعة رثى اخاه كليب يشمر قال فيه :

وهمام بن مرة قد تركنا عليه القشعمان من التسيور  
على ان ليس عدلا من كليب  
اذا طرد التيسم من الجديور  
ثم كرر قوله ( على ان ليس عدلا من كليب ) زهاء عشر مرات .

ولما جرى العثر بن عباد من بغي مهلهل وسفكه اللماه قال أبياته المشهورة التي يقول فيها : ( قريبا مرطب النعامة تسمى ) ، وكرر هذه الجملة عدة مرات . وفي هذا التكرير من هو السامع والتأثير في نفسه ، ما لا يخفى على اللادب المتدرب من لغة العرب ، وما فيها من كل معنى عجيب .

قوله : ( **اللم نخلقك الخ** ) تذكير للمكذبين ، وتعجب من غفلتهم وذهولهم من ان من خلقهم من مام مهيئ بهذه الطريقة لابد ان يكون قادرا على إعادة خلقهم البعث والحساب . لا جرم انه تعالى قادر ، وهو ايسر عليه ، وان المكذبين بذلك يستحقون الويل والهلاك .

ومراده بـ ( **الماء** ) الوبسة التي يتكون منها الانسان . و ( **مهيئ** ) على وزن فعيْل ، ومعناه حُسن او ضعيف او قليل ، وفعله مهيئ فهو مهيئ .

و ( **القرار** ) الذي جعل الله فيه ذلك الماء المهيئ هو الرحم ، مصغر قر بالكان قرارا اذا ثبت وسكن ، ثم شاع استعماله في نفس المكان الذي يكون فيه الثبات والاستقرار . يقال : « صار الامر الى قراره » اي الى حيث تنامي وثبت . وقال تعالى : ( جعل لكم الارض قرارا ) ، اي موضع قرار وبيات . و ( **مكين** ) فعمل من تمكن بالمكان اذا رسخت قدمه فيه . وحق ( **مكين** ) ان يوصف بها الماء الذي جعل في القرار ، لانه هو الذي تمكن من القرار ، لا القرار نفسه ، لكنه جعل من صفته على المجاز والتوسع ، كما يقال « نهر جار » : جملوا الجريان من صفة النهر ، والنهر الشق في الارض ، وانما الجريان من صفة الماء . ومعنى كون الماء مكينا في الرحم ان يستقر فيه بوضع محكم ونظام ثابت يحفظه من الفساد والتغير ، ويهيئه لقبول التطورات المختلفة حتى يصبح جنينا ، ثم يولد بشرا سويا . ويحتمل ان يكون ( **مكين** ) صفة لقرار الذي قلنا ان البراء به الرحم . ومعنى كونه مكينا انه وضِع

من جوف المرأة ومطاوى احشائها بحيث يكون صالحا لاستيداع النطفة ، مصونا مما يفسد عليه عمله ، ويحول دون قيامه بوظيفته .

والماء الذي جعل في الرحم يستمر بعد ان يستقر فيه ( **الى قدر** ) ، اي الى مقدار من الزمن ( **معلوم** ) ، اي معين محدد . وقالوا في تلك المدة انها ٢٧٣ يوم - وهي عبارة عن تسعة اشهر شمسية - الى ٢٨٠ يوم ، وهي عشرة اشهر من الشهور القمرية ، او أربعون اسبوعا .

ثم ان هذا الترتيب في جعل الماء المهيئ في الرحم ، وغرب اجل معين له حتى ينضج ويختمر وينشأ خلقا سويا ، وانسانا مفكرا أحوزيا (١) - دال على ما للخالق جل شأنه من صفات الحكمة والتدبير والتقدير التي يستحق عليها سبحانه وتعالى اعظم مدح واكرم ثناء . ومن ثم قال تعالى : ( **القدرنا** ) بالتخفيف ، وهو بمعنى « قدرنا » بالتشديد . وقرئ بالتشديد ايضا ، ( **فنعم القادرون** ) نحن ، اي القدرون . يقال « قدر الشيء » ، « وقدره » بمعنى واحد ، هو تهيئة الشيء ونسج اجزائه ، والتأليف بينها على مقاييس ومقادير ونسب وأوضاع محكمة مدبرة تبلغ بذلك الشيء درجة كماله ، وإيفائه الوظيفة التي اوجدها لأجلها . وهكذا الشأن في امر التوليد والولادة وتكون الجنين في الرحم وتطوره في الأشكال المختلفة - كل ذلك بترتيب عجيب ، ولديبر غريب ، يشهد بسمو الحكم الالهية ، وجليل النعم الربانية ، التي يستحق مكناها ، والمبارى فيها - الويل والخسران .

وجعل بعض المفسرين ( **قدرنا** ) بالتخفيف من القدرة لا من التقدير . والمعنى : اننا قدرنا على ما اردنا من جعل النطفة في قرار مكين الى انتهائى الوقت الذي تستوفى فيه كمالها من التدبير وحسن التصوير ، ( **فنعم القادرون** ) : اي نعم اصحاب القدرة نحن ، الجديرون بالعهد والثناء ، المستحقون لجميع شروب العادة والدعاء . فالويل للمكذبين بقدرتنا ، المارين بوعنا ، وعظم آياتنا .

**قوله : (اللم نخلص ... الخ)** تذكير بضرب آخر من شروب نعم الله على الخلاق ، ومجيب صفة في تدبير شئونهم ، وتيسير راحة الحياة بل الملتهم لهم ، بحيث يستحق المعرض من ذلك ، والكذب بما للرب فيه من الئمة والفضل - الويل والخسران . من ذلك انه تصالى جعل الارض التي يحيى فيها البشر ويموتون صالحة لتلقيهم على ظهرها في حياتهم ، ولانما لجهم في بطنها بعد مآلهم . فهي تكفهم وتضمهم اليها احياء منتشرين في اعمالهم ومختلف اشغالهم ، كما تكفهم وتضمهم اليها امواتا لا روح فيهم ، فتحفظ عراهم ، وتصور كرامتهم ، فلا يبقون على ظهرها اشلاء موزعة كيف الحيوان : تنقيش منها

(١) (أحوزيا) اي حائذا ، مشعرا للامور ، قاهرا لها : يسوقها احسن سق بسميت لا يشد عليه شيء منها .

وَأَمْوَاتًا ۖ وَجَعَلْنَا فِيهَا رُجُمًا وَسَيْحَانًا  
مِّمَّا عُرِفَاتَا ۚ وَبِئْسَ يَوْمُهُ لِلْمُكَذِّبِينَ ۝ أَنْطَلِقُوا إِلَى  
مَا كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ ۝ أَنْطَلِقُوا إِلَى ظِلٍّ ذِي ثَلَاثِ  
شُعَبٍ ۝ لَا ظَلِيلٍ وَلَا يُغْنِي مِنَ الْهَبِّ ۝ إِنَّهَا تَرْمِي  
بِئْسَ رَكًا لِّقَصْرِ ۝ كَأَنَّهُ جِلْتٌ صُفْرٌ ۝ وَبِئْسَ يَوْمُهُ

النفوس ، وتنتابها الكلاب والحوش . وقد جاء هذا  
المعنى في آية : ( ثم أماته فأنه ) ، أي أماته الله الإنسان  
موتاً مميزاً عن موت سائر أنواع الحيوان ، وذلك  
بأن جعل له من جوف الأرض قبراً يورى فيه  
تكرمة له : فلا تتناوشه السباع ، ولا يبقى نصب  
أعين أهله وذويه ، فيسوء عيشهم ، وتتنفس حياتهم  
كلما راوه مطروحا أمامهم .

و ( كَفَاتَا ) مصدر كفت الشيء إلى نفسه فمه ، وهو  
الذي نصب ( أحياء وأمواتا ) على المغولية . أما  
من جعل ( كَفَاتَا ) اسماً بمعنى الوضع الذي يكفت  
فيه الشيء ويضم كالوعاء والصوان ، فإن ( كَفَاتَا )  
حيثئذ لا تنصب ( أحياء وأمواتا ) بل تاصبهما فعل  
محذوف دل عليه ( كَفَاتَا ) ، كأنه قال : كفت أحياء  
وأمواتا ، وكثر ( أحياء وأمواتا ) لتنظيم شأنهما ،  
وأتهما جميعاً بلقوا في الكثرة مبالفاً لبعدهن معه  
ولا يحصون .

ويصح أن تكون ( أحياء وأمواتا ) منصوبة على  
الحال ، فإنه قال : تكفتم حالة كونكم أحياء وأمواتا .  
أما كون الأرض تضم الأموات إلى صدرها ، وتكون  
كفاتها لهم - فامرأه ظاهر ، ولكن ما معنى أنها تقسم  
الأحياء إليها ؟ وكيف تكون كفاتها لهم وهم منتشرون  
فوق ظهرها ، متفاوتون إلى كل جانب من جوانبها ؟  
لا حواجز تصدم ، ولا سدود تقوم في وجوههم ؟  
فيل في الجواب : أن المراد بكون الأرض كفاتها للأحياء  
أن مثاولها ومسكناتها كفاتها لهم ، تقسم بين جدرانها  
البيتوتة والراحة والسكنى ، كما أن المقابر كفاتها :  
للأموات تضمهم بين جوانبها .

وأرى أن اكتشاف نفوس الجاذبية العام الذي  
يموجهه تجلب الأرض إليها ما على ظهرها من البشر  
والدواب وسائر الأشياء ، والذي لولاه لطاروا  
وتبددوا شلح منو في الفضاء ، بسبب حركة الأرض  
اليومية على نفسها ، وحركتها السنوية حول  
الشمس بسرمة فائقة الحد - هذا الإكتشاف يفسر  
لنا معنى ما قرره الكتاب الإلهي من أن الأرض كفت  
للأحياء مل يكونون على ظهرها ، فلما تجذبهم إليها ،

وتضمهم إلى صدرها كما تفعل الأم الحنون ، فلا  
تدعهم يتفلتون وهم بذلك لا يشعرون .

ومن النعم والآلاء ، التي ذكر الله بها المكذبين ،  
وحضهم على التأمل فيها والشكر عليها - الجبال ،  
مد قال تعالى : ( وجعلنا فيها ) ، أي في الأرض جبلاً  
( رؤاسي ) : نوابت رؤاسخ ، ( شامخات ) : باذخات ،  
ذاهبات في السماء صعدا ، والتمعة في هذه الجبال  
من حيث أنها كالآلات للأرض في حفظ موازنتها ، ورسو  
جوانبها ، وأعداد أنطارها . فهي تقبها الاضطراب  
والجيشان والميدان ، كما تقى أوتاد الخيمة الخيمة  
من مثل ذلك . وقد كشف الوحي عن هذا المعنى  
فقال في سورة النحل : ( وألقى في الأرض رؤاسي  
أن تميد بكم ) . ولولا هذه الجبال الشامخة لكانت  
الأرض بما في جوفها من الفارات المحتقة ، والبخارات  
المنضغطة ، والوادي التراكمة المشتعلة - دافسة  
الاضطراب والخفقان .

وقد يقول أرباب العلم الطبيعي في بعض مذهبوا  
إليه : أن هذه الجبال إنما نشأت من زلازل الأرض ،  
وتكونت من اندفاع حممها وموادها السائلة من  
باطنها إلى ظهرها ، فكيف تكون سبباً في ثباتها  
وقرارها ؟ والجواب أن اندفاع تلك المواد السائلة ،  
وتنشوء الجبال عنها - لما كان سبباً في تثبيت  
الأرض وتثبيت زلازلها واضطرابها ، كانت الجبال  
بهذا الاعتبار - لا باعتبار ذاتها وهي قائمة على وجه  
الأرض - كالآلات في تثبيتها ، ومنع ميدانها . ولو  
بقيت المواد التي تكونت منها الجبال مستكنة في  
جوف الأرض ، ولم تنبثق من باطنها ، وتتراكم  
جبلاً على ظهرها - لبقيت الأرض دافسة الاهتزاز  
والاضطراب ، مستمرة الحركة والميدان . فتكون  
الجبال إذن نعم المسكن لخفقان قلب الأرض ، المريحها  
من قلق بالها ، وهزة زلازلها ، وعيب أفعالها .

على أن في خلق الجبال الشوامخ نعمة أخرى  
هي نشوء السحب فوقها ، وهطول التلوج والأمطار  
عليها ، فتتكون بسبب ذلك الانهيار والجدال  
والينابيع ، ثم تنكث الزرع والأشجار والمراعي  
وغروب النبات . فالجبال مخازن التلوج والأمطار ،  
ومستودعات عامة للبركات والخسرات ، وكل بلاد  
تقل فيها الجبال تقل فيها الأمطار ، فيقل الزرع  
والخصب ، وتكثر الصحارى المرملة ، وبعم الجذب .  
وانظر كيف أنه تعالى بعد أن ذكر نعمة الجبال  
الشامخات قال : ( واستقيناكم ماء فُرَاتًا ) ، أي عذبا  
بالغ العذوبة - للإشارة إلى أن الحكمة في خلق الجبال  
هي أن تكون مستودعات للبياء والأمطار ، ومادة  
للعيون والجدال والأنهار التي نستقي منها .

وقلما ذكر القرآن الجبال إلا أعقبها بذكر الأنهار  
والينابيع . وليس ذلك إلا إشارة إلى أن  
الجبال الشوامخ وسائل الماء ، ومصايد لبركات  
السما .

وانما قال : ( واستقيناكم ) ، ولم يقل :

« وسقيناكم » - لأن فصل « سقى » الثلاثي أكثر ما يستعمل في الماء الذي يعطاه الإنسان لشربه ، أما « أسقى » فأكثر ما يستعمل لما يعطاه لشربه ولشرب ماشيته وسقى زراعته . وهذه المياه التي جادت بها العناية الإلهية علينا بواسطة الجبال إنما كان النفع بها عاما شاملا لنا ولتعامتنا وزروعنا وسائرنا ، وافصل أجسامنا ونبياتنا وسائر أمتتنا .

وصف الماء بالرات ، وهو الشديد العذوبة ، لأن المياه التي تنفجر من صخور الجبال تكون أعذب من المياه التي تتحلب في السهول والأحشاء (١) .

قوله : ( انطلقوا إلى ) خطاب للمكذابين المذكورين في قوله : ( ويل يومئذ للمكذبين ) ، أي أن الول يوم القيامة سيحرق بالوثك المكذبين يأتيات الله ، الكافرين بنعمه ، ويقال في ذلك اليوم لهم - وقد أصبحت دار العذاب تحت مواقع إصرارهم - ( انطلقوا ) أيها المكذبون ( إلى ما ) أي عذاب ( كنتم به ) في دار الدنيا ( تكذبون ) . وهذا العذاب الذي أمروا بالانطلاق إليه هو بالطبع عذاب جهنم ، لكنه تعالى وصف في هذه الآية شكلا جديدا من أشكاله ، ومظهرا بديعا من مظاهره وأحواله . . . فقال لهم مكررا على أسماهم الأمر الأول : ( انطلقوا إلى ظل ذي ثلاث شعب ) . سعى العذاب ظلا تهكما واستهزاء بالمكذبين ، بديل أنه وصفه بأوصاف لا تحتجب قط مع أوصاف الظل ، الذي يتفوق الإنسان ، ويتشبهه متعبلا لراحته ودفئته - هو كظل الذي وعد به أهل اليقين ، وهم فريق الإبرار ، منذ قال تعالى في سورة الواقعة : ( وأصحاب اليقين ما أصحاب اليقين ) ، في سحر مخفود ، وطلح مخفود . وظل مصفود . وماه مسكوب . ومعنى كون الظل الذي يتفوق هذا الفريق مددودا أنه منبسط ممتد لا يتقلص من جوانبه ، ولا ينثلم من أطرافه ، ولا ينفذ إليه الحروق من أية جهة من جهاته . أما ظل فريق التجار فهو يشس الظل . وقد وصفه أيضا في سورة الواقعة فقال تعالى : ( وأصحاب الشمال ما أصحاب الشمال ، في مسجود وحميم ، وظل من يحموم . لا يبرد ولا كريم ) ، فقوله : ( ظل من يحموم ) ، أي من دخان أسود قاتم ، ومن كانت فوئه ظلة من مثل هذا الدخان كيف يقال أنه في هذا وراحة ؟ وكيف يحم من يسى ما هو فيه ظلا إلا على طريق التهكم والاستهزاء ؟

ذلك الظل المجمومي الذي ذكره الوحي في سورة الواقعة ، والذي قال أنه من نصيب أصحاب الشمال - أعاد ذكره في سورتنا هذه - الرسائل - وقال أن المكذبين يؤمرون يوم القيامة بالانطلاق إليه ، وأصفا له بقوله : ( ذي ثلاث شعب ) ، يريد أن يحموم من دخان جهنم الذي أتفقد كائلا على رؤوس المكذبين لا ينسبط ولا يمتد من فوقهم كما يمتد وينسبط الظل المددود من فوق أصحاب اليقين ، بل ينخرق

(١) جمع حصى ، وهو سهل من الأرض تمتلئ مياه الأمطار تحت رماله .

وينثلم ويتشعب إلى ثلاث شعب أو ثلاث ذوائب . . . كما هو شأن الدخان المتكاثف إذا خلى ونفسه في الفضاء - ويدبهي أنه إذ ذلك ( لا ) هو ( ظليل ) يظل من يكون تحته ، وفيه أوار الحر كما هي عادة الظلال كلها وخاصة الظل المددود من فوق رؤوس السعداء ، ( ولا ) هو أيضا ( يفتى ) عن الجهنيين المستظلين به ويقيم ( من الله ) ، أي السنة النار المتدلعة اليهم من كل جانب . فما هذا الظل الملون ؟ وأنى يكون للمستظل به راحة وسكون ؟

وقال أبو مسلم الأصفهاني : يحتمل أن يكون المراد من شعب الظل الثلاث أوصافه الثلاثة المذكورة بعده ، وهي أنه ليس بظليل ، وأنه لا يفتى من الله ، وأن ناره أو شعبه ترمى بشرق كالقصر .

وفعل ( يفتى ) هذا بمعنى قولهم « لا يفتى عنك فلان شيئا » ، أي لا يجدى ولا ينفع ولا يفيد ، وهو يتعدى بمن ، و ( عن ) في الآية مقدرة مع مجرورها كما أشرفنا . و ( من الله ) متعلق بيفتى لتفسمه معنى الوفاة والعطف كما أشرفنا إليه أيضا .

وذهب قطرب إلى أن الله هنا بمعنى العطش لا بمعنى الشوائب الذي يعال النار ، يقال : لهب الرجل لهما ولهبنا إذا عطش فهو لهبان . والمعنى عليه : أن ذلك الظل لا يظل من وهج الحر ، ولا ينفع في تخفيف العطش كما هي عادة الظلال الباردة .

فهم المخاطب من أوصاف الظل في الآية السابقة أنه ظل جهنمي ، وأن السرد به الدخان المنفقد في سماء جهنم ، فلم يعد يتردد في كون شعير ( أنها ترمى ) القوت - عائلا إلى جهنم أو دار العذاب . على أنه يصح أن يرجع الضمير المذكور إلى قوله ( ثلاث شعب ) التي قلنا أن المراد بها ذوائب اليحموم المتكاثف في ساء تلك النار ، فهو دخان لا كالذواخن (١) المقودة ، وله صفات غريبة غير معهودة . من ذلك ( أنها ) أي شعب اليحموم وذوائبه ( ترمى ) على المستظلين بهما من وقت إلى آخر ( بشرق ) جمع شرارة ، وهي ما يتطاير من النار أثناء تظليها ، وكل واحدة من هذا الشرر ( كالقصر ) أي كالكهف المبني .

وقد يستعظم السامع هذا الوصف ، ويستغرب تشبيه الشرر بالقصر ، لأنه انما يفهم من القصر - حسب المشهور في معناه - البناء العظيم المرف ، فيقول كيف تكون الشررة الواحدة المتساقطة من ذلك الدخان أو من تلك النيران كالقصر ؟ بل ربما ذهب خياله إلى قصور الملوك الباذخة ، ذات الشرف والقسم والأبراج الشامخة ، فيستغرب الوصف ، ويستبعد الأمر . ولكن القصر أن كان يطلق في لغة العرب على هذا العرف من المسكن الشامخة فإنه يطلق على كل بيت من حجر ولو كان صغيرا لاظنا ، بل قال ابن عباس رضي الله عنهما : « أن تشبيه الشرر

(١) يجمع دخان على ذواخن كما يجمع مثاق ( أي فبر ) على عوالن ، وليس لهما نظير في هذا الجمع الفيل .

لِّلْمَكِّيِّينَ ﴿١١﴾ هَذَا يَوْمٌ لَا يَخْفَوْنَ ﴿١٢﴾ وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ  
فَيَعْتَدُونَ ﴿١٣﴾ وَيَلَّيْ يَوْمَئِذٍ لِّلْمَكِّيِّينَ ﴿١٤﴾ هَذَا يَوْمُ  
الْفَصْلِ جَمْعُكُمْ وَالْأَوَّلِينَ ﴿١٥﴾ فَإِنْ كَانَ لَكُمْ كَيْدٌ

بالقصور وارد على ما هو المعتاد في بلاد العرب من  
جعل قصورهم قصرة السمك - أي قليلة الارتفاع -  
جارية في هيناتها وشكلها مجرى الخيام ا هـ . وقد  
لجأ أبو العلاء المعري قول ابن عباس هذا فقال يصف  
نارا عظيمة ويشبه شررها بالخيام :  
حمرها مسطحة الدواب في الدجى  
ترعى بكل شرارة كطسراف (١)

وقد فسر بعضهم ( القصر ) الذي شبهت به  
الشرارة - بجزل الحطب ، أي بالغليظ من أمواده .  
وكان هذا التفسير مستبعدا أن يكون المراد بالقصر  
البيت الحجري لما ذكرنا آنفا ، مع أن تفسيره به من  
أحسن التشبيه ، وأشداها تطبيقا على ما كان مالوا  
للرب في ذلك العهد . وكثيرا ما نسبته شعراؤهم  
النبياء بالقصور ، قال منتزعة :

فوقفت فيها نائتي فتكاتها  
لقدن (٢) لأفنى حاجة التلوم  
وقال امرؤ القيس :  
ولسا أن جرى سمن عليها  
كما طيئت بالقدن السياما (٣)

يريد أن ناقتة لما سمت كان اللعم متراكبا عليها  
تراكب الطين على جدران القصر .  
وقال الأخطل :

كانها برج رومي يشيده  
أز بجصى وأجرس وأحجسار

وقالوا في وصف نياق أو أفراس : « ان وقفن  
لمجادل ، او مرون فاجادل » . والمجادل القصور ،  
والاجادل الصقور .

لم ذكر الكتاب لشر جهنم تشبيها آخر غير  
تشبيهه بالقصر فقال : ( كانه جمالات صفر ) ، أي كان  
شر جهنم للتطابر منها ( جمالات ) جمع جبل ،  
وهو الحيوان المعروف ، او هو جمع جمال كما قالوا  
في رجل رجال ثم رجالات ، ومن جموع جبل ايضا  
جمالة ، وفريء به ايضا ( كانه جمالة صفر ) .

شبه الشرارات بالجمالات في عظمتها ولونها ، ثم  
في كثرتها وانتشارها هنا وهناك : في الرمي وفي تتابع

- (١) ( الطرف ) : الضمة من الجند المدبوع :
- (٢) ( القدن ) : بنتين : القصر .
- (٣) ( السيام ) : الطين بالنسب .

بعضها أثر بعض وهي سائرة في قطارها . وهكذا  
الشرارات ، تبعث الشرارة أثر الشرارة أثناء تلظى  
نارها ، و ( الصفر ) ذات اللون الأصفر المعروف ، أو  
المراد بالصفرة هنا السوداء الضارب إلى صفرة ، فإن  
هذا اللون هو اللون الثابت في ألوان الإبل عند العرب ،  
والعرب يستعملون وصف ( الأصفر ) فيما كان لونه  
كالذهب والزرغفران ، وفيما كان لونه أسود كالغراب  
والدخان فهو من أسماء أو صفات الأشداد ، حتى  
فسر بعضهم قوله تعالى في وصف بقرة بني إسرائيل :  
( صفراء فاقع لونها ) بأنها سوداء خالصة اللون .

وكما جصيل بعض الفسرين ( القصر ) في الآية  
بمعنى جدرج الحطب الضخمة لا البيوت المعروفة ،  
كذلك جعل بعضهم ( الجمالات ) جمع الجبل بمعنى  
القليل لا الحيوان المعروف ، والقليل جبل الضخمة  
الضخم ، وقال ان الكتاب يشبه الشرارة بغيره ولا يحقه  
واتصال كل شرارة باختها بجبال السفن الضخمة  
البالغة القاية في الضخامة والطول ، فشرارات نار دار  
الغلاب ترى في ضخمتها وتماسكها ولونها الأصفر  
الضارب إلى السوداء كالقلوس ، أي جبال السفن  
التي هذه صفاتها .

والحاصل ان الوحي الالهي شبه شر جهنم في  
كبرها ولونها بالقصور والجمال ، او بجدرج الحطب  
والجبال .

ولا تعجب من قرن الجمال الصفر بالقصور الحجر  
في الذكر ، ولا من الجمع بينهما في التشبيه . فكأن اذا  
نظرت إلى قرية من قرى العرب وقصورها ، أي إيايتها  
الصغيرة اللطيفة المحمرة أو الصفرة بلون طينها أو  
ترابها أو حجارها وهي منتشرة هنا وهناك في جنبات  
السهل الأفيح ، ويتخللها أو يسرح في كل جانب من  
جوانبها نياق وجمال مصفرة ألون أو مسودته ترمى  
وتتناول بمشافرها أوراق الشجر والقيصوم نارة هنا  
وطورا هنالك - اذا وقع نظرك على ذلك لحت من  
بعد في آن واحد أجساما صغيرة حمرها أو صفراء أو  
سوداء تتراعى لك من خلال الكلا والعشب الأخضر :  
هذه البيوت هنا ، وهذه الجمال هناك في مشهد  
واحد ، وإن ذلك لا يعود مستبعد تشبيه الشرارات  
الجهنمية بتلك الآليات والجمالات ، ولا تستغرب  
ترونها معا في الذكر ، بل تستحلي ذلك وتعجب به .

وامر هذه التشبيه ، ووقعها في النفوس ، وقربها  
او بصددها من الأدواق - مرجحه الألفة والاعتداف ،  
ومقدار ثائر الحواس والمشاعر بها . وهذا منشأ خطأ  
الكثيرين - لاسيما الذين يجهلون أحوال العرب ،  
وأطوار معاشها ، وأساليب حياتها - في حكمهم على  
القرآن وبلاغته مد يروونه يصف وصفا ، أو يطلق  
قولا ، أو يورد تشبيها ، أو يحكي قصة غير مأثورة  
لنا اليوم ، ولا مما جرىنا عليه في أساليب كلامنا ، ولا  
مما اعتدنا أن نشعر به في حياتنا وأطوار اجتماعنا .  
ويكون السبب في قصور حكمهم مخالفة ما نحن عليه  
لما عند أولئك العرب المخاطبين بالقرآن ، الذي رومي

في آياته وأساليب خطابه ما اعتادوه والقوه هم ، كما قال ابن عباس في تشبيه شرذ النار بالقصور : « انه وارد على ما هو المعتاد في بلاد السرب من جعل قصورهم قصير المسك ، جارية في هيئتها وشكلها مجرى الخيام » .

ولعل ابن عباس انما قال هذا بعد ان رأى ملأى من قصور الشام والعراق التي يستطو شعروهم ان يشبهوها - مد يرونها مثبوة بين الروج - بالدر بين الزبرجد ، قال شاعرهم :

لاحت قراها بين خضرة مرجها  
كالدرد بين زبرجسد مكتون

وجميع ما يقال في ملذات الجنة ، وهل هي من جنس ملذات الدنيا أو أنها غيرها وقد ضربت ملذات الدنيا لها مثلا - يقال في نثر جهنم واسباب العذاب التي فيها : هي نيران واسباب من جنس نار الدنيا واسباب التعذيب التي فيها ؟ أم ان نيران الدنيا واسباب عذابها ضربت مثلا لنار الآخرة ؟ - كل ذلك لا تقطع القول فيه قطعا ، وإنما تؤمن به ، وتكل أمر الكنه والحقيقة فيه إلى الله تعالى . وهذا يكفي في سلامة عقيدة المسلم ما دامت عقيدته تسير به في طريق المخافة من تلك النار : فيمثل أمر الله ، ويمارس الطاعات ، وينتهي عما نهى الله عنه ، ويحجب السيئات . أما إذا لم يفعل ذلك ، ولم تنه عقيدته من النعشاء والمنكر - فإنه لا يفيد ، بل لا ينجي اعتقاده في جهنم مهما اعتقد فيها ، وفي نوع نراها ، وأقنن عذابها . إذ الصرة في الاعتقادات الدينية لأمرها المتجلى في الأعمال والأخلاق وطهارة النفوس ، وليست الصرة فيها لكلماتها الرائدة في الأنواء والرقومة في بطون الطروس .

( هذا ) إشارة إلى أن ما قصه علينا من خبر ذلك الظل الجهنمي (١) ، ووصف شرده العظيم - واقع وكان لا محالة يوم القيامة ، وهو ( يوم لا ينطقون ) أي لا ينطق فيه أولئك المكلمون ، ولا يتكلمون كلاما تفهم ، أو يدلون بصحة تفهم . فليس المراد نفي النطق منهم بجهنمه ، بل نفي النطق النافع المفيد . إذ أنهم يوم القيامة يتكلمون ، كما قال تعالى : ( ثم أتم يوم القيامة عند ربكم تختصمون ) ، و ( قالوا ربنا أمتنا الخبيثين وأحييتنا الخبيثين ) ( ربنا أخرجنا منها ) في نظير ذلك . وهذا كما تقول ابن تيمية : « لك ان خالفته ونفقت ما نهيته عنه . . . فلا كلام ولا علم » ، تعني لا شيء منها يسموع منك ولا يسمي ، ولا يفتد بكسر ذلك اللغز وتقتل من الترتد وإيراد المعردة بعد المعردة .

وكذلك هم يومئذ ( لا يؤذن لهم ) في أن يعتدروا أو يدلوأ بحجة عن أنفسهم . وما الفائدة في الإذن لهم

(١) هذا على قراءة « يوم لا ينطقون » بنسب يوم ، أما على قراءة الزلف فلاشك في وقت وقوع العذاب الذي وصفه ليصح الاختيار منه يوم . وما قاله المؤلف للفقير من الوجهين مع تقدير متكلف ، المصحح .

بذلك إذا كانت لا تسمع منهم تلك الحجج والأعداء ولا تقبل ؟ ولكنهم مع ذلك ومع عدم الإذن لهم بالاعتذار تراهم يندفعون بسائق الطمع في الخلاص والعرض على السلامة ، ويعتضون الجلبة البشرية إلى الاكتسار من الكلام وسرد الحجج والمآذير من دون ما فائدة كما قلنا . فقولته تعالى : ( فيعتدون ) معطوف على ( يؤذن لهم ) ، ونفيه مسلط عليه . والمعنى لا يكون لهم إذن ، كما لا يكون منهم اعتذار . ونفى الاعتذار هنا كنفي النطق في ( لا ينطقون ) من حيث أن المراد فيهما كليهما نفي النطق النافع ، ونفي الاعتذار المفيد الناجع ، والأفهم ينطقون ويعتدون ، كما يفعل عادة المذنبون المخصوصون .

وأما لم يقل ( فيعتدروا ) بالنسب ويجعل الفاء للتسبيح ، لأن ذلك يوم أنهم إنما لم يعتدروا لأجل أنهم لم يؤذن لهم في الاعتذار ، وأنهم لو أذن لهم لاعتدروا العذر المسوع . وهذا غير مراد ، وإنما المراد أنه لا علم لهم كما لا إذن لهم ، فالقائد ملحق بالمعطف لا للتسبيح . هذا مع ما في رفع ( يعتدون ) من رعاية الفاصلة وموافقة رؤوس الآي ، وهو غرض صحيح ، في تأليف أجزاء الكلام الفصيح .

وذهب بعض المفسرين - وهو منقول من ابن عباس أيضا - إلى أن الناس يوم القيامة مواطن ومواقيت : فقد يتكلمون ويختصمون في مواطن ، ولا يتكلمون ولا ينطقون في مواطن آخر ، وقد يؤذن لهم فيلقون معاذيرهم في وقت ، ولا يؤذن لهم فلا يعتدرون في وقت آخر .

( اليوم ) في كلام العرب كثيرا ما أريد به مطلق الوقت ، لا يباين النهار بعينه بين الشرق والغروب ، وذلك إذا أضافوه إلى فعل لا يستمرار له ، فيقولون مثلا : أدركوك يوم يقدم فلان . يريدون وقت قدومه ولو كان قدومه في الليل . وقال شاعرهم :

اليوم يرحمنا من كان يفيطننا  
واليوم تتبع من كانوا لنا تبعا

أراد باليوم مطلق الزمن والوقت ، ولم يرد حصة منه معينة .

وبالحكمة فإن الخطب يوم القيامة شديد ، وويل المكلمين محقق أكيد ، فسال الله السلامة ، من أن نقف موقف حسرة أو ندامة .

( هذا ) ، أي ذلك الوقت الذي لا ينطق فيه المكلمون ولا يعتدرون هو ( يوم الفصل ) ، أي يوم الحكم الفصل . ومعنى كون الحكم فصلا أنه لا شفاعة فيه ، ولا رجوع عنه ، ولا تعقب له . أو المعنى أنه يفصل فيه بالحق في الخلائق ، فلا يمكن لواحد منهم أن يقول : أنه ظلم ، أو لحقه حيف أو بفس .

ثم زاد ذلك اليوم أيضا وكشفا عن حقيقة حاله فقال : ( جميعاكم ) فيه أيها الأقوام المتأخرون في الزمن لمؤدكم الذي كنا وعدناكموه في دار الدنيا . ( و ) قد جمعنا أيضا معكم ( الأولين ) المتقدمين في

فَكِيدُونِ ﴿١٦﴾ وَيَلْ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٧﴾ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ  
فِي ظُلُمٍ لَّيْلٍ وَعُمْرُونَ ﴿١٨﴾ وَفَوْكَكُمْ مِمَّا يَسْتُونُ ﴿١٩﴾ كُلُوا  
وَأَشْرَبُوا هَرَبْتُمْ مِمَّا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٠﴾ إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي  
الْمُحْسِنِينَ ﴿٢١﴾ وَيَلْ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴿٢٢﴾ كُلُوا وَامْتَثِلُوا  
قَلِيلًا إِنَّكُمْ تَجْرُمُونَ ﴿٢٣﴾ وَيَلْ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴿٢٤﴾  
وَلِإِذَا قِيلَ لَهُمْ ارْجِعُوا لِرَبِّكُمْ ﴿٢٥﴾ وَيَلْ يَوْمَئِذٍ  
لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٢٦﴾ فَبِأَيِّ حَلِيلٍ بَعْدَهُ يَوْمُونُ ﴿٢٧﴾

الزمن عليكم من الامم ، لنحكم بينكم جميعا . فهاتحن  
اولاد قد وقفنا لكم بذلك ( فان كان لكم كيد ) وحيلة  
تتوسلون بها الى النجاة والخلاص من مقبوتنا التي  
اوعدناكم بها كما كنتم ترمعون في دار الدنيا ، وتعملون  
به وقت ان كانت رسلنا واتياناى تنفونكم من ههنا  
اليوم وتحذرهم احواله - ( فكيديون ) اي فكيديونى ،  
واحتالوا على ، واعملوا على الخلاص من يدى ان قد رهم .  
وهذا توجيه لهم على ما كان منهم في دار الدنيا من  
الكيد للانباء ، والتكذيب بالوحى ، وتسجيل عليهم  
بالغوى والمعجز والاستكاثرة . و ( السكيد ) : المسكر  
والهيلة . و ( كاده ) : مكر به ، واحتال عليه ، وحاربه ،  
واراده بسوءه . و ( كاد الامر ) : احتال له ، وجاول  
الوصول اليه بمختلف الطرق والاسباب .

لا جرم ان حيلة هؤلاء الكاذبين تكون يومئذ  
باطلة ، وتلاهم داحضة زائلة ، ويكونون مستحقين  
للول والهلاك ، جزاء تكذيبهم الوحى ، وعصيتهم  
امر الله .

قوله : ( ان المتقين الخ ) وادع على عادة القرآن  
في تصنيف المخاطبين ، والمآتبة بين احوالهم ومختلف  
اطوارهم ، فلا يذكر حالا الا اقبله بفسده ، ولا يصف  
ما يكون لغريق الا ابعده بذكر ما يكون قسيمة : يلون  
الخطاب في ذلك ، وتفتن فيه ما شاء ، تطرقة الكلام  
في الاسماع ، ويلوغ الى مايريد من احداث الرغبة او  
الرغبة في النفوس . فهو في هذه الايات يعبد ما هيبا  
لاهل طامته في دار الثواب من صنوف البهجة والخفض  
والنعيم ، بعد ما عدد ما يكون للمكذبين من ضد ذلك .  
فقد ذكر اولاً ان المكذبين يبايرون الى ظل لا كالظلال :  
فهو لا يلقى حرا ، ولا يدلع عطشا ، ولا يجد المستظل  
به مما يشتهي لراحته ودعته سوى شرر انوار الهائل  
في شكله العجيب في امره .

اما فريق ( المتقين ) الصادقين بالوحى ، فهم على  
المعكس ( في ظلال ) ممدودة عليهم ، يتقبلون تحتها في  
صنوف الراحة والفيضة والجزل . وليست هي الظلال  
الجهنمية التي يادى اليها فريق المكذبين . ( و ) كذلك  
المتقون هم في ( عيون ) . ومعنى كونهم فيها أنهم قريبون  
منها وعلى حافاتها ، بحيث لا يصر عليهم الشرب  
والتناول منها اى وقت ارادوا . وليسوا هم كفريق  
المكذبين الذين لا يكون لهم تحت ظلم الا شدة الحر  
وفرط العطش .

وذكر ( العيون ) هنا ربما ايد ما قاله « قطرب »  
من ان المراد بالهيب في قوله السابق « ولا يبنى من  
الهيب » العطش . ويقال : رجل لهيب اى عطشان ،  
فيكون قوله هنا ( في ظلال ) مقابل لقوله ثمة ( ظل  
ذى ثلاث شعب لا ظليل ) ، وقوله ( وهيون ) مقابل  
قوله ( ولا يبنى من الهيب ) اى العطش ، وقوله  
( وفواكه مما يستهون ) مقابل قوله : ( انها ترمى  
بشر كالقصر ) ، اى ان المكذبين ان كانوا لا يتساقط  
على رموسهم من جوانب ظلم وشعبه النخرقة سوى  
الشر المحرق والشواظ الوجع ، فان المتقين لهم في  
ظلالهم الممدودة فوقهم فواكه ولما تساقط عليهم  
ويتناولون من انواعها ومختلف اصنافها ما اجتهدوا  
واحبوا .

ويشبه ان يكون عطف قوله ( وهيون وفواكه )  
على قوله ( في ظلال ) - من قبيل قول الشاعر :  
« وزججن الحواجب والعيونا » ، فان الترجيح اى  
الترقيق يكون للحواجب ولا يكون للعيون ، والقسم  
يعين ان يكون التقدير « وكحل العيونا » ، وكذلك  
هنا . فان استقرار المتقين وتبواهم انما يكون في الظلال  
الممدودة من فوق رموسهم ، ولا يكون التبوؤ في العيون  
الجارية ، ولا في الفواكه البائسة ، فيتحسن ان يكون  
التقدير « ان المتقين يقيمون في ظلال ، ويشربون من  
هيون ، وياكلون من فواكه » ، وهذا الخلف من لطيف  
ابجاز القرآن ، وعجيب ادماج . اما على التوجيه  
الاول الذى جعل فيه متملق الجار واحدا - فالتقدير  
هكذا : ان المتقين يمرحون في صنوف من نعيم الجنة :  
ظلال وهيون وفواكه . وربما كان هذا الترجيح في  
تفسير الآية اطلاق بالبالغة ، وادنى الى الصواب .

وقوله تعالى : ( كلوا واشربوا هنيئاً بما كنتم  
تعملون ) فيه ايضا شيء من الإيجاز والادماج . اذ  
التقدير : ان المتقين مستقرون في تلك الظلال ، مغولا  
لهم : ( كلوا واشربوا الخ ) ، وليس المراد من ذلك  
امرهم بمجرى الاكل والشرب والاقتصار على اللواهم .  
لان ما كانوا يعملون من اللطائف ، وما جاز من المشقات  
في سبيل رضاه الله - اكرم واكرم من ان يكافئهم ربه  
عليه بالاكل والشرب وحدهما ، وانما هناك ملذات  
وصنوف من النعيم لا توصف ولا تحصى ، ولا يدرى  
كنها كما في الحديث القدسي « اعددت ليعبادى  
الصالحين ما لا عين رأت ، ولا اذن سمعت ، ولا خطر  
على قلب بشر » . . يؤمر اولئك المتقون الصالحون في



الدار الآخرة أن يتمتعوا بها ، ويتناولوا منها ما شاءوا وأحبوا ، وهذا كما تقول لابنك الطيب وقد أسديت إليه نمعا وأبدي « أذهب يا بني ، كل واشرب وتمتع بهذه اللذوى جزاء برك بي وطاعتك لى » . وأنت تريد اظهار الرضا عنه ، والثناء عليه بما كان منه من الطاعة والبر ، وإعطائه الحق في أن يكون حرا مطلق السراح بفعل ما يشاء ، بعد ذلك التصب والعناء ، ولا تريد قط أن يكون الأكل والشرب هو كل همه ومنتهى حظه من تلك النعم والأبدي التي أسففتها عليه . وقد مر في تفسير قوله تعالى : (كلوا واشربوا هنيئا بما أسلفتم في الأيام الخالية) في سورة الحاقة - زيادة تفصيل وإيضاح لما قلنا هنا . فراجعاه لمة أن شئت (١) .

وقوله : ( أنا كذلك الخ ) ، يريد : أنا كما جزينا المتقين بما ذكر من صنوف الراحة ، وأنواع اللذة والنعم في جنات الخلد التي لهم على ما كان من طاعتهم لنا في دار الدنيا - كذلك تجزى ونصيب كل محسن متى طمع على إحسانه وتقواه وطاعته : لا نضع لعامل عملا ، ولا ننقص لأحد حقا . فالويل بعد هذا لمن كذب وحينا ، وخالف أمرنا ، وعصى رسولنا .

وقوله : ( كلوا وتمتعوا الخ ) خطاب للمكذبين الذين ألزهم في ختام الآية السابقة بالويل والهلاك أن هم أمروا على تكذيبهم . وليس المراد من ( كلوا وتمتعوا ) حقيقة الأمر بالآكل والتمتع ، وإنما المراد به التهديد والوعيد . فهو يقول لهم : (كلوا) ، وادعوا من حياكم الدنيا يتناولوا الطعام والمشرب كما هو شأن البهائم التي همها علفها ، وملء كروشها ، وهى لأهية عما يراد بها ، ( وتمتعوا ) كيف شئتم باللذات ، وتتمتعوا الشهوات ، وتمتعوا زمنا ( قليلا ) ، وهو مدة أعماركم القصيرة في دار الدنيا ، ( انكم ) أيها المكذبون ( مجرمون ) . وقد سن الله للمجرمين من قبلكم سنا أن تبدل نواويس لا تتخلف . وهو تعالى أخذ بكم مأخذهم ، فيمهلكم في غفلتكم ، ويمدكم في طفيلتكم ، حتى إذا جاء موعدكم تكل بكم ، وأثر عين العدل بالانتقام منكم .

قوله : ( كلوا وتمتعوا ) يفيد التهديد والوعيد ، كما يفيد ذلك الآخر - وقد نهيت عن أمر فلم تشته : « أفعل ما شاء ثم انظر ما يحل بك » ، ولا تريد بذلك طلب الفعل منه ، بل تريد أن البلاء نازل به أن أمر على المخالفة .

ويشبه أن يكون أراد في قوله : ( كلوا وتمتعوا ) التقرع والتعير الذي لوراده الشياهر في قوله :

أنى رأيت من المكالم حسيكم  
أن تلبسوا خز الثياب وتشبعوا  
وإذا تذكسرت المكالم مرة  
في مجلس أنتم به فتغنصوا  
وربما أوهم مجيء قوله : (كلوا وتمتعوا) في خطاب المجرمين بعد قوله : (كلوا واشربوا هنيئا) في خطاب

(١) في صحيفة ٢٦ من هذا الكتاب .

المتقين - أنه خطاب للمجرمين في دار العذاب الآخروي ، كما أن خطاب المتقين يكون في دار النعم الآخروي . وليس الأمر كذلك ، لقوله في خطاب المجرمين ( قليلا ) ، وزمنا قليلا ، فيكون ظرفا ، وعلى كلا الأعرابين لا يناسب أن يقع هذا في خطاب المجرمين وهم في دار العذاب ، لأن أكلهم وتمتعهم إنما يوصف بالقلّة في مقداره أو في زمته إذا لاحظناه واقعيا في دار الدنيا الفانية ، لا في دار الآخرة العاقلة : التي يأكل المجرمون ويتمتعون بما فيها من طعام الزقوم وشراب الفسلسن وتمتعوا ويلا ، وزمنا طويلا لا آخر لهما ، ولا ينتهيان عند حد .

( و ) من جملة صفات هؤلاء الجاحدين المكذبين الذين استحقوا الويل ، وتزول العقوبة الإلالية بهم كما نزلت بالأمم قبلهم - أنهم « إذا قيل لهم اركعوا » ، أى اأخسوا لله تعالى ، ولا تواضعوا له ، ودعوا هذا الزهو والعجب والاستكبار ، ( لا يركعون ) ، ولا يتواضعون ولا يخشعون ، بل يصرون على زهوهم واستكبارهم . فالركوع هنا بهذا المعنى لا بمعنى التجبية والاختناء على الركبتين الصلاة . يقال : ركع إلى الله إذا اطمان إليه وخضع .

وذهب بعض المفسرين إلى أن المراد به ركوع الصلاة ، فاللعنى : إذا قيل لهؤلاء المكذبين : صلوا إلى الله مع جماعة المسلمين ، وشاركوه في إخلاص العبيادة له ، وأخلصوا الأسنام والطواغيت التي عبدونها - أبوا واستكبروا . وأبواهم الصلاة لله تعالى بعد أن التمس لهم بذلك ما هو إلا تكذيب لتبيهم بما أبلغهم إياه من وجوب الركوع لله . على أن تبعد صلى الله عليه وسلم ما كان ليأس بالصلاة من عند نفسه ، فامتنعهم عنها هو في المعنى عصيان لأمر الله ، وتكذيب لخبر الله ، فكيف لا يكون هؤلاء المكذبون مستحقين للويل والعذاب ، يوم العرض والحساب ؟

ويروى أن النبي صلى الله عليه وسلم سأل هند بنت حنبل زوج أبي سفيان ، وقد أسلمت يوم فتح مكة : كيف ترين الإسلام يا هند ؟ قالت : « يا بني أنت وأمي يا رسول الله ، حسن لولا ثلاث » . قال : وما هن ؟ قالت : « التجبية ، والخمار ، ورفي هذا العبد الأسود على ظهر الكعبة » . والتجبية الركوع ، ويطلق على السجود أيضا ، وتعني بالعبد الأسود سيدنا بلالا رضي الله عنه مد بعلو الكعبة للأذان ، فاجابها صلى الله عليه وسلم بقوله : « أما التجبية فلا صلاة من دون ركوع ، وأما الخمار فهو أحسن ستر ، وأما الأسود فانه نعم العبد هو » .

وكان سادات قريش يرون الركوع والسجود من أشد الأمور عليهم ، وذلك لفردتبيهم ونخوتهم ، ولذا قال بعض هؤلاء وقد أبى الإسلام : « والله لا تعلموني أسنى » . ويروى أنه صلى الله عليه وسلم أمر وفد تقيف بالصلاة ، فقالوا : « لانتحنى ، قلنا سبة لنا » ، فقال صلى الله عليه وسلم : « لا خير في دين ليس فيه

ركوع ولا سجود» ، على أن الإسلام اتعاج لترويض النفوس العاتية وتذليل أنفتها .

وكان تسلل الجاهلية يكثر من التبرج وإبداء الزينة ، وقد اعتد ذلك ، ولذا استعظمت السيدة هند الزاهن باستعمال الخمار ، ووجب ترك التبرج المعتاد لما فيه من ستر المحاسن ، وكذلك استعظمت أن يعا سيدنا بلال الكعبة بقدمة ، والعرب كانوا يجولونها كثيراً . ولكن النبي صلى الله عليه وسلم أشد في الجواب إلى أن المؤمن الصالح كمثل بلال أفضل من الكعبة ، لاسيما إذا كان يدعو إلى الله ، وإلى عبادته الخالصة من شوائب الوثنية . وفي قوله هذا سد للربعة عبادة الكعبة التي ربما كانت تخالج نفوس بعض العرب .

ثم إن هؤلاء المكذبين إذا لم يؤمنوا بهذا الوحي السماوي والحديث الإلهي الذي خاطبهم به ربهم على لسان نبيهم - ( فبأي حديث بعده يؤمنون ؟ ) ، لا حديث ولا كتاب سماوي يبلغ ما بلغه القرآن من صدق اللهجة ، ونصوح الحجاة ، ووضوح الحجاة . فإذا كذبوا بالقرآن ، ورغبوا عن هديه ، وزهدوا في وعظمه ونصحه - كانوا من غيره أرغب ، وفي وعظه ونصحه أزهى .

وهكذا يقضى هؤلاء المجرمون أعمارهم: لا ينتفعون بحكمة ، ولا يستفيئون بنور ، ولا يستهدون بدين ، حتى يأتهم اليقين ، وينادي عليهم يومئذ ( ويل يومئذ للمكذبين ) .

قال مؤلفه : فرغت من هذا التفسير بياضاً صبيحة يوم الجمعة الواقع في ٩ المحرم سنة ١٣٣٨ الموافق لليوم الثالث من أكتوبر سنة ١٩١٩ في مدينة دمشق الشام ، وأنا بها نزير ، وصلى الله على سيدنا محمد النبي الأمي وعلى آله وصحبه وسلم

راجع التفسير الأستاذ الشيخ عطيه صقر من علماء المراقبة الصامة للثقافة بالأزهر ، وراجع آيات القرآن الكريمة على الرسم العثماني الأستاذ الشيخ عامر عثمان المدرس بمعهد القراءات وعضو لجنة مراجعة المصاحف ، وذلك تحت إشراف المراقبة العامة للثقافة الإسلامية بالأزهر الشريف



Library of the Islamic Consultative Assembly (ICL)

# طليعة الوعي الصاعد تقرأ كتاب الشعب

الكتاب الأول	تفسير جزء عم الأستاذ الإمام محمد عبده	أول إبريل ١٩٥٧ ( الطبعة الأولى ) ١٥ سبتمبر ١٩٥٧ ( الطبعة الثانية )
الكتاب الثاني	قصة السموات والأرض الدكتور محمد جلال الدين الفندى والدكتور محمد يوسف حسن	أول مايو ١٩٥٧ ( الطبعة الأولى ) ١٥ مايو ١٩٥٧ ( الطبعة الثانية )
الكتاب الثالث	قصة الجنس البشري ( الجزء الأول ) دكتور هنريك فان لون	أول يونيو ١٩٥٧
الكتاب الرابع	قصة الجنس البشري ( الجزء الثاني ) دكتور هنريك فان لون	أول يولية ١٩٥٧
الكتاب الخامس	اعرف نفسك دكتور يوستاس تشمر	أول أغسطس ١٩٥٧
الكتاب السادس	تفسير جزء تبارك الأستاذ الشيخ عبد القادر الخريزى	أول سبتمبر ١٩٥٧
الكتاب السابع	الطب للشعب الدكتور ستارك مرى وفريق من الأطباء الاختصاصيين	أول أكتوبر ١٩٥٧

محرر الزيد  
كتابي الصغير



تصدر  
جريدة الشعب

